# التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

## تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

# التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

## تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإمَامِ الْحَافِظِ العَلاَّمَةِ أبي الْقَاسِمِ

سُلَيمَانَ بنِ أحْمَدَ بنِ أيُّوبَ الطَّبَرَانيِّ

(٢٦٠-٣٦٠) مِن الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أصْلِهِ وَخَرَّجَ أحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ

هِشَامُ بنُ عَبدِالكَرِيم البَدْرَانيُّ المَوْصِليُّ

المجلد الخامس

دار الكتاب الثقافي

الأردن-إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة النّمل

سورة النّمل مكّيّة ، وهي أربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا ، ومائة وألف وتسع وأربعون كلمة ، وثلاث وتسعون آية.

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ﴾ ؛ قال ابن عبّاس : (طس اسم من أسماء الله ، أقسم به أنّ هذا القرآن الآيات الّتي وعدتم بها) [1] فقال قتادة : (هو اسم من أسماء القرآن) [2]. وقيل : هو اسم من أسماء السّورة. وقوله تعالى : ﴿وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ (١) معناه : وآيات الكتاب المبين بالحلال والحرام.

وقوله تعالى : ﴿هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ؛ يجوز أن يكون ﴿هُدىً﴾ في موضع رفع ؛ أي هو هدى ، والمعنى : ﴿هُدىً﴾ أي بيان من الضّلالة لمن عمل به ، ﴿وَبُشْرى﴾ بما فيه من الثواب للمصدّقين به أنه من عند الله.

ثم عرّفهم فقال : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٣) ؛ ظاهر المعنى.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٤) أي زيّنّا لهم صلاتهم حتى رأوها حسنة ، ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يتردّدون فيها متحيّرين ، ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٥) ؛ لأنّهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : ج ١١ ص ١٦٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير : الأثر (١٦٠٩٠).

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦) ؛ أي إنّك لتعي القرآن وحيا من عند الله تعالى ، أنزله بعلمه وحكمته.

قوله تعالى : ﴿إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ﴾ ؛ أي واذكر إذ قال موسى لامرأته : ﴿إِنِّي آنَسْتُ ناراً﴾ ؛ أبصرتها ، وكانت امرأته يومئذ ابنة شعيب عليه‌السلام ، فقال لها حين ضلّ الطريق : أنّي أبصرت نارا ، فامكثوا هاهنا ، ﴿سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ﴾ ، أي حتّى آتيكم من عند النار بخبر الماء والطريق ، فإن لم أجد أحدا يخبرني عن الطريق آتيكم بشعلة نار ، وهو قوله تعالى : ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ﴾ ؛ والشّهاب : خشبة فيها نور ساطع ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٧) ؛ أي لكي تصطلوا من البرد ، وكان ذلك في شدّة الشّتاء ، يقال : صلى بالنار وأصلى بها إذا استدفأ ، والمعنى : أو آتيكم بالشّعلة المقبسة من النار لكي تذودوا (١) من البرد.

والشّهاب : هو النار المستطار ، ومنه قوله ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾(٢) والقبس والجذوة : كلّ عود أشعل في طرفه نار. قرأ أهل الكوفة (بشهاب قبس) منوّن على البدل أو النعت للشهاب.

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ؛ معناه : فلما جاء موسى إلى النار التي رآها نودي نداء الوحي : أن بورك من في طلب النار وهو موسى ، ﴿وَمَنْ حَوْلَها﴾ من الملائكة. وهذه تحيّة من الله لموسى بالبركة كما حيّا إبراهيم بالبركة على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه ، فقالوا : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.

وقيل : المراد بالنار هو النّور ، وذلك أن موسى رأى نورا عظيما ، ولذلك ذكره بلفظ النار ، ومن في النار هم الملائكة ؛ لأن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، ومن حولها هو موسى ؛ لأنه كان بالقرب منها ولم يكن فيها. وأهل اللغة يقولون : بورك فلان ؛ وبورك فيه ؛ وبورك له وعليه ، بمعنى واحد. والمراد بالبركة هاهنا ما نال موسى من كرامة الله له بالنبوّة.

---

(١) في المخطوط : (تذوقوا) ، والصحيح كما أثبتناه ، أو (لكي تستدفئوا من البرد).

(٢) الصافات / ١٠.

قوله تعالى : ﴿وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٨) ؛ كلمة تنزيه عمّا تظنّ المشبهة أنّ الله تعالى كان في تلك النار ، تعالى الله عمّا يقولون علوّا كبيرا.

قوله تعالى : ﴿يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٩) ؛ أي أنا الدّاعي الذي يدعوك ، أنا الله العزيز في ملكي ، الحكيم في أمري وقضائي.

فإن قيل : بماذا عرف موسى؟ قلنا : إنّما عرف نبوّة نفسه أن ذلك النداء من الله تعالى حتى جعل يدعو الناس إلى نبوّة نفسه بالمعجزة ، وذلك أنه رأى شجرة أخضر ما يكون من الشّجر في أنضر ما يكون ، لها شعاع يرتفع إلى السّماء في الهواء ، والنار تلتهب في أوراقها والأغصان ، فلا النار تحرق الأوراق ولا رطوبة الشجر والأغصان تطفئ النار ، فلما رأى ذلك بخلاف العادة ، علم أنه لا يكون ذلك إلّا من صنع الله تعالى.

قوله : ﴿وَأَلْقِ عَصاكَ﴾ ؛ أي وقيل له : ألق عصاك من يدك ، فألقاها فاهتزّت ﴿فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ﴾ ؛ أي تضطرب كأنّها جانّ ، والجانّ : الحيّة البيضاء الخفيفة السريعة ، السريع شدّة الاضطراب يقال لها المسلّة. وإنّما شبّهها بالجانّ في خفّة حركتها وسرعة انتشارها عن الأعين ، وشبّهها في موضع آخر بالثّعبان لعظمها.

قوله تعالى : ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ ؛ أي أعرض موسى هاربا من الخوف من الحيّة ، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع ولم يلتفت إلى شيء وراءه ، يقال : عقّب فلان إذا رجع.

فقال الله : ﴿يا مُوسى لا تَخَفْ﴾ ، من ضررها ، ﴿إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٠) ؛ أي لا يخاف عندي وفي حكمي من أرسلته ، ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ؛﴾ من المرسلين بارتكاب الصغيرة ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ ، ثمّ تاب من بعد ذلك ، ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) ؛ به ، فكان السبب في هذا الاستثناء أنّ موسى كان مستشعرا حقّه لما كان منه من قبل القبطيّ ، فأمّنه الله بهذا الكلام.

والصغائر والكبائر من الذّنوب تسمّى ظلما ؛ ولذلك قال موسى ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾[1]. ويقال : إن قوله ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ استثناء منقطع ، ومعناه : لكن من ظلم ، فإنه يخافني إلّا أن يتوب ويعمل صالحا ، فإنّي أغفر له وأرحمه. والمعنى : إلّا من ظلم نفسه بالمعصية ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً﴾ أي توبة وندما ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ عمله ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كأنه قال : لا يخاف لديّ المرسلون الأنبياء والتّائبون ، وقال بعضهم : ﴿إِلَّا﴾ هاهنا بمعنى (ولا) كأنه قال : ﴿لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؛﴾ فيه بيان أنّ الله تعالى أعطاه آية أخرى في ذلك المكان ، ومعنى ﴿تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي بيضاء لها شعاع من غير برص [3] ، والجيب جيب القميص.

وقوله تعالى : ﴿فِي تِسْعِ آياتٍ ؛﴾ أظهرها بين الآيتين ، والآيات التّسع : قلب العصاة حيّة ، وجعل يده بيضاء ، وما أصاب فرعون من الجدب في بواديهم ، ونقص الثّمرات في مزارعهم ، وإرسال الطّوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم ، فهذه الآيات التّسع ، قوله تعالى : ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ (١٢) ؛ أي خارجين عن طاعة الله.

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا ؛﴾ أي فلمّا جاءت فرعون وقومه الآيات التسع ، ﴿مُبْصِرَةً ؛﴾ أي بيّنة واضحة ، ﴿قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٣) ؛ كذبوا بالآيات التسع كلّها ونسبوا موسى إلى السّحر ، ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ؛﴾ أي جحدوا بألسنتهم وأنكروا تلك الآيات ، وعلموا بقلوبهم أنّ تلك الآيات ليست من جنس أفعال السّحر ، وأنّها من الله تعالى ، أي علموا يقينا أنّها من عند الله لكن جحدوا بها تجبّرا وتكبّرا وذلك قوله تعالى : ﴿ظُلْماً وَعُلُوًّا ؛﴾ أي شركا وتكبّرا عن أن يؤمنوا ، ﴿فَانْظُرْ ؛﴾ يا محمّد ، ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤) ؛ في الأرض بالمعاصي ، كيف أهلكهم الله بالغرق في اليمّ.

---

(١) القصص / ١٦.

(٢) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ١٣٧.

(٣) (غير) سقطت من المخطوط.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً ؛﴾ أي أعطيناهما معرفة الدّين وأحكام الشّريعة ، وقيل : علما بقضاء الطّير والدّواب وتسبيح الجبال ، فقابلا تلك النعمة بالشّكر ، ﴿وَقالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا ؛﴾ بالنبوّة والكتاب وإلانة الحديد وتسخير الشّياطين والجنّ والإنس ، ﴿عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥).

قوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ ؛﴾ أي ورث نبوّته وعلمه وملكه ، وذلك أنه كان لداود تسعة عشر إبنا ذكرا ، فورث سليمان ملكه ومجلسه ومقامه ونبوّته من بينهم.

وعن أبي هريرة قال : (نزل كتاب من السّماء إلى داود عليه‌السلام مختوما ، فيه عشر مسائل ؛ أن اسأل ابنك سليمان عنهنّ ، فإن أخرجهنّ فهو الخليفة من بعدك. قال : فدعا داود [1] سبعين قسّيسا وسبعين حبرا ، وأجلس سليمان بينهم ، وقال له : يا نبيّ الله ؛ إنّه نزل كتاب من السّماء فيه عشر مسائل ، أردت أن أسألك عنهنّ ، فإن أنت أخرجتهنّ فأنت الخليفة من بعدي. فقال سليمان : لتسأل نبيّ الله عليه‌السلام عمّا الله يراه ، وما توفيقي إلّا بالله.

قال : أخبرني يا نبيّ : ما أبعد الأشياء؟ وما أقرب الأشياء؟ وما آنس الأشياء؟ وما أوحش الأشياء؟ وما القائمان؟ وما المختلفان؟ وما المتباغضان؟ وما الأمر الّذي إذا ركبه الرّجل حمد آخره؟ وما الأمر الّذي إذا ركبه الرّجل ذمّ آخره؟

فقال سليمان : أمّا أقرب الأشياء فالآخرة ، وأمّا أبعد الأشياء فما فاتك من الدّنيا ، وأمّا آنس الأشياء فجسد فيه روح ، وأمّا أوحش الأشياء فجسد لا روح فيه ، وأمّا القائمان فالسّماء والأرض ، وأمّا المختلفان فاللّيل والنّهار ، وأمّا المتباغضان فالموت والحياة ، وأمّا الأمر الّذي إذا ركبه الرّجل حمد آخره فالحلم على الغضب ، وأمّا الأمر الّذي إذا ركبه ذمّ آخره فالحدّة على الغضب.

قال : ففكّ الختم فإذا هي هذه المسائل سواء على ما نزل من السّماء. فقال القسّيسون والأخبار : لن نرضى حتّى نسأله عن مسألة ، فإن هو أخرجها فهو الخليفة

(١) في المخطوط : (سُلَيْمانُ) والسياق يقتضي (داوُدَ) فأثبتناه.

من بعدك. فقال سليمان : سلوني وما توفيقي إلّا بالله ، قالوا : ما الشّيء الّذي إذا صلح صلح كلّ شيء منه؟ وإذا فسد فسد كلّ شيء منه؟ قال : هو القلب ؛ إذا صلح صلح كلّ شيء منه ، وإذا فسد فسد كلّ شيء منه. قالوا : صدقت! أنت الخليفة من بعده. ودفع إليه داود قضيب الملك ، ومات من الغد).

وعن محمّد بن جعفر عن أبيه قال : (أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سبعمائة سنة وستّة أشهر ، ملك أهل الدّنيا كلّهم من الجنّ والإنس والشّياطين والدّواب والطّير والسّباع ، وأعطي علم كل شيء ، ومنطق كلّ شيء) [1].

وقوله تعالى : ﴿وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ؛﴾ صوت منه. قال الفرّاء : (مَنْطِقَ الطَّيْرِ : معنى كلام الطّير ، جعله كمنطق الرّجل إذا فهم) [2]. قال مقاتل : (كان سليمان جالسا إذ مرّ به طائر ، فقال لجلسائه : هل تدرون ما قال هذا الطّائر؟ قالوا : لا! قال : إنّه قال لي : السّلام عليك أيّها الملك المسلّط على بني إسرائيل. ومرّ سليمان ذات يوم على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه ويصيح ، فقال لأصحابه : هل تدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا : الله أعلم! قال : إنّه يقول : أكلت نصف ثمرة فعلى الدّنيا العفاء) [3].

وعن الكلبيّ قال : (صاح ورشان عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا! قال : إنّه يقول : لدو للموت وابنوا للخراب. وصاحت فاختة عند سليمان ؛ فقال : إنّها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا. وصاح هدهد فقال : إنّه يقول : كما تدين تدان ، وصاح طاووس عنده ؛ فقال : إنّه يقول : من لا يرحم لا يرحم. وصاح صرد عنده ؛ فقال : إنّه يقول : استغفروا الله يا مذنبين. وصاح

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك : كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء : الحديث (٤١٩٥). وتعقب الذهبي هذا الخبر فقال : (هذا باطل).

(٢) معاني القرآن : ج ٢ ص ٢٨٨. وفي أصل المخطوط : (منطق الطير كلامه) وضبط النص كما في معاني القرآن للفراء.

(٣) ذكره القرطبي أيضا عن مقاتل ؛ ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ١٦٥. والبغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٤ عن فرقد السّبخي.

خطّان عنده ، فقال : إنّه يقول : قدّموا خيرا تجدوه. وهدرت حمامة ؛ فقال : إنّها تقول : سبحان ربي الأعلى ملئ سمواته وأرضه. وصاح قمريّ ؛ فقال : إنّه يقول : سبحان ربي القدّوس. وصاح باز فقال : إنّه يقول : سبحان ربي وبحمده. والضّفدع يقول : كلّ شيء هالك إلّا وجهه. والقطاة تقول : من سكت سلم. والحدأة تقول : سبحان المذكور بكلّ لسان) [١].

وعن مكحول قال : (صاح درّاج عند سليمان عليه السلام فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا! قال : إنّه يقول : على العرش استوى) [٢]. وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : [إنّ الدّيك يقول في صياحه : اذكروا الله يا غافلين][٣]. وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنه قال : (إذا صاح النّسر قال : يا ابن آدم عش ما عشت آخره الموت ، وإذا صاح العقاب قال : في البعد من النّاس أنس ، وإذا صاح القنبر قال : إلهي العن مبغضي آل محمّد) [٤].

وروي أنّ قوما من أهل العراق من أهل الكتاب وفدوا على ابن عبّاس رضي الله عنهما ؛ فقال له : أنت ابن عمّ الذي يزعم أنه رسول الله ﷺ؟ قال : (نعم). قالوا : يا قوم قد عرفنا الكتب ، وعرفنا ما فيها ونحن نسألك عن سبعة أشياء ، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا وصدّقنا ، قال : (اسألوني تفقّها ولا تسألوني تعنّتا). قالوا : أخبرنا ما يقول القنبر في صفيره والزّرزور والدّراج؟ وما يقول الدّيك في صياحه؟ والضّفدع في نقيقه؟ والحمار في نهيقه ، والفرس في صهيله؟

فقال : (أمّا القنبر فإنّه يقول : اللهمّ العن مبغضي محمّد وآل محمّد. وأمّا الزّرزور فإنّه يقول : اللهمّ إنّي أسألك قوت يوم بيوم يا رزّاق. وأمّا الدّراج فيقول : الرّحمن على العرش استوى. وأمّا الدّيك فإنّه يقول : اذكروا الله يا غافلين. وأمّا الضّفدع فإنّه يقول : سبحان المعبود في لجج البحار. وأمّا الحمار فإنّه يقول : اللهمّ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، كله من كلام فرقد السبخي.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٤.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٤.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ٣ ص ١٦٦.

العن العشّار. وأمّا الفرس فإنّه يقول «إذا التقى الصّفّان» (١) : سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والرّوح). فقالوا : يا ابن عبّاس نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدا رسول الله ، وحسن إسلامهم (٢).

قوله تعالى : ﴿وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛﴾ يعني من أمر الدّنيا والآخرة ، وقال مقاتل : (يعني الملك والنّبوّة وتسخير الرّياح والجنّ والشّياطين) (٣). وقوله تعالى : ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦) ؛ أي الزيادة الظّاهرة على ما أعطي غيرنا.

قوله تعالى : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ؛﴾ أي جمع له من كلّ جهة جماعة من الجنّ والإنس والطّير. والحشر : جمع الخلق من موضع إلى موضع ، ومنه المحشر لعرصات يوم القيامة. قال ابن عبّاس : (كان معسكر سليمان مائة فرسخ ، خمسة وعشرون فرسخا للإنس ، وخمسة وعشرون فرسخا للجنّ ، وخمسة وعشرون فرسخا للسّباع ، وخمسة وعشرون فرسخا للطّير) (٤).

ووجه تسخير الطّير له أنّ الله زاد في عقولها حتى كانت تفهم ما يقال ويراد منها ، وتقبل الأدب وتخاف وتحذر ، وكان لسليمان عليه‌السلام ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة صريحة ، وسبعمائة سريّة ، فيأمر الرّيح العاصف فترفعه ، ويأمر الرّحا فتسير به ، فأوحى الله وهو يسير بين السّماء والأرض : أنّي قد زدت في ملكك أنّه لا يتكلّم أحد من الخلائق إلّا جاءت به الرّيح فأخبرتك به.

قوله تعالى : ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧) ؛ قال قتادة : (كان على كلّ صنف من جنوده وزعة ترد أولاهم على آخرهم ليجتمعوا ويتلاحقوا) (٥) وهو من الوزع الذي هو الكفّ ، يقال : وزعته أزعه وزعا ، والشّيب وازع ؛ أي مانع. قال اللّيث : (والوازع

---

(١) ما بين (()) سقطت من المخطوط.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٤.

(٣) قاله مقاتل بمعناه في التفسير : ج ٢ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك : كتاب التواريخ : باب تسخير سليمان عليه‌السلام الإنس : الحديث (٤١٩٧) عن محمّد بن كعب وسكت عنه.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٤٥٢). وينظر : المحرر الوجيز : ص ١٤١٦.

في الحرب الموكّل بالصّفوف يزع من تقدّم منهم) [١].

ومعنى الآية : ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي كان يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وكانوا يجتمعون ويتفرّقون ويقومون في مسيرهم على مراتبهم. والإيزاع هو المنع من الذهاب ، والوازع هو القيّم بأمر الجيش ، ومن ذلك قول الحسن : (لا بدّ للنّاس من وزعة) [٢] أي من سلطان يكفّهم ، ويقال : لا بدّ للسّلطان من وزعة ؛ أي من يمنع الناس عنه. وأصل الوزع الكفّ والمنع ، ومنه الحديث : [إنّ الله ليزع بالسّلطان أكثر ممّا يزع بالقرآن][٣].

قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ ؛﴾ أي ساروا جميعا حتّى إذا وصلوا إلى واد كثير النّمل ، قال كعب : (هو واد بالطّائف) ، وقال قتادة ومقاتل : (هو بالشّام) [٤] ، ﴿قالَتْ نَمْلَةٌ ؛﴾ لأصحابها على وجه التّحذير : ﴿يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ ؛﴾ أي منازلكم ، ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ ؛﴾ أي لا يكسرنّكم سليمان وجنوده ، ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) ؛ بذلك ؛ أي وهم لا يعلمون بحطمكم ووطئكم ، فطارت الريح بكلام النّملة ، فأدخلته في أذن سليمان عليه السلام ليسمعها ، ﴿فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها ؛﴾ وكان أكثر ضحك الأنبياء عليهم السلام التّبسّم.

ونصب قوله تعالى : ﴿ضاحِكاً﴾ على الحال ، وسبب ضحكه من قولها التعجّب ، وذلك أنّ الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به عجب وضحك. قال مقاتل : (ثمّ حمد ربّه حين علّمه منطق الطّير ، وسمع كلام النّملة) [٥]﴿وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

(١) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ١٦٧ معلقا.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز : ص ١٤١٦.

(٣) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن : ج ٣ ص ١٤٥٠ ؛ قال : (روى أشهب قال : قال مالك بن أنس : قال عثمان : (ما يزع الناس السلطان ، أكثر مما يزعهم القرآن). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ١٦٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير : الأثر (١٦١٩٨).

(٥) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٧٢.

نِعْمَتَكَ ﴾ يقال : فلان موزع بكذا ؛ أي مولع به ، وقيل : معناه : وفّقني أن أشكر نعمتك ، ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَ﴾ و ، وفّقني ، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩) ؛ في الآخرة.

فإن قيل : بماذا عرفت النملة سليمان ، وعلى أيّ سبيل كانت معرفتها به؟ قلنا : إنّها كانت مأمورة بطاعته ، فلا بدّ أن تعرف من أمرت بطاعته ، ولا يمنع أن تعرف الدوابّ والبهائم هذا الضرب ، كما تعرف كثيرا من منافعها ومضارّها ، والنملة فيها من الفهم فوق هذا ، فإنّا نشاهد صنعها في إدخال رزقها وحفظه وتعهّده ، حتى إنّها تكسر ما تجمعه من الحبوب نصفين نصفين لئلّا تنبت ، إلّا اللّويزة فإنّها تكسرها أربع قطع ؛ لأنّها إذا كسرتها نصفين تنبت ، فالذي هداها إلى هذه الأمور هو الذي ألهمها معرفة سليمان عليه‌السلام.

قوله تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ أي طلبها وبحث عنها ، والطّير اسم جامع للجنس ، وكانت الطير تصحب سليمان في سفره ، تظلّه بأجنحتها. قوله تعالى : ﴿فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ أي قال : ما الهدهد لا أراه أعينا ؛ أي لحظته فلم تره بين الطير ، ﴿أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ﴾ (٢٠).

واختلفوا في سبب تفقّده عن حال الهدهد. قال ابن عبّاس : (كان الهدهد يرى الماء من تحت الأرض كما تراه من الزّجاج ، وكان سليمان إذا احتاج إلى الماء في مسيره ، أمر الهدهد حتّى ينظر إلى أقرب موضع من الماء ، فاحتاج في ذلك اليوم إلى الماء ، فلذلك تعرّف عن حال الهدهد).

قال عكرمة [١] : قلت : يا ابن عبّاس ؛ كيف يرى الهدهد الماء وإنّ صيّادتنا يأخذونه بالفخّ فلا يرى الخيط والشّبكة؟! قال ابن عبّاس : (ما ألقى هذه الكلمة على لسانك إلّا الشّيطان ، أما تعلم أنّه إذا جاء القدر ذهب البصر). وعن سعيد بن جبير : (أنّ ابن عبّاس سئل عن تفقّد سليمان الهدهد ، فقال : لأنّه كان يعرف مسافة الماء. وأنّ الصّبيّ يضع له الفخّ فيغطّي عليه بشيء من التّراب فيجيء فيقع فيه ، فقال :

---

(١) في جامع البيان : مج ١١ ج ١٩ ص ١٧٥ : (قال له نافع بن الأزرق).

ويحك! أما علمت أنّ القدر يحول دون البصر). وروي أنه قال : (إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللّبّ وعمي البصر) [1].

وقال وهب : (كان سبب تفقّده له لإخلاله بالنّوبة [2] ، كما يتعرّف الوالي عن رعيّته) [3] ، ويقال : كانت الطير تظلّه من الشّمس ، كانت تقف في الهواء مصطفّة موصولة الأجنحة ومتقاربة ، فلما أخلى الهدهد بمكانه بان ذلك لوقوع الشّمس عليه ، فلذلك تعرّف عن حاله.

قوله تعالى : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً ؛﴾ قال المفسّرون : تعذيبه إيّاه أن ينتف ريشه ثمّ يلقيه في الشّمس فلا يمنع من نملة ولا من شيء من هوامّ الأرض. ويقال : هو قصّ جناحه ، ويجوز أن يعاقب بأن لا يجري عليه القلم على وجه التأديب ، كما يؤدّب الأب ولده الصغير. وقيل : تعذيبه أن ينتف ريشه ويدعه ممعّطا [4] في بيت النمل فيلدغوه. وقيل : معناه : لأشدّنّ رجليه وألقيه في الشّمس ، وقيل : لأطلبنّه بالقطر وأجعله في الشّمس. وقيل : لأفرّقنّ بينه وبين إلفه. وقيل : لأمنعنّه من خدمتي.

قوله تعالى : ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ؛﴾ أي لأقطعنّ حلقه ، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ (٢١) ؛ أي بحجّة ظاهرة توجب عذره في غيبته ، وقصّته : أنّ سليمان عليه‌السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم ، فتجهّز للسير واستصحب من الجنّ والإنس والشّياطين والطّيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ ، وأمر الرّيح فحملتهم ، فلما وافى الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم ، وكان ينحر كلّ يوم مدّة إقامته خمسة آلاف ناقة ، ويذبح خمسة آلاف ثور ، وعشرون ألف شاة ، وأقام بمكّة حتى قضى نسكه.

---

(١) هذه الروايات أخرجها الطبري في جامع البيان : الأثار (٢٠٤٥٩ ـ ٢٠٤٦٠). وابن عطية في المحرر الوجيز : ص ١٤١٧. والبغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٦.

(٢) في المخطوط : (لإجلاله نبوته).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان : مج ١١ ج ١٩ ص ١٧٦ من غير إسناد.

(٤) في مختار الصحاح : ص ٦٢٨ : (معط): (رجل (أمعط) بيّن المعط ، وهو الّذي لا شعر في جسده ، و (امتعط) شعره و (تمعّط) أي تساقط من داء ونحوه).

ثم سار إلى أرض اليمن فوافى صنعاء اليمن وقت الزّوال ، فأحبّ النّزول ليصلّي ويتغدّى ، فطلبوا الماء فلم يجدوه ، وكان الهدهد دليله على الماء ، فلما نزل سليمان قال الهدهد : إنّ سليمان قد اشتغل بالنّزول ، فارتفع الهدهد إلى جهة السّماء ، فنظر يمينا وشمالا فرأى خضرة بساتين مأرب في أرض بلقيس ، فمال إلى جهة الخضرة ، فالتقى بهدهد من هدهد سبأ ، فقال له : من أين أقبلت وأين تريد؟ قال : أقبلت من الشّام مع نبيّ الله سليمان عليه السلام ، قال له : ومن سليمان؟ قال : ملك الإنس والجنّ والشياطين والوحوش والطّيور. ثمّ قال له هدهد سليمان : وأنت من أين أقبلت؟ قال : من هذه البلاد ، قال : ومن ملكها؟ قال : امرأة يقال لها بلقيس ؛ ملكت اليمن كلّها وتحتها اثنا عشر ألف قائد ، مع كلّ قائد مائة ألف مقاتل ، فهل أنت منطلق معي ننظر إلى ملكها؟ قال : أخاف أن يفقدني سليمان في وقت الصّلاة إذا احتاج إلى الماء ، فقال له هدهد بلقيس : إنّ صاحبكم يسرّه أن تأتيه بخبر هذه الملكة. فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها ، وما رجع إلّا وقت العصر.

قال : فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصّلاة ، طلب الهدهد لأنه نزل غير ماء ، فسأل الإنس عن الماء فقالوا : ما نعلم هنا ماء ، فسأل الجنّ والشياطين فلم يعلموا ، ففقد الهدهد فلم يجده ، فدعا بعفريت الطير النّسر ، فسأله عن الهدهد ، فقال : ما أدري أين ذهب ، فغضب سليمان عند ذلك ، وقال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجّة.

ثم دعا بالعقاب وقال له : عليّ بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب نفسه حتى التزق بالهواء وارتفع حتى نظر إلى الدّنيا كالقصعة في يدي أحدكم ، ثم التفت يمينا وشمالا ، فإذا هو بالهدهد مقبل من نحو اليمن ، فانقضّ العقاب نحوه يريده ، فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء ، فناشده الله تعالى ، فقال له : بحقّ الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلّا رحمتني ولا تتعرض لي بسوء ، فولّى العقاب عنه وهو يقول له : ثكلتك أمّك! إنّ نبي الله قد حلف ليعذّبنّك أو ليذبحنّك ، ثم طارا متوجّهين نحو سليمان.

فلما وصل إليه قال له العقاب : قد جئتك يا نبيّ الله ، فلما قرّب إليه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرّهما على الأرض تواضعا لسليمان ، فلما دنا

منه ، قال له : أين كنت؟ لأعذّبنّك عذابا شديدا ، فقال له الهدهد : يا نبيّ الله ؛ اذكر وقوفك بين يدي الله سبحانه ، فلما سمع ذلك سليمان ارتعدت فرائصه فعفا عنه.

ثم قال له : ما أبطأك عنّي؟ فقال : أحطت بما لم تحط به ، وذلك قوله تعالى : ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ؛﴾ أي لم يلبث إلّا يسيرا حتى جاء الهدهد ، ﴿فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ ؛﴾ أي علمت شيئا من جميع جهاته ، وقيل : معناه : اطّلعت على ما لم تطّلع عليه ، وجئتك بأمر لم يخبرك به الجنّ والإنس ، وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جميع جنودك ، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢) ؛ أي بخبر صدق ولا شكّ فيه.

وقرئ (من سبإ) بالتنوين. قال الزجّاج : (من لم يصرفه فلأنّه اسم مدينة تعرف من اليمن ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيّام ، ومن صرفه ؛ فلأنّه اسم البلد ، ويكون مذكّرا سمّي به مذكّر) [١]. وفي الحديث : أنّ النّبيّ ﷺ سئل عن سبإ ، فقال : [كان رجلا له عشرة من البنين ، تيامن منهم ستّة ، وتشامّ أربعة ...][٢]. وسنذكر أسماءهم وقصّتهم في سورة سبأ إن شاء الله تعالى.

قرأ عاصم ويعقوب ﴿فَمَكَثَ﴾ بفتح الكاف ، وقراءة العامّة بضمّ الكاف ، وهما لغتان.

قوله تعالى : ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ؛﴾ واسمها بلقيس بنت الشّرح ، وقيل : شراحيل بن ذي جدن [٣] ، وكان ملكا عظيم الشّأن ، وكان قد ملك أرض اليمن كلّها ، وكان يقول لملوك الآفاق : ليس أحد منكم كفؤ لي ، وأبى أن

---

(١) بمعناه ؛ قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٨٧.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٢٢ ص ٢٠٢٥ : الحديث (٦٣٩). في مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٩٤ ؛ قال الهيثمي : (رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني علي بن الحسن ؛ لم أعرفه).

(٣) تاريخ الطبري : تاريخ الأمم والملوك : ج ١ ص ٢٨٩ : تاريخ ما قبل الهجرة ؛ قال الطبري : (وهي ـ فيما يقول أهل الأنساب ـ يلمقة ابنة اليشرح ؛ ويقول بعضهم : ابنة أيلي شرح ، ويقول بعضهم : ابنة ذي شرخ بن ذي جدن بن أيلي شرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان).

يتزوج منهم ، فزوّجوه امرأة من الجنّ يقال لها : ريحانة بنت السكن ، فولدت بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها [1].

وعن النبيّ ﷺ أنه قال : [كان أحدهم يؤتى بلقيس جنّيا][2] فلمّا مات أبوها ولم يخلّف أحدا غيرها طمعت في الملك ، فطلبت من قومها أن يبايعوها ، فأطاعها قوم وعصاها قوم آخرون ، واختاروا عليها رجلا فملّكوه عليهم ، فافترقوا فرقتين ، كلّ فرقة منهم استولت بملكها على طرف من أرض اليمن.

ثمّ إنّ هذا الملك الّذي ملّكوه أساء السّيرة في أهل مملكته حتّى كان يمدّ يده إلى حرم رعيّته ويفجر بهنّ ، فأراد أصحابه أن يخرجوه فلم يقدروا ، فلمّا رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة ، فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه ، فأجابها إلى ذلك ، وقال : ما منعني أن أبدأك بالخطبة إلّا اليأس منك ، فقالت : إنّي راغبة إليك لأنك كفؤ كريم ، فاجمع رجال قومي فاخطبني إليهم ، فجمعهم فخطبها إليهم فقالوا : لا نراها تفعل هذا ، قال : إنّها هي الّتي ابتدأتني ، فذكروا لها ذلك ، فقالت : نعم ؛ لأجل الولد ، ولم أزل كنت كارهة لذلك ، فالآن قد رضيت ، فزوّجوها منه.

فلمّا زفّت إليه خرجت في ناس كثير من خدمها وحشمها ، فلمّا جاءته سقته الخمر حتّى سكر ، ثمّ حزّت رأسه وانصرفت من اللّيل إلى منزلها ، فلمّا أصبح رأوا الملك قتيلا ورأسه منصوبا على رأس دارها ، فعلموا أنّ تلك المناكحة كانت مكرا وخديعة منها ، فاجتمعوا إليها وقالوا لها : أنت أحقّ بهذا الملك من غيرك ، فقالت : لو لا العار والشّنار ما قتلته ، ولكن عمّ فساده وأخذتني الحميّة حتّى فعلت ما فعلت ، فملّكوها فأسّست أمرها [3].

قوله تعالى : ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال عطاء (من زينة الدّنيا من المال والجنود) ، ﴿وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) ، أي سرير من ذهب طوله ثمانون

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٧.

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٣٥١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة). وفي في العظمة : ص ٤٢١ : الحديث (١٦ / ١٦٠٨).

(٣) ذكر مثله البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٥٧ ـ ٩٥٨.

ذراعا وعرضه أربعون ذراعا وارتفاعه في السّماء ثلاثون ذراعا مضروب بالذهب مكلّل بالدّرّ والياقوت الأحمر والزّبرجد الأخضر. قال مجاهد : (وكان تحتها اثنا عشر ألف قيل. والقيل بلغة اليمن. تحت يدي كلّ قيل ألف مقاتل) [1]. وقيل : كان سريرها له أربع قوائم : قائمة من ياقوت أخضر ، وقائمة من ياقوت أحمر ، وقائمة من زمرّد ، وقائمة من درّ ، وصفائح السرير من ذهب ، وعليه سبعة أبيات لكلّ بيت باب مغلق [2].

قوله تعالى : ﴿وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ؛﴾ قال الحسن : (كان القوم مجوسا وكانوا يتعطّفون [3] على وجوههم مواجهين للشّمس) ، وقوله تعالى : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ؛﴾ أي حسّن لهم قبيح أعمالهم ، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ؛﴾ أي عن الطريق ، ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤) ؛ إلى طريق الحقّ.

قوله تعالى : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون ابتداء خطاب من الله ، ويجوز أن يكون من قول الهدهد أو من قول سليمان.

قرأ الكسائيّ والأعرج ويعقوب وحميد وأبو جعفر : ألا يسجدوا بالتخفيف : ألا يا هؤلاء اسجدوا ، جعلوه من أمر الله مستأنفا ، وحذفوا (هؤلاء) اكتفاء بدلالة (يا) عليها ، فعلى هذه القراءة (اسجدوا) في موضع جزم على الأمر والوقف عليه (ألا يا) ، ثم يبتدئ (اسجدوا) ، وفي قراءة عبد الله (هلّا يسجدوا لله). وقرأ الباقون ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد على معنى وزيّن لهم الشيطان ألّا يسجدوا [4].

وقوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، الخبأ : كلّ ما غاب عن الإدراك ، مصدر وقد وقع موقع المفعول كالخلق بمعنى المخلوق والعلم بمعنى المعلوم ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٥٠٢ و٢٠٥٠٣) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير : الأثر (١٦٢٦١).

(٣) عطف : مال. وعطف الوسادة ثناها. ومنعطف الوادي منعرجه ومنحناه.

(٤) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٣٤. وإعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ١٤١ ـ ١٤٢.

وخبأ السّموات : الأمطار ، وخبأ الأرض : النبات ، فعلى هذا تكون ﴿فِي﴾ بمعنى (من). قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) ؛ أي يعلم ما يخفون في قلوبهم ، وما يعلنون بألسنتهم. وفي قراءة الكسائيّ بالتاء ، لأنّ أول الآية خطاب على قراءته بتخفيف (ألا) يا اسجدوا.

قوله تعالى : ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦) ؛ أراد بالعرش في هذه الآية سرير الملك الذي عظّمه الله ورفعه فوق سموات سبع وجعله أعظم من السّموات والأرض ، ومن أعظم كلّ خلق ، وجعل الملائكة تحفّ به وترفع أعمال العباد إليه ؛ أي هو الذي يستحقّ العبادة لا غيره ، وهو ربّ العرش لا ملكة سبأ ؛ لأن عرشها وإن كان عظيما لا يبلغ عرش الله في العظم.

فلمّا فرغ الهدهد من كلامه ، ﴿قالَ ؛﴾ سليمان للهدهد : ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ ؛﴾ فيما أخبرتنا به من هذه القصّة ، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ (٢٧) فنعذّبك.

ثم كتب سليمان كتابا ختمه بخاتم ودفعه إلى الهدهد ، وذلك قوله تعالى : ﴿اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ؛﴾ أي إلى أهل سبأ. وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ؛﴾ أي انصرف عنهم ، وهذا على التقديم والتأخير ، تقديره : ﴿فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨) ؛ ثمّ تولّ عنهم ؛ لأن التولّي عنهم بعد الجواب ، ومعنى ﴿فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يردّون من الجواب. وقيل : معناه : ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي انصرف عنهم قليلا إلى حيث لا يرونك ﴿فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ﴾ أي يقولون ويردون ويحسبون.

وكان كتاب سليمان عليه‌السلام : من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ ، السّلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد : فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين [1]. وقال ابن جريج : (لم يزد سليمان على نص الله في كتابه) [2]. فلمّا كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه ، وقال للهدهد : اذهب به ، فأخذ الكتاب بمنقاره وذهب به.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٤٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٤٩٦).

فلما أغلقت المرأة الأبواب دونها ونامت على سريرها ، ووضعت المفاتيح تحت وسادتها ، فأتى بها الهدهد من الكوّة وهي نائمة مستلقية على قفاها ، فألقى الكتاب على وجهها ونبّهها بمنقاره وصوته ، فأخذت الكتاب ، وكانت كاتبة قارئة عربيّة من تبّع بن سراحيل الحميريّ ، فقرأت الكتاب وناخر الهدهد غير بعيد ، فدعت بذوي الرّأي من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كلّ قائد مائة ألف مقاتل.

وقال قتادة : (كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا) [1] فجاؤا إليها ، و ﴿قالَتْ﴾ لهم : ﴿يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٩) ؛ أي حسن ، وقيل : شريف ، وقيل : مختوم ، قال ﷺ : [كرامة الكتاب ختمه][2]. وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ ؛﴾ أي الكتاب من سليمان ، ﴿وَإِنَّهُ ؛﴾ المكتوب ، ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا﴾ أي لا تستكبروا ، ﴿عَلَيَ﴾ ولا ترفّعوا عليّ ، ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣١) ؛ منقادين طائعين.

قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ بدل من ﴿كِتابٌ﴾ وموضعه على هذا القول رفع ، ويجوز أن يكون نصبا على معنى بأن لا تعلوا عليّ. وقيل : معنى قوله ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي مؤمنين بالله ورسوله من الإسلام الذي هو دين الله. وقيل : مستسلمين لأمري فيما أدعوكم إليه ، فإنّي لا أدعوكم إلّا إلى حقّ ، فأطيعوني قبل أن أكرهكم على ذلك.

قوله تعالى : ﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ؛﴾ أي قالت لأهل مشورتها : بيّنوا لي. ما أعمل في أمري بما هو الصواب ، وأشيروا عليّ ، فإنّي ﴿ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً ؛﴾ من الأمور في ما مضى ، ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٢) ؛ تحضرون فتشاوروني ، فأشيروا عليّ في هذا الكتاب ، ما أصنع فيه؟

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٤٩٥) ، بلفظ : (وكان أولو مشورتها ثلاث مائة واثني عشر).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط : ج ٤ ص ٥١٩ : الحديث (٣٨٨٤) ، وقال : (تفرد به يحيى بن طلحة). وفي مجمع الزوائد : ج ٨ ص ٩٩ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه محمّد ابن مروان السدي الصغير ، وهو متروك). وفي المخطوط بلفظ : (كَرِيمٌ).

﴿قالُوا ؛﴾ مجيبين لها : ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ ؛﴾ وعدّة في القتال لم يبلغنا عدوّ قط ، ونحن ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ؛﴾ في الحرب ، ذكروا لها قوّتهم وشجاعتهم ، وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك.

ثم قالوا : ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ؛﴾ أي في القتال وتركه إن أمرتنا بالقتال قاتلناه ، وإن أمرتنا بغير ذلك فعلناه ، وذلك معنى قوله : ﴿فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ﴾ (٣٣) أي ماذا تشيرين علينا.

قوله تعالى : ﴿قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها ؛﴾ أي قالت مجيبة لهم عن التعريض بالقتال : إنّ الملوك إذا دخلوا قرية عنوة عن غفلة وقتال أفسدوها ؛ أي خرّبوها وأهلكوها ، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً ؛﴾ أي وأهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر. وقيل : معنى قوله ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً﴾ أي بالقتل والأسر والاستعباد وأخذ المال ، وانتهى الكلام هاهنا.

قال الله تصديقا لها : ﴿وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) ؛ أي كما قالت هم يفعلون. ومعنى الآية : أنّها حذرتهم مسير سليمان إليهم ودخول بلادهم. قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٥) ؛ وذلك أنّها لما تدبّرت في أمرها قوّت الملاطفة بالهدايا ، وكانت من أولاد الملوك ، تعرف عادتهم وحسن مواقع الهدايا عندهم ، فإنّ ذلك هو الأولى ، وكانت بلقيس امرأة لبيبة أديبة ، فقالت بهذا القول اختبارا لسليمان : أملك هو أم نبيّ؟ فإن كان ملكا قبل الهدايا وترك الوصول إلى بلدها ، وإن كان نبيّا لم يرض بالهديّة ، ولا يرضيه إلّا أن تتّبعه ، فهيّأت الهدايا من المسك والعنبر والعود وغير ذلك ، وأهدت له خمسمائة عبد وخمسمائة جارية ، وأهدت له أيضا صحاف الذهب وخمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضّة ، وتاجا مكلّلا بالدّر والياقوت.

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ﴾ أي فلما جاء رسولها إلى سليمان يهديه ، ﴿قالَ ؛﴾ له سليمان : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ﴾ وأنا أكثر أهل الدّنيا مالا ولست ممّن يرغب في المال ، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ

**تَفْرَحُونَ﴾** (٣٦) ؛ أي إذا أهدى بعضكم إلى بعض فرحوا بذلك ، وأما أنا فلا أفرح لأنّكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدّنيا.

وفي الخبر : أنّ سليمان عليه السلام لما علم بالهدايا قبل أن تصل إليه أمر أن يضرب لبنات من الذهب أحسن وأجود مما كان مع رسولها ، وأمر أن تلقى تلك اللّبنات بين قوائم الدّواب حتى تروث وتبول عليها ، فلمّا رأى ذلك الرسول استخفّ الهديّة التي كانت معه ، وكانت بلقيس قد قالت لرسولها : إذا دخلت عليه ، فإذا نظر إليك نظر غضب ، فاعلم أنّه ملك فلا يهولنّك منظره ، فأنا أعزّ منه ، وإن نظر إليك بوجه طلق فإنه نبيّ مرسل ، فتفهّم قوله وردّ الجواب. فانطلق الرسول بالهدايا ومعه الهدهد مسرعين إلى سليمان.

فلمّا وصل الرسول إلى سليمان وجده قاعدا في مجلسه على سريره ، وعلى يمينه أربعة آلاف كرسيّ من ذهب ، وعن يساره مثل ذلك ، وقد اصطفّت الإنس صفوفا وفراسخ ، واصطفّت الجنّ والشياطين والوحوش والسّباع والهوامّ والطير كذلك صفوفا وفراسخ ، عن يمينه ويساره.

فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر فضيع ففزعوا منهم ، فقالت لهم الشياطين : جوزوا فلا بأس عليكم ، فكانوا يمرّون على كلّ كرؤوس من الجنّ والإنس والطير والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان ، فنظر إليهم نظرا حسنا بوجه طلق ، وقال : ما وراءكم؟

فأخبرهم رئيسهم بما جاءوا به من الهديّة ، وأعطاه كتابا من الملكة ، فنظر فيه ، ثم قال لرسولها : **﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها ؛﴾** أي بعساكر لا طاقة لهم بها ، **﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها ؛﴾** من بلادهم ، **﴿أَذِلَّةً ؛﴾** مغلولة أيديهم إلى أعناقهم ، **﴿وَهُمْ صاغِرُونَ﴾** (٣٧) ؛ أي مهانون.

فلمّا أخبرها الرسول بذلك ، قالت : قد عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ولا ينبغي لنا مخالفته ، فتجهّزت للمسير إليه ، ثم عمدت إلى سريرها فوضعته في سبعة بيوت مقفلة الأبواب ، بيت فوق بيت وجعلته في الطّبقة السابعة ، وجعلت الجيوش حوله وخرجت متوجّهة إلى سليمان.

فجاء جبريل عليه السلام إلى سليمان وأخبره بمجيئها إليه ، ﴿قَالَ﴾ سليمان : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ؛﴾ أي سرير ملكها ، ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) ؛ أي مؤمنين ، وقيل : صاغرين مستسلمين منقادين.

وإنّما خصّ العرش بالطلب ؛ لأنه أعجبه صفته ، فأحبّ أن يعاتبها به ، ويختبر عقلها به إذا رأته ، تعرفه أم تنكره ، وأحبّ أن يريها قدرة الله في معجزة يأتي بها في عرشها ، وأحبّ أن يأخذ عرشها قبل أن تسلم ، فلا يحلّ أخذ مالها بعد الإسلام ، فذلك قوله تعالى : ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

قوله تعالى : ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ ؛﴾ يعرف بعمرو ، والجنّيّ والعفريت في كلّ شيء : المبالغ الحاذق ، يقال : رجل عفر وعفريت وعفرية ، بمعنى واحد ، والجمع عفاريت وعفارى ، وقيل : العفريت من الجنّ المارد القويّ الغليظ الشديد. وقيل : اسم العفريت الدّاهية.

قيل : إنّها سارت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل ، تحت كلّ قيل ألوف كثيرة ، فخرج سليمان ذات يوم وإذا هو يرى هرجا قريبا منه ، فقال : ما هذا؟ قالوا : بلقيس ، قال : قد نزلت منّا بهذا المكان. قال ابن عبّاس : (وهو مكان بين الحيرة والكوفة بعيد فرسخ) فأقبل حينئذ سليمان على جنوده ، وقال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ؟﴾.

واختلف أهل العلم في السّبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها ، قيل : أن يحرم عليه أخذه بإسلامها. وقال قتادة : (إنّه أعجبه صفته لما وصفه له الهدهد ، فأحبّ أن يراه) [(١)] ، وقال ابن زيد : (أراد أن يختبر عقلها بتنكير عرشها ولينظر هل تعرفه إذا رأته أو تنكره) [(٢)] ، وقيل : ليريها قدرة الله وعلم سلطانه.

قوله تعالى : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ؛﴾ أي من مجلس قضائك ، وكان سليمان يجلس للقضاء من الغداة إلى انتصاف النّهار ، وقال مقاتل :

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٥٢٥). وابن أبي حاتم في التفسير : الأثر (١٦٣٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٤١٥) عن ابن عباس بمعناه وإسناده ضعيف.

(قال العفريت : أنا أضع قدمي عند منتهى بصري ، فليس شيء أسرع منّي) [١]﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٣٩) ؛ أي قويّ على حمله ، أمين على ما فيه من الذهب والجواهر. فقال سليمان : أريد أسرع من ذلك.

قوله تعالى : ﴿قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ ؛﴾ وهو آصف بن برخيا كان يعلم الاسم الأعظم [٢] الذي إذا دعي به أجاب ، وهذا قول أكثر المفسّرين. وقال بعضهم : هو جبريل ، وقيل : هو ملك من الملائكة.

وقوله تعالى : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ؛﴾ قال ابن جبير : (قال لسليمان : انظر إلى السّماء ، فما طرف حتّى جاء به فوضعه بين يديه) [٣]. والمعنى : حتى يعود إليك طرفك بعد مدّه إلى السّماء. وقيل : معناه : بقدر ما تفتح عينيك ، وهذا الكلام عبارة عن المبالغة في السّرعة.

قال محمّد بن اسحق : (انخرق مكان عرشها حيث هو ، ثمّ نبع بين يدي سليمان) [٤] ومثل هذا روي عن ابن عبّاس. وقال الكلبيّ : (خرّ آصف ساجدا ودعا بالاسم الأعظم ، فغار عرشها تحت الأرض حتّى نبع عند كرسيّ سليمان) [٥].

قال أهل المعاني : لا ينكر من قدرة الله «نقله» من حيث كان ، ثم يوجده حيث كان سليمان بالأفضل ، لدعاء الذي عنده علم من الكتاب ، ويكون ذلك كرامة للوليّ ومعجزة للنبيّ.

واختلفوا في ذلك الدّعاء الذي دعا به آصف ، فقال مقاتل ومجاهد : (يا ذا الجلال والإكرام) [٦] ، وقال الكلبيّ : (يا حيّ يا قيّوم) ، وقيل : قال له سليمان : قد رأيتك ترجع شفتيك فما قلت؟ قال : قلت إلهي وإله كلّ شيء واحد لا إله إلّا أنت

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٧٧.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٣٨١).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٣٨٨) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٣٩٠).
(٥) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٦٢ ، وأصله كما في الأثر السابق عند ابن أبي حاتم.
(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٥٤٣).

إئت به. وقال بعضهم : هو يا إلهنا وإله كلّ شيء ، يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلّا أنت. وقال الحسن : (اسم الله الأعظم : يا رحمن ، وذلك أنّه لا يسمّي أحد بهذين الاسمين على الإطلاق غير الله عزّ وجلّ ).

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا﴾ أي فلمّا رأى سليمان العرش مستقرّا ، ﴿عِنْدَهُ﴾ ، نابتا بين يديه ، ﴿قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي هذا التمكين من حصول المراد من حصول فضل الله وعطائه ، ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي ليختبرني ويمتحنني على هذه النعمة ، ﴿أَأَشْكُرُ﴾ أأشكره فيما أعطاني من نعمة ، ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي أترك شكرها ، ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي من شكر نعمة ربه فإنّما منفعة شكره راجع إلى نفسه ، يعني ثواب شكره يعود إليه ، ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي ترك شكر نعمته ، ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عنه وعن شكره ، ﴿كَرِيمٌ﴾ (٤٠) ؛ يقبل الشّكر ؛ أي ويزيد عليه في النعمة في الدّنيا ويثيب عليه في العقبى.

قوله تعالى : ﴿قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها﴾ قال سليمان : غيّروا سريرها وزيدوا فيه وأنقصوا منه حتى ، ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ.﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ﴾ أي فلما جاءت بلقيس إلى سليمان ، قيل : أهكذا سريرك؟ فجعلت تعرف وتنكر ، وعجبت من حضوره عند سليمان ، و ﴿قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وقال مقاتل : (عرفته ولكنّها شبّهت عليه كما شبّهوا عليها ، ولو قيل لها : أهذا عرشك؟ لقالت : نعم. فقيل لها : فإنه عرشك ، فما أغنى عنك إغلاق الأبواب ، وكانت قد خلّفته وراء سبعة أبواب لما خرجت والمفاتيح معها ، فلم تقرّ ولم تنكر ، فعلم سليمان كمال عقلها) [١].

وقال عكرمة : (كانت حكيمة ، قالت : إن قلت هو هو خشيت أن أكذب ، وإن قلت لا خشيت أن أكذب) [٢] فلم تقل نعم ، ولا قالت لا ؛ لأنه كان يشبه سريرها ، وشكّت في وصوله إلى سليمان بعد أن وضعته في أحصن المواضع ، وشكّت أيضا لما أحدثوا فيه من التغيّر.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٧٨.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٦٣.

قوله تعالى : ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٢) ؛ هذا من قول سليمان عليه السلام وقومه ؛ أي قالوا : وأعطينا العلم بها وبملكها وسريرها من قبل مجيئها ، وهو ما أخبر به الهدهد من شأنها وقصّتها ، وقالوا : وكنّا مسلمين بحمد الله عزّ وجلّ من قبل مشاهدة المعجزات ، وهذا قول مجاهد.

وقال بعضهم : هذا قول من بلقيس لما رأت عرشها قالت : وأوتينا العلم بصحّة نبوّة سليمان عليه السلام من قبل الآية في العرض وكنا مسلمين طائعين منقادين لأمر سليمان عليه السلام قبل أن نجيء إليه.

قوله تعالى : ﴿وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ ؛﴾ أي منعها الإيمان بالله العبادة التي كانت عليها من عبادة الشّمس. والمعنى : وصدّها عن الإيمان والتوحيد الذي كانت تعبد من دون الله ؛ وهو الشّمس ؛ لأنّها نشأت في قوم لم يكونوا يعرفون إلّا عبادة الشّمس ؛ لأنّها كانت من المجوس.

قوله تعالى : ﴿إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ﴾ (٤٣) ؛ أي إنّها كانت من قوم يعبدون الشّمس ، فنشأت في ما بينهم. وقال بعضهم معنى قوله : ﴿وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي صدّها سليمان ؛ أي منعها ذلك ، وحال بينه وبينها ، فعلى هذا يكون موضع ﴿ما﴾ نصبا.

قوله تعالى : ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ؛﴾ وذلك أنّ بلقيس لما لم تسلم بما رأت من الآيات ، أراد سليمان عليه السلام أن يريها آية أخرى لتسلم ، فأمر الجنّ والشياطين أن يبنوا لها صرحا ؛ أي قصرا من زجاج مملّس ، وأن يجروا تحته الماء ، ويجعلوا فيه المسك والزّمرّد الأملس ، وشجرة مرداء ؛ أي ملساء لا ورق لها. ففعلوا ذلك ثم وضعوا له سريرا في صدر الصّرح فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس.

وقيل : إنّ سليمان عليه السلام إنّما أمر ببناء الصّرح ؛ لأن الجنّ كانوا قد أخبروه أن رجلها رجل حمار ، وإنّها شعراء الرّجلين ؛ لأن أمّها كانت من الجنّ ، فخافوا أن يتزوّجها فتفشي إليه أسرار الجنّ ، فأرادوا أن يزهدوه فيها بهذا الكلام ، وقالوا له أيضا : إنّ في عقلها شيء ، فأراد أن يختبر حقيقة قولهم أنّ رجلها كحافر الحمار ،

ولينظر إلى ساقها هل به شعر كما قالوا ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ أي القصر ، وقيل : صحن القصر.

قال الزجّاج : (والصّرح : القصر والصّحن ، يقال : هذه ساحة الدّار وصرحة الدار)[1]. والصّرح في اللغة : هو البسط المنكشف من غير سقف ، ومنه صرّح بالأمر إذا أفصح به ولم يكنّ عنه ، والتصريح بخلاف التّضمير.

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ ؛﴾ أي فلمّا رأت بلقيس الصّرح على تلك الصّفة ، ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً ؛﴾ واللّجّة معظم الماء الكثير ، ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها ؛﴾ أي رفعت ثيابها عن ساقيها حتى لا تبتلّ ثيابها على ما هو العادة من قصد الماء. قال ابن عبّاس : (لما كشفت ساقها رأى سليمان قدما لطيفا وساقا حسنا خدلجا [2] ، إلّا أنّها كثيرة شعر السّاقين). فلمّا رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها ، وناداها : ﴿قالَ إِنَّهُ﴾ ، ليس هذا بماء ، وإنّما هو ، ﴿صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ ؛﴾ أي مملّس من زجاج ، فلا تخافي واعبري عليه ، فلمّا رأت السّرير والصّرح علمت أنّ ملك سليمان من الله عزّ وجلّ ، و ﴿قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ؛﴾ بعبادة الشّمس ، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٤٤) ؛ أي أخلصت التوحيد.

والمعنى : أنّ بلقيس استدلّت بما شاهدت على وحدانيّة الله وصحّة نبوّة سليمان بما رأت من شدّة قوّته وما كان من ترسّل الطير له ، وإحضار عرشها في أسرع مدّة على بعد المسافة ، وبناء الصّرح من القوارير على وجه الماء ، فلذلك قالت : ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ فتزوّجها سليمان عليه السلام.

وقيل : لما أراد سليمان أن يتزوّجها كره ذلك لما رأى من كثرة شعر ساقيها ، فسأل الإنس : ما يذهب هذا؟ قالوا : الموسى ، فقال : إنّها تقطع ساقيها ، فسأل الجنّ فقالوا : لا ندري ، ثم سأل الشياطين فقال لهم : كيف لي أن أقلع هذا الشّعر من غير

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٩٣ ، وقال : (وصحنة الدار ، وباحة الدار ، وقاعة الدار ، هذا كلّه في معنى الصّحن).

(٢) الخدلجة من النساء : الريّاء ، الممتلئة ، وقيل : هي الضخمة الساقين. ينظر : المحكم والمحيط الأعظم : ج ٥ ص ٣٢٢ : (الخدلجة)

مضرّة للجسد؟ فدلّوه على عمل النّورة ، وكانت النّورة والحمّامات من يومئذ ، فاتّخذوا لها النّورة والحمّام ، وتزوّجها سليمان عليه السلام ، فلما تزوّجها أحبّها حبّا شديدا ، وأقرّها على ملكها ، وأمر الجنّ بأن يبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير مثلها حسنا وارتفاعا ؛ وهي : سيلحين وسون وغمدان ، ثم كان سليمان يزورها في كلّ شهر مرّة بعد أن ردّها إلى ملكها ، ويقيم عندها ثلاثة أيّام ، وولدت له أولادا في ما ذكر.

وروي أنّ رجلا جاء إلى عبد الله بن عتبة وسأله : هل تزوّج سليمان بلقيس؟ فقال : (عهدي بها أن قالت : وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) [1] يعني أنه لا يعلم ذلك.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ؛﴾ يعني بأن اعبدوا الله وحده ، فآمن به فريق وكفر به فريق ، فجعل الفريقان يختصمون كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ.﴾[2] وقوله تعالى : ﴿فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥) ؛ أي فإذا هم مؤمن وكافر ، مصدّق ومكذّب ، يختصمون في الدّين ، كل فريق منهم يقول : الحقّ معي.

وقوله تعالى : ﴿قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ؛﴾ فيه ضمير تقديره : إنّ المؤمنين أوعدوا الكافرين على كفرهم وتكذيبهم ، فاستعجل الكافرون العذاب ، فقال صالح عليه السلام للكافرين المكذّبين : ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي بالعذاب قبل الرّحمة ، ولا تستعجلون الثّواب الموعود على الإيمان. قوله تعالى : ﴿لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ ؛﴾ أي هلّا تستغفرون الله عن كفركم وتكذيبكم ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦) ؛ أي فلا تعذبون في الدّنيا.

قوله تعالى : ﴿قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ؛﴾ أي تشاء منا بك وبمن معك بما لحقنا من نقصان الزّرع والثمار والمياه. والتّطيّر : هو التّشاؤم ، وأصله : تطيّرنا بك

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٤٤٩).

(٢) الأعراف / ٧٥.

وبمن معك ، وذلك أنه قحط المطر عنهم وجاءوا فقالوا : أصابنا هذا البلاء والضرّ من شؤمك وشؤم أصحابك.

وإنّما ذكر التطيّر بلفظ التّشائم على عادة العرب في نسبتهم الشّؤم إلى ما يأتي من الطّير ناحية اليد الشّؤمى وهي اليسرى ، ويسمّون الطّير الذي يأتي من ناحية اليد اليسرى البارح ، وأما الطّير الذي يأتي من ناحية اليد اليمنى فهو السّانح.

قوله تعالى : ﴿قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ ؛﴾ أي قال لهم صالح عليه‌السلام ردّا عليهم : ﴿طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ أي الشّؤم أتاكم من عند الله بكفركم ، وهذا الذي أصابكم من الجدب والخصب عند الله مكتوب عليكم ، لازم لكم في أعناقكم وليس ذلك إليّ ولا علمه عندي ، وهذا كقوله ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ.﴾

قوله تعالى : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧) ؛ أي تخسرون في الدّنيا باختلاف الأحوال من الخير والشرّ. وقيل : معناه : بل أنتم قوم تعذبون بذنوبكم. وقيل : تمتحنون بإرسالي إليكم لتثابوا على متابعتي ، وتعاقبوا على مخالفتي. وقيل : بمعنى ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي تعاقبون كما في قوله تعالى : ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[(١)] أي عقوبتكم.

قوله تعالى : ﴿وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) ؛ معناه : كان في مدينة صالح عليه‌السلام وهي الحجر تسعة رهط من الفسّاق من أبناء رؤسائهم وهم غواة قوم صالح يفسدون في الأرض بالمعاصي ولا يصلحون ولا يطيعون الله ، ولا [(٢)] يأتمرون بالصّلاح ، وأسماؤهم قدار بن سالف ؛ ومصدع ؛ وأسلم ؛ ودهم ؛ وذهيم ؛ وذعما ؛ ودغيم ؛ وقتّال ؛ وضرّاب [(٣)].

---

(١) الذاريات / ١٤.

(٢) (لا) سقطت من المخطوط.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ بعد ذكر أسمائهم واختلاف الروايات ؛ قال القرطبي : (وذلك لا ينضبط برواية ، غير أني أذكره على وجه الاجتهاد والتخمين). وفي التفسير الكبير : الأثر (١٦٤٦٦) أخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عباس قال : [كانت أساميهم : رعمي ، ورعيم ، وداد ، وصواب ، ورياب ، ومسطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة.]

قوله تعالى : ﴿قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ؛﴾ أي قالوا فيما بينهم : احلفوا بالله ؛ أي تحالفوا بالله لتدخلنّ على صالح وعلى أهله الذين آمنوا معه ليلا فنقتلهم بياتا. قرأ يحيى وحمزة والأعمش والكسائي وخلف (لتبيّتنّه) بالتاء و (ليقولنّ) بالياء وضمّ التاء واللّام على الخطاب.

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ (٤٩) ؛ فيما نقول ، وقرأ عاصم برواية أبي بكر (مهلك) بفتح الميم واللام ، والمهلك : يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإهلاك ، ويجوز أن يكون الموضع. وروى حفص عن عاصم ﴿مَهْلِكَ﴾ بفتح الميم وكسر اللّام وهو اسم المكان على معنى : ما شهدنا موضع هلاكهم [١].

قال الزجّاج : (تحالف هؤلاء التّسعة على أن يبيّتوا صالحا وأهله ، ثمّ ينكروا عند أوليائه ، وكان هذا منكرا عزموا عليه) [٢] ، كما قال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) ؛ أي دبّروا في أمر صالح عليه‌السلام وأهله من حيث لم يشعر بهم صالح ولا أهله ، ﴿وَمَكَرْنا مَكْراً﴾ أي دبّرنا نحن في هلاكهم مجازاة لهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بما أردنا فيهم.

قوله تعالى : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ؛﴾ أي فانظر يا محمّد ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ أي كيف كان آخر مكرهم ، ﴿أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١).

قرأ الحسن وأهل مكّة والأعمش ﴿أَنَّا دَمَّرْناهُمْ﴾ بفتح الهمزة ولذلك وجهان في أحدهما : أن تكون بدلا في محلّ الرفع تبعا للعاقبة ، كأنّه قال : العاقبة أنّا دمّرناهم. والثاني : أنّ موضعها نصب على خبر كان ، تقديره : كان عاقبة مكرهم التّدمير. وقرأ الباقون بالكسر على الابتداء وهو تفسير ما كان قبله مثل قوله ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا.﴾ [٣]

---

(١) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٤٠.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٩٤ ، وحكاه المصنف رحمه‌الله بتصرف ليس بالنص كما هو.

(٣) عبس / ٢٤ ـ ٢٥. ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٢٩٦. وإعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

والتدمير : هو الإهلاك على وجه عظيم قطيع. واختلفوا في كيفيّة هلاكهم ، قال ابن عبّاس : (أرسل الله الملائكة تلك اللّيلة إلى دار صالح يحرسونها ، وجاءت التّسعة إلى دار صالح شاهرين سيوفهم ، فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث كانوا يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم) [1]. وقال مجاهد : (نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم بعضا ليأتوا دار صالح ، فختم عليهم الجبل فأهلكهم وأهلك الله قومهم أجمعين بصيحة جبريل عليه السلام ).

قوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا ؛﴾ أي خاوية عن الأهل والخير والنّعمة بسبب ظلمهم لم يبق فيها منهم ديّار ، قرأ العامّة (خاوية) بالنصب على الحال ، والمعنى : فانظر إلى بيوتهم خاوية بما ظلموا ؛ أي بظلمهم وشركهم أهلكناهم حتى جعلنا بيوتهم خاوية ؛ أي منازلهم ساقطة على عروشها.

وقيل : (خاوية) نصب على القطع ، تقديره : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصب ، كقوله ﴿وَلَهُ الدِّينُ واصِباً.﴾[2] وقرأ عيسى بن عمر (خاوية) بالرفع على الخبر.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) ؛ أي إنّ في إهلاكنا إيّاهم لدلالة ظاهرة وعبرة لمن علم توحيد الله وقدرته. قوله تعالى : ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ؛﴾ أي أنجينا الذين آمنوا بصالح من العذاب ﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٣) ؛ الشّرك والعقاب.

قوله تعالى : ﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ ؛﴾ أي واذكر لوطا إذ قال لقومه : ﴿أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ؛﴾ يعني اللّواطة ، سمّاها فاحشة لعظم قبحها ، ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٥٤) ؛ أي وأنتم تعلمون أنّها فاحشة. وقيل : وأنتم تبصرون بعضكم بعضا وكانوا لا يستترون.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٦٤.

(٢) النحل / ٥٢.

قوله تعالى : ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٥٥) ؛ أي تجهلون العذاب الموعود على هذه الفاحشة ، وقيل : تجهلون القيامة وعاقبة المعاصي.

قوله تعالى : ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (٥٦) ؛ أي عن أدبار الرّجال يقولون استهزاء بهم.

وقوله تعالى : ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ﴾ (٥٧) ؛ أي قدّرنا عليها أن تكون من الغابرين ؛ أي من المتخلّفين فتهلك فيمن هلك ، لا جرمها مثل جرمهم لأنّها كانت راضية بأفعالهم القبيحة فجرت مجراهم في العذاب. قوله تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً ؛﴾ أي على مسافريهم ، أي حجارة ؛ ﴿فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٥٨) ؛ فبئس المطر مطر قوم أنذرهم لوط عليه‌السلام فلم يؤمنوا.

قوله تعالى : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى ؛﴾ أي قيل للوط عليه‌السلام : قل الحمد لله على هلاك كفّار قومي. وقيل : الخطاب للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ؛ أي قل يا محمّد : الحمد لله على هلاك كفّار الأمم الخالية. وقيل : على جميع نعم الله سبحانه.

وقوله تعالى : ﴿وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى﴾ قال يعني الانبياء الذي اختارهم الله لرسالته ، وقال ابن عبّاس : (هم أصحاب محمّد صلى‌الله‌عليه‌وسلم) [1] ، وقال الكلبيّ : (هم أمّة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وسلم والّذين اصطفاهم الله لمعرفته وطاعته) [2] ، ومعنى السّلام عليهم : أنّهم سلموا ممّا عذّب به الكفار.

قوله تعالى : ﴿آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) ؛ أي قل لأهل مكّة : أعبادة الله أفضل أم عبادة من تشركون به من دونه من الأصنام ، وكان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٥٣٩). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٤٩٥).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٦٦.

إذا قرأ هذه الآية ، قال : [الله أبقى وأجلّ وأكرم ممّا تشركون][1]. قرأ عاصم وأهل البصرة (أمّا يشركون) بالياء ، وقرأ الباقون بالتّاء.

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ؛﴾ فيه إضمار كأنه قال : آلهتكم أم من الذي خلق السّموات والأرض بما فيها من العجائب والبدائع ، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً ؛﴾ يعني المطر ، ﴿فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ؛﴾ أي بساتين ، ﴿ذاتَ بَهْجَةٍ ؛﴾ أي منظر حسن وأنوار ، والحديقة : هي البستان التي يحاط عليه بما فيه من النّخل والشّجر ، فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة.

قوله تعالى : ﴿ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها ؛﴾ هذا نفي ، يعني ما قدرتم عليه ، والمعنى : ما ينبغي لكم ذلك ؛ لأنّكم لا تقدرون عليها ، ثم قال استفهاما منكرا عليهم : ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللهِ ؛﴾ أي هل معه معبود سواه أعانه على صنعه في خلق هذه الأشجار. قوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦٠) ؛ يعني كفّار مكّة قوم يعدلون الأصنام بخالقهم بجهلهم. وقيل : ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي يشركون بالله غيره. وقيل : يميلون عن الطريق وعن النّظر في الدّلائل المؤدّية إلى العلم بوحدانيّة الله.

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً ؛﴾ أي مستقرّة لا تميل بأهلها ، بل جعلها مسكنا يسيرون فيها ويصرفون عليها ، فلا هي تضطرب بهم ، ولا هي حزنة غليظة مثل رؤوس الجبال.

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً ؛﴾ أي جعل وسط الأرض أودية وعيونا من عذب ومالح ، ﴿وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ ؛﴾ أي جعل على الأرض جبالا ثوابت وأودية أوتادا لها ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً ؛﴾ أي بين الملح والعذب مانعا بلطفه وقدرته فلا يختلط أحدهما بالآخر ، ولا يبغي أحدهما على صاحبه ، وقوله تعالى : ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللهِ ؛﴾ أي مع الله إله فعل شيئا من هذه الأشياء ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١) ؛ توحيد ربهم وسلطانه وقدرته.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٨٢. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٢١ من غير إسناد.

وقوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ ؛﴾ المضطرّ : المكروب المجهود المدفوع إلى ضيق من الأمور من غرق أو مرض أو بلاء أو حبس أو كرب إذا دعاه ، ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ، فيكشف ضرّه ويفرج عنه فيبعده من الغرق وينجيه ويشفيه من المرض ، ويعافيه من البلاء. وقال السديّ : (المضطرّ الّذي لا حول له ولا قوّة) ، وقال دو النّون : (هو الّذي قطع العلائق عمّا دون الله) [1].

قوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ ؛﴾ أي يأتي بقوم بعد قوم ، ويخلق قرنا بعد قرن ، وكلّما أهلك قرنا أنشأ آخرين ، فيكون كلّ خلفاء لمن قبلهم. وقوله تعالى : ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللهِ ؛﴾ أي إله سوى الله فعل ذلك ، ﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) ؛ أي قليلا ما تتّعظون.

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؛﴾ معناه : أمّن يرشدكم إلى الطريق في ظلماء اللّيل في البرّ والبحر إذا سافر ، ثم بما خلق لكم من القمر والنّجوم والمسالك ، وهذا كقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ، [2] ويجوز أن يكون المراد بالظّلمات الشّدائد ، ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؛﴾ أي قدّام المطر ، والنّشر : جمع نشور ؛ وهي الرياح التي تأتي بالسّحاب ، قوله تعالى : ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللهِ تَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣) ؛ أي جلّ وعزّ أن يكون له شريك.

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؛﴾ معناه : أمّن يبدأ الخلق في الأرحام من النّطفة ثم يميته ثم يعيده للبعث والنّشور ، وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي يرزقكم من السّماء المطر ، ومن الأرض النبات والزّرع ، وقوله تعالى : ﴿أَإِلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ ؛﴾ أي حجّتكم فيما تدّعونه من إله سواه ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٦٤) ؛ أي مع الله آلهة أخرى تصنع شيئا من هذه الأشياء.

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٧ ص ٢١٩ ، ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٢٣.

(٢) الأنعام / ٩٧.

قوله تعالى : ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ؛﴾ أي قل لهم يا محمّد : ﴿لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني الملائكة ، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ يعني الناس ، لا يعلم أحد منهم شيئا من الغيب من وقت نزول العذاب وقيام السّاعة وغير ذلك مما غاب عن العباد ، ولا يعلم ذلك إلّا الله عزوجل وحده ، ﴿وما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥) ؛ أي ولا يدرون متى يبعثون من القبور ، والأصل في ﴿أَيَّانَ﴾ (أيّ) و (إن) ضمّنا وجعلا أداة واحدة ، قالت عائشة : (من زعم أنّه يعلم ما في غد ، فقد أعظم الفرية على الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾) [(١)].

قوله تعالى : ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ؛﴾ فيه قراءتان ، قرأ الحسن والأعمش وشيبة ونافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ بكسر اللام وتشديد الدال ؛ أي تدارك وتتابع عليهم في الآخرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً﴾ [(٢)] ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ومجاهد (بل أدرك) من الإدراك ؛ أي تبع ولحق [(٣)] ، كما يقال : أدركه علمي ؛ أي بلغه ولحقه. قال ابن عبّاس : (يريد ما جهلوه في الدّنيا ، وسقط علمه عنهم علموه في الآخرة) [(٤)].

وقال السديّ : (اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكّوا ولم يختلفوا). وقال مقاتل : (بل علموا في الآخرة حينما عاينوها ما شكّوا فيه وعموا عنه في الدّنيا) [(٥)]. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها ؛﴾ أي بل هم اليوم في الدّنيا في شكّ من السّاعة ، ﴿بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ﴾ (٦٦) ؛ جمع عم ، وهو عميّ القلب ، وقيل : معنى ﴿بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ﴾ متحيّرون بترك التأمّل ، يقال : رجل عمه وعامه وعم ، إذا كان متحيّرا ، وقوم

---

(١) رواه مسلم في الصحيح : كتاب الإيمان : باب (٧٧) : الحديث (٢٨٧ / ١٧٧).

(٢) الأعراف / ٣٨.

(٣) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٤٣.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦٠١). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٥٤١).

(٥) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٨٢.

عمون ؛ أي متحيّرون ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾ أي لحق علمهم ذلك بما نصب لهم من الأدلّة ، بل هم في شكّ منها بترك التأمّل.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ (٦٧) معناه : وقال كفّار مكّة : إذا صرنا ترابا وآباؤنا أإنّا لمخرجون من القبور أحياء؟

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ وُعِدْنا هذا ؛﴾ الذي تخوّفنا به من البعث والنّشور ، ووعد آباؤنا من قبل ، فما وجدنا لذلك حقيقة ، وما هذا الذي يعدنا محمّد إلّا أكاذيب الأوّلين. وقيل : معناه : لقد وعدنا هذا البعث ، ﴿نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ﴾ قبل محمّد وليس ذلك بشيء ، ﴿إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) ؛ أي أحاديثهم وأكاذيبهم التي كذبوها.

قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي قل يا محمّد : ﴿سِيرُوا﴾ ؛ أي سافروا وتردّدوا في الأرض ، ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩) ؛ آخر أمر المكذّبين بالرّسل أهلكهم الله بأنواع العقوبات.

قوله تعالى : ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ؛﴾ أي لا تحزن على تكذيبهم إيّاك ولا إهلاكهم إن لم يؤمنوا ، وذلك أنّ النبيّ ﷺ كان حريصا على إيمانهم ونجاتهم ، ﴿وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٧٠) ؛ أي لا يضيق صدرك يا محمّد بما يمكرونه ، وسيظهرك الله عليهم ، نزلت هذه الآية في المستهزئين الذين اقتسموا أعقاب مكة ، وقد مضت قصّتهم.

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٧١) ؛ أي يقولون على وجه التّكذيب : ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ﴾ الذي يعدنا به في الدّنيا والآخرة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في أنه يكون.

قوله تعالى : ﴿قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٢) أي قل يا محمّد : ﴿عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي دنا لكم وركبكم بعض ما تستعجلون به من العذاب ، لا يجوز أن تكون ﴿عَسى﴾ في هذا الموضع بمعنى الشّكّ ، إنّما هو بمعنى الإيجاب على وجه التّخويف ، قال ابن عبّاس : ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ ؛ أي قرب

لكم) [1] وقيل : حضر لكم.

والمعنى : أنّ الله تعالى أمر نبيّه ﷺ أن يقول للذين يستعجلون بالعذاب : قد دنا لكم بعض ما تستعجلون ، فكان بعض الذي دنا لهم القتل ببدر ، والقحط الذي سلّط عليهم عقيب هذه الآية حتى أكلوا الجيف. والمعنى في ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي ردفكم ، فأدخل اللّام فيه كما أدخلها في قوله تعالى : ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[2] و ﴿لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ﴾ ، [3] قال الفرّاء : (اللّام صلة زائدة ، كما يقولون نقدته ونقدت له) [4].

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ؛﴾ قال مقاتل : (معناه : لذو فضل على أهل مكّة حتّى لا يعجلهم بالعذاب) [5]﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) ؛ وقيل : لذو فضل عليهم بإمهالهم والإنعام عليهم ، ولكنّهم لا يشكرون فضله عليهم ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ؛﴾ أي ما تخفي صدورهم من البغض والعداوة ، ﴿وَما يُعْلِنُونَ﴾ (٧٤) ؛ بألسنتهم من الكفر والتكذيب وعدائه ﷺ فيجازيهم على ذلك.

قوله تعالى : ﴿وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٥) ؛ أي وما من جملة غائبة خافية على أهل السّماء والأرض ، إلّا وهو مكتوب في اللّوح المحفوظ بيّن فيه.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ ؛﴾ أي بيّن لبني إسرائيل ، ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) ؛ كاختلاف اليهود والنّصارى في المسيح وفي غيره من الأنبياء ، وكاختلافهم في صفة النبيّ ﷺ والمبشّر

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦٠٦).

(٢) الأعراف / ١٥٤.

(٣) يوسف / ٤٣.

(٤) في معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ بلفظ قريب ؛ قال : (كما قال بعض العرب : نفذت لها مائة ، وهو يريد : نفذتها مائة). ونقل البغوي قول الفراء كما حكاه الطبراني ، ينظر : معالم التنزيل : ص ٩٦٧. والجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٣٠.

(٥) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٨٥.

به في التّوراة ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧) ؛ أي وإنّ القرآن لهدى من الضّلالة ورحمة من العذاب لمن آمن به.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ؛﴾ أي يقضي بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة بحكمة ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٨) ؛ أي العزيز بالانتقام من الكفّار ، العليم بهم وبعقوبتهم ، ولا يمكن ردّ قضائه.

وقوله تعالى : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ؛﴾ أي ثق بالله يا محمّد ، وفوّض أمرك إليه ، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩) ؛ أي على طريق الإسلام ، وهذا تسلية للنبيّ ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى ؛﴾ هذا مثل للكفّار ، شبّه الله كفّار مكّة بالأموات ، تقول كما لا يسمع الميّت النداء ، كذلك لا يسمع الكافر النداء ، ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٨٠) ؛ قال قتادة : (إنّ الأصمّ لو ولّى مدبرا وناديته لم يسمع ، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان) [١] «والمعنى : أنهم لفرط» [٢] إعراضهم عن ما يدعون إليه من التوحيد كالميّت الذي لا سبيل إلى إسماعه ، وكالأصمّ الذي لا يسمع.

قوله تعالى : ﴿وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ ؛﴾ أي وما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى عن قلبه الإيمان ، وقيل : معناه : كما لا يمكن إرشاد الأعمى إلى قصد الطّريق بالأمارات الدالّة على الطريق ، كذلك لا يمكن هداية القوم الذين عميت بصائرهم عن آيات الله ، وليس على الرّسل عليهم‌السلام إلّا الدعاء إلى الله تعالى.

وقرأ حمزة والأعمش : (وما أنت تهدي العمي) بالتّاء ونصب الياء على الفعل [٣] هاهنا وفي الرّوم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٥٨١).

(٢) ما بين «» غير واضح في المخطوط ، وضبطت على عبارة البغوي في معالم التنزيل.

(٣) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٤٦.

قوله تعالى : ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ؛﴾ ما سمع سماع إفهام إلّا من يؤمن بآياتنا ويطلب الحقّ بالنظر في القرآن. وقال مقاتل : (إلّا من يصدّق بالقرآن أنّه من الله)[1]﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨١) ؛ أي مخلصون بتوحيد الله ، والمعنى ما سمع دعوتك سماع القبول إلّا من يطلب الحقّ بالنظر في آيات الله ، فلا بدّ أن يسلم في ظهور الدّلائل.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ؛﴾ معناه : وإذا وجب القول عليهم بالسّخط والعذاب عند قرب السّاعة ﴿أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ ، فقال قتادة : (إذا غضب الله عليهم وأوجب أن ينزل بهم ما قال الله وحكم به من عذابه وسخطه عليهم)[2] أي على الكفّار الذين تخرج عليهم الدّابة ، وهو قوله تعالى : ﴿أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر. قال مخلّد بن الحسين[3] : (لا تخرج الدّابّة حتّى لا يبقى أحد يريد أن يؤمن). قالوا : وتخرج الدّابة من صدع في الصّفا.

وروي أنه تخرج بين الصّفا والمروة ، ولا تخرج إلّا رأسها وعنقها ، فيبلغ رأسها السحاب فيراها أهل المشرق والمغرب فيسمعون كلامها باللّسان ، فتقول لهم : أيّها الكفّار مصيركم إلى النار ، ثم تقبل على المؤمنين فتقول : أيّها المؤمنون مصيركم إلى الجنّة ، فتميّز عند ذلك أهل الجنّة من أهل النار.

ويجوز أن يكون قوله ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلم وهو الجراحة ، كما روي في قراءة ابن عبّاس (تكلمهم) بنصب التاء وكسر اللام ؛ أي تسمهم ، تكتب على وجه الكافر : إنّه كافر ، وعلى جبين المؤمن : إنّه مؤمن.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٨٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦١٣ ـ ٢٠٦١٤).

(٣) مخلّد بن الحسين الأزديّ المهلّبي البصريّ ، ترجم له ابن حجر في التهذيب : الرقم (٦٧٩٨) ؛ وقال : (قال العجلي : ثقة رجل صالح ، كان من عقلاء الرجال). وقال أبو داود : (كان من أعقل أهل زمانه) مات سنة احدى وتسعين. وله ترجمة في حلية الأولياء : ج ٨ ص ٢٦٦.

قال أبو هريرة : (إنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان) [1] ، وعن ابن عمرو بن العاص أنه قال : (تكتب على وجه الكافر نكتة سوداء ، فتعثوا في وجهه حتى يسود وجهه ، وتكتب على وجه المؤمن نكتة بيضاء ، فتعثوا في وجهه حتى يبيض وجهه ، فتعرف المؤمن من الكافر عند ذلك) [2]. وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال : (إذا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان ذلك الوقت وقت أشراط الساعة وخروج الدابة) [3].

قوله تعالى : ﴿أَنَّ النَّاسَ ؛﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ بفتح الألف على وجه الحكاية من قول الدابة وعلى معنى : أخرجنا الدابة بأن الناس ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢) ؛ وقرأ الباقون بالكسر على الابتداء.

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [بئس الشعب جياد . مرتين أو ثلاثا .] قالوا : ولم ذلك يا رسول الله؟ قال : [تخرج منه الدابة ، فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين][4].

وقال بعضهم : كنت مع ابن عباس بمكة ، فبينما هو على الصفا إذ قرع الصفا بعصاة وهو محرم وهو يقول : إن الدابة تسمع قرع عصاي هذه ، قال ابن عباس : (هي دابة ذات زغب وريش ، ولها أربعة قوائم) [5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٢ ص ٢٩٥ مرفوعا إلى النبي ﷺ. والترمذي في الجامع : أبواب تفسير القرآن : الحديث (٣١٨٧). وابن ماجة في السنن : كتاب الفتن : الحديث (٤٠٦٦). والطبري في جامع البيان : الحديث (٢٠٦٢٤).

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٣٧٩ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦١٦) عن عطية العوفي عن ابن عمر. وذكره القرطبي من قول أبي سعيد وابن عمرو في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٣٤.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٧٠. وفي الدر المنثور : ج ٦ ص ٣٨٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن مردويه والبيهقي في البعث).

(٥) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٣٧٨ ؛ قال السيوطي : أخرجه عبد بن حميد.

وعن أبي هريرة قال : [تخرج الدابة ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فيجلوا وجه المؤمن بالعصا ، وتحطم وجه الكافر بالخاتم][1] والمحاطم هي الأنوف ، واحدها محطم بكسر الطاء ، وعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : [دابة الأرض طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب][2].

وعن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : (رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين من مفاصلها اثنا عشر ذراعا ، معها عصا موسى وخاتم سليمان) [3].

وقال ﷺ : [تخرج الدابة من الصفا ، فيبلغ صدرها الركن اليماني ، ولم يخرج ذنبها بعد ، وهي دابة ذات قوائم وبر][4]. وعن ابن عمر أنه قال : (تخرج الدابة من صدع في الصفا ، تجري كجري الفرس ثلاثة أيام ، وما خرج ثلثها) [5].

وقال ﷺ : [بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تضطرب الأرض تحتهم حتى يتحرك القنديل في المسجد ، وينشق الصفا مما يلي المسعى ، فتخرج الدابة ، فأول ما يبدأ منها رأسها ، ذات وبر ورأس لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ، تسمي الناس مؤمنا وكافرا ، أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري ، وتكتب بين عينيه : مؤمن ، وأما الكافر فتكتب بين عينيه نكتة سوداء ، وتكتب بين عينيه : كافر][6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٢ ص ٢٩٥ مرفوعا إلى النبي ﷺ. والترمذي في الجامع : أبواب تفسير القرآن : الحديث (٣١٨٧). وابن ماجة في السنن : كتاب الفتن : الحديث (٤٠٦٦). والطبري في جامع البيان : الحديث (٢٠٦٢٤).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٣٥ ؛ قال القرطبي : (ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة ، وحكاه بطوله). وأخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٠٦٢٠) عن حذيفة ابن أسيد.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٦٩.

(٤) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٣٨٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن مردويه والبيهقي في البعث).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦١٨).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٠٦٢٣). والبغوي في معالم التنزيل : ص ٩٦٩.

وعن الحسن : (أن موسى سأل ربه أن يريه الدابة ، فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن تذهب في السماء ولم تخرج رجلاها ، فنظر منها منظرا فظيعا ؛ فقال : رب ردها ، فردها).

قوله تعالى : ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ قال مقاتل : (تكلمهم بالعربية ، فتقول : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، تخبر أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث والثواب والعقاب) (1).

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا ؛﴾ الفوج : الجماعة من الناس كالزمرة والجماعة ، وإنما يحشر الرؤساء والمتبوعين ، والمعنى : يوم يجمع من كل أمة جماعة من المكذبين بالرسول ، وقوله تعالى : ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٢) ؛ أي يحبسون ، يتلاحقون فيساقون إلى الموقف لإقامة الحجة عليهم. وقيل : يحشر أولهم على آخرهم ليجتمعوا ثم يساقوا إلى النار ، وقال ابن عباس : (﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يدفعون) (2).

قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً ؛﴾ أي حتى إذا جاؤ إلى موقف الحساب ، قال الله لهم : ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي﴾ استفهام بمعنى الإنكار عليهم ، والوعيد لهم ، قال ابن عباس : (معناه : أكذبتم أنبيائي وجحدتم فرائضي وحدودي) ولم تحيطوا بها علما ؛ أي ولم تخبروا حتى تفقهوا وتسمعوا. وقيل : معناه : ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً﴾ أنها باطل. والمعنى : أكذبتم بآياتي غير عالمين بها ولم تتفكروا في صحتها ، بل كذبتم بها جهلا بغير علم. وقوله تعالى : ﴿أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) ؛ حين لم تبحثوا عنها ، ولم تتفكروا فيها ، وهذا توبيخ لهم وإن كان بلفظ السؤال.

قوله تعالى : ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا ؛﴾ أي وجب العذاب عليهم بما أشركوا ، ﴿فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٥) ؛ بحجة عن أنفسهم ، بل يختم على أفواههم. ونظيره قوله تعالى : ﴿هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ، وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾(3).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٨٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦٣٢).

(٣) المرسلات / ٣٥ - ٣٦.

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ؛﴾ أي مضيئا لطلب المعاش ، قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦) ؛ أي إن فيما ذكرنا من اختلاف الليل والنهار لدلالات للمؤمنين والكافرين ، ولكنه خص المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالذكر.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ؛﴾ قال ابن عباس : (يعني النفخة الأولى ؛ وهي نفخة الصعق) ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) ؛﴾ أي ماتوا من شدة الخوف كقوله تعالى ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[1] ، والمعنى : بلغ منهم الفزع إلى أن يموتوا.

وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ؛﴾ قال ابن عباس : (يريد الشهداءو هم أحياء عند ربهم يرزقون ،) وقال الكلبي ومقاتل : (يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت). وقوله تعالى : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ (٨٧) ؛ أي كل الخلائق يأتون إلى موضع الجزاء أذلاء صاغرين.

وأما النفخة الثانية فتسمى نفخة البعث ، وبينهما أربعون سنة. ويقال : ينفخ في الصور ثلاث نفخات ؛ الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق وهو الموت ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين.

وعن عبد الله بن عمر قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الصور ، فقال : [هو قرن ينفخ فيه][2]. وقال مجاهد : (هو كهيئة البوق) [3].

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [لما فرغ الله من السماوات والأرض ، خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخص يبصر نحو العرش ، ينظر متى يؤمر] قال : قلت يا رسول الله! وما الصور؟ قال : [هو قرن]

---

(١) الزمر / ٦٨.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند : ج ٢ ص ١٦٢. وأبو داود في السنن : كتاب السنة : الحديث (٤٧٤٢). والترمذي في الجامع : أبواب صفة القيامة الحديث (٢٤٣٠).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦٣٥).

قلت : كيف هو؟ قال : [عظيم ، والذي بعثني بالحق إن عظم دائرة فيه كعظم السماوات والأرض. فينفخ ثلاث نفخات ؛ النفخة الأولى نفخة الفزع ، والنفخة الثانية نفخة الصعق ، والنفخة الثالثة نفخة القيام لرب العالمين.

فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول له : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع منها أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله ، ويأمره أن يمدها ويطيلها وهو الذي يقول الله ﴿وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ﴾(١) ، ويسير الله الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا ، وترج الأرض بأهلها رجا ، فتكون كالسفينة الموثقة في البحر ، تضربها الأمواج وتلقيها الرياح ، وكالقنديل المعلق ترجه الرياح ، وهو قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ﴾(٢) فتميد الأرض بالناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ؛ وتضع الحوامل ؛ ويشيب الأطفال ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع ، حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ، وتولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضا وهو قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّنادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ﴾(٣). فبينما هم كذلك ؛ إذ تصدعت الأرض ، وتصير السماء كالمهل ، وتنشق الأرض وتنشر نجومها وتكسف شمسها وقمرها. ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق ، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله](٤).

وقوله تعالى : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ﴾ ، قرأ الأعمش وحمزة وخلف ﴿أَتَوْهُ﴾ مقصورا على الفعل بمعنى جاؤه. وقرأ الباقون بالمد وضم التاء (٥) ، قوله تعالى : ﴿داخِرِينَ﴾ أي صاغرين.

قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ ؛﴾ أي تحسبها يا محمد واقفة مستقرة فكأنها وتظنها ساكنة لا تتحرك في رأي العين ، وهي

---

(١) ص / ١٥.

(٢) النازعات / ٦ ـ ٨.

(٣) غافر / ٣٢ ـ ٣٣.

(٤) أخرجه الطبري بطوله في جامع البيان : مج ١١ ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٥) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٤٦.

تسير في الهواء سيرا سريعا ، وترى السفينة تحسبها واقفة وهي سائرة ، وقوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾ تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتستوي بها.

قوله تعالى : ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ؛﴾ نصب على المصدر ؛ كأنه قال : صنع الله ذلك صنعا على الإتقان والإحكام. وقيل : على الإغراء ؛ أي أبصروا صنع الله الذي أتقن كل شيء ؛ أي أحكم وأبرم ما خلق. ومعنى الإتقان في اللغة : الإحكام للأشياء.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨) ؛ قرأ نافع وابن عامر والكوفيون بالتاء [١] ، والباقون بالياء ، والمعنى : إنه خبير بما يفعله أعداؤه من المعصية والكفر ، وبما يفعله أولياؤه من الطاعة.

قوله تعالى : ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها ؛﴾ معناه : من وا في عرصات القيامة بالحسنات ، فله ثواب آجر وأنفع منها. وقيل : معناه : من جاء بالإيمان. قال أبو معشر : (كان إبراهيم يحلف ما ينثني : أن الحسنة لا إله إلا الله) [٢]. وقتادة : (الحسنة هي الإخلاص) [٣]. والمعنى : من جاء بكلمة الإخلاص بشهادة أن لا إله إلا الله يوم القيامة ؛ أي من وا في يوم القيامة بالإيمان فله خير منها. قال ابن عباس : (فمنها يصل الخير إليه) [٤] أي له من تلك الحسنة خير يوم القيامة ، وهو الثواب والأمن من العذاب. و ﴿خَيْرٌ﴾ هاهنا اسم من غير تفضيل ؛ لأنه ليس خير من لا إله إلا الله ، ولكنه منها خير.

وقال بعضهم : دخلت على علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال لي : (ألا أنبؤك بالحسنة التي من جاء بها أدخله الله الجنة ، والسيئة التي من جاء بها أدخله الله النار ، ولم يقبل منه عملا؟) قلت : بلى ، قال : (الحسنة حبنا ، والسيئة بغضنا) [٥]. ومعنى ﴿خَيْرٌ مِنْها﴾ : رضوان الله. وقيل : الأضعاف بعطية الله بالواحدة عشرا فصاعدا.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٤٧ ؛ قال : (وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي : بالتاء) وقال : (فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالياء).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦٥١).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦٥٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٦٦٠).

(٥) لم أقف عليه.

قوله تعالى : ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (٨٩) ؛ قرأ أهل الكوفة ﴿فَزَعٍ﴾ منونا بنصب الميم ، وقرأ الباقون بالإضافة ، واختاره أبو عبيد لأنه أعم ويكون شاملا لجميع فزع ذلك اليوم ، وإذا كان منونا كان الفزع دون فزع.

وقال أبو علي الفارسي : (إذا نون يجوز أن يكون الفزع واحدا ، ويجوز أن يعني به الكثرة لأنه مصدر ، والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة الألفاظ كقوله سبحانه : ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(١)) (٢). قال الكلبي : (إذا أطبقت النار على أهلها فزعوا فزعة لم يفزعوا مثلها أبدا ، وأهل الجنة آمنون من ذلك الفزع).

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ؛﴾ أي من وا في بالشرك والكبائر ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي ألقوا على وجوههم في النار ، ويقول لهم خزنة جهنم : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠) ؛ في الدنيا من الشرك.

قوله تعالى : ﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها ؛﴾ أي قل يا محمد للمشركين : ﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ يعني مكة ﴿الَّذِي حَرَّمَها﴾ أي الذي حرم فيها ما أحل في غيرها من الاصطياد ؛ والاختلاء ؛ والقتل ؛ والسبي ؛ والظلم ، وأن لا يهاج فيها أحد حتى يخرج منها ، فلا يصاد صيدها ولا يختلى خلالها.

وقيل : معنى ﴿حَرَّمَها﴾ أي عظم حرمتها ، فجعل لها من الأمن ما لم يجعل لغيرها.
وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ؛﴾ لأنّه خالقه ومالكه. وقرأ ابن عبّاس (الّتي (٣) حرّمها) أشار إلى البلدة.

---

(١) لقمان / ١٩.

(٢) قاله في الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٣) (التي) سقطت من المخطوط ، وضبطت كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج : ج ٤ ص ٩٨.

وقوله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) ؛ أي وأمرت أن أكون من المسلمين المخلصين لله بالتّوحيد ، ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ ؛﴾ عليكم يا أهل مكّة ، يريد تلاوة الدّعوة إلى الإيمان. وفي الآية تعظيم لأمر الإسلام وتلاوة القرآن.

قوله تعالى : ﴿فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ؛﴾ أي من اهتدى فإنّما منفعة اهتدائه راجعة إلى نفسه ، ﴿وَمَنْ ضَلَّ ؛﴾ أي ومن ضلّ عن الإيمان والقرآن وأخطأ طريق الهدى ، ﴿فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (٩٢) ؛ أي من المخوّفين ، فليس عليّ إلّا البلاغ ، فإنّي لم أؤمر بالإجبار على الهدى ، وليس عليّ إلّا الإنذار ، وكان هذا قبل الأمر بالقتال.

قوله تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ؛﴾ أي قل الحمد لله على نعمه ، ﴿سَيُرِيكُمْ آياتِهِ ؛﴾ يعني العذاب في الدّنيا ، والقتل ببدر ، ﴿فَتَعْرِفُونَها ؛﴾ حين تشاهدونها ، ثم أراهم ذلك ، وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وعجّلهم الله إلى النار ، ﴿وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) ؛ من المنكر والكفر والفساد ، وهذا وعيد لهم بالجزاء على أعمالهم.

وعن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنّه قال : [من قرأ سورة النّمل كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من كذب وصدّق بموسى وهود وشعيب وصالح ولوط وإبراهيم واسحق ويعقوب وسليمان عليهم‌السلام ، وخرج من قبره وهو ينادي : لا إله إلّا الله][(١)].

**آخر تفسير سورة (النمل) والحمد لله رب العالمين**

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٧ ص ١٨٨. وذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٣٧٧ ، وإسناده واه.

## سورة القصص

سورة القصص مكّيّة إلّا آية واحدة ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ الآية ، فإنّها نزلت بالجحفة بين مكّة والمدينة ، وعدد حروف السّورة خمسة آلاف وثمانمائة حرف ، وألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة ، وثمان وثمانون آية.

وعن رسول الله ﷺ أنّه قال : [من قرأ سورة القصص لم يبق ملك في السّموات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقا ، كلّ شيء هالك إلّا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون](1).

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ (٢) ؛ قد تقدّم تفسيره ، وقوله تعالى : ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ؛﴾ أي نقرأ عليك خبر موسى وفرعون بالصّدق بينهما ، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي تجبّر وتكبّر في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً ؛﴾ أي فرقا وأصنافا في الخدمة والتّسخير ؛ يكرم قوما ويذلّ آخرين. وقوله تعالى : ﴿يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ ؛﴾ يعني بني إسرائيل ، ثم فسّر ذلك فقال : ﴿يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ ؛﴾ يقتل الأبناء ويترك البنات فلا يقتلهنّ. وقيل : معناه : يذبح أبناءهم صغارا ويبقي نساءهم للخدمة.

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٧ ص ٢٣٣. وذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٤٢٣.

وسبب ذلك : أنّ بعض الكهنة قالوا له : إنّ مولودا يولد في بني إسرائيل يكون سببا لذهاب ملكك. قال الزجّاج : (والعجب من حمق فرعون إن كان ذلك الكاهن عنده صادقا فما ينفع القتل؟! وإن كان كاذبا فما معنى القتل؟) [1]. وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤) ؛ يعني بالقتل والعمل بالمعاصي.

قوله تعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي نريد أن ننعم على الّذين استضعفوا في الأرض وهم بنو إسرائيل ، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ؛﴾ يقتدى بهم في الخير. قال قتادة : (ولاة وملوكا) ودليله قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾[2]﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ (٥) ؛ لملك فرعون ، ولمساكن قومه ، يرثون ديارهم وأموالهم. قوله تعالى : ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي يمكّنهم ما كان يملك فرعون.

قوله تعالى : ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٦) ؛ أي ما كانوا يخافونه من هذا المولود الذي به يذهب ملكهم على يديه ، وذلك أنّهم أخبروا أنّ هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل ، فكانوا على وجل منهم فأراهم الله تعالى ﴿ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي ما كانوا يخافون من جهتهم من ذهاب ملكهم على أيديهم.

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائيّ وخلف : (ويري فرعون) بالياء وما بعده رفعا على أنّ الفعل لهم ، وقرأ الباقون بالنّون مضمومة وما بعده نصب بوقوع الفعل عليهم.

قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ؛﴾ لم يرد بالوحي وحي الرّسالة ، وإنّما أراد الإلهام كما في قوله تعالى ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[3]. ويقال : أراها الله في المنام فعرفته بتفسير الرّؤيا. وقال بعضهم : أتاها ملائكة خاطبوها بهذا الكلام. واسم أمّ موسى نوخابد بنت لاوي بن يعقوب.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٩٩.

(٢) المائدة / ٢٠.

(٣) النحل / ٦٨.

قال وهب بن منبه : (لما حملت أمّ موسى بموسى كتمت أمرها عن [1] جميع النّاس فلم يطّلع على حملها أحد من خلق الله تعالى ، فلما كانت السّنة التي ولد فيها موسى بعث فرعون القوابل يفتّشن النساء ، وحملت أمّ موسى ولم ينتأ بطنها ، ولم يتغيّر لونها ، ولم يظهر لبنها ، وكانت القوابل لا تتعرض لها ، فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته أمّه ولا رقيب عليها ولا قابلة ، لم يطّلع عليه أحد إلّا أخته) [2].

ثم أوحى الله إليها : أن أرضعيه ، ﴿فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ؛﴾ قال : فكتمته ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك ، فلما خافت عليه عملت له تابوتا مطبقا ومهدت له فيه ، ثم ألقته في البحر ليلا كما أمرها الله ، فلما أصبح فرعون جلس في مجلسه على شاطئ النّيل ، فبصر بالتابوت ، فقال لمن حوله : ائتوني بهذا التابوت ، فأتوا به ، فلما وضع بين يديه فتحوه ، فوجدوا فيه موسى ، فلما نظر إليه فرعون إغتاظ وقال : كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟!

وكان لفرعون امرأة يقال لها آسية من خيار النّساء من بنات الأنبياء ، وكانت أمّا للمسلمين ترحمهم وتتصدّق عليهم ، فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه : هذا الولد أكبر من ولد سنة وأنت إنّما أمرت أن تذبح الولدان بهذه السّنة ، فدعه يكون قرّة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولدا ، فقال فرعون لها : عسى أن ينفعك ، فأما أنا فلا أريد نفعه.

قال وهب : (لو قال فرعون كما قالت امرأته : عسى أن ينفعنا ؛ لنفعه الله به ، ولكنه أبى أن يقول للشّقاء الذي كتبه الله عليه ، فتركه فرعون ولم يقتله) [3].

---

(١) في المخطوط : (وكلمته من) ، والصحيح كما أثبتناه ؛ لأنه تصحيف من الناسخ.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٧٣.

(٣) نقله ابن عطية في المحرر الوجيز : ص ٩٧٤ من قول ابن عباس. ونقل الطبري هذا التفسير في جامع البيان : الحديث (٢٠٦٩٧) : عن السدي وقتادة وابن عباس ، وقال : (فقال رسول الله : [والّذي يحلف به لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرّت ، لهداه الله به كما هدى به امرأته ، ولكنّ الله حرمه ذلك]).

قوله تعالى : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي أرضعيه ما لم تخافي عليه الطلب ، فإذا خفت عليه الطلب ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي في البحر ، فقالت : يا رب ؛ إنّي أخاف عليه حيتان البحر ، فأمرت أن تجعله في تابوت مقيّر ، فذهبت إلى النّجّار ، فأمرته أن يصنع لها تابوتا على قدره ، فعرف ذلك فذهب إلى الموكّلين بذبح بني إسرائيل ليخبرهم بذلك ، فلما انتهى إليهم أعقل لسانه فلم يطق الكلام ، فجعل يشير بيده فلم يفهموا ، فقال كبيرهم : اضربوه ؛ فضربوه وأخرجوه ، فلما انتهى النجّار إلى موضعه ردّ الله عليه لسانه ، فرجع إليهم ليخبرهم فاعتقل لسانه ، فجعل يشير إليهم بيده ، فلم يفهموه فضربوه ، ففعل ذلك ثلاث مرّات ، فعرف أنه من عند الله تعالى ، فخرّ لله ساجدا وأسلم ، ثم صنع التابوت وسلّمه إلى أمّ موسى فوضعته فيه وألقته في النّيل.

قوله تعالى : ﴿وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي ؛﴾ أي لا تخافي من الغرق والهلاك ، ولا تحزني لفراقه ، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) ؛ إلى فرعون وقومه.

قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ؛﴾ قال ابن عبّاس : (لما ألقته أمّه في البحر أقبل تهوي به الأمواج حتّى اختار منزل فرعون ، فخرجت جواري فرعون تسقين الماء ، فأبصرت التّابوت بين الشّجر والماء فأخرجته وذهبت به إلى امرأة فرعون ، فذلك قوله تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾.

وقوله تعالى : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً ؛﴾ هذه (لام) العاقبة لأنّ أحدا لا يلتقط الولد ليكون له عدوّا ، ونظير هذا قولهم : لدّوا للموت وابنوا للخراب. وقوله تعالى ﴿وَحَزَناً﴾ قرأ أهل الكوفة إلّا عاصما بضمّ الحاء وجزم الزّاي وهما لغتان ، مثل السّقم والسّقم.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ﴾ (٨) ؛ أي متعمّدين في الإقامة على الكفر والمعصية ، يقال : خطأ فلان يخطئ خطأ إذا تعمّد الذنب وأخطأ إذا وقع منه على غير الصّواب ، وقيل : معناه : إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا آثمين عاصين.

قوله تعالى : ﴿وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ؛﴾ وذلك أنّ فرعون همّ بقتله ، فقالت له امرأته : ليس من أولاد بني إسرائيل ، وقد أتانا الله به من أرض أخرى ، ﴿لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا﴾ ، فلا تقتله أيّها الملك ، فهو قرّة عين لي ولك ، وعسى أن ينفعنا في أمورنا ، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٩) ؛ أنّ هلاكهم على يديه ، وقيل : وهم لا يشعرون أنّي أفعل ما أريد ولا أفعل ما يهوون.

قوله تعالى : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ مشتقّ من القرور ؛ وهو الماء البارد ، ومعنى قولهم : أقرّ الله عينك ؛ أي أبرده معك ؛ لأن دمعة السّرور باردة ، ودمعة الحزن حارّة.

قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً ؛﴾ أي أصبح قلب أمّ موسى وهي نوخابد بنت لاوي بن يعقوب فارغا من كلّ شيء إلّا عن همّ موسى وذكره. قوله تعالى : ﴿إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها ؛﴾ أي لو لا أن شددنا على قلبها بالصبر عن إظهار ذلك ، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) ؛ أي من المصدّقين بما سبق من الوعد ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ولو أظهرت لكان ذلك سببا لقتله.

والرّبط على القلب : هو إلهام الصّبر وتقويته. وقيل : معناه : وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغا من الصّبر على فراق موسى لو لا أن ربطنا على قلبها لأبدت به. وقيل : فارغا من الحزن لعلمها بأنه لم يعرفه. قرأ فضالة بن عبيد [(١)] (وأصبح فؤاد أمّ موسى فزعا) بالزّاي والعين من غير ألف من الفزع [(٢)].

قوله تعالى : ﴿وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ؛﴾ أي قالت أمّ موسى لأخته ـ واسمها مريم ـ : ابتغي أثره وانظري أين وقع ؛ لتعلمي خبره وإلى من صار ، فذهبت في إثر التّابوت ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ ؛﴾ بموسى ، ﴿عَنْ جُنُبٍ ؛﴾ أي عن بعد قد

---

(١) فضالة بن عبيد بن ناقد ، أبو محمد الأنصاري ، شهد أحدا وما بعدها رضى الله عنه ، روى عن النبي ﷺ وعن عمر ، وأبي الدرداء وجماعة من الصحابة. مات سنة ثلاث وخمسين من الهجرة ، وقيل ، سنة سبع وستين ، والأول أصح. ترجم له ابن حجر في التهذيب : الرقم (٥٥٨٣).

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان : مج ١١ ج ٢٠ ص ٤٦ ؛ قال : (وقد ذكر ...) وذكره بلفظ (فازعا). وينظر : الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٥٥.

أخذوه ، ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (١١) ؛ أنّها قد جاءت لتعرف عن خبره.

وقال ابن عبّاس : (الجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى الشّيء البعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به) [(١)] وكانت مجانبة لتحديق النّظر إليه كيلا يعلم بما قصدت به. وقال قتادة : (كانت تنظر إليه كأنّها لا تريده) [(٢)] ، وكان يقرأ (عن جنب) بفتح الجيم وسكون النّون. وقرأ النّعمان بن سالم [(٣)] : (عن جانب) أي عن ناحية ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أنّها أخته.

قوله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ ؛﴾ المراضع جمع مرضعة ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل مجيء أمّه ، ومعنى : (حرّمنا عليه) أي منعناه ، وقد يذكر التحريم بمعنى المنع. قال الشاعر :

جاءت لسرعتي فقلت لها اصبري ... إنّي امرؤ صرعي عليك حرام [(٤)]

أي ممتنع.

وذلك أنّ الله تعالى أراد أن يردّه إلى أمّه ، فمنعه من قبول ثدي المراضع ، فلما تعذر عليهم رضاعه ؛ ﴿فَقالَتْ﴾ أخته : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ؛﴾ أي يضمنون لكم القيام به ورضاعه ، ﴿وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ﴾ (١٢) ؛ أي يشفقون عليه وينصحونه ، قالوا لها : من؟ قالت : أمّي ، قالوا : ولأمّك لبن؟ قالت : نعم ؛ لبن أخي هارون ، وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها صبيّ ، فقالوا : صدقت. فدلّتهم على أمّ موسى ، فدفع إليها لتربيه لهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٧٢٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٧٢٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٧٢٦).

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٥٧.

(٤) نقله القرطبي بلفظ :

جالت لتصرعني فقلت اقصري ... إنّي امرؤ صرعي عليك حرام

يصف حال ناقته ، وجالت : اضطربت وقلقت ، فهو يقول : ذهبت الناقة بقلقها ونشاطها لتصرعني فلم تقدر على ذلك لحذقي بالركوب ومعرفتي به.

فلما وجد الصبيّ ريح أمّه قبل ثدييها وأتمّها الله ما وعدها وهو قوله تعالى : ﴿فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ ؛﴾ على فراقه ، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ ؛﴾ بردّ ولدها إليها ، ﴿حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) أنّ الله وعدها بردّ ولدها إليها.

قوله تعالى : ﴿وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى ؛﴾ قال مجاهد : (﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ ؛ أي ثلاثا وثلاثين سنة) ، ﴿وَاسْتَوى﴾ أي بلغ أربعين سنة [1] ، وهو قول ابن عبّاس وقتادة [2].

قوله تعالى : ﴿آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ يعني الفقه والعقل والعلم في دينه ودين آبائه ، قد تعلّم موسى وحكم قبل أن يبعث نبيّا. وقال ابن عبّاس : (لما بلغ موسى أربعين سنة آتاه الله النّبوّة). وقيل : الأشدّ : منتهى الشّباب والقوّة ، والاستواء : إتمام الخلق واعتدال الجسم في الطّول والعظم ، وإنّما يبلغ المرء هذا الحدّ في اثنين وعشرين سنة إلى أربعين سنة.

قوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤) ؛ فيه بيان أنّ إنشاء العلم والحكمة يجوز أن يكون على الإحسان ؛ لأنّهما يؤدّيان إلى الجنّة التي هي جزاء المحسنين.

قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ؛﴾ أي دخل موسى مدينة فرعون وهي مدينة يقال لها منف ، وكانت من مصر على فرسخين [3]. وقوله تعالى : ﴿عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها﴾ ، قال ابن عبّاس : (في وقت الظّهيرة عند المقيل وقد خلت الطّرق) [4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٧٤٠). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ٩ ص ٢٩٥١ : الأثر (١٦٧٤٣ ـ ١٦٧٤٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٧٤٠). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ٩ ص ٢٩٥١. الأثر (١٦٧٤٣ و١٦٧٤٤).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٥٩ ، نقله القرطبي عن مقاتل.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٧٤٩).

وقيل : دخلها بين المغرب والعشاء ، وقيل : دخلها يوم عيدهم وكانوا مشغولين عن موضع مدينتهم باللهو واللّعب ، ﴿فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ ؛﴾ أي من بني إسرائيل ، ﴿وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ ؛﴾ أي من القبط ، وكان القبطيّ يسخّر الإسرائيليّ ليحمل له حطبا إلى مطبخ فرعون ، والإسرائيليّ يأبى ذلك ، ﴿فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ ؛﴾ أي استنصره الإسرائيليّ ، ﴿عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ ، على القبطيّ ، ﴿فَوَكَزَهُ مُوسى ؛﴾ أي ضربه بجمع كفّه في صدره ، ﴿فَقَضى عَلَيْهِ ؛﴾ أي قتله فوقع القبطيّ ميّتا. وكلّ شيء فرغت منه وأتممته فقد قضيت عليه وقضيته ، والوكز : الضّرب بجمع الكفّ.

وكان موسى عليه السلام قد أوتي بسطة في الخلق وشدّة القوة والبطش ، وكان من نيّة موسى أنه لا يريد قتله ولم يتعمّد هلاكه ، بل قال له أوّلا : خلّ سبيله ، فقال : إنّما أريده ليحمل الحطب إلى مطبخ فرعون ، ﴿فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ﴾ أي قتله وفرغ من أمره ، والوكز واللّكز والهز بمعنى واحد وهو الدّفع ، ويقال : وكزه بعصاه.

فلمّا قتله موسى عليه السلام ندم على قتله وقال : لم أدر بهذا ، ثم دفعه في الرّمل ، ﴿قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ؛﴾ لأنّي كنت لا أريد قتله ، ولكن هيّج الشيطان حربي حتى ضربته. قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (١٥) ؛ أي عدوّ لبني آدم مضلّ له مبين عداوته لهم.

ثم استغفر موسى ربّه ف ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ؛﴾ بقتل القبطي قبل ورود الأمر والإذن لي فيه ، ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦) قوله تعالى : ﴿قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧) ؛ أي بما أنعمت عليّ بالمغفرة والحلم والعلم فلن أكون عونا للكافرين ، وهذا يدلّ على أنّ الإسرائيليّ الذي أعانه موسى كان كافرا.

قوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ ؛﴾ أي أصبح من عند ذلك اليوم في تلك المدينة التي فعل فيها ما فعل خائفا على نفسه من فرعون وقومه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي ينظر عاقبة أمره ، والتّرقّب : انتظار المكروه ؛ أي ينتظر سوءا يناله منهم ، ﴿فَإِذَا ؛﴾ ذلك الإسرائيليّ ، ﴿الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ؛﴾ أي يستغيثه

على رجل آخر من القبط ، ﴿قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٨) ؛ أي ضالّ عن طريق الحقّ بيّن الجدال ، يقاتل من يقاومه ، وقد قتلت أمس في سببك رجلا ، وتدعوني اليوم إلى آخر.

ثمّ أقبل موسى وهمّ أن يبطش الثانية بالقبطيّ ، ظنّ الإسرائيليّ أنه يريد أن يبطش به لقوله ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ فقال الإسرائيليّ : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس؟ ولم يكن أحد من قوم فرعون علم أنّ موسى هو الذي قتل القبطيّ حتى أفشى عليه هذا الإسرائيليّ ، وسمع القبطيّ ذلك فأتى فرعون فأخبره ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ؛﴾ وكان أيضا هذا القبطيّ الثاني سخّر الإسرائيليّ يحمل عليه حطبا.

قوله تعالى : ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي ما تريد إلّا أن تكون قتّالا في أرض مصر بالظّلم. قال الزجّاج : (الجبّار في اللّغة : الّذي لا يتواضع لأمر الله ، والقاتل بغير حقّ جبّارا) (١).

وقوله تعالى : ﴿وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٩) ؛ أي من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. فلمّا سمع القبطيّ مقالة الإسرائيليّ علم أنّ موسى هو الذي قتل القبطيّ بالأمس ، ولم يكن أحد علم ذلك قبل هذا فانطلق القبطيّ فأخبر فرعون ، فأرسل فرعون إلى أولياء المقتول أن اقتلوا موسى.

قوله تعالى : ﴿وَجاءَ رَجُلٌ ؛﴾ من شيعة موسى ، ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ؛﴾ أي من آخرها إلى موسى فأخبره بذلك ، وقوله تعالى : ﴿يَسْعى ؛﴾ أي يمشي على رجليه مسرعا وهو حزقيل بن صوريا مؤمن من آل فرعون ، ﴿قالَ ؛﴾ له : ﴿يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ؛﴾ أي أنّ الخواصّ من قوم فرعون يتشاورون في قتلك ، ﴿فَاخْرُجْ ؛﴾ من المدينة ، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢٠) ؛

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ؛ قال الزجاج : (الجبّار في اللغة : المتعظّم الذي لا يتواضع لأمر الله ، فالقاتل مؤمنا جبّار ، وكلّ قاتل فهو جبّار ، قتل واحدا وجماعة ظلما).

وقال الزجّاج : (﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ أي يأمر بعضهم بعضا بقتلك) [1]. فاخرج إنّي لك من النّاصحين في أمري لك بالخروج ، ﴿فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً ؛﴾ أي خرج موسى من المدينة ، ﴿يَتَرَقَّبُ ؛﴾ أي ينظر متى يلحق فيؤخذ ، ﴿قالَ ؛﴾ عند ذلك : ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾ (٢١) ؛ أي من فرعون وقومه أين يذهب.

قوله تعالى : ﴿وَلَمّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ ؛﴾ أي لما سار نحو مدين ، وكان قد خرج بغير زاد ولا حذاء ولا ركوبة ، بل خرج هائما على وجهه هاربا من فرعون وقومه لا يدري أين يذهب ، فخاف أن يخطئ الطريق. ومدين اسم ماء لقوم شعيب ، وبينه وبين مصر ثمانية أيّام ، سمي ذلك الماء باسم مدين بن إبراهيم عليه‌السلام.

فلمّا لم يكن لموسى علم بالطريق خشي أن يذهب يمينا وشمالا ف ﴿قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ﴾ (٢٢) ؛ أي يرشدني قصد الطريق إلى مدين ، فلمّا دعا موسى بهذا جاءه ملك على فرس فانطلق به إلى مدين. قال المفسّرون : خرج موسى من مصر بلا زاد ولا درهم ولا ركوبة إلى مدين ، وبينهما مسيرة ثمان ليال ، ولم يكن له طعام إلّا ورق الشّجر.

قوله تعالى : ﴿وَلَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ ؛﴾ أي بلغ بئرهم التي كانوا يسقون منها ، قال ابن عبّاس : (ورد ماءهم وأنّه ليرى خضرة الشّجرة في بطنه من الهزال) [2]. وقوله : ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاسِ يَسْقُونَ ؛﴾ أي وجد على ذلك الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم مواشيهم ، ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ ؛﴾ أي تحبسان غنمهما عن الماء حتى تفرغ النّاس ويخلو لهما الماء ، وهما بنتا شعيب.

والذود في اللغة : الطّرد والدفع والكفّ ، ومعنى ﴿تَذُودانِ﴾ تدفعان وتكفّان الغنم من أن يخلط بأغنام الناس ، وحتى يقرب الماء إلى أن يفرغ القوم.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١٠٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٧٢٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٨٠٩).

قوله تعالى : ﴿قالَ ما خَطْبُكُما ؛﴾ أي قال موسى لابنتي شعيب : ﴿ما خَطْبُكُما﴾ أي ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟ ﴿قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ ؛﴾ قرأ الحسن وابن عامر وأبو عمرو بفتح الياء وضمّ الدال ، جعلوا الفعل للرّعاء ؛ أي حتى يرجع الرّعاء عن الماء ، وقرأ الباقون (يصدر) بضمّ الياء وضمّ الدال ؛ أي حتى يصدروا مواشيهم من وردهم ، فيخلوا لنا الموضع فنسقي أغنامنا فضل ما في الحوض. والرّعاء جمع راع [1].

قال ابن اسحق : (قالتا : نحن امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرّجال ﴿وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٢) ؛ لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر والضّعف ، وليس له أحد غيرنا ، فلذلك احتجنا ونحن نساء أن نسقي الغنم.

قوله تعالى : ﴿فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ؛﴾ فلما سمع موسى قولهما رحمهما ، فقام ليسقي لهما غنمهما ، فوجد بقربهما بئرا أخرى على رأسها صخرة عظيمة لا يطيق رفعها إلّا جماعة من الناس ، فاقتلعها وحده ثم أخذ الدّلو من القوم ، فأدلاها في البئر ، ونزعها وأفرغها في الحوض ، ثم دعا بالبركة فشرب الغنم حتى روي.

وقيل : إنه زاحم القوم على بئرهم وسقى لهما غنمهما ، فذلك قوله تعالى : ﴿فَسَقى لَهُما﴾ أي سقى لهما أغنامهما قبل الوقت الذي كانا يسقيان فيه ، ثم رجع من الشّمس إلى ظلّ شجرة فجلس تحتها من شدّة الحرّ ، وهو جائع ، ﴿فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤) ؛ أي إنّي لمحتاج فقير إلى ما قدّرت لي من الطعام ، وكان خرج من مصر بغير زاد وكان لا يأكل في الأيام الثمانية إلّا الحشيش والشّجر إلى أن بلغ ماء مدين ، فلما أدركه الجوع الشديد ؛ وكان لا يقدر على شيء ؛ سأل الله أكله من الطعام.

---

(١) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج : ج ٤ ص ١٠٥.

قال ابن عبّاس : (سأل الله فلق خبز أن يقيم به صلبه) [١] ، قال سعيد بن جبير : (لقد قال موسى : إنّي لما أنزلت إليّ من خبز فقير ، وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شقّ تمرة) [٢] ، وقال محمّد : (ما سأل الله إلّا الخبز). واللام في قوله تعالى ﴿إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ﴾ بمعنى : إليّ ، يقال : فقراء وفقير إليه.

قوله تعالى : ﴿فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ ؛﴾ وذلك أنّ موسى عليه السلام لما سقى لهما ، رجعا إلى أبيهما سريعا ، فقال لهما أبوهما : ما أعجلكما؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا رحمنا ، فسقى لنا أغنامنا ، فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه لي ، فجاءته تمشي مستحية مشي من لا يعتاد الدّخول والخروج ، واضعة كفّها على وجهها ، معرضة من الحياء ، وكانت التي أرسلها أبوها إلى موسى هي الصّغرى منهما ، واسمها صورا ، قال عمر بن الخطّاب في قوله تعالى : ﴿فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ﴾ : (واضعة ثوبها على وجهها ؛ أي مستترة بكمّ ذراعها) [٣]. قال أهل اللّغة : السّلفع : الجريئة التي هي غير مستحية [٤].

وقوله تعالى : ﴿قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا﴾ أي ليعطيك ذلك ، فلما قالت ذلك لموسى شقّ عليه قولها ، وهمّ أن لا يتبعها وكان بينه وبين أبيها مقدار ثلاثة أميال ، ثم إنه لم يجد بدّا من اتّباعها ؛ لأجل الجهد والجوع الذي حلّ به ولأجل الخوف الذي خرج لأجله ، فانطلق معها ، وكانت الريح تضرب ثوبها فنكّرته [٥] بردفها فتصف له عجيزتها ، وكانت ذات عجز ، فجعل موسى يغضّ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٧٨.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٨٣٤).

(٣) كأنه يوجد سقط من المخطوط ، حيث ضرورة سياق كلام المصنف رحمه الله تقتضي ذكر أثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (لم تكن سلفعا من النّساء خرّاجة ولّاجة ، قائلة بيدها على وجهها : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا﴾). أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٨٣٧). من رواية عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والسّلفع من النساء : الجريئة. والصّخّابة ، البذيئة ، الفاحشة القليلة الحياء. والخرّاجة والولّاجة : الكثيرة الظرف والاحتيال.

(٤) نكّره فتنكّر : أي غيّره فتغيّر إلى مجهول ، وهنا غيّرت الريح صفة ثوبها إلى صفة ردفها مما يظهر شكل ما تحته.

بصره ويعرض عنها ، ثم قال لها : (يا أمة الله كوني خلفي ، وانعتي لي الطّريق بقولك ، ودلّيني عليها إن أنا أخطأت ، فإنّا بنوا يعقوب لا نستطيع النّظر إلى أعجاز النّساء) [1].

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥) ؛ أي فلمّا جاء موسى إلى شعيب إذ هو بالعشاء مهيّأ ، فقال له شعيب : من أنت؟ قال : أنا رجل من بني إسرائيل من أهل مصر ، وحدّثه بما كان منه من قتل القبطيّ وفراره من فرعون ، فقال له شعيب : إجلس ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي نجوت من فرعون وقومه ، فإنّهم لا سلطان لهم بأرضنا ، ولسنا مملكته.

فجلس معه موسى عليه السلام فقال له شعيب : هاك فتعشّ ، فقال : أعوذ بالله ، فقال له شعيب : ولم ذلك وأنت جائع؟ قال : أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لكم ، وإنّا أهل بيت لا يبغ شيئا من عمل الآخرة بملئ الأرض ذهبا ، فقال شعيب : لا والله! ولكنّها عادتي وعادة آبائي ، نقري الضيّف ونطعم الطعام ، فجلس موسى عليه السلام يتعشّى حينئذ.

قوله تعالى : ﴿قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (٢٦) ؛ أي قالت إحداهما وهي التي تزوّجها موسى : يا أبت اتّخذه أجيرا يرعى لنا غنمنا ، فإنّ خير من استأجرت الذي يقوى على العمل ، ويؤدّي الأمانة.

فقال لها أبوها : وما علمك بقوّته وأمانته؟ فقالت : أمّا قوّته فإنه لما رأى أغنامنا محبوسة عن الماء ، قال لنا : هل بقربكما بئر؟ قلنا : نعم ؛ لكن عليها صخرة عظيمة لا يرفعها إلّا أربعون رجلا ، قال : انطلقا بي إليها ، فانطلقا به إليها ، فأخذ الصخرة بيده ونحّاها سهلا من غير كلفة. وأمّا أمانته فإنه قال لي في بعض الطّريق : إمش خلفي ، فإن أخطأت الطريق فارم قبلي بحصاة حتى أنهج نهجا ، فإنّا قوم لا ننظر

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٨٤٢) عن السدي ، والاثر (٢٠٨٤٤) عن ابن اسحق.

إلى وراء النّساء. ولهذا المعنى قال عمر رضي الله عنه : (لا يصلح لأمور المسلمين إلّا القويّ من غير عنف ، والرّقيق من غير ضعف) [1].

قال فلمّا ذكرت المرأة من حال موسى ازداد أبوها رغبة فيه و ﴿قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ ؛﴾ أي على أن ترعى غنمي ، ويكون فيها أجرا إلى ثمان سنين ، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ؛﴾ فهو بفضل منك ليس بواجب عليك ، ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ؛﴾ في العشر ، ولا أكلّفك إلّا العمل المشروط ، والمراد بالحجج السّنين. قوله تعالى : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧) ؛ ممن وافق فعله. وقيل : ستجدني إن شاء الله من الوافين بالعهد ، المحسنين الصّحبة.

ف ﴿قالَ﴾ موسى لشعيب : ﴿ذلِكَ ؛﴾ الشرط ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؛﴾ يعني الذي وصفت وشرطت على ذلك ، وما شرطت لي من تزويج إحداهما عليّ فلي ، والأمر بيننا. وثم السّلام. ثم قال : ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ ؛﴾ أيّ الأجلين من الثّمان أو العشر ، ﴿قَضَيْتُ ؛﴾ أي أتممت وفرغت ، ﴿فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ ؛﴾ أي لا ظلم ولا حرج ولا كلفة. قال الفرّاء : (ما) صلة في قوله : ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ [2].

وقوله تعالى : ﴿وَاللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٢٨) ؛ أي شهيد على ما عقد بعضنا على بعض. قال ابن عبّاس : (والله شهيد بيني وبينك).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف : أبواب القضاء : باب كيف ينبغي للقاضي أن يكون : الأثر (١٥٢٨٨). ولفظه : (لا ينبغي أن يلي هذا الأمر ـ يعني أمر الناس ـ إلّا رجل فيه أربع خصال : اللّين في غير ضعف ، والشّدّة في غير عنف ، والإمساك من غير بخل ، والسّماحة في غير سرف. فإن سقطت واحدة منهنّ فسدت الثّلاث).

(٢) معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٣٠٥ ؛ قال : (فجعل (أيّما) وهي صلة من صلات الجزاء مع (ايّ) وهي في قراءة عبد الله (أيّ الأجلين ما قضيت فلا عدوان عليّ) وهذا أكثر في كلام العرب من الأول).

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله ﷺ أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقال : [أوفاهما وأبطئهما][1]. وعن أبي ذرّ [2] قال : قال رسول الله ﷺ : [وإذا سئلت عن أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقل : خيرهما أو أبرّهما ، وإن سئلت أيّ المرأتين تزوّج؟ فقل الصّغرى منهما والّتي جاءت فقالت : يا أبت استأجره][3].

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ ؛﴾ أي فلمّا وفّى موسى أتمّ الأجلين وهو عشر سنين ، وسار بأهله نحو مصر ، قال مقاتل : (استأذن موسى صهره شعيب في العود إلى مصر لزيارة والديه وأخته ، فأذن له ، فسار بأهله نحو مصر ؛ ﴿آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ﴾ فأبصر باللّيل الظّليم عن يسار الطّريق ، أي الجبل ، ﴿ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ؛﴾ أي انزلوا هاهنا ، ﴿إِنِّي آنَسْتُ ؛﴾ أي أبصرت ، ﴿ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ ؛﴾ أي من عند النار بخبر ، وأعلم لم أوقدت تلك النار. ويقال : كان أخطأ الطريق فأراد أن يسأل عن الطريق من يجده عند النار. وقوله تعالى : ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّارِ ؛﴾ معناه : أو آتيكم بقطعة من الحطب في رأسها شعلة من النار لكي تدفّئوا من البرد ، وكانوا في شدّة الشّتاء).

وفي قوله ﴿جَذْوَةٍ﴾ ثلاث قراءات : فتح الجيم وهي قراءة عاصم ، وضمّها وهي قراءة حمزة ، وكسرها وهي قراءة الباقين ، وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٢٩) ؛ أي تدفئون بها عن البرد.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : في الآثار (٢٠٨٧٣) بألفاظ عديدة ؛ منها : [خيرهما وأوفاهما] ، و [أتمّهما وأخيرهما] و [أكثرهما وأطيبهما].

(٢) في المخطوط : (أبي) والصحيح كما أثبتناه من المعجم الصغير.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير : ج ٢ ص ٧٩ : الحديث (٨١٥) ، وفي المعجم الأوسط : الحديث (٥٤٢٦). وفي مجمع الزوائد : ج ٨ ص ٢٠٣ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني في الصغير والأوسط والبزار باختصار ، وفي إسناد الطبراني عويد بن أبي عمران ، ضعفه ابن معين وغيره ، ووثقه ابن حبان ، وبقية رجال الطبراني رجال ثقات). وأخرجه الخطيب البغدادي من طريق الطبراني في تاريخ بغداد : ج ٢ ص ١٢٦ ، وإسناده حسن كما في مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٨٨ ، قاله الهيثمي.

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ ؛﴾ أي فلمّا أتى موسى النار نودي من جانب الوادي الأيمن أراد يمين موسى ، وقوله تعالى ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ﴾ أي المقدّسة ، وقوله تعالى : ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أي من الشّجرة وهي شجرة العنّاب في قول ابن عبّاس ، وقال مقاتل : (هي عوسجة) (١) ، وسمّيت البقعة مباركة ؛ لأن الله كلّم موسى فيها وبعثه نبيّا. وقوله تعالى : ﴿أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ (٣٠) ؛ قد تقدّم تفسيره.

قوله تعالى : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ ؛﴾ أي نودي بأن ألق عصاك من يدك ، وموضع ﴿أَنْ أَلْقِ﴾ نصب ، ﴿فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ ؛﴾ أي فلما رآها بعد ما ألقاها تتحرّك (٢) في غاية الاضطراب كأنّها جانّ في الخفّة مع عظمها ، ﴿وَلَّى مُدْبِراً ؛﴾ أي هاربا ، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ؛﴾ أي ولم يلتفت إلى ما رآه ، فقال الله له : ﴿يا مُوسى أَقْبِلْ﴾ ، إليها ، ﴿وَلا تَخَفْ﴾ منها ؛ ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (٣١) من أن ينالك منها مكروه ، فأخذها موسى فإذا هي عصا كما كانت ، ويقال سميت جانّ في هذه الآية ؛ لأنّها صارت جانّا في البقعة المباركة ، وثعبانا عند فرعون.

قوله تعالى : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ؛﴾ أي أدخلها في جيبك ، ﴿تَخْرُجْ بَيْضاءَ ؛﴾ لها شعاع كشعاع الشّمس ، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؛﴾ أي من غير برص ، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ؛﴾ أي ضع يدك على صدرك ليسكن ما بك من الفزع ، فتصير آمنا مما كنت تخافه ، وهذا لأنّ من شأن الخائف أن يرتعد ويقلق (٣) فيكون ضمّ يده إلى نفسه في معنى السّكون.

قال مجاهد : (كلّ من فزع فضمّ جناحيه إليه ذهب عنه الفزع ، وقرأ هذه الآية) (٤). وجناح الإنسان : عضده ، ويقال : اليد كلّها جناح. وقال بعضهم : معنى قوله

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٩٦. (والعوسجة) باليمن. ومعدن للفضة ، وشوك. القاموس المحيط : (عوس) : والعوسج إذا عظم يقال : الغرقد.

(٢) في المخطوط : (سحرت) والمناسب : تتحرك.

(٣) في المخطوط : (وتعلق) والمناسب كما أثبتناه.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٨١.

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ﴾ أي سكّن روعك ، وضمّ الجناح هو السّكون ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾(١) يريد الرّفق ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) أي ارفق بهم ، وألن جناحك بهم. وقال الفرّاء (أراد بالجناح العصا) (٣). وقوله تعالى ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ وقرئ (من الرّهب) أيضا وهما لغتان مثل الرّشد والرّشد ، ويقال : إنّ قوله ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ متّصل بقوله ﴿مِنَ الْآمِنِينَ﴾(٤).

قوله تعالى : ﴿فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ ؛﴾ يعني اليد والعصا حجّتان من الله لموسى على صدقه ، والمعنى : هما حجّتان من ربك أرسلناك بهما ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ؛﴾ أي أشراف قومه ، ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ؛﴾ (٣٢) أي خارجين عن طاعة الله تعالى (٥) ، «وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد النون» (٦) وقرأ الباقون بالتخفيف. قال الزجّاج : (التّشديد تثنية ذلك ، والتّخفيف تثنية ذاك) (٧).

قوله تعالى : ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً ؛﴾ يعني القبطيّ الذي قتله ، ﴿فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣) ، ﴿وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً ؛﴾ أي أبين منّي كلاما وأحسن بيانا ، وكان في لسان موسى عقدة من قبل الجمرة التي تناولها ،

---

(١) الاسراء / ٢٤.

(٢) الشعراء / ٢١٥.

(٣) قاله الفراء في معاني القرآن : ج ٢ ص ٣٠٦.

(٤) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٥٠.

(٥) أشار الناسخ إلى سقط ، ولكنه لم يكتبه في الهامش كعادته ، وكما هو واضح من سياق الكلام ، وكأنه يريد (وقرأ ابن كثير وابن عمرو (فذانّك) مشددة النون).

(٦) ليست في أصل المخطوط ، وأضفناها لضرورة سياق الكلام وإتمام الفكرة.

(٧) معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١٠٨. وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ١٧ ص ٢٨٥ ؛ قال القرطبي : (شدّد النون ع وضا عن الألف الساقطة في (ذانك) الذي هو تثنية (ذا) المرفوع ، وهو رفع بالابتداء ، وألف (ذا) محذوفة لدخول ألف التثنية عليها ، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين ؛ لأنه أصله (فَذانِكَ) محذوف الألف الأولى عوضا من النون الشديدة. وقيل : التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك).

ولذلك قال فرعون : ولا يكاد يبين. قوله تعالى : ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً ؛﴾ أي عونا ومصدّقا لي ، يقال : فلان ردء فلان ؛ إذا كان ينصره ويشدّ ظهره. وقرأ نافع (ردا) من غير همز طلبا للخفّة [1].

قوله تعالى : ﴿يُصَدِّقُنِي ؛﴾ قرأ عاصم وحمزة : ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بضمّ القاف ، وقرأ الباقون بالجزم على الجواب بالأمر ، ومن رفع كان صفة لنكرة ، جوابا للمسألة تقديره : ردءا مصدّقا لي ، والتصديق هارون في قول الجمع. وقال مقاتل : (لكي يصدقني فرعون) [2] ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ (٣٤).

قوله تعالى : ﴿قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ؛﴾ أي قال الله تعالى لموسى : سنعينك ونقوّيك وننصرك بأخيك ، وشدّ العضد كناية عن التقوية ، وقوله تعالى : ﴿وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً﴾ حجّة وبيّنة تدلّ على النبوّة ، ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما﴾ بقتل ولا سوء ولا أذى ، ﴿بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ﴾ (٣٥) ؛ لمن خالفكما ، وقوله تعالى : ﴿بِآياتِنا﴾ موضعه التقديم ؛ والمعنى : ونجعل لكما سلطانا بآياتنا ؛ أي بما نعطيكما من المعجزات.

قوله تعالى : ﴿فَلَمّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ ؛﴾ يعني المعجزات فلم يقدروا على دفع تلك الآيات ، ﴿قالُوا ما هذا إِلاّ سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ ، إلّا أن قالوا هذا سحر مفترى ؛ أي مخترع من قبل نفسك ولم تبعث به ، ﴿وَما سَمِعْنا بِهذا ؛﴾ الذي تدعونا إليه ، ﴿فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦).

قوله تعالى : ﴿وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ ؛﴾ أي هو أعلم بالحقّ منّا وبمن يدعو إلى الضّلالة ؛ أي أنا الذي جئت بالهدى من عند الله. وقرأ ابن كثير : ﴿قالَ مُوسى﴾ بغير واو. قوله تعالى : ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ ؛﴾ أي هو أعلم بمن تكون له الجنّة ، ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ﴾ (٣٧) ؛ أي لا يسعد من أشرك بالله.

---

(١) الحجة للقراءات السبعة : ج ٣ ص ٢٥٤.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٩٦.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ؛﴾ أي قال فرعون لخواصّ قومه : ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ وهذه إحدى كلمتيه اللّتين أخذه الله بهما ، والأخرى قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾.

وقوله تعالى : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ ؛﴾ أي اتّخذ لي آجرّا ، ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً ؛﴾ أي قصرا طويلا متّسعا مرتفعا ، ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى ؛﴾ أي أصعد إليه ، ظنّ بجهله أنه يتهيأ له أن يبلغ بصرحه إلى السّماء ، وظنّ أن إله موسى جسما مشاهدا كما تقول المشبهة ، تعالى الله عن ذلك.

قال المفسّرون : لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصّرح ، جمع خمسين ألف بنّاء سوى الاتباع والأجراء ممن يطبخ الآجرّ والجصّ ، وينحت الخشب والأبواب ، ويضرب المسامير.

قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ (٣٨) ؛ أي في ادّعاء (إلها غيري) وأنه رسوله ، وهذا اعتراف من فرعون بالشّك لأنه شاكّ لا يدري من في السّماء ، ولو كان إلها لم يجهل ولم يشكّ ، والمبطل تظهر عليه المناقضة.

قوله تعالى : ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ؛﴾ تعظّموا عن الإيمان ولم ينقادوا للحقّ ، وقوله تعالى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بالباطل والظّلم ، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩) ؛ أي يردّون إلينا بالبعث للحساب والجزاء.

قوله تعالى : ﴿فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ ؛﴾ أي طرحناهم في البحر. قال عطاء : (يريد البحر المالح بحر القلزم) ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظّالِمِينَ﴾ (٤٠) ؛ حين صاروا إلى الهلاك.

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ ؛﴾ أي جعلناهم في الدّنيا أئمّة ضلالة وقادة في الكفر والشّرك ، يقودون الناس إلى الشّرك ، وهو قوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ إِلَى النّارِ﴾ لأن من أطاعهم ضلّ ودخل النار ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ﴾ (٤١) ؛ أي لا يدفع عنهم عذاب الله ، ﴿وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً ؛﴾ يعني لعنة الملائكة والمؤمنين ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ

﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤٢) ؛ أي من المشوّهين في النّار ، سواد وجوههم وزرقة الأعين ، فعلى هذا يكون المعنى : هم المقبوحين. وقيل : معناه : هم من المبعدين الملعونين من القبح ، وهو الإبعاد. قال أبو يزيد : (يقال : قبّح الله فلانا قبحا وقبوحا ؛ أي أبعده من كلّ خير).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ ؛﴾ يعني القرون الأولى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، كانوا قبل موسى. وقوله تعالى ﴿بَصائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أعطينا موسى التّوراة من بعد ما أهلكنا الأمم الماضية عظة وعبرة للناس ليبصروا بها أمر دينهم ؛ أي ليبصروا بالتوراة ويهتدوا بها ، وهو قوله تعالى : ﴿وَهُدىً ؛﴾ من الضّلالة لمن عمل به ؛ أي بالكتاب ﴿وَرَحْمَةً ؛﴾ لمن آمن به ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣) ؛ أي يتذكّروا بما فيه من المواعظ والبصائر.

وعن أبي سعيد الخدريّ ؛ أنّ النبيّ ﷺ قال : [ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمّة ولا أهل قرية بعذاب من السّماء منذ أنزل التّوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الّذين مسخوا قردة ، ألم تر أنّ الله قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى﴾][(١)].

قوله تعالى : ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ ؛﴾ معناه : ما كنت يا محمّد بجانب الوادي الغربيّ ﴿إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي إذ أوحينا الأمر بما ألزمناه وقومه ، ﴿وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) ؛ تلك الحالة ، وإنّما أخبرناك بذلك لتكون معجزة لك.

وقوله تعالى : ﴿وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً ؛﴾ أي خلقنا قرنا بعد قرن ، ﴿فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ؛﴾ أي طالت عليهم المهل فنسوا عهد الله ، وتركوا أمره ، وكذبوا الرّسل فأهلكناهم قرنا بعد قرن ، وهذا كلام يدلّ على أنه قد عهد إلى موسى

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك : كتاب التفسير : الحديث (٣٥٨٧). وفي مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٨٨ ؛ قال الهيثمي : (رواه البزار مرفوعا وموقوفا ... ورجالهما رجال الصحيح).

وقومه عهودا في محمّد ﷺ والإيمان به ، فلما تطاول عليهم العمر ، وخلقت القرون بعد القرون ، وتركوا الوفاء بها.

قوله تعالى : ﴿وَما كُنْتَ ثاوِياً ؛﴾ أي مقيما ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ؛﴾ كقيام موسى وشعيب فيهم ، ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا ؛﴾ أي تذكّرهم بالوعد والوعيد. قال مقاتل : (والمعنى : لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكّة خبرهم كخبر من شاهدهم) [1]﴿وَلكِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) ؛ أي أرسلناك إلى أهل مكّة ، وأنزل عليك هذه الأخبار ، ولو لا ذلك لما علمتها.

قوله تعالى : ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا ؛﴾ أي وما كنت يا محمّد بناحية الجبل الذي كلّم الله عليه موسى إذ نادينا موسى : إنّي أنا الله ، ويا موسى أقبل ولا تخف ، ﴿وَلكِنْ ؛﴾ أوحيناها إليك وقصصناها عليك ، ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ؛﴾ لم يأتهم رسول يخوّف قبلك ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) ؛ أي يتّعظون.

ومعنى ﴿رَحْمَةً﴾ أي رحمناك رحمة بإرسالك والوحي إليك. وقوله تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يعني أهل مكّة لعلّهم يتّعظون ، واسم الجبل الذي نودي عليه موسى جبل رسمه [2]. قرأ عيسى بن عمر : (ولكن رحمة) بالرفع على معنى : ولكن هي رحمة من ربك إذ أطلعك الله عليه.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ؛﴾ قال مقاتل : (معناه : ولو لا أن يصيبهم العذاب في الدّنيا بما قدّمت أيديهم من الكفر والمعاصي) [3] يعني كفار مكّة ، ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً ؛﴾ أي هلّا أرسلت إلينا رسولا ، ﴿فَنَتَّبِعَ آياتِكَ﴾ ، يعني القرآن ، ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٩٩.

(٢) هكذا رسمها الناسخ في المخطوط ، ولم أقف على معناه.

(٣) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٤٩٩.

والمعنى : لو لا أنّهم يحتجّون بترك الإرسال إليهم لعجّلناهم بالعقوبة بكفرهم. وحقيقة كشف معنى الآية : لو لا أنّه إذا أصابتهم مصيبة ؛ أي عقوبة بما قدّمت أيديهم من الكفر فيقولوا عند نزول العذاب بهم : ربّنا هلّا أرسلت إلينا رسولا فنتّبع كتابك ورسولك ، ونكون من المؤمنين ؛ لعجّلناهم العقوبة. قيل : معناه : لو لا إذا أصابتهم عقوبة الآخرة فيقولوا ربّنا لو لا أرسلت إلينا رسولا في الدّنيا لما أرسلناك. وفي الآية بيان أنّ الله تعالى أرسل النبيّ ﷺ مبالغة في الحجّة وقطع المعذرة.

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا ؛﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحقّ من عندنا وهو محمّد والقرآن ، ﴿قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى ؛﴾ أي هلّا أعطي مثل ما أعطي موسى ، يعنون هلّا أنزل عليه القرآن جملة كما أنزل التوراة على موسى جملة واحدة ، وهلّا أعطى محمّدا اليد والعصا والمنّ والسّلوى وغير ذلك من الآيات.

فاحتجّ الله عليهم بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ ؛﴾ أي فقد كفروا بما أوتي موسى ، كما كفروا بآيات محمّد و ﴿قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا ؛﴾ أي تعاونا على السّحر والضّلال ، يعنون موسى ومحمّدا عليهما السلام . وقرأ أهل الكوفة ﴿سِحْرانِ﴾ بغير ألف التّوراة والقرآن ، ﴿وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ﴾ ، من التّوراة والقرآن ، ﴿كافِرُونَ﴾ (٤٨).

قال الله لنبيّه ﷺ : ﴿قُلْ ؛﴾ لكفّار مكّة : ﴿فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما ؛﴾ أي من التّوراة والقرآن حتى ﴿أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٤٩) ؛ أنّهما كانا سحران. قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ؛﴾ أي فإن لم يأتوا بمثل التّوراة والقرآن ، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ ؛﴾ وإنّ ما ركبوه من الكفر لا حجّة لهم فيه ، وإنّما آثروا فيه الهوى.

ثمّ ذمّهم الله فقال : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ ؛﴾ أي لا أحد أضلّ ممّن اتبع هواه بغير رشاد ولا بيان جاء من الله ، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٠) ؛ ومعنى قوله ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي فإن لم يجيبوك إلى ما سألتهم ولا يجيبون.

قوله : ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنا ؛﴾ رسلنا ، ﴿لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) أي وصّلنا لأهل مكّة ذكر الأنبياء والأمم وأقاصيص بعضهم لبعض ، وأخبرناهم أنّا أهلكنا قوم نوح بكذا وقوم صالح بكذا لكي يتّعظوا بالقرآن ، ويخافوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم.

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ ؛﴾ أي من قبل القرآن ، ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) ؛ أي بمحمّد ﷺ. قال السديّ : (يعني مسلمي اليهود عبد الله بن سلام وأصحابه) [1]. وقال مقاتل : (يعني مسلمي أهل الإنجيل ، وهم الّذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة) [2].

ثم نعتهم الله تعالى فقال : ﴿وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ ؛﴾ يعني القرآن ، ﴿قالُوا آمَنَّا بِهِ ؛﴾ أي صدّقنا بالقرآن ، ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا ؛﴾ لا ذكر النبيّ ﷺ ، وكان مكتوبا عندهم في التّوراة والإنجيل فلم يعاندوا ، وقالوا للقرآن : إنّه الحقّ من ربنا ، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ ؛﴾ قبل القرآن ، ﴿مُسْلِمِينَ﴾ (٥٢) ؛ مخلصين لله بالتوحيد ، مؤمنين بمحمّد ﷺ أنّه نبيّ.

ثم أثنى الله عليهم خيرا ، فقال : ﴿أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا ؛﴾ مرّة بتمسّكهم بدينهم حتى أدركوا محمّدا ﷺ فآمنوا به ، ومرّة بإيمانهم به. وقال قتادة : (كما صبروا على الكتاب الأوّل والكتاب الثّاني) ، وقيل : مرّة لإيمانهم بموسى ومرّة لإيمانهم بمحمّد ﷺ [3].

قوله تعالى : ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ؛﴾ أي يدفعون بشهادة أن لا إله إلّا الله الشّرك ، كذا قال ابن عبّاس ، وقال مقاتل : (يدفعون ما يلحقهم من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٦٩٧٩).

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥٠٠.

(٣) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٤٢٨ ؛ قال السيوطي : (وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [من أسلم من أهل الكتاب فله أجره مرّتين]). وله شاهد من حديث بردة مخرج في الصحيحين : البخاري في الصحيح : الحديث (٩٧ و٣٠١١ و٣٤٤٦). ومسلم في الصحيح : الحديث (٢٤١ / ١٥٤).

أذيّة الكافرين وشتمهم لهم بالعفو والصّفح والاحتمال). ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٥٤) ؛ من الأموال في طاعة الله.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ؛﴾ أي وإذا خوطبوا بالسّفاهة وشتمهم المشركون ردّوا عليهم جميلا ، وأعرضوا عن الكلام الذي لا فائدة فيه ، ﴿وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا﴾ أي ديننا ، ﴿وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ أي دينكم.

وذلك أنّهم عيّروهم بترك دينهم. قال السديّ : لمّا أسلم عبد الله بن سلام جعل اليهود يشتمونه ، وهو يقول : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ (٥٥) ؛ قال الزجّاج : (لم يريدوا التّحيّة ، والمعنى أنّهم قالوا : بيننا وبينكم المتاركة والتّسلّم ، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال) [١] ، فكأنّهم قالوا : سلمتم منّا لا نعترضنّكم بالشّتم. ومعنى قوله تعالى ﴿لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ أي لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسّفه. وقال الكلبيّ : (معناه : لا نحبّ دينكم الّذي أنتم عليه).

قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ؛﴾ ذهب أكثر المفسّرين أنّ هذه الآية نزلت في أبي طالب ، وذلك أنّه لمّا مرض مرضه الّذي مات فيه ، دخل عليه رسول الله ﷺ فقال له : [يا عمّ ؛ قل لا إله إلّا الله أشهد لك بها يوم القيامة] قال : لو لا أن يعيّرني نساء قريش ويقلن : إنّه حمله على ذلك الجزع عند الموت ، لأقررت بها عينك ، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [٢] هدايته. وقيل : إنّك لا تهدي من أحببته.

وعن رسول الله ﷺ أنّه دخل على عمّه أبي طالب في مرضه الّذي مات فيه ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أميّة بن المغيرة ، فقال له : [يا عمّ ؛ قل لا إله إلّا الله أحاج لك بها عند الله] فقال له أبو جهل وعبد الله بن أميّة : أترغب عن ملّة عبد المطّلب؟!

---

(١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١١٢.

(٢) رواه البخاري في الصحيح : كتاب التفسير : الحديث (٤٧٧٢).

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه وهما يعاودانه على تلك المقالة حتّى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم به : أنا على ملّة عبد المطّلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلّا الله ، فأنزل الله في أبي طالب ، وقال لرسوله : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1]﴿وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ ؛﴾ قال الزجّاج : (ابتداء نزولها بسبب أبي طالب ، وهي عامّة ؛ لأنّه لا يهدي إلّا الله عزّ وجلّ )[2]. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦).

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا ؛﴾ أي قالت قريش لمحمّد ﷺ : إن اتّبعناك على دينك يتخطّفنا العرب على أنفسنا أن يخرجوا من أرضنا مكّة إن تركنا ما يعبدون. قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ أي ذا أمن يأمن فيه الناس. وذلك أن العرب كانت يغير بعضهم على بعض ، وأهل مكّة آمنون في الحرم من القتل والسّيف والغارة ؛ أي فكيف يخافون إذا أسلموا وهم في حرم آمنون. ومعنى ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ أي أو لم نجعله مكانا لهم.

وقوله تعالى : ﴿يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ ؛﴾ ومعنى ﴿يُجْبى﴾ أي يحمل إلى الحرم ﴿ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً﴾. قرأ نافع ويعقوب : (تجبى) بالتاء لأجل الثّمرات ، وقرأ الباقون بالياء لقوله ﴿كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً﴾ ومعنى (تجبى) أي تحمل إلى الحرم ﴿ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مصر والشّام واليمن والعراق.

وقوله تعالى : ﴿رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ؛﴾ أي رزقا من عندنا ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) ؛ أنّا فعلنا ذلك يعني أهل مكّة ، والمعنى : أو لم يجعل أهل مكّة في أمان قبل الإيمان يجبى إلى الحرم ثمرات كلّ شيء نعمة من عندنا ، فكيف يخافون زوال الأمان ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ لأنّهم لا يتدبّرون ولا يتفكّرون.

ثم خوّفهم بمثل عذاب الأمم الخالية ، فقال : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها ؛﴾ أي وكم أهلكنا من أهل قرية بطرتها معيشتها ، والبطر : الطّغيان

(١) رواه مسلم في الصحيح : كتاب الإيمان : الحديث (٣٩ / ٢٤).

(٢) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١١٢.

عند النّعمة ، وقيل : معناه : بطرت في معيشتها. قال عطاء : (عاشوا في البطرة ، فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام) [1].

وقوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً ؛﴾ أي منازلهم التي كانوا يسكنونها لم يسكنها أحد إلّا المسافرون ومارّوا الطريق ينزلون ببعضها يوما أو ساعة ثم يرحلون. والمعنى لم تسكن من بعدهم إلّا سكونا قليلا ، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ﴾ (٥٨) ؛ أي لم نجعل لهم أحدا بعد هلاكهم في منازلهم ، فبقيت خرابا غير مسكونة كقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها﴾[2].

قوله تعالى : ﴿وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا ؛﴾ معناه : وما كان ربّك يا محمّد معذّب القرى الكافرة أهلها حتى يبعث في أعظمها قرية رسولا ينذرهم ويقرأ عليهم آياتنا ، وخصّ الأعظم من القرى ببعثة الرّسول فيها ؛ لأن الرّسول إنّما يبعث إلى الأشراف ، وأشراف القوم وملوكهم يسكنون المدائن والمواضع التي هي أمّ ما حولها.

وقوله تعالى : ﴿وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ﴾ (٥٩) ؛ أي ما نهلكهم إلّا بظلمهم وشركهم ، وقيل : المراد بالقرى القرى التي حول مكّة ، والمراد بأمّها مكّة سميت أمّ القرى ؛ لأن الأرض دحيت من تحتها.

وقوله تعالى : ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها ؛﴾ تتمتّعون بها أيّام حياتكم ثم تنقطع وتفنى وتنقضي ، ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ ؛﴾ من الثّواب والجنة ، ﴿وَأَبْقى ؛﴾ وأدوم لأهله وأفضل مما أعطيتم في الدّنيا ، ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠) ؛ أنّ الباقي أفضل من الفاني الذاهب. وقيل : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ خير الأمرين فتطلبوه وشرّ الأمرين فتتركوه. قرأ أبو عمرو (أفلا يعقلون) بالياء.

وقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ؛﴾ استفهام يعني التقرب ، أي كيف يستوي حال من وعدناه الثواب

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٨٥.

(٢) مريم / ٤٠.

والجنة في الآخرة فهو لاقيه ، وحال من متّعناه بعرض الدّنيا ، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٦١) ؛ العذاب.

والمعنى : ﴿أَفَمَنْ وَعَدْناهُ﴾ على إيمانه وطاعته الجنة والثواب الجزيل ﴿فَهُوَ لاقِيهِ﴾ أي مدركه ﴿كَمَنْ مَتَّعْناهُ﴾ أي كمن هو ممتّع بشيء يفنى ويزول عن قريب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ النار. قال قتادة : (يعني المؤمن والكافر ، فالمؤمن سمع كتاب الله وصدّقه وآمن بموعود الله فيه ، وليس كالكافر الّذي تمتّع بالدّنيا ثمّ هو يوم القيامة من المحضرين في عذاب الله) [١] ، قال مجاهد : (نزلت هذه الآية في عليّ وحمزة وأبي جهل) [٢] ، وقال السديّ : (نزلت في عمّار والوليد بن المغيرة) [٣].

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ ؛﴾ أي ينادي الله المشركين يوم القيامة ، ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٦٢) ؛ في الدّنيا أنّهم كانوا شركائي ، والمعنى : واذكر يوم ينادى الكفار وهو يوم القيامة فيقول أين شركائي في قولكم ، وليس لله شريك ، ولكن خرج هذا الكلام على ما كانوا يلفظون به ، فيقولون : هؤلاء شركاء الله.

قوله تعالى : ﴿قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ؛﴾ أي الذين حقّت عليهم كلمة العذاب أو وجب عليهم العذاب وهم الرّؤوس : ﴿رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا ؛﴾ يعنّون سلفهم وأتباعهم ، ﴿أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا ؛﴾ أي أضللناهم كما ضللنا ، ﴿تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ؛﴾ منهم ، وقيل : تبرأنا بحملنا إليك من الضّلال ، ﴿ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ﴾ (٦٣) ما كانوا يعبدوننا بإكراه من جهتنا ، وقيل : ما كانوا يعبدوننا بحجّة ولا استحقاق.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٩٨٢). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٠٣٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٠٩٨٦).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٨٥.

وقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ؛﴾ أي يقال لهم : لستم تسألون عن الإغواء والغواية ، ولكن ادعوا آلهتكم حتى يذودوا عنكم العذاب ، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ؛﴾ أي لم يجيبوهم إلى نصرتهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذابَ ؛﴾ أي رأوا كلّهم القادة والأتباع العذاب. وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٦٤) ؛ جواب (لو) محذوف تقديره : لو أنّهم كانوا يهتدون في الدّنيا لما رأوا العذاب.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ﴾ (٦٥) ؛ أي فألبست عليهم الأجوبة يومئذ ، ولم يدروا ماذا يقولون من الفزع والتّحيّر ، ﴿فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ﴾ (٦٦) ؛ لا يسأل بعضهم بعضا في تلك السّاعة لردّ الجواب. وقيل : لا يسأل أحد عن حال أحد لانشغال كلّ واحد منهم بنفسه. وقيل : لا يسأل أحد أحدا أن يترك طاعة أو يتحمّل عنه معصية ، ومعنى قوله تعالى ﴿فَعَمِيَتْ﴾ اي خفيت واشتبهت عليهم الأنباء.

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ؛﴾ أي من تاب من الشّرك وآمن وصدّق بتوحيد الله وبمحمّد ﷺ ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ أي أدّى الفرائض ، ﴿فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (٦٧) ؛ أي من النّاجين الفائزين.

قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ؛﴾ وذلك أنّ الوليد بن المغيرة كان يقول : لو لا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، يعني نفسه وأبا مسعود الثقفيّ ، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ﴾ من ينبّؤ للرسالة والنّبوة ؛ أي فكما أن الخلق إليه يخلق ما يشاء ، فكذلك الاختيار إليه في جميع الأمور ، فيختار ممّن خلق ما يشاء.

قوله تعالى : ﴿ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ؛﴾ ابتداء الكلام نفي الاختيار عن المشركين ، وذلك أنّهم اختاروا الوليد بن المغيرة من مكّة وأبو عروة بن مسعود من الطّائف ، فقال الله ﴿ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي ليس لهم الاختيار على الله ، ثم نزّه الله نفسه فقال : ﴿سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٨) ؛ ومن قرأ (ونختار ما كان لهم الخيرة) من غير أن يقف على (ونختار) ، جعل ﴿ما﴾ بمعنى الّذي ، كأنّه قال :

ونختار الذي لهم الخيرة فيصنع بهم ما صلح لهم ، وأنشد محمود الورّاق [1] :

| | |
|---|---|
| توكّل على الرّحمن في كلّ حاجة | أردت فإنّ الله يقضي ويقدّر |
| متى ما يريد ذو العرش أمرا بعبده | يصبه وما للعبد ما يتخيّر |
| فقد يهلك الإنسان من حيث أمنه | وينجو بحمد الله من حيث يحذر |

قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ؛﴾ أي ما تستر من الكفر والعداوة لله ولرسوله ؛ أي يعلم ما تضمر قلوبهم من ذلك ، ﴿وَما يُعْلِنُونَ﴾ (٦٩) بألسنتهم من الكفر والمعاصي.

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ ؛﴾ يستحقّ الحمد في الدّارين ، ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ ؛﴾ أي الفصل بين الخلائق ؛ حكم لأهل طاعته بالمغفرة ، ولأهل معصيته بالشّقاء والويل ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٧٠) ؛ أي موضع جزائه.

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ أي قل يا محمّد لأهل مكّة : أخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائما أبدا إلى يوم القيامة ، لا نهار معه ، ﴿مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ ؛﴾ أي بنهار مضيء تتصرّفون فيه وتطلبون فيه المعيشة ، ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ ؛﴾ (٧١) سماع قبول وتفهّم فتستدلّون بذلك على توحيد الله.

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ؛﴾ أي قل : أخبروني إن جعل الله عليكم النهار دائما ، ﴿مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ ، تستريحون فيه من الحركة ومن النّصب؟ ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) ؛ أدلّة الله تعالى.

---

(١) ذكره القرطبي أيضا في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٣٠٦ مع بعض اختلاف. ومحمود الوراق هو محمود بن الحسن الوراق الشاعر ، أكثر القول من الزهد والأدب. ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد : الرقم (٧٠٧٢) ومات في خلافة المعتصم.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ؛﴾ أي ومن نعمته عليكم أن خلق لكم الليل والنّهار لتستريحوا ليلا ، ولتنصرفوا نهارا ، والمعنى : ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي في اللّيل ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ؛﴾ أي ولتلتمسوا في النهار من فضل الله ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) ؛ الذي أنعم عليكم بهما.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤) ؛ فقد تقدّم تفسيره.

قوله تعالى : ﴿وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ؛﴾ أي وأخرجنا من كلّ أمّة رسولها الذي يشهد عليهم بالتبليغ وما كان منهم ، ﴿فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ ؛﴾ أي فقلنا للمشهود عليهم : ﴿هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾ أي حجّتكم بأنّ معي شريكا ، ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ؛﴾ أي أنّ التوحيد لله ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ؛﴾ أي زال عنهم وبطل في الآخرة ، ﴿ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥) ؛ في الدّنيا من قولهم : إنّ مع الله شريكا.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ ؛﴾ قال أكثر المفسّرين : كان قارون ابن عمّ موسى من بني إسرائيل ، وكان من العلماء بالتّوراة. وقال بعضهم كان ابن خالته. وقوله تعالى ﴿فَبَغى عَلَيْهِمْ﴾ أي بكثرة ماله ، والمعنى : أنه تطاول على موسى وقومه وجاوز الحدّ في التّكبّر عليهم. والبغي في اللغة : طلب العلوّ بغير حقّ.

قوله تعالى : ﴿وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ أي أعطيناه من الأموال المجموعة ما إنّ مفاتحه ، قال ابن عبّاس : (أراد بالمفاتح الخزائن ، كانت خزائنه لتثقل بالجماعة ذوي القوّة إذا حملوها) [1].

قال بعضهم : هو جمع مفتاح ؛ وهو ما يفتح به الباب ، وهذا قول قتادة ومجاهد. وقيل : مفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهي المفتاح ، فجمعه مفاتيح. قال خيثمة : (كانت مفاتيح قارون من جلود ، كلّ مفتاح مثل الإصبع ، مفتاح كلّ خزانة على حدة ، فإذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٠١١).

ركب حمل المفاتيح على ستّين بغلا) [١]. وقال ابن عبّاس : (كان يحمل مفاتيحه أربعون رجلا أقوى ما يكون من الرّجال) [٢].

ومعنى قوله تعالى ﴿لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ﴾ وإنّما العصبة تنوء بالمفاتيح ؛ أي يثقل في حملها ، قيل : هذا شائع في الكلام كما يقال : عرضت الناقة على الحوض ، وإنّما يعرض الحوض عليها ، ولا تعرض الناقة على الماء. والكنز في اللّغة : اسم للمال الذي يجمع بعضه على بعض ، وإذا أطلق أريد به ما يخبّأ تحت الأرض.

وقال خيثمة : (وجدت في الإنجيل : أنّ مفاتيح خزائن قارون وقر ستّين بغلا غرّا محجّلة) [٣] ، وقيل : إنّها كانت من جلود الإبل ، وكانت من حديد ، فلما ثقلت عليه جعلت من خشب ، فلما ثقلت عليه جعلت من جلود.

قوله تعالى : ﴿إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ ؛﴾ قال له قومه من المؤمنين من بني إسرائيل : لا تفرح بالكنوز والمال ولا تأشر [٤] ولا تبطر ، ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) ؛ أي الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. والفرح إذا أطلق أريد المزح الذي يخرج إلى البطر ، ولذلك قال : ﴿لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ، وقال ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[٥] ، وأما قوله ﴿فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٦] فهو بهداية النّفس وهو حسن جميل ، قال الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدّهر سرّني ... ولا جازع من صرفه المتقلّب

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : النص (٢١٠٠٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : النص (١٧٠٨٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٠١٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : النص (٢١٠٠٧). والوقر : الحمل. والأغرّ من الخيل والبغال : الذي في جبهته بياض أكبر من الدرهم ، وقد وسط جبهته. والمحجّل : ما كان البياض منه في موضع الخلاخل والقيود وفوق ذلك.

(٤) أشر : لجّ في البطر. والأشر : المرح المتكبّر. ينظر : الغريبين للهروي : ج ١ ص ٧٨.

(٥) هود / ١٠.

(٦) آل عمران / ١٧٠.

قوله تعالى : ﴿وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ؛﴾ أي واطلب فيما أعطاك الله من الأموال والنّعمة الجنّة ، وهو أن يقوم بشكر الله فيما أنعم الله وينفقه في رضا الله ، وقوله تعالى : ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ؛﴾ أي ولا تنس لتعمل لآخرتك ، وقال الحسن : (أن يقدّم الفضل وأن يمسك ما يغنيه) [1].

وقوله : ﴿وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ؛﴾ أي أحسن إلى الفقراء والمساكين ، كما أحسن الله إليك. وقيل : معناه : أطع الله واعبده كما أنعم عليك ، ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي ولا تعمل في الأرض بالمعاصي ومخالفة موسى عليه السلام ، ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧).

قوله تعالى : ﴿قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ، قال عطاء : (فكفر قارون لما رأى أنّ المال حصل له بعلمه ولم ير ذلك من عطاء الله). والمعنى : قال قارون : إنّما أعطيت هذا المال على علم عندي بوجوه الاكتساب والتّجارات لا يعلمها أحد غيري.

وقيل : معناه : على علم عندي يعني لفضل علمي ، فكنت أهلا لما أعطيته ، وكان أقرأهم للتوراة ، والمعنى : فضّلني الله عليكم بهذا المال ، لفضلي عليكم بالعلم ، يعني علم الكيمياء.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ؛﴾ معناه : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ هذا المسكين الذي قد أعجبته نفسه وما ملك من الدّنيا يعني قارون ﴿أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ بالعذاب ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ حين كذبوا رسوله ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً) وَأَكْثَرُ جَمْعاً ؛﴾ للمال والخدم والحشم.

قوله تعالى : ﴿وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨) ؛ معناه : لا يسئل المجرمون عن ذنوبهم في الآخرة ، فإنّهم يعرفون بسيماهم. قال قتادة : (إنّهم يدخلون النّار بغير حساب) [2].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ٩ ص ٢٠١١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٠٣٥). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧١٢٦).

وأما قوله تعالى ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] فإنّهم يسئلون سؤال تقريع وتوبيخ ، كما قال الحسن في معنى هذه الآية (أنّهم لا يسئلون سؤال الاختيار ليعلم ذلك من قبلهم ، وإنّما يسئلون سؤال التّوبيخ والمناقشة) [2].

قوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ؛﴾ قال السديّ : (خرج في جوار بيض ؛ على سروج من ذهب ؛ على قطف أرجوان ؛ «وهنّ» على بغال بيض عليهنّ ثياب حمر وحليّ من ذهب) [3]. وقال مقاتل : (خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأرجوان ، ومعه أربعة آلاف فارس على الخيل ، عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ، ومعه ألف جارية على بغال شهب سروجهنّ الذهب ؛ ولباسهنّ أرجوان أحمر ، عليهنّ الحليّ والحلل) [4].

وقال ابن زيد : (خرج في سبعين ألفا عليهم المعصفرات) [5]. وهذا معنى الحسن في ثياب صفر. قال الزجّاج : (الأرجوان في اللّغة صبغ أحمر ، فروي أنه كان عليهم وعلى خيولهم الدّيباج الأحمر) [6] ، قال : (وكان ذلك أوّل يوم رؤيت المعصفرات).

قوله تعالى : ﴿قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا ؛﴾ أي قال مؤمنوا أهل ذلك الزّمان لما رأوا تلك الزينة والجمال ، ﴿يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ ؛﴾ من المال ، ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٩) ؛ أي ذو نصيب وافر من الدّنيا ، وكان الذين تمنّوا هذه الأمنية القوم الذين يرغبون في الدّنيا ويتمنّونها.

---

(١) الحجر / ٩٢.

(٢) بمعناه ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٨٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧١٣٤).

(٤) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥٠٦.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٠٤٥). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧١٣٨).

(٦) معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١١٧.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ؛﴾ أي قال العلماء العاملون الرّاغبون في الآخرة للّذين تمنّوا ما أوتي قارون : (ويلكم! ثواب الله خير) أي ارتدعوا عن مقالتكم ؛ فإنّ ثواب الله في الآخرة خير لمن آمن وعمل صالحا ، وقام بالفرائض خير مما أعطي قارون في الدّنيا ، وخير من الدّنيا وما فيها.

قوله تعالى : ﴿وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (٨٠) ؛ أي لا يؤتى الأعمال الصالحة ، يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾[١] ، وقال الكلبيّ : (ولا يعطاها في الآخرة إلّا الصّابرون على أمر الله) [٢] أي الجنّة ، يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ثَوابُ اللهِ﴾.

قوله تعالى : ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ ؛﴾ أي فخسفنا بقارون وقصره الذي بناه عقوبة له على كفره ، وذلك أنّه لما أضاف النّعم التي أعطاه الله إياها إلى فعل نفسه وعمله ، ولم ينسبها بتسهيل الله ذلك عليه ؛ صار كافرا بنعم الله.

وقيل في سبب خسفه : أنه لما حسد موسى وهارون دعا امرأة ذات جمال معروفة بالفجور ، وجعل لها ألف درهم. وقيل : ألف مثقال. وقال لها : إنّي أخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل ، وتذكري أنه راودك عن نفسك! فأجابت قارون إلى ذلك ، فلمّا كان من الغد ، جمع قارون بني إسرائيل ، ثم أتى موسى فقال له : إنّ بني إسرائيل قد اجتمعوا ينظرون خروجهم لتأمرهم وتنهاهم.

فخرج موسى فقام فيهم يعظهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، قال : يا بني إسرائيل ؛ من سرق قطعناه ، ومن افترى جلدناه ثمانين ، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة ، ومن زنى وله امرأة رجمناه حتّى يموت. قال قارون : وإن كنت أنت؟! قال : وإن كنت أنا. قال : فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنّك فجرت بفلانة! فقال موسى : ادعوها ، فدعوها وقد ألهمها الله التوبة والتوفيق ، فقالت في نفسها : لإن أحدث اليوم توبة خير من أن يؤذى رسول الله ﷺ.

---

(١) الفرقان / ٧١.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٨٨.

فجاءوا بها وقد عقدوا مجلسا استحضر فيه قارون الخاصّ والعامّ ، فقال قارون للمرأة : ما تقولين؟ قالت : يا ويلاه! قد عملت كلّ فاحشة ، وما بقي إلّا أن أفتري على نبيّ الله ﷺ ، وأنا أبرأ إلى الله من ذلك.

ثم أخرجت خريطتين مملوءتين دراهم وعليهما خاتم قارون ، فقالت : يا أيّها الملأ ؛ إنّ قارون أعطاني هاتين الخريطتين على أن آتي جماعتكم فأزعم أنّ موسى راودني عن نفسي ، ومعاذ الله أن افتري على نبيّ الله ، وأنا أبرأ إلى الله من ذلك ، وهذه دراهمه وعليها خاتمه.

فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون ، فافتضح قارون بين أولئك القوم ، وغضب موسى عليه‌السلام فخرّ ساجدا يبكي وهو يقول : اللهمّ إن كنت رسولك فاغضب لي.

فأوحى الله إليه أنّي قد أمرت الأرض تطيعك فمرها بما شئت ، فقال موسى عليه‌السلام : يا أرض خذيه ، فأخذته إلى كعبه ، ثم قال : يا أرض خذيه ، فأخذته إلى ركبتيه ، فناشده الرّحم ، فقال : يا أرض خذيه ، فأخذته حتى غيّبت حقوته ، فتضرّع إلى موسى وناشده الرّحم ، فلم يسمع تضرّعه ، فقال : يا أرض خذيه ، فأخذته حتى غيّبته.

فروي أنه استغاث بموسى وناشده سبعين مرّة ، فلم يلتفت موسى إلى ذلك ، فأوحى الله إلى موسى : ما أفظّك وأغلظ قلبك! استغاث بك قارون سبعين مرّة فلم ترحمه ولم تغثه ، وعزّتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته ، ولو دعاني لوجدني قريبا مجيبا [1].

واختلفوا في أيّ وقت خسف بداره ، قال بعضهم : إنه خسف به معه ، وقال بعضهم : لما خسف بقارون قالت بنو إسرائيل : إنّ موسى أراد أن يأخذ دار قارون وأمواله وكنوزه ، فدعا الله موسى فخسف بداره وأمواله بعد ما خسف بقارون بثلاثة أيّام. قال قتادة : (وذكر لنا أنّ قارون يتجلجل في الأرض هو وداره وماله كلّ يوم قامة لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة) [2].

---

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الحرث).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧١٦٠).

قوله تعالى : ﴿فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ؛﴾ أي ما كان له من جند وجماعة يمنعونه من عذاب الله ، ﴿وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (٨١) ؛ أي وما كان من الممتنعين ممّا نزل به من الخسف.

قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ ؛﴾ أي أصبح الذين تمنّوا منزلته وماله بالأمس حين رأوه في زينته يندمون على ذلك التّمنّي ، يقول بعضهم لبعض بعد ما خسف به (وي) هذه كلمة تنبيه ومعناها : أما ترون؟.

قال مجاهد : (وسبيلها سبيل : أما تعلم) ويحكى أنّ امرأة من العرب قال لها زوجها : أين أبوك ، قالت له : ويكأنّه وراء هذا البيت ، يعني أما ترى أنه وراء هذا البيت.

وذهب بعض النّحويّين إلى أنّ قول الرجل : ويكأنّه ، بمنزلة : ويلك إعلم. وقال الخليل ويونس : (وي مفصولة من كأنّ ، و (وي) كلمة تندّم وتنبيه ، و (كأنّ) في هذا الموضع بمعنى الظّنّ والعلم) [(١)] كأنّهم لما رأوا الخسف تكلّموا على قدر علمهم ، وقالوا : كأنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء لا لكرامته عليه ، ويضيّق على من يشاء لا لهوانه عليه.

وقوله تعالى : ﴿لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا ؛﴾ أي لو لا أن منّ الله علينا بالعافية والرّحمة والإيمان لخسف بنا. وقرأ يعقوب وحفص : ﴿لَخَسَفَ﴾ بفتح الخاء والسّين ؛ أي لخسف الله بنا. قوله تعالى : ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾ (٨٢) ؛ أي أما ترى أنه لا يسعد من كفر بالله.

قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً ؛﴾ المراد بالدّار الجنّة ، ﴿نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ على خلقي ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يتكبّروا كما تكبّر قارون.

---

(١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ١٦٧.

قوله تعالى : ﴿وَلا فَساداً﴾ أي ولا دعاء إلى عبادة غير الله. وقيل : ولا فسادا ولا عملا بالمعاصي. وقيل : هو أخذ المال بغير الحقّ. قوله تعالى : ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) ؛ أي العاقبة الحميدة لمن اتّقى عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. وقيل : الذين يتّقون الكفر والعلوّ والفساد.

وعن كعب رضي الله عنه أنه قال : [يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ في صور الرّجال ، يغشاهم الذّلّ من كلّ مكان ، يسلكون في النّار ويسقون من طينة الخبال] قيل : وما طينة الخبال؟ قال : [عصارة أهل النّار][1]. والمراد بالتّكبّر : أن يكون التكبّر لأمر يرجع إلى الدّنيا ، فإمّا يكون من ذلك لإزالة المنكر وإقامة حقّ من حقوق الله ، فلا يكون ذلك من التّكبّر في شيء ، وإنّما هو تمسّك بالدّين.

قوله تعالى : ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها ؛﴾ قد تقدّم تفسيره ، ﴿وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) ؛ أي ومن جاء بالسّيّئة فلا يزاد في عقوبته أكثر مما يستحقّه. والمعنى : أنّ الذين أشركوا يجزون بما كانوا يعملون من الشّرك وجزاؤهم النار.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ ؛﴾ معناه : إنّ الذي فرض عليك العمل بالقرآن لرادّك إلى بلدك يعني مكّة ، فإنّ معاد الرجل بلده. وقيل : معناه : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي أنزل عليك القرآن. وقال الزجّاج : (فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن) [2]. تقدير الكلام : فرض عليك أحكام القرآن أو فرائض القرآن ﴿لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾ يعني مكّة.

قال مقاتل : (خرج النّبيّ ﷺ إلى الغار ليلا ، ثمّ هاجر من وجهه ذلك إلى المدينة ، فسافر في غير طريق مخافة الطّلب ، فلمّا أمن رجع إلى الطّريق ، فنزل بالجحفة بين مكّة والمدينة ، وعرف الطّريق إلى مكّة فاشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع : أبواب الشهادات : الحديث (٢٤٩٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال : هذا حديث حسن.

(٢) معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١١٨.

آبائه ، فأتاه جبريل فقال له : أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال : [نعم] قال جبريل : فإنّ الله تعالى يقول ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾ يعني إلى مكّة ظاهرا عليها ، فنزلت هذه الآية بالجحفة ، فليست بمكّيّة ولا مدنيّة) [١].

قوله تعالى : ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٨٥) هذا جواب كفار مكّة لما قالوا للنّبيّ ﷺ : إنّك في ضلال مبين! فقال الله تعالى : ﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى﴾ يعني النّبيّ ﷺ ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ يعني المشركين. والمعنى : إنّ الله قد علم أنّي جئت بالهدى وإنّكم لفي ضلال مبين.

قوله تعالى : ﴿وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ معناه : ما كنت يا محمّد ترجو أن يوحى إليك القرآن وأنك تكون نبيّا تتلو على أهل مكّة قصص الأوّلين ، إلّا أنّ ربّك رحمك وأراد بك الخير ، فأوحى إليك الكتاب وأكرمك بالنبوّة نعمة منه عليك ، ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً ؛﴾ أي عونا ﴿لِلْكافِرِينَ﴾ (٨٦) ؛ على دينهم ، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه فذكّره الله النعمة ، ونهاه عن مظاهرتهم على ما كانوا عليه وأمره بالتحذّر منهم.

قوله تعالى : ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ؛﴾ أي لا يصرفنّك عن العمل بآيات الله بعد إذ أنزلت إليك ، ﴿وَادْعُ إِلى رَبِّكَ ؛﴾ أي إلى طاعته ، ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧) ؛ قال ابن عبّاس : (الخطاب للنّبيّ ﷺ والمراد به أهل دينه) [٢] أي لا تظاهروا الكفّار ولا توافقوهم.

قوله تعالى : ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ؛﴾ أي لا تعبد أحدا سوى الله ولا تدع الخلق إلى أحد دون الله ، وقوله تعالى : ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ؛﴾ لا معبود سواه ، قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ؛﴾ أي إلّا هو. وانتصب قوله ﴿وَجْهَهُ﴾ على الاستثناء كأنه قال : إلّا إيّاه ، وقال عطاء : (معناه : كلّ شيء هالك إلّا ما أريد به وجهه ، وكلّ عمل لغيره فهو هالك إلّا ما كان له).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥٠٨.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ٩٩١.

وقوله تعالى : ﴿لَهُ الْحُكْمُ ؛﴾ أي الفصل بين الخلائق دون غيره ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) ؛ في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم ، والله أعلم بالصّواب وإليه المرجع والمآب.

**آخر تفسير سورة (القصص) والحمد لله رب العالمين**

تم هذا الجزء لمؤلفه الإمام الهمام شيخ الإسلام الشيخ الطبراني الكبير (١).

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلّى الله وسلم وشرف وعظم على أشرف الأنبياء والمرسلين وجميع الخلف أجمعين سيدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا محمّد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته وجميع المسلمين وسلّم. إنهاء الواقف على هذا التفسير العظيم الذي قلّ أن يوجد له نظير بين العالمين ؛ حيث إن مؤلفه الفاضل الهمام الإمام شيخ الإسلام الشيخ الطبراني الكبير مشّاء على طريق الحق القويم في تفسيره هذا للقرآن العظيم ، جعله الله خالصا لوجهه الكريم ، ونفع به النفع العظيم بمنه وكرمه إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير.

وهذا أول الجزء الرابع ، ﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ﴾. سورة العنكبوت.

---

(١) كتب الناسخ أو الواقف على هامش التفسير : الورقة (٣٧٠) من المخطوط :

## سورة العنكبوت

«سورة العنكبوت مكّيّة إلّا عشر آيات ، من أوّلها إلى قوله تعالى : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ﴾ ، قال الشّعبيّ : (إنّها مدنيّة). وهي أربعة آلاف ومائة وخمسة وتسعون حرفا ، وألف وإحدى وثمانون كلمة ، وتسع وستّون آية» (١).

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ؛ قد تقدّم تفسير ﴿الم﴾. فمن جعل هذه الحروف التي في أوائل السّورة قسما ، احتمل أن يكون جواب القسم في قوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛﴾ واحتمل أن يكون (فليعلمنّ).

وقوله تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ لفظة استخبار ، ومعناه التوبيخ والتقرير ، كأنه قال : أظنّوا أن نقنع منهم بأن يقولوا آمنّا فقط ولا يمتحنون بالأوامر والنّواهي والتّكليف ، ولا يختبرون بما يعلم أنه صدق إيمانهم.

قال الحسن رضي الله عنه : (سبب نزول هذه الآية أنّه لما أصيب المسلمون يوم أحد وكانت الكرّة عليهم ، عيّرهم اليهود والنّصارى بذلك ، فشقّ ذلك على المسلمين ، فأنزل الله هذه الآية). قال السديّ وقتادة ومجاهد : (معناه : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتّعذيب) (٢).

---

(١) ما بين «» ليس في المخطوط ، وأضفناه جريا على نسق المصنف في افتتاح تفسيره للسور ، واقتبسناه من الكشف والبيان للثعلبي واللباب في علوم الكتاب ، لمواكبة الامام الثعلبي وابن عادل ومسايرتهما للامام الطبراني في هذا التنسيق من الافتتاح لتفسير السورة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٠٧٩) عن قتادة ومجاهد. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧١٣٢) بمعناه.

وقال مقاتل : (نزلت هذه الآية في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وكان أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرميّ بسهم فقتله ، فقال النّبيّ ﷺ : [سيّد الشّهداء مهجع ، وهو أوّل من يدعى إلى باب الجنّة من هذه الأمّة][1] فجزع عليه أبواه وامرأته ، فأنزل الله فيهم هذه الآية وأخبر أنّه لا بدّ لهم من البلاء والمشقّة في ذات الله) [2].

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛﴾ فيه تسلية للمؤمنين ، معناه : ولقد امتحنّا الذين من قبلهم ، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ﴾ (٣) ، فليعلمنّ الله الصادق بوقوع صدقه منه بالصّبر على ما يؤمر به ، والكاذب بوقوع كذب منه والجزع والمخالفة في القتال الذي يؤمر به ، فالله تعالى قد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهم ، ولكن القصد من الآية قصد وقوع العلم بما يجازى عليه ؛ لأنّ علم الشّهادة هو الذي يجب به الجزاء ، فأما علم الغيب قبل وقوعه فلا يحلّ به الجزاء.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنه : (ولقد فتنّا الّذين من قبلهم منهم إبراهيم الخليل عليه السلام ابتلي بالنّمرود ، ومنهم قوم بعده نشروا بالمناشير على دين الله فلم يرجعوا عنه). وقال بعضهم : يعني بني إسرائيل ابتلوا بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب.

قوله : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ (٤) معناه : أظنّوا ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾ يعني الشّرك ، قال ابن عبّاس : (يعني الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وغيرهم) [3]. ﴿أَنْ يَسْبِقُونا﴾ أي أن يفوتونا ويعجزونا ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما حكموا لأنفسهم حين ظنّوا ذلك.

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول : ص ٢٢٩. والزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٤٢٥. والبغوي في معالم التنزيل : ص ٩٩١ كلهم عن مقاتل ، وهو في تفسير مقاتل : ج ٢ ص ٥١٠. ومهجع بن عبد الله مولى عمر رضي الله عنه ؛ كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر.

(٢) نقله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥١٠.

(٣) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥١١.

وقيل : إنّ هذه الآية نزلت في عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة ، وفي الوليد بن عتبة وغير الذين بارزوا عليّا وحمزة وعبيدة بن الحارث يوم بدر ، فقتلوا على أيديهم يومئذ [١].

قوله تعالى : ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ ؛﴾ أي من كان يطمع في الثّواب ويخشى العقاب ويخاف الحساب ، فليبادر إلى طاعة الله قبل الموت ، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ؛﴾ أي فإن أجل الموت لآت لمن يرجو ، ولمن لا يرجو ، وإنّ ثواب العمل الصالح لقريب ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ ؛﴾ لمقالة الكفّار والمؤمنين ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ (٥) ؛ بما يستحقّه كلّ واحد منهم. وقيل : إنّ النّبيّ ﷺ لما نزلت هذه الآية قال : [يا عليّ ؛ يا فاطمة : إنّ الله قد أنزل : من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآت ، وإنّ حقيقة رجاء لقاء الله أن يستعدّ الإنسان لأجل الله إذا كان آتيا باتّباع طاعته واجتناب معاصيه][٢].

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ؛﴾ أي من يعمل الخير فإنّما يعمل لنفسه ، ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ (٦) ؛ أي عن أعمالهم وعبادتهم ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ؛﴾ بالإيمان والتوبة ، ومعنى ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ أي لنبطلنّها حتى كأنّها لم تعمل ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧) ؛ أي نجزيهم بأحسن أعمالهم وهي الطاعة ، ولا نجزيهم بمساوئ أعمالهم.

قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما ؛﴾ نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقّاص ، وكان بارّا بأمه ، فلما أسلم قالت له أمّه حمنة بنت أبي سفيان بن أميّة : يا سعد ؛ بلغني أنّك قد صبأت! فو الله لا يظلّني سقف بيت ، وإنّ الطّعام والشّراب عليّ حرام حتّى تكفر بمحمّد ﷺ فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥١١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٣٢٦.

(٢) لم أقف عليه.

فأبى سعد عليها ، وبقيت هي لا تأكل ولا تشرب ولا تستظلّ بشيء ، فمكثت يوما وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جهدت ثمّ مكثت يوما وليلة أخرى لا تأكل ، وقالت : يا سعد لتدعنّ دينك هذه أو لا آكل ولا أشرب حتّى أموت فتعيّر بي ، فيقال : يا قاتل أمّه! فقال سعد : يا أمّاه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت أن تأكلي ، وإن شئت فلا تأكلي. فلمّا رأت ذلك أكلت ، فأنزل الله هذه الآية [1].

ومعناها : ووصّينا الإنسان بالبرّ والإحسان إلى والديه وقلنا له : وإن طلبا منك أن تشرك بي ما ليس لك به علم تطعهما ، فإنّ طاعتهما في الإشراك والمعصية ﴿لَيْسَ﴾[2] من باب الحسن ، بل هي قبيحة. قال رسول الله ﷺ : [لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق][3].

وقوله تعالى : ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ منقلبكم في الآخرة ، ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ﴾ فأخبركم ، ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨) ؛ في الدّنيا من الخير والشرّ والبرّ والعقوق.

واختلف النّحاة في نصب قوله ﴿حُسْناً﴾ ، فقال البصريّون : بنزع الخافض ؛ تقديره : ووصّينا الإنسان بالحسن ، كما يقال : وصيّه خيرا ؛ أي بخير ، وقال الكوفيّون : ووصّينا الإنسان أن يفعل حسنا ، فحذفه لدلالة الكلام عليه. وقيل : هو مثل قوله ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً﴾[4] أي يمسح مسحا. وقيل : معناه : ألزمناه حسنا. وقرأ أبو رجاء : (حسنا) بفتح الحاء والسين ، وفي مصحف أبيّ : (إحسانا).

---

(١) القصة قصة سعد بن مالك ، أبو إسحق الزهري ، وأم سعد بن أبي وقاص (جميلة). ولكلا السعدين قصة مع أمه ، فيها نزلت هذه الآية كما في أسباب النزول للواحدي : ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٢) سقطت من المخطوط ، والضرورة تقتضي وجودها.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير : ج ١٨ ص ١٥٣٥ : الحديث (٤٣٧). وفي الأوسط : ج ٢ ص ٢٠٩ : الحديث (١٣٧٤). وفي مجمع الزوائد : ج ٥ ص ٢٢٦ ؛ قال الهيثمي : (رواه أحمد والطبراني باختصار ، ورجال أحمد رجال الصحيح).

(٤) ص / ٣٣.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٩) أي في زمرة الأنبياء والأولياء ، وقيل : خواصّ أصحاب محمّد ﷺ.

قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ ؛﴾ روي أنّ هذه الآية نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة ، كان أسلم مع رسول الله ﷺ ، وكان يخاف على نفسه من أمّه وأخويه لأمّه وهما أبو جهل والحارث.

فخرج عيّاش بعد ما أعلن إسلامه هاربا إلى المدينة قبل هجرة النّبيّ ﷺ ، وبلغ أمّه الخبر فجزعت جزعا شديدا ، وامتنعت عن الطّعام والشّراب ، فخرج أخواه وقومه في طلبه ، فأخذوه وقيّدوه ، وحلفت أمّه أسماء بنت مخرم بن أبي جندل بالله [١] : لا أحلّك من وثاقك حتّى تكفر بمحمّد ، ثمّ أقبلت تجلده بالسّياط وتعذّبه حتّى كفر جزعا من الضّرب ، فأنزل الله هذه الآية.

قال مقاتل والكلبيّ : (لما هاجر عيّاش إلى المدينة خوفا من أمّه وأخويه ، حلفت أمّه أسماء بنت مخرم بن أبي جندل ألّا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل بيتا حتّى يرجع إليها ابنها ، فلمّا رأى ابناها أبو جهل والحارث ابنا هشام ـ وهما أخوا عيّاش لأمّه ـ جزعها ، فركبا في طلبه حتّى أتيا المدينة فلقياه.

فقال له أبو جهل : قد علمت أنّك أحبّ إلى أمّك من جميع أولادها ، وكنت بارّا بها ، وقد حلفت لا تأكل ولا تشرب ولا تدخل كنّا حتّى ترجع إليها ، وأنت تزعم أنّ في دينك برّ الوالدين ، فارجع إليها فإنّ ربّك الّذي تعبده بالمدينة هو ربّك بمكّة فاعبده بها. فلم يزالا به حتّى أخذ عليهما المواثيق أن لا يحرّكانه ولا يصرفانه عن دينه ، فأعطياه المواثيق فتبعهما ، فلمّا خرجوا به من المدينة أخذاه وأوثقاه وضربه كلّ واحد منهما مائة جلدة حتّى تبرّأ من دين محمّد ﷺ جزعا من الضّرب [٢].

---

(١) ينظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ج ١ ص ٣٦٤ : الرقم (٤٥٢).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥١٢. وابن هشام في السيرة النبوية : هجرة عمر وقصة عياش

وكان الحارث أشدّهما عليه وأسوأهما قولا فيه ، فحلف عيّاش بالله لئن قدر عليه ليضربنّ عنقه ، فلمّا رجعوا إلى مكّة مكثوا حينا ، ثمّ هاجر النّبيّ ﷺ والمؤمنون إلى المدينة ، فهاجر عيّاش وأسلم وحسن إسلامه.

ثمّ إنّ الله تعالى وفّق الحارث بن هشام فهاجر إلى المدينة وبايع النّبيّ ﷺ على الإسلام ، ولم يحضر عيّاش ، فلقيه عيّاش يوما بظهر قباء ولم يعلم بإسلامه ، فضرب عنقه يظنّ أنّه كافر ، فقيل له : إنّه قد أسلم ، فندم واسترجع وبكى ، ثمّ أتى النّبيّ ﷺ فأخبره بذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿وما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾[1].

ومعنى الآية : ومن الناس من يقول آمنّا بالله ، فإذا عذّب في طاعة الله جعل تعذيب الناس كتعذيب الله ، فأطاع الناس خوفا منهم ، كما يطيع الله من خاف عذابه.

قوله : ﴿وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ؛﴾ أي إذا جاء فتح من ربك ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذه صفة المنافقين ، يقول الله تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ﴾ (١٠) ؛ أي بما في قلوب الخلق من الطّمأنينة بالإيمان والانشراح بالكفر ، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ؛﴾ أي ليجزي الله المؤمنين ، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ﴾ (١١) ؛ وليميّزنّ المنافقين.

قوله : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا ؛﴾ معناه : قال كفار مكّة أبو جهل وغيره ، لمن آمن من قريش ، واتّبع محمّدا ﷺ : إتّبعوا ديننا وملّة آبائنا ، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾ ، ونحن الكفلاء بكلّ تبعة تصيبكم من الله في ذلك ،

---

. ومن معه : ج ٢ ص ١١٨.

(١) النساء / ٩٢. في الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ج ١ ص ٣٦٧ : ترجمة هشام بن يزيد : الرقم (٤٥٤) ؛ قال ابن عبد البر : (هو الحارث بن يزيد القرشي العامري). وفي الإصابة في معرفة الصحابة : ج ١ ص ٦٠٧ ؛ قال ابن حجر : (أسلم يوم فتح مكة ، ثم حسن إسلامه ، وقال : فلم يزل مجاهدا بالشام حتى ختم الله له بخير). وذكر في ترجمة الحارث بن يزيد بن أنيسة قصة عياش معه وقال : (وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل : الحارث بن يزيد هو الذي قتله عياش بن أبي ربيعة بالبقيع بعد قدومه المدينة ، وذلك بعد أحد).

ونحمل عنكم خطاياكم ، إن كان عليكم فيه إثم ووزر ، فنحن نحمله عنكم [1]. قال الفرّاء : (قوله تعالى : ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ لفظه لفظ الأمر ، ومعناه : الجزاء ؛ أي إن اتّبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم) [2]. قوله : ﴿وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ (١٢) ؛ فيما ضمنوا من حمل خطاياهم ، ولا يخفّفون العذاب عنهم.

قوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ ؛﴾ معناه : أوزار مع أوزارهم ، وذلك أنّهم يعاقبون على كفرهم وعلى دعاء غيرهم إلى الكفر ، وهذا موافق لقوله ﷺ : [من سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، لا ينقص من أوزارهم شيء][3].

ومعنى الآية : وليحملنّ أوزارهم التي حملوها ، وأوزارا مع أوزارهم لقولهم للمؤمنين : ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنا «وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ﴾ وهم كاذبون فيما قالوا لهم ووعدوهم» [4] ، وليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة.

وقوله : ﴿وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣) ؛ أراد به سؤال توبيخ لا سؤال استعلام ، يقال لهم : هل كان عندكم من الغيب شيء؟ ومن أين قلتم إنّكم تحملوا أوزار غيركم؟.

---

(١) نقله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥١٣. وفي معالم التنزيل : ص ٩٩٣ ؛ قال البغوي : (قاله مقاتل والكلبي ... وذكره).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٣٣٠ ؛ قال القرطبي : (قال الفراء والزجّاج : هو أمر في تأويل الشرط والجزاء ؛ أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم). وقاله النحاس في إعراب القرآن : ج ٣ ص ١٦٩. وينظر : معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١٢٢ واللفظ له.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٢ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ : الحديث (٢٣٧٢ ـ ٢٣٧٥) شطر حديث طويل عن جرير بن عبد الله البجلي من طريقين ، وإسناده صحيح. وأخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٤ ص ٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩. ومسلم في الصحيح : كتاب الزكاة : باب الحث عل الصدقة : الحديث (٧٠ / ١٠١٧).

(٤) على ما يبدو لي أن العبارة المقدرة ما بين «» سقطت من المخطوط ، وقابلناها على ما في جامع البيان : ج ٢٠ ص ١٦٤.

قوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً ؛﴾ أي مكث بين أظهرهم يدعوهم إلى الإيمان ألف سنة إلّا خمسين عاما ، فلم يجبه إلى الإيمان منهم إلّا قليل ، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ (١٤) ، فأهلك الله المكذّبين بالطّوفان وهو الغرق (وهم الظالمون) أي مشركون.

وفي الحديث : [أنّ نوحا عليه السلام أرسل إليهم بعد ما أتى عليه مائتان وخمسون سنة ، وعاش بعد الطّوفان مائتين وخمسين سنة][(١)]. وسمي الغرق طوفانا لأنّ الماء في ذلك اليوم طاف في جميع الأرض.

قوله : ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ ؛﴾ أي أنجينا نوحا من الغرق ومن كان معه من المؤمنين في السّفينة ، ﴿وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ (١٥) ؛ أي جعلنا السّفينة عبرة لمن بعدهم من الناس إن عصوا رسولهم فعلنا بهم مثل ذلك.

قوله : ﴿وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ؛﴾ انتصب ﴿إِبْراهِيمَ﴾ عطفا على نوح ، معناه : وأرسلنا إبراهيم أيضا ، ﴿إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ أي وحّدوا الله وأطيعوه واخشوه ، ﴿ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ؛﴾ أي عبادة الله خير لكم من عبادة الأوثان ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٦) ؛ ذلك.

قوله : ﴿إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً ؛﴾ أي أصناما تتّخذونها من الحجارة والخشب ، ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ؛﴾ أي وتخترعون على الله كذبا في قولكم : إنّها آلهة. ويجوز أن يكون معنى ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ أي تنحتون أصناما.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ أي إنّ الذين تعبدون من الأصنام لا يقدرون أن يرزقوكم. قوله تعالى : ﴿فَابْتَغُوا

---

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٤٥٦ ؛ قال السيوطي : (وأخرج ابن جرير عن عون عن أبي شداد رضي الله عنه قال : (إن الله أرسل نوحا عليه السلام إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة)). وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٠٩٧).

﴿عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٧) ؛ أي اطلبوا الرّزق منّي ، فأنا القادر على ذلك ، ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ أي اعبدوا من يملك أرزاقكم ، (واشكروا من إليه ترجعون) في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ؛﴾ يعني كذبوا أنبياءهم كما كذبتم نبيّكم فأهلكهم الله تعالى ، ﴿وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (١٨) ؛ أي ما عليه إلّا تبليغ الرسالة عن الله بلغة الّذين أرسلهم إليهم.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؛﴾ أي أو لم يعلم ويعتبر أهل مكّة كيف يبدئ الله الخلق في أرحام الأمّهات من النّطفة ثم من العلقة ثم من المضغة إلى تمام الخلق ، ثم يميته ثم يعيده بعد الموت للبعث خلقا جديدا. وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩) ؛ أي إنّ بدأ الخلق وإعادته هيّن على الله ، فإنه القادر على الاختراع من غير ابتداء على مثال ، قادر على الإعادة ، وكانوا يقرّون بأنّ الله هو الذي خلقهم.

قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ؛﴾ أي سافروا في الأرض وابحثوا وانظروا هل تجدون خالقا غير الله ، واعتبروا كيف خلق الله من قبلكم ثم أهلكهم بعد ذلك.

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ؛﴾ أي ثم إنّ الله يبعث الخلق ثانية يوم القيامة ، ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠) ؛ من الإحياء والإماتة قادر. قرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن : (النّشاءة) بالمدّ ، وقرأ الباقون : (النّشأة) بإسكان الشّين والقصر وهما لغتان [١].

قوله تعالى : ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ ؛﴾ أي يعذّب من يشاء من كان أهلا للتعذيب ، ويرحم من يشآء من كان أهلا للرحمة ، وقوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (٢١) ؛ أي تردّون في الآخرة.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٥٧ ، قال : (فقرأ ابن كثير وابن عمرو النشاءة ممدودة في كل القرآن ، وقرأ الباقون بالقصر).

قوله تعالى : ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ ؛﴾ أي ما أنتم يا أهل مكّة بفائتين من عذاب الله هربا ، ولا في السّماء ، فلا تغترّوا لطول الإمهال.

ولا يجوز أن يكون معناه : ولا من في السّماء بمعجزين ؛ أي ما أنتم يا كفار مكّة بفائتي الله في الأرض [1] كنتم أو في السّماء كنتم ، أينما تكونوا يأت بكم الله فيجزيكم بأعمالكم السيّئة ، ﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ؛﴾ يتولّى أمركم وحفظكم ، ﴿وَلا نَصِيرٍ﴾ (٢٢) ؛ يمنع العذاب عنكم.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ وَلِقائِهِ ؛﴾ أي الذين يجحدوا بآيات الله والقرآن والبعث بعد الموت ، ﴿أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ؛﴾ أي من جنّتي في الآخرة باعتقادهم أنّها لا يقع بهم ، ﴿وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٣).

قوله تعالى : ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ؛﴾ أي ما كان جواب قوم إبراهيم حيث دعاهم إلى الله ، إلّا أن قالوا : اقتلوه أو حرّقوه بالنار ، ثم «اتفقوا على تحريقه» [2] فقذفوه في النار ، ﴿فَأَنْجاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ؛﴾ سالما ، وجعلها عليه بردا وسلاما ولم تحرق منه إلّا وثاقه ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤) بالله ورسله.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً ؛﴾ أي قال إبراهيم : إنّ ما عبدتم من دون الله أوثانا هي مودّة بينكم ، أو تلك مودّة بينكم ، والمعنى : أي ألفتكم واجتماعكم على الأصنام ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما

---

(١) في معالم التنزيل : ص ٩٩٤ ؛ قال البغوي : (قال قطرب : معناه : ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها ، كقول الرجل للرجل : لا يفوتني فلان هاهنا ولا بالبصرة ولو كان بها).

(٢) ما بين «» ليس في المخطوط ، وأضفناه لضرورة السياق ، ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٣٣٨.

لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ (٢٥) ؛ ثم تنقطع عن قريب ، وتنقلب تلك المودّة عداوة بعد الموت ، يتبرّأ بعضكم من بعض ، ويلعن العابد المعبود ، لذلك يلعن العابدون بعضهم بعضا ، ويكون مصيرهم في الآخرة النار ، وما لكم من مانع يمنعكم من عذاب الله.

ويجوز أن تكون (ما) في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ﴾ بمعنى (الذي) كأنه قال : إنّ الذي اتّخذتموه من دون الله أوثانا مودّة بينكم ما دمتم في الحياة الدّنيا ، فيكون ﴿مَوَدَّةَ﴾ رفعا لأنّها خبر (إنّ) ، وقرأ حمزة وحفص ﴿مَوَدَّةَ﴾ بالنصب ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالخفض على الإضافة ؛ بوقوع الاتّحاد عليه ، وجعل ﴿إِنَّمَا﴾ حرفا واحدا ، وقرأ الباقون نصبا منوّنا (بينكم) بالنصب على أنه مفعول أيضا ، ومعناه : اتّخذتم هذه الأوثان مودّة بينكم تتوادّون وتحابّون على عبادتها وتتواصلون عليها.

قوله تعالى : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ؛﴾ أي صدّق لوط بإبراهيم ، وهو أوّل من صدّق به ، ﴿وَقالَ ؛﴾ إبراهيم : ﴿إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي ؛﴾ أي إلى الموضع الذي أمرني ربي بالهجرة إليه ، وكان مأمورا بالهجرة من كوثى وهو سواد العراق إلى الشّام.

وقيل : إن كوثى من سواد الكوفة ، فهاجر إبراهيم ومعه لوط وهو ابن أخيه ومعه سارة. قال مقاتل : (هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة) [(١)]. وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦) ؛ أي المنتقم ممّن عصاه ، الحكيم فيما حكم علينا من الهجرة.

قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ ؛﴾ أي لإبراهيم ، ﴿إِسْحاقَ ؛﴾ من امرأته سارة ، ﴿وَيَعْقُوبَ ؛﴾ ابن ابنه ، وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ ؛﴾ وذلك أنّ الله لم يبعث نبيّا من بعد إبراهيم إلّا من صلبه ، وقوله تعالى ﴿وَالْكِتابَ﴾ أي وجعلنا التّوراة والإنجيل والقرآن في ولده.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥١٦.

وقوله تعالى : ﴿وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا ؛﴾ أراد به الثّناء الحسن ، وموالاة جميع الأمم إيّاه ؛ لأن جميع أهل الأديان يحبّونه. وقال السديّ : (إنّه أري مكانه في الجنّة) ثمّ أعلمه الله أنّ له مع ما أعطاه في الدّنيا الدّرجات العلى لقوله : ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧) ؛ أي إنه في الآخرة مع آبائه المرسلين في الجنّة مثل آدم ونوح.

قوله تعالى : ﴿وَلُوطاً ؛﴾ أي وأرسلنا لوطا بالنبوّة ، ﴿إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ ؛﴾ يعني عملهم الخبيث الذي لم يكن يعمله أحد قبلهم.

وقوله تعالى : ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ؛﴾ وذلك أنّهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين ، فلما فعلوا ذلك شاع الخبر ، فترك الناس المرور بهم وانقطع السبيل.

وقوله تعالى : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ؛﴾ النادي المجلس والمتحدّث ؛ أي تأتون في مجالسكم الفسق ، قيل : إنّهم كانوا يفعل بعضهم ببعض الفاحشة في المجالس. وقيل : إنّهم كانوا يصفّقون بأيديهم ويصفّرون بأفواههم ، وقال القاسم بن محمّد : (هو أنّهم كانوا يتضارطون في مجالسهم) [(١)] ويضربون بالعود والمزامير (ويلعبون بالحمام) [(٢)]. وقيل : في معنى قوله تعالى ﴿وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال مجاهد : (كان يجامع بعضهم بعضا في المجالس) [(٣)].

وسئل رسول الله ﷺ عن المنكر الّذي كانوا يأتونه قوم لوط ، فقال : [كانوا يجلسون وعند كلّ واحد منهم قصعة حصى ، فإذا مرّ بهم عابر سبيل خذفوه ، فأيّهم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٢٧٣). ونقله الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١١٢٦) بإسناده عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) من قول مجاهد ؛ أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٢٧٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٢٧٤). والطبري في جامع البيان : الآثار (٢١١٣١).

أصابه كان أولى به][1] ، قال ﷺ : [إيّاكم والخذف ، فإنّه لا ينكأ العدوّ ولا يصيب الصّيد ، ولكن يفقأ العين ويكسر السّنّ][2].

قوله تعالى : ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ؛﴾ أي فلمّا أنكر لوط على قومه ما كانوا يفعلون من القبائح قالوا استهزاء : ﴿ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ (٢٩) ؛ أنّ العذاب نازل ، فعند ذلك ؛ ﴿قالَ ؛﴾ لوط عليه السلام : ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣٠) ؛ أي انصرني بتحقيق قولي في العذاب على القوم المفسدين العاصين.

فاستجاب الله دعاءه ، وبعث جبريل ومعه الملائكة لتعذيب قومه وهو قوله تعالى : ﴿وَلَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى ؛﴾ أي بالبشرى بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ، ﴿قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ ؛﴾ يعني سدوم قرية لوط ، ﴿إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ﴾ (٣١) ؛ بالشّرك والعمل الخبيث ، ﴿قالَ ؛﴾ إبراهيم : ﴿إِنَّ فِيها لُوطاً ؛﴾ فكيف تهلكونهم؟! ﴿قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ؛﴾ وأهل دينه وابنتيه زعورا وزنبا ، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ واعلة ، ﴿كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ (٣٢) ؛ أي من الباقين في المهلكين.

قوله تعالى : ﴿وَلَمّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ؛﴾ أي ساء مجيئهم خوفا عليهم من قومه ؛ لأنّهم جاؤه على هيئة الغلمان ، ﴿وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ؛﴾ أي ضاق عليهم بسببهم ، ﴿وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ﴾ (٣٣) ومنجّوا ؛ قال المبرّد : (الكاف في

(١) أخرجه الطبري من حديث أم هانئ في جامع البيان : الحديث (٢١١٢٧) بأسانيد. والترمذي في الجامع : أبواب التفسير : الحديث (٣١٩٠) ، وقال : هذا حديث حسن. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٢٤ ص ٣٢٦ : الحديث (١٠٠٠ ـ ١٠٠٢) ، والزيادة [فأيّهم أصابه كان أولى به] لم أقف عليها إسنادا ، وذكرها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٣٤٢ ، وقال : (ذكره الثعلبي).

(٢) في مجمع الزوائد : ج ٤ ص ٣٠ ؛ قال الهيثمي : (قلت هو في الصحيح من حديث عبد الله بن مغفل ، رواه الطبراني في الكبير ، وفيه الحسن بن دينار ، وهو ضعيف).

﴿مُنَجُّوكَ﴾ مخفوضة ولم يجز عطف الظّاهر على المضمر المخفوض ، فما جعل الثّاني على المعنى ، فصار التّقدير : وننجي أهلك ، أو منجون أهلك).

قوله تعالى : ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ ؛﴾ أي عذابا بالحجارة ، وقيل : الخسف والحصب ، ﴿بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٤) ؛ أي بسبب فسقهم ، يروى أنّ تلك القرية كانت مشتملة على سبعمائة ألف رجل.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً ؛﴾ أي آثار منازلهم الخربة وهي ترك ديارهم منكوسة عظة وعبرة ، وأظهر الله فيها ماء أسودا نتنا يتأذى الناس برائحته ، وقوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣٥) ؛ أي يتفكّرون فيما فعل الله بهم فلا يفعلون مثل فعلهم.

قوله تعالى : ﴿وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ؛﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا ، ﴿فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ؛﴾ أي واخشوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال ، ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦) ؛ أي لا تعثوا في الأرض بالفساد ، ﴿فَكَذَّبُوهُ ؛﴾ بالرّسالة ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ؛﴾ أي الزّلزلة ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ (٣٧) ؛ أي ميّتين باركين على ركبهم.

قوله تعالى : ﴿وَعاداً وَثَمُودَ ؛﴾ أي وأهلكنا عادا وثمودا ، ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ ؛﴾ أي ظهر لكم يا أهل مكّة من منازلهم والحجر واليمن في هلاكهم حيث تمرّون بها ، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ؛﴾ القبيحة ، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ؛﴾ أي فصرفهم عن طريق الحقّ ، ﴿وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨) ؛ أي عقلاء يمكنهم تمييز الحقّ من الباطل ، ويقال : كانوا معجبين بضلالهم يرون أنّهم على الحقّ ، ولم يكونوا كذلك ، والمعنى : أنّهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين فيما عملوا من الضّلالة ، يحسبون أنّهم على هدى.

قوله تعالى : ﴿وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي وأهلكنا قارون وفرعون وهامان بعد ما جاءهم

موسى بالمعجزات فتعظّموا عن الإيمان به ، ﴿وَما كانُوا سابِقِينَ﴾ (٣٩) ؛ أي لم يكونوا فائتين من عذاب الله.

قوله تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ؛﴾ أي كلّ هؤلاء القوم الذين ذكرناهم عاقبناهم بذنوبهم ، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ؛﴾ يعني الحجارة وهم قوم لوط ، وقيل : الحاصب الرّيح التي تأتي بالحصباء ، وهي الحصى الصّغار ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ؛﴾ وهم قوم صالح وشعيب ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ؛﴾ يعني قارون وأصحابه ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ؛﴾ يعني قوم نوح وفرعون ، ﴿وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ؛﴾ بإهلاكه إيّاهم ، ﴿وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠) ؛ بالكفر والمعاصي.

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ ؛﴾ يعني الأصنام يتّخذونها أولياء يرجون نصرها ونفعها ، ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ ، وبيتها لا يغنيها عن الحرّ والبرد والمطر ، كذلك آلهتهم لا ترزقهم شيئا ، ولا تملك لهم ضرّا ولا نفعا.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ أي لا بيت أضعف منه ممّا يتّخذه الهوام ، ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) ؛ إنّ اتّخاذهم الأولياء سوى الله كاتّخاذ العنكبوت بيتا في قلّة النفع ما اتّخذوهم أولياء.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ؛﴾ قرأ أبو عمرو ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء لذكر الأمم قبلها ، وقرأ الباقون بالتاء ، ومعنى الآية : أنه عالم بما عبدتموه من دونه فهو يجازيكم على كفركم ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤٢).

وقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ ؛﴾ يعني أمثال القرآن ، ﴿نَضْرِبُها﴾ ، نبيّنها ، ﴿لِلنَّاسِ﴾. قال مقاتل : (يعني لكفّار مكّة) [1]﴿وَما يَعْقِلُها ؛﴾ الأمثال ، ﴿إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ (٤٢) ؛ أي العلماء.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥٢٠.

قوله تعالى : ﴿خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ؛﴾ أي للحق واظهر الحقّ خلقها ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤) ؛ أي لدلالة على قدرة الله وتوحيده.

قوله تعالى : ﴿اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ؛﴾ أي إقرأ عليهم يا محمّد ما أنزل عليك من القرآن ، وأقم الصّلوات الخمس في مواقيتها بشرائطها وسننها.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ؛﴾ وذلك أنّ في الصّلاة تكبيرا وتسبيحا وقراءة ووقوفا للعبادة على وجه الذّلّ والخشوع ، وكلّ ذلك يدعو إلى شكله ويصرف عن ضدّه وهي الآمر والنّاهي بالقول. والفحشاء : ما قبح من العمل ، والمنكر : ما لا يعرف في شريعة ولا سنّة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (في الصّلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله) [١] (فمن لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد من الله إلّا بعدا) [٢] ، وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعدا][٣].

وقوله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ؛﴾ أي ولذكر الله إيّاكم بالتوفيق والمغفرة والثواب أكبر من ذكركم إياه بالطاعة ، وقيل : ذكر الله في المنع من الفحشاء والمنكر أكبر من الصّلاة ، ويجوز أن يكون أكبر في معنى الكبر في الجزاء والثّواب ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ﴾[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٣٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٣٤٠). والطبراني في المعجم الكبير : ج ١١ ص ٤٦ : الحديث (١١٠٢٥). والقضاعي في المسند : ج ١ ص ٣٠٥ : الحديث (٥٠٨). وفي مجمع الزوائد : ج ٢ ص ٢٥٨ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني في الكبير ، وفيه ليث بن أبي سليم ، وهو ثقة ولكنه يدلس).

(٣) لم أجده.

(٤) البقرة / ٤٥.

قالت الحكماء : ذكر الله للعبد أكبر من ذكر العبد لله ؛ لأنّ ذكر الله للعبد على حدّ الاستغناء ، وذكر العبد إياه على حدّ الافتقار ، ولأنّ ذكر العبد بجرّ نفع أو دفع ضرّ ، وذكر الله للعبد للفضل والكرم ، ولأنّ ذكر العبد مخلوق ، وذكر الله غير مخلوق.

وقال ﷺ في قوله تعالى ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ : [أي ذكر الله على كلّ حال أحسن وأفضل ، والذّكر أن تذكره عند ما حرّم ، فتدع ما حرّم ، وعند ما أحلّ فتأخذ ما أحلّ][1]. وقال ﷺ : [من أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليكثر من ذكر الله عزّ وجلّ ][2].

وقال أبو الدّرداء رضي الله عنه : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم وأتمّها في درجاتكم ، وخير لكم من أن تغزوا عدوّكم فتضربوا رقابهم ، وخير لكم من إعطاء الدّنانير والدّراهم؟) قالوا : وما هو؟! قال : (ذكر الله عزّ وجلّ ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[3].

وقال معاد بن جبل : سألت رسول الله ﷺ : أيّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى؟ قال : [أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عزّ وجلّ ][4]. وقال ﷺ : [ما من قوم جلسوا في مجلس يذكرون الله فيه ؛ إلّا حفّت بهم الملائكة ؛ وغشيتهم الرّحمة ؛ وذكرهم الله فيمن عنده][5].

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف : ج ٦ ص ٥٩ : الحديث (٢٩٤٤٨) عن معاذ بن جبل ، وفي ج ٧ ص ١٨٠ : الحديث (٣٥٠٤٩) أيضا.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١١٦٧) عن أبي الدرداء.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٢٠ ص ٩٣ : الحديث (١٨١) ، وص ١٠٧ : الحديث (٢١٢) ، وص ١٠٨ : الحديث (٢١٣). وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٧٤ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني بأسانيد ، وفي بعضها خالد بن يزيد ، ضعفه جماعة ، ووثقه أبو زرعة وغيره ، وبقية رجاله ثقات).

(٥) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ، وهو في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين في الرقم (٨٧٣) بلفظه ، وقال العراقي : (رواه مسلم من حديث أبي هريرة) ولفظه عند مسلم : [ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلّا نزلت عليهم السّكينة وغشيتهم الرّحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده].

وروي أنّ رجلا أعتق أربع رقاب ، وآخر قال : سبحان الله ؛ والحمد لله ؛ ولا إله إلّا الله ؛ والله أكبر ، ثم إنّ الذي لم يعتق سأل حبيب [1] سرّا وفي أصحابه فقال : ما تقولون فيمن أعتق أربع رقاب وأنا قلت : سبحان الله ؛ والحمد لله ؛ ولا إله إلّا الله ؛ والله أكبر ، فأيّهما أفضل؟ فنظروا هنيهة وقالوا : ما نعلم شيئا أفضل من ذكر الله.

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥) ؛ أي ما تعملون من الخير والشرّ ، لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى : ﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ؛﴾ أي لا تخاصموا أهل الكتاب إلّا بالطريقة التي هي أحسن ، وهي أن تعظوهم بالقرآن على وجه النّصح لهم والاستمالة إلى دين الإسلام وتعظيم الله تعالى وطلب ثوابه ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ؛﴾ أي إلّا من ظلم من أهل الكتاب فمنع الجزية أو نقض العهد ، وعاد حربا لكم ، فجادلوهم باللّسان والسّنان ، وأغلظوا عليهم حتى يسلموا ، ﴿وَقُولُوا ؛﴾ لمن قبل الجزية منهم إذا أخبروكم بشيء من كتبهم : ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ؛﴾ أي آمنّا بالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور ، ﴿وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) ؛ أي مخلصون بالعبادة والتوحيد ، وهذه صفة المجادلة الحسنة.

قوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ ؛﴾ أنزلنا إليك يا محمّد القرآن كما أنزلنا إليهم الكتب ، ﴿فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي الذين أكرمناهم بعلم التّوراة وهم عبد الله بن سلام وأصحابه يؤمنون بالقرآن بدلالة التّوراة. وقوله : ﴿وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ؛﴾ أراد به من كفّار مكّة من يؤمن به ، يعني يسلم منهم.

وقوله تعالى : ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ﴾ (٤٧) ؛ أي ما يجحد بمحمّد ﷺ وبالقرآن بعد المعرفة إلّا الكافرون من اليهود ، وذلك أنّهم عرفوا أنّ محمّدا نبيّ والقرآن حقّ فجحدوا وأنكروا.

---

(١) هكذا أبهم الاسم (حبيب) ولم يعرّفه.

قوله تعالى : ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ؛﴾ أي ما كنت يا محمّد تقرأ من قبل القرآن ﴿مِنْ كِتابٍ﴾ أي ما كنت قارئا قبل الوحي ولا كاتبا ، وقوله : ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) ؛ ولا تكتبه بيمينك ، ولو كنت تقرأه وتكتب لوجد المبطلون طريقا إلى التّشكيك في أمرك والارتياب في نبوّتك ، ويقولون إنه يقرأه من الكتب الماضية ، فلمّا كان معلوما عندهم أنه عليه السلام كان لا يقرأ ولا يكتب ، ثم أتى بالقرآن الذي عجزوا عن الإتيان بسورة مثله ، دلّهم ذلك على أنه من عند الله ، ولأنّه كانت صفته في التّوراة والإنجيل : أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولو كنت قارئا كاتبا لشكّ اليهود فيك ، وقالوا : إنّ الذي نجده في التوراة أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب.

قوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ؛﴾ قال الحسن : (يعني القرآن آيات بيّنات في صدور الّذين أوتوا العلم يعني المؤمنين الّذين حملوا القرآن على عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم وحملوه بعد) [1].

وقال مقاتل : ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمّدا صلى الله عليه وسلم ﴿آياتٌ بَيِّناتٌ﴾ أي دو آيات بيّنات في صدور أهل العلم من أهل الكتاب ؛ لأنّهم يجدونه بنعته وصفته). ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٩) ، يعني كفار اليهود.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ؛﴾ أي قال كفّار مكّة : هلّا أنزل على محمّد آية من ربه كما كانت الأنبياء تجيء بها إلى قومهم ، أرادوا بها الآيات التي كانوا يقترحونها عليه من قولهم : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ الآية [2].

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائيّ وخلف : (آية) على التوحيد ، وقرأ الباقون بالجمع.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٣٧٥). والطبري في جامع البيان : الأثر (٢١١٩٩).

(٢) الإسراء / ٩٠.

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ﴾ أي في حكم الله إن شاء أنزلها ، ﴿وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) ؛ أي رسول مخوّف لكم بلغة تعرفونها ، وليس إنزال الآيات بيده.

وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ ؛﴾ معناه : أو لم يكن لهم كفاية في معرفة نبوءتك أنّا أنزلنا عليك القرآن الذي تقرأه عليهم بلغتهم مما فيه أخبار الأمم الماضية مع عجزهم عن الإتيان بحديث مثله ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً ؛﴾ أي في إنزال القرآن لرحمة لمن آمن به وعمل بما فيه ، ﴿وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) ، أي وذكرى وموعظة لهم.

قوله تعالى : ﴿قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ؛﴾ أي قل لهم يا محمّد : كفى الله شهيدا بأنّي رسول إليكم ، ﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾. وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ ؛﴾ أي صدّقوا بالأصنام وجحدوا وحدانيّة الله ، ﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ (٥٢) ؛ بالعقوبة وفوت المثوبة.

قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ؛﴾ أي يستعجلك كفار مكّة بالعذاب قبل وقته استهزاء وتكذيبا منهم بذلك ، ﴿وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ ؛﴾ أي لو لا أنّ الله جعل لعذابه أجلا مسمّى قد سمّاه وهو يوم القيامة. وقيل يعني مدّة أعمارهم ؛ لأنّهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب لعجّل لهم العذاب في الحال ، ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣) ؛ بإتيانه.

قوله تعالى : ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ (٥٤) ؛ فيه تعجيب باستعجالهم مع أنّ جهنّم محيطة بهم في الآخرة ، جامعة لهم ، ﴿يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ؛﴾ فلا يبقى جزء منهم إلّا وهو معذب في النار جزاء ، ويقال لهم : ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٥).

قرأ الكوفيّون ونافع : ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء ، يعني الموكّل بعذابهم يقول لهم ذلك ، وقرأ الباقون بالنّون ؛ لأنه لما كان بأمره سبحانه جاز أن ينسب إليه.

قوله تعالى : ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ؛ قال مقاتل : (نزلت في ضعفاء مسلمي مكّة ، تقول : إن كنتم في ضيق بمكّة من إظهار الإيمان) [١] فاخرجوا منها وأمروا بالهجرة من الموضع الّذي لا يمكنهم فيه من عبادة الله ، وكذلك يجب على كلّ بلد ، من كان في بلد فعمل فيها بالمعاصي ، ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيّأ له أن يعبد الله حقّ عبادته.

ثم خوّفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة ؛ فقال : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ؛﴾ أي كلّ أحد ميّت أينما كان ، فلا تقيموا بدار الشّرك خوفا من الموت ، ﴿ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ (٥٧) ، بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم. وقال سعيد بن جبير : (معنى الآية : إذا عمل في أرض بالمعاصي فاخرجوا منها ، فإنّ أرضي واسعة) [٢] ، وقال عطاء : (إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا منها ، فإنّ أرض الله واسعة) [٣] ، وقال مجاهد : (إنّ أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا) [٤].

وقال الكلبيّ : (نزلت في المستضعفين من المؤمنين الّذين كانوا بمكّة لا يقدرون على إظهار الإيمان وعبادة الرّحمن ، فحثّهم على الهجرة إلى المدينة ، فشقّ عليهم وقالوا : كيف يكون حالنا إذا انتقلنا إلى دار الغربة وليس بها أحد يعرفنا فيواسينا ، ولا نعرف وجوه الاكتساب فيها ، فقطع الله عذرهم بهذه الآيات).

ومعناها : إنّ أرضي واسعة آمنة ، وقيل : ﴿واسِعَةٌ﴾ أي رزقي لكم واسع ، فاخرجوا من هذه الأرض التي أنتم فيها. وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : [من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجب الجنّة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمّد عليهما‌السلام ] [٥].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥٢٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٢٠٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٢٠٦).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٢٠٧).

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٤٤٦ ، وقد تقدم في النساء ، وهو من مراسيل الحسن.

ثم ذكر ثواب من هاجر ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؛﴾ يعني المهاجرين ، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ؛﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (لنسكننّهم غرف الدّرّة والزّبرجد والياقوت ، ولننزلنّهم قصور الجنّة) ، وقرأ حمزة والكسائيّ : (لنثوينّهم) يقال : ثوى الرجل إذا أقام ، وأثويته إذا أنزلته منزلا يقيم فيه ، والمعنى : والذين آمنوا لننزلنّهم من الجنّة غرفا عوالي تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ، ﴿خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ (٥٨) ؛ لله.

ثم وصفهم فقال : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا ؛﴾ أي على دينهم فلم يتركوه لشدّة لحقتهم ، ﴿وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٥٩) ؛ قال ابن عبّاس : (وذلك أنّ المهاجرين توكّلوا على الله وتركوا دورهم وأموالهم). وقيل : معناه : ﴿وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أرزاقهم وجهاد أعدائهم ومهمّات أمورهم.

قال مقاتل : (إنّ أحدهم كان يقول بمكّة : كيف أهاجر إلى المدينة وليس لي بها مال ولا معيشة) (١). فقال الله عزّ وجلّ : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ؛﴾ أي وكم من دابّة في الأرض ؛ وهي كلّ حيوان يدبّ على الأرض مما يعقل ومما لا يعقل.

والمعنى : كم من نفس دابّة لا تحمل رزقها ؛ أي لا ترفع رزقها معها ولا تدّخر شيئا لغد ، ﴿اللهُ يَرْزُقُها ؛﴾ حيث توجّهت ، ﴿وَإِيّاكُمْ ؛﴾ يرزقكم إن أخرجتم إلى المدينة ، وإن لم يكن لكم زاد ولا نفقة. قال سفيان : (وليس شيء ممّا يخبئ ويدّخر إلّا الإنسان والفأر والنّملة والغراب على ما قيل) (٢).

وقيل : إنّ رسول الله ﷺ قال للمؤمنين الّذين كانوا بمكّة وقد آذاهم المشركون : [أخرجوا إلى المدينة وهاجروا ، ولا تجاوروا الظّلمة فيها] فقالوا : يا رسول الله! كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها عقار ولا مال ، فمن يطعمنا

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٢ ص ٥٢٤.

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٣٦٠.

ويسقينا؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ﴾[1] يوما بيوم ؛ أي يرزق من يحمل ومن لا يحمل ، فكم من دابّة لا تجمع رزقها لغد ، ولا يقدر على حمل رزقها لضعفها ، الله يرزقها وإيّاكم ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٠) ؛ أي السّميع لأقوالهم : نخشى إن فارقنا أوطاننا العيلة ، العليم بما في قلوبهم ونفوسهم ، فلا يتركوا عبادة الله بسبب الرّزق ، ولا يهتمّوا لأجل ذلك.

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ؛﴾ يعني لئن سألت مشركي مكّة : من خلق السّموات ، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٦١) ؛ أي يصرفون عن عبادة الله الذي هذه صفته إلى عبادة جمادات لا تنفع ولا تضرّ.

قوله تعالى : ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ؛﴾ أي يبسط الرّزق على قوم ، ويضيّق على قوم ، يفعل ذلك عن علم وحكمة ، لا عن غلط وخطأ ، ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٢).

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللهُ ؛﴾ يعني كفّار مكّة أيضا ، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ؛﴾ أي الحمد لله على إقرارهم ؛ لأن ذلك يلزمهم الحجّة ، ويوجب عليهم التوحيد. وقيل : معناه : الحمد لله على هذه النّعم ، وعلى ما تفضّل به جلّ ذكره من الإنعام على العباد ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٣) ؛ بتوحيد ربهم مع إقرارهم بأنه خلق السّموات والأرض وأنزل المطر.

قوله تعالى : ﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي باطل وغرور وعبث تنقضي عن قريب بسرعة ، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ ؛﴾ يعني الجنّة هي الحيوان ؛ أي الحياة والدّوام والبقاء الذي لا نفاد له ، والحيوان والحياة واحد. وقوله تعالى : ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤) ؛ أي لو كانوا يعلمون

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٣٦٠.

الفرق بين الحياة الدّائمة والحياة الفانية لرغبوا في الباقي الدائم عن الفاني الزّائل ، ولكنّهم لا يعلمون.

قوله تعالى : ﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ؛﴾ يعني المشركين إذا ركبوا في السّفينة وهاجت الرياح واضطربت الأمواج ، وخافوا الغرق والهلاك ، ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي دعوا الله مفردين له بالدّعاء ، وتركوا شركاءهم وأصنامهم فلا يدعونهم لإنجائهم ، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ؛﴾ أي فلمّا خلّصهم من تلك الأهوال ، وأخرجهم إلى البرّ ؛ ﴿إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ ؛﴾ أي عادوا إلى شركائهم لكي يكفروا بما أعطيناهم ، ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا ؛﴾ في كفرهم ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٦) ؛ جزاء فعلتهم. قال عكرمة : (كان أهل الجاهليّة إذا ركبوا في البحر حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتدّت بهم الرّيح ألقوا تلك الأصنام في البحر ، وصاحوا : يا الله يا الله).

وقيل : إنّ (اللام) في قوله ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ لام الأمر ، ومعناها : التهديد والوعيد ، كقوله ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾[(١)] ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾[(٢)] ، وكذلك عقّبه بقوله : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي ألم ير كفار مكّة ﴿أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً﴾ يعني مكّة ، ويسلب الناس من حولهم فيقتلون ويؤسرون وتؤخذ أموالهم ، وأهل مكّة آمنون من ذلك ، ﴿أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ ؛﴾ أي فيقرّون ويصدّقون بالباطل وهي الأصنام بعد قيام الحجّة ، ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٦٧) ؛ أي بمحمّد والإسلام يجحدون. والتّخطّف : هو تناول الشيء بسرعة.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً ؛﴾ أي لا أجد أظلم ممّن زعم أنّ لله شريكا ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ ؛﴾ يعني

---

(١) فصلت / ٤٠.

(٢) الإسراء / ٦٤. وفي المخطوط : (واستفززه من استطعت).

محمّدا والقرآن ، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾ (٦٨) ؛ أي أما لهذا الكافر المكذّب مأوى في جهنّم ، وهو استفهام ، ومعناه : التقرير.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ؛﴾ أي الذين جاهدوا الكفار لابتغاء مرضاتنا لنهدينّهم سبلنا إلى الجنّة ؛ أي لنوفّقنّهم لإصابة الطريق المستقيمة. وقيل : معناه : والذين قاتلوا لأجلنا أعداءنا لنهدينّهم سبيل الشّهادة والمغفرة.

وقال الفضيل : (معناه : والّذين جاهدوا فينا في طلب العلم بالعمل به) ، وقال أبو سليمان الدّارانيّ : (معناه : الّذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله إلى ما لا يعلمون). وعن ابن عبّاس : (أنّ معناه : والّذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينّهم سبل ثوابنا).

وقيل : معناه : والذين جاهدوا بالصّبر على المصائب والنّوائب لنهدينهم سبل الوصول للمواهب. وقيل : والذين جاهدوا بالثّبات على الإيمان لنهدينّهم دخول الجنان. وقال سهل بن عبد الله : (والّذين جاهدوا في إقامة السّنّة لنهدينّهم سبل دخول الجنّة). قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩) ؛ أي من بالنّصر على أعدائهم ، والمعونة في دنياهم والثواب والمغفرة في عقباهم.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المؤمنين والمنافقين](١).

**آخر تفسير سورة (العنكبوت) والحمد لله وحده**

---

(١) من أحاديث فضائل السور ، يذكره أهل التفسير عن أبي أمامة وأبي بن كعب ، في إسناده نظر ، وعدّه البعض من الموضوعات. ينظر : اللباب في علوم الكتاب : ج ١٥ ص ٣٨٠.

## سورة الرّوم

سورة الرّوم مكّيّة ، وهي ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفا ، وثمانمائة وتسع عشرة كلمة ، وستّون آية.

قال رسول الله ﷺ : [من قرأ سورة الرّوم كان له من الأجر عشر حسنات ، بعدد كلّ ملك يسبح لله بين السّماء والأرض](١).

## بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (٣) ؛ أي غلبت فارس الروم ، ففرح بذلك كفار مكّة وقالوا : الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب ، وافتخروا بذلك على المسلمين وقالوا لهم : نحن أيضا نغلبكم كما غلبت فارس الروم.

وقصّة ذلك : أن كسرى ملك فارس أرسل شهريار إلى الرّوم ، فسار إليهم بأهل فارس ليغزوهم ، فظهر على الروم فقتلهم وخرّب مدائنهم ، وكان قيصر ملك الروم قد بعث بجيش لما سمع بقدوم شهريار ، فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشّام إلى أرض العرب والعجم ، فغلبت فارس الروم حتى انتزعوا بيت المقدس من الروم ، وكان ذلك موضع عبادتهم.

فبلغ ذلك النبيّ ﷺ وأصحابه بمكّة فشقّ ذلك عليهم ، وكان ﷺ يكره أن يظهر الأميّون من المجوس على أهل الكتاب من الرّوم ، وفرح بذلك كفار مكّة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبيّ ﷺ وقالوا : إنّكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٤٧٣ ، وهو من مرويات الثعلبي في تفسيره عن أبي أمامة وأبي بن كعب بإسناد واه ضعيف.

إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الرّوم ، وإنّكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآيات ﴿الم ، غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾(1).

فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى الكفّار وقال : (أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟! فلا تفرحوا ولا يقرّ الله أعينكم ، فو الله ليظهرنّ الرّوم على فارس ، أخبرنا بذلك نبيّنا) فقام إليه أبيّ بن خلف الجمحيّ وقال له : كذبت! فقال له أبو بكر : أنت أكذب يا عدوّ الله) فقال أبيّ بن خلف : كما غلبت عبدة النّيران أهل الكتاب ، فكذلك نحن نغلبكم) واستبعد المشركون ظهور الرّوم على فارس لشدّة شوكة أهل فارس.

فقال أبو بكر لأبيّ بن خلف : (أنا أراهنك على أنّ الرّوم تغلب إلى ثلاث سنين) فراهنه أبيّ على خمس من الإبل ، وقيل : على عشر من الإبل ، (فإن ظهرت الرّوم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس غرمت أنا) ثمّ جاء أبو بكر إلى النّبيّ ﷺ فأخبره بذلك ، فقال ﷺ : [زد في الخطر (2) وأبعد في الأجل] ففعل ذلك ، وجعل الأجل تسع سنين ، وكان ذلك قبل تحريم القمار.

روي أنّ النّبيّ ﷺ قال لأبي بكر : [إنّما البضع ما بين الثّلاث إلى التّسع]. قرأ : [زده في الخطر ومادّه في الأجل] فخرج أبو بكر فلقي أبيّا فقال : لعلّك ندمت! فقال : أزيدك في الخطر وأمادّك في الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد أخاف فعلت.

فلمّا خشي أبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكّة ، أتاه فلزمه وقال أبيّ : إن تخرج من مكّة فأقرّ لي كفيلا ، فكفل له ابنه عبد الله بن أبي بكر ، فلمّا أراد أبيّ بن خلف أن يخرج إلى أحد ، أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه وقال : لا والله لا أدعك حتّى تعطيني كفيلا ، فأعطاه كفيلا ومضى إلى أحد ، ثمّ رجع فمات بمكّة من جراحته

---

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول : ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(2) الخطر : الرّهان والعوض.

الّتي جرحه رسول الله ﷺ حين بارزه ، وظهرت الرّوم على فارس يوم الحديبية وذلك على رأس تسع سنين من مراهنتهم ، وهذا قول أكثر المفسّرين [1].

وقال أبو سعيد الخدريّ ومقاتل : (لما كان يوم بدر قتلت المسلمون كفّار مكّة ، وأتاهم الخبر أنّ الرّوم قد غلبت فارس ، ففرح المسلمون بذلك ، وغلب أبو بكر رضي الله عنه أبيّا وأخذ مال الخطر من ورثته ، وجاء به إلى النّبي ﷺ فقال له النّبيّ ﷺ : [تصدّق به][2].

ومعنى الآية : ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ يعني الجزيرة ؛ وهي أقرب أرض الرّوم إلى فارس ، وقال عكرمة : (يعني أدرعات وكسكر). وقوله ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ يعني الروم من بعد غلبة فارس إيّاهم سيغلبون فارس ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ؛﴾ وهو ما بين الثلاث إلى العشر ، فالتقى الروم وفارس في السّنة السابعة من غلبة فارس إيّاهم ، فغلبتهم الروم ، فجاء جبريل إلى النبيّ ﷺ بهزيمة فارس وظهور الرّوم عليهم ، ووافق ذلك يوم بدر.

قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ؛﴾ أي قبل أن غلبت الروم ومن بعد ما غلبت ، يعني أنّ غلبة أحد الفريقين الآخر ، أيّهما كان الغالب والمغلوب ؛ فإنّ ذلك كان بأمر الله تعالى وإرادته وقضائه وقدره.

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٤) ؛ يعني بغلب الروم فارس ، يفرح المؤمنون ، ﴿بِنَصْرِ اللهِ ؛﴾ الروم على فارس ، ويكون فرح المؤمنين يومئذ لظهور معجزة النبيّ ﷺ وإهلاك بعض الكفّار بعضا كما يفرح الصّالحون بقتل الظّالمين بعضهم بعضا.

---

(١) ينظر : جامع البيان : الأثر (٢١٢٢٩ و٢١٢٢٣). وتفسير مقاتل : ج ٣ ص ٣ - ٥.

(٢) حديث أبي سعيد أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٢٣٣). وذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٦ بلفظ : [هذا سحت ، تصدّق به]. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٧٤٥٨) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

وقوله تعالى : ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ ؛﴾ أي ينصر محمدا ﷺ على أعدائه ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٥) ؛ أي هو العزيز بالنّقمة ممن عصاه ، الرّحيم بأوليائه وهم المؤمنون.

قوله تعالى : ﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ؛﴾ نصب على المصدر ؛ أي وعد الله ذلك وعدا وهو راجع إلى قوله ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أي وعد الله ذلك لا يخلف الله وعده بظهور الروم على فارس ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٦) ؛ إنّ الله لا يخلف وعده ؛ لأن أكثرهم كفّار.

وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا ؛﴾ يعني معايشهم وما يصلحهم [١]. قال الحسن : (يعلمون متى زرعهم ومتى حصادهم ، ويعلمون وجوه الاكتساب من التّجارة والزّراعة والحراثة والغراسة ، وما يحتاجون إليه في الشّتاء والصّيف) قال الحسن : (بلغ والله من علم أحدهم في الدّنيا أنّه ينقر الدّراهم بيده فيخبرك بوزنه ولا يحسن يصلّي!) [٢].

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ (٧) ؛ أي هم مع علمهم بأمور الدّنيا لا يعلمون ما طريقة الدليل من أمر الآخرة ، وما يكون فيها من البعث والثواب والعقاب ، فهم غافلون عمّا هو أولى بهم ، وعما يلزمهم من الاستعداد لذلك.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ، أي في خلق الله إيّاهم ، ﴿ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ ، فتعلمون أنّ الله لم يخلق السّموات والأرض ، ﴿وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ ؛﴾ إلّا بالحقّ ؛ أي إلّا الحقّ ، ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ، ومعنى الآية : أو لم يتفكّر أهل مكّة بقلوبهم فيعلمون أنّ الله ما خلق السّموات والأرض ، وما فيهما

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٢٣٩) عن إبراهيم ، و (٢١٢٤١) عن عكرمة. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٤٦٦).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٠٣. وفي الدر المنثور : ج ٦ ص ٤٨٤ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه وأوله (ليبلغ من جذق أحدهم ...). أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٤٦٧).

من العجائب والبدائع إلّا ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ، ويجزي كلّ عامل بما عمل عند انقضاء الأجل المسمّى الذي جعله الله لانقضاء أمر السّموات والأرض وهو يوم القيامة. وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ؛﴾ يعني كفّار مكّة ، ﴿بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ﴾ (٨).

وقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي أولم يسافروا في الأرض ، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ ؛﴾ صار أمر ، ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛﴾ من الأمم السالفة حين كذبوا الرّسل إلى الهلاك بتكذيبهم فيعتبروا. ثم وصف تلك الأمم فقال : ﴿كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ ؛﴾ أي حرثوها وقلبوها للزراعة والغرس ، ﴿وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها ؛﴾ كفّار مكّة لأنّهم كانوا أطول عمرا وأكثر عددا ، ﴿وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ ، فلم يبق منهم ولا من عمارتهم أثر ، فكذلك يكون حال هؤلاء.

قوله تعالى : ﴿فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ؛﴾ بإهلاكهم ، ﴿وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٩) ؛ بالكفر والتكذيب.

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ (١٠) ؛ أي ثم صار آخر أمر الذين أساءوا بالكفر والمعاصي السّوء ، يعني العذاب والنار بسبب تكذيبهم واستهزائهم بآيات الله. قال الفرّاء والزجّاج : (السّوءى ضدّ الحسنى وهي الجنّة ، وضدّها النّار) ، وقال ابن قتيبة : (السّوء جهنّم ، والحسنى الجنّة ، وإنّما سمّيت سوءى ؛ لأنّها تسوء صاحبها).

قوله تعالى : ﴿اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؛﴾ أي يخلقه من النطفة ثم يحييه بعد ما أماته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) ؛ ثم إلى موضع حسابه وجزائه يرجعون فيجزيهم بأعمالهم. قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٢) ؛ أي ييأس المجرمون من رحمة الله ، ومن كلّ خير حين عاينوا العذاب.

وقال الفرّاء : (ينقطع كلامهم وحجّتهم) ، وقيل : معنى ﴿يُبْلِسُ﴾ أي يفتضح ، وقيل : معناه : يندمون ، وقيل : المبلس الساكت المنقطع عن حجّته الآيس من أن يهتدي إليها ، قال الشاعر [1] :

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا     قال : نعم أعرفه وأبلسا

والمجرمون هم المشركون. قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ ؛﴾ أي لم يكن للكفار ممّن أشركوه في العبادة شفعاء يشفعوا لهم إلى الله ، ﴿وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ﴾ (١٣) ؛ أي يتبرّؤن منها ويتبرّؤن منهم.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (١٤) ؛ أي واذكر ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ الخلائق في طريق الجنّة ، وطريق النّار. وقيل : معناه : يوم القيامة يتفرّقون بعد الحساب إلى الجنّة والنار فلا يجتمعون أبدا.

وقال الحسن : (إن كانوا اجتمعوا في الدّنيا ليفترقنّ يوم القيامة ؛ هؤلاء في علّيّين ، وهؤلاء في أسفل سافلين) [2] ، وهو قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥) ؛ أي في الجنّة ينعّمون ويكرمون بالتحف ويسرّون.

والحبرة السّرور. وقيل : الحبرة كلّ نعمة حسنة ، والتّحبير التحسين. وسمّي العالم حبرا لتخلّقه بأحسن أخلاق المؤمنين ، ويسمّى المداد حبرا لأنه تحسن به الأوراق ، وقيل : معنى الآية : فهم في رياض الجنّة يتلذذون.

قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ﴾ ، وكذبوا بالبعث بعد الموت ، ﴿فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١٦) ؛ أي يحضرون في العذاب ، ويحبسون.

---

(١) الشاعر هو العجاج ، ومعنى المكرس : الذي صار فيه الكرس ، وهو الأبوال والأبعار المكان الذي قد بعرت فيه الإبل وبولت ، فركب بعضه بعضا. وينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٣٢٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٤٧٥) بأسانيد.

قوله تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٨) ؛ أي فصلّوا لله ، على تأويل : فسبحوا لله ، قال ابن عبّاس : (جمعت هذه الآية الصّلوات الخمس ومواقيتها ، فوقت المساء يصلّى فيه المغرب والعشاء ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ : صلاة الفجر ، ﴿وَعَشِيًّا﴾ : العصر ، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظّهر) [١].

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يحمده أهل السّموات وأهل الأرض ، ويصلّون له ويسجدون. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [من قال : ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ...﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وآخر سورة الصّافّات دبر كلّ صلاة ، كتب الله من الحسنات عدد نجوم السّماء ، وقطر المطر ، وعدد ورق الشّجر ، وعدد نبات الأرض. وإذا مات أجرى الله له بكلّ حسنة عشر حسنات في قبره][٢].

وقال ﷺ : [من سرّه أن يكتال له بالقفيز الأوفى فليقل : ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ...﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ...﴾ إلى آخر السّورة][٣].

قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ؛﴾ أي الإنسان الحيّ من النّطفة الميتة ، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ، ويخرج النطفة وهي ميتة من الإنسان الحيّ ، ويقال : يخرج الفرخ من البيضة ، والبيضة من الفرخ ، ﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ﴾ ، بإخراج الزّروع منها ، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا ؛﴾ أي بعد أن كانت لا تنبت ، ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١٩) ، من قبوركم يوم القيامة إلى المحشر ، فإنّ بعثكم بمنزلة ابتداء خلقكم ، وهما في قدرة الله تستويان. قرأ حمزة : (تخرجون) بفتح التّاء.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٢٦١).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٧ ص ٢٩٨ بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٧ ص ٢٩٨ ، عن أنس ، وفي إسناده بشر بن الحسين ، وهو ساقط).

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ؛﴾ أي من دلائل قدرته وعلامات توحيده أن خلق أصلكم من تراب ، يعني آدم ، ﴿ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠) ؛ أي ثمّ إذا أنتم من لحم ودم تنتشرون ؛ أي تتفرّقون في حوائجكم ، وتنبسطون في الأرض ، ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها ؛﴾ أي من علامات توحيده وقدرته أن خلق لكم من جنسكم نساء لتطمئنّوا إليها ، ولم يجعلهنّ من الجنّ ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ؛﴾ أي جعل بين الزّوجين مودّة ورحمة ، فيما يتراحمان ويتوادّان ، وما من شيء [1] أحبّ إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما ، حتى أنّ كثيرا من الناس يهجر عشيرته بسبب زوجته ، وكذلك من النّساء من تهجر عشيرتها بسبب زوجها.

والمعنى : من دلالة توحيد الله وقدرته أن خلق من نطفة الرّجال ذكورا وإناثا ؛ ليسكن الذكور إلى الإناث ، والنّطف عن صفة واحدة ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١) ؛ في عظمة الله وقدرته.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، أي ومن علامات توحيده خلق السّموات والأرض بما فيهما من العجائب ، ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ﴾ ، أي لغاتكم وأصواتكم وصوركم وألوانكم ، لأنّ الخلق بين عربيّ وعجميّ وأسود وأحمر وأبيض ، وهم ولد رجل واحد وامرأة واحدة ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ﴾ (٢٢) ؛ أي للبرّ والفاجر والإنس والجنّ.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ ؛﴾ أي ومن آياته كيفيّة نومكم ، وكيف يغلب عليكم ، وأين يأتيكم ، وكيف يزول عنكم فتطلبون معيشتكم ، وقوله تعالى : ﴿وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؛﴾ تقدير (وابتغاؤكم من فضله بالنّهار) يعني تصرّفكم في طلب المعيشة بالنّهار ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣) القرآن ؛ سماع الاستدلال ، والاعتبار ، والتدبّر.

---

(١) في المخطوط : (شرع) بدل (شيء) وهو تصحيف.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً ؛﴾ أي خوفا للمسافر من الصّواعق ، وطمعا للمقيم في المطر وسقي الزّرع ، ﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ؛﴾ أي في البرق ، وإنزال المطر وإحياء الأرض بعد قحطها ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤).

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ؛﴾ يعني من غير عمد تحتهما ، ولا علاقة فوقهما بقدرة الله وتسكينه ، قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ ؛﴾ أي ثم إذا دعاكم من القبور عند النفخة الثّانية يدعو إسرافيل بأمره من صخرة بيت المقدس : أيّتها الأجساد البالية والعروق المتمزّقة والشّعور المتمرّطة ، ﴿إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥) ؛ من قبوركم مهطعين إلى الدّاعي.

قوله تعالى : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي هم عبيدا وملكا ، ﴿كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ (٢٦) ، أي كلّ له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث ، وإنّ عصوا في العبادة فهم منقادون لله عزّ وجلّ لا يقدرون على الامتناع من شيء يراد بهم من صحّة ومرض وغنّى وفقر وحياة وموت.

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؛﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق من النطفة ثم يميته فيصير ترابا كما كان ، ثم يبعثه في الآخرة. وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؛﴾ أي الإعادة هيّنة عليه ، وما شيء عليه بعسير ، وقد يذكر لفظ (يفعل) بمعنى (فعيل) كقوله (الله أكبر) بمعنى كبير ، وكذلك أهون عليه أو هيّن عليه. قال الفرزدق [1] :

لعمرك ما أدري وإنّي لأوجل ... على أيّنا تعدو المنيّة أوّل

---

(١) هكذا في المخطوط ، ولعل الوهم من الناسخ ، وإلّا ف القائل : هو معن بن أوس المزني. كما في ذيل الأمالي لأبي علي القالي : ص ٢١٨. وشرح البيت وإعرابه في خزانة الأدب الكبرى للبغدادي : ج ٣ ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦. وينظر : جامع البيان : مج ١١ ج ٢٠ ص ٤٤.

يريد بقوله : لأوجل ؛ أي وجل ، وقال أيضا [1] :

إنّ الّذي سمك السّماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول

أي عزيزة طويلة. وإنّما قيل على هذا التأويل ؛ لأنه لا يجوز أن يكون بعض الأشياء على الله أهون من بعض.

قوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي له الصّفة العليا وهي القدرة التي لا يجري عليها العجز ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧) ؛ أي القاهر لكلّ شيء ، الحكيم في جميع أفعاله.

قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؛﴾ أي وصف لكم أيّها المشركون مثلا من أنفسكم ، وبيّن لكم ذلك المثل من أنفسكم ، ثم بيّنه فقال : ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ﴾ ، أي هل لكم من عبيدكم وإمائكم من شركاء فيما رزقناكم من الأموال ؛ أي هل يشاركونكم في أموالكم فتكونوا أنتم مع عبيدكم سواء فيما أعطيناكم ، ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ، أي تخافون عبيدكم أن يقاسموكم في مالكم كما تخافون نساءكم وأقاربكم أن يورثوكم بعدكم ، أو تخافوا لائمة عبيدكم إذا لم تعطوهم حقّهم ، كما تخافون لائمة بعضكم بعضا من الأقارب والشّركاء إذا لم يؤدّوا حقّهم إليهم.

قالوا : لا! فقال : أفترضون لله تعالى ما لا ترضون لأنفسكم ، تشركون عبيد الله في ملكه ، وقد خلقهم ، ولا تشركون عبيدكم فيما رزقكم الله وأنتم لم تخلقوهم ، وتجعلون الخوف من عبيد الله كالخوف من الله إذ تعبدونهم كعبادة الله تعالى ، ﴿كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) ؛ أي هكذا يبيّن الآيات واحدة بعد واحدة ليكون ذلك أقرب إلى الفهم وواقع في القلب.

ومعنى ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾ هاهنا : أمثالكم من الأحرار ، كقوله ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[2].

ومعنى الآية : كيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها لي شركاء

---

(١) البيت للفرزدق كما في جامع البيان : مج ١١ ج ٢٠ ص ٤٥. وينظر : الديوان ، طبعة القاهرة : ص ٧١٤.

(٢) الحجرات / ١١.

وأنتم عبيدي وأنا مالكهم جميعا ، فكما لا يجوز استواء المملوك مع سيّده ، كذلك لا يجوز استواء المخلوق مع خالقه.

قوله تعالى : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛﴾ أي ليس لهم في الإشراك شبهة من حيث الحجة ، ولكنّهم يشركون بالله بناء على الجهل وهوى النفس ، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ ؛﴾ أي لا هادي لمن أضلّه الله ، ﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ (٢٩) ؛ أي ما لهم من مانعين من عذاب الله.

قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ؛﴾ أي فأقم يا محمّد على دين الإسلام ، وقوله ﴿حَنِيفاً﴾ أي مائلا عن كلّ دين إلّا الإسلام ، وقوله تعالى : ﴿فِطْرَتَ اللهِ ؛﴾ أي اتّبع دين الله ، والفطرة : الملّة ؛ وهي الإسلام والتوحيد ، ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ؛﴾ أي خلق الله المؤمنين عليها ، وقد ورد في الحديث : [كلّ مولود يولد على الفطرة] إلى آخر الحديث [(١)].

وانتصب قوله ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ على الإغراء ، وقيل : على معنى : اتّبع فطرة الله.

وقوله تعالى : ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ؛﴾ أي لا تغيير لدين الله الذي أمر الناس بالثّبات عليه ، وهو نفي معناه النهي ؛ أي لا تبدّلوا دين الله الذي هو التوحيد بالشّرك. وقوله تعالى : ﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يعني التوحيد هو الدين المستقيم ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ؛﴾ يعني كفّار مكّة ، ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) ؛ توحيد الله ودين الإسلام هو الحقّ.

قوله تعالى : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ؛﴾ أي أقيموا وجوهكم راجعين إلى الله في كلّ ما أمركم به ، لا تخرجون عن شيء من أوامره ، وهذا لأنّ الخطاب في أوّل هذه الآيات للنبيّ ﷺ بقوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ، والمراد به أمته ، كما في قوله ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ﴾[(٢)] فكأنّه قال : أقيموا وجوهكم منيبين ؛ أي راجعين إلى أوامره ، وقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي اتّقوا مخالفته ، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ١ ص ٢٨٤ : الحديث (٨٢٦ ـ ٨٣٥) بأسانيد وألفاظ.

(٢) الطلاق / ١.

﴿الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ ؛ أي زايلوا دينهم الذي أمروا بالثبات عليه.

ومن قرأ ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ فمعناه : صاروا فرقا ، وذلك معنى قوله : ﴿وَكانُوا شِيَعاً﴾ ، أي صاروا جماعة ، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣٢) ، أي كلّ جماعة اختارت دينا مثل اليهود والنّصارى وسائر الملل ، كلّ أهل دين يفرحون بما عندهم من الدّين.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ ؛﴾ أي إذا أصاب الناس شدّة وبليّة وقحط وغلاء يعني كفّار مكّة ، دعوا ربّهم لدفع الشّدة ، ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ؛﴾ أي راجعين إليه ، منقطعين من الخلق ، لا يلجأون في شدائدهم إلى أوثانهم ، ﴿ثُمَّ إِذا ؛﴾ أذهب عنهم تلك الشدّة و ﴿أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ؛﴾ أي أعطاهم من عنده المطر ، ﴿إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) ؛ أي يعودون إلى الشّرك ﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ ؛﴾ فيبدّلوا الشّكر كفرا ، ﴿فَتَمَتَّعُوا ؛﴾ أي تلذذوا في الدّنيا ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) ، ماذا ينزل بكم.

قوله تعالى : ﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً﴾ ، أي أم أنزلنا على هؤلاء حجّة وبرهانا وكتابا من السّماء ، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥) ، يشهد وينطق بأنّ الله أمرهم بما يفعلون. وهنا استفهام إنكار ؛ أي ليس الأمر على هذا.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها ؛﴾ أي إذا أذقناهم نعمة استبشروا بها ، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ؛﴾ شدّة ومحنة وبليّة ، ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ؛﴾ في الشّرك من المعاصي ﴿إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (٣٦) ؛ أي إذا هم ييأسون من رحمة الله.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؛﴾ أي ويضيّق ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ ؛﴾ أي في البسط والتّقتير ، ﴿لَآياتٍ ؛﴾ دالّة على التوحيد ، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٧).

قوله تعالى : ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ ؛﴾ أي أعط ذا القربى في الرّحم حقّه من الصّلة والبرّ ، وأعط ﴿وَالْمِسْكِينَ ؛﴾ الذي يطوف على الأبواب حقّه أيضا ، وهو التّصدّق عليه ، وأعط ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ ؛﴾ النازل بك حقّه ؛ أي ضيافته ، يعني أكرم الضّيف النازل بك ، ﴿ذلِكَ خَيْرٌ ؛﴾ أي الذي ذكرت من الصّلة والإعطاء والضّيافة خير ، ﴿لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ؛﴾ يعني رضا الله ؛ أي إعطاء الحرّ أفضل من الإمساك ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨) ؛ أي الفائزون السّعداء الباقون في الجنّة ، ومن أعطى أحدا لا يريد به وجه الله ذهب ماله من غير أن يحصل على شيء ، فلذلك قال : ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾.

قوله تعالى : ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ ؛﴾ أي ما تعاطيتم من عقد الرّبا رجاء أن تزيدوا أموالكم فلا يزيد في حكم الله ، وعلى الآخذ أن يردّه على المأخوذ منه ، قال الله تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا﴾(١).

قرأ ابن كثير (أتيتم) مقصورا غير ممدود. وقوله تعالى ﴿لِيَرْبُوَا﴾ ، قرأ الحسن ونافع : (لتربو) بتاء مضمومة وجزم الواو على الخطاب ؛ أي لتربو أنتم ، وقرأ الباقون ﴿لِيَرْبُوَا﴾ بياء مفتوحة ونصب الواو ، وجعلوا الفعل للرّبا (٢).

وقوله تعالى : ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ؛﴾ أي ما أعطيتم من صدقة تريدون بها رضا الله ، ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٩) ؛ الذين يضاعف لهم في العاجل والآجل ، يقال : رجل مضعف ؛ أي ذو أضعاف كما يقال : رجل مقوّي ذو قوّة ، وموسر ؛ أي صاحب يسار.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً﴾ : (الرّبا ها هنا هو هبة الرّجل لصاحبه يريد أن يثاب أفضل منه) (٣). وقال السديّ : (هو الهديّة يهديها الرّجل لأخيه يطلب المجازاة (٤) ، فإنّ ذلك لا يربو عند الله ، ولا يؤجر عليه

---

(١) البقرة / ٢٧٦.

(٢) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٢٦٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٣٢٠).

(٤) في المخطوط : (المساقاة) والمناسب ما أثبتناه.

صاحبه ولا إثم عليه) ، وقال الزجّاج : (هو دفع الإنسان الشّيء ليعوّض ما هو أكبر منه ، وذلك ليس بحرام ولكنّه لا ثواب فيه ؛ لأنّ الّذي يهديه يستدعي ما هو أكثر منه ، وإنّما يربو عند الله هو العطيّة الّتي لا يطلب بها المكافأة ، ولا يراد بها إلّا رضا وجه الله).

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ؛﴾ أي خلقكم في بطون أمّهاتكم ثم أخرجكم ، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ؛﴾ بعد انقضاء آجالكم ، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ؛﴾ بعد الموت ، ﴿هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠).

قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؛﴾ أي قحط المطر ونقصت الغلّات وذهبت البركة في البرّ والبحر ؛ أي أجدب البرّ وانقطعت مادّة البحر ، ﴿بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ؛﴾ أي بشؤم ذنوبهم ومعاصيهم ، الناس كفّار مكّة ، ﴿لِيُذِيقَهُمْ ؛﴾ الله بالجوع في السّنين السبع ، يعني ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ؛﴾ أي جزاؤه ليكون عقوبة معجّلة ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) ؛ من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة ، فيكشف الله عنهم الشدّة. وفي هذا تنبيه على أنّ الله تعالى إنّما يقضي بالجدوبة ونقص الثّمرات والنبات لطفا منه في رجوع الخلق عن المعصية.

قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي قل لأهل مكّة سافروا في الأرض ، ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ﴾ ، أي كيف صار إجرام ، ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (٤٢) ؛ أي انظروا إلى ديار عاد وثمود وقوم لوط ليدلّكم ذلك على أنه لا ينبغي لأحد أن يكفر بالله تعالى.

قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ؛﴾ أي أقم قصدك وعملك ، واجعل جهتك اتّباع الدّين القيّم وهو الإسلام المستقيم الذي لا عوج فيه ، واعمل به أنت ومن تبعك ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ؛﴾ يعني يوم القيامة ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (٤٣) ؛ أي يوم القيامة يتفرّقون بعد الحساب إلى الجنّة والنار.

قوله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ؛﴾ أي ضرر كفره ، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (٤٤) ؛ أي يطأون لأنفسهم منازلهم في الجنة ، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ؛﴾ ثوابهم ، ثم يزيدهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ ؛﴾ أي يثيبهم أكثر من أعمالهم ، ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾ (٤٥) ؛ أي لا يكرمهم ولا يثيبهم ولا يرضى عنهم.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ ؛﴾ أي من علامات توحيده إرساله الرياح للبشارة بالمطر ، ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ؛﴾ يعني الغيث والخصب ، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ؛﴾ أي السفن تجري في البحر بتلك الرّياح ، ﴿بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ؛﴾ أي ولتسلكوا في البحر على السّفن للتجارة وطلب الرزق بهذه الرياح ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦) ؛ هذه النّعم فتوحّدونه.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ؛﴾ أي بالدّلالات الواضحات فكذبوا بها ، ﴿فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ؛﴾ أي عذبنا الذين كذبوهم ، ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) ؛ أي كان واجبا علينا إنجاء المؤمنين مع الرّسل من عذاب الأمم ، وفي هذا تبشير للنّبيّ ﷺ بالظّفر والنصر على من كذب به.

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً ؛﴾ أي تزعجه من حيث هو ، وذلك أنّ الله يحدث السّحاب عقيب الرياح فترفعه الرياح في الهواء ، ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾ أي قطعا بعضها فوق بعض ، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني المطر ، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ؛﴾ أي من وسطه إلى قوم دون قوم ، ﴿فَإِذا أَصابَ بِهِ ؛﴾ بذلك المطر ، ﴿مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨) ؛ يفرحون بالمطر ، ﴿وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ؛﴾ المطر ﴿مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ (٤٩) ؛ أي يائسين من ذلك ، كرّره للتأكيد [1] ، والمبلس هو الآيس القانط.

---

(١) أي أعاد قوله : ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ تأكيدا. وفي معالم التنزيل : ص ١٠٠٩ ؛ قال البغوي : (وقيل : الأولى ترجع إلى إنزال المطر ، والثانية إلى إنشاء السحاب).

قوله تعالى : ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ ، الخطاب للنبيّ ﷺ وغيره. وآثار الرحمة هي أنواع النّبات الذي ينبت من المطر من بين أخضر وأحمر وغير ذلك من الألوان.

وقوله ﴿كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ ، كيف يجعل الأرض مخضرّة بعد يبسها ، ﴿إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ ، أي الذي فعل ذلك هو الذي يحيي الموتى للنّشور ، فإنه كما يعيد الشجر الذي ظهر يبسه ، ويعيد فيه الخضرة والنور والثمرة ، كذلك يحيي الموتى ، ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٠) ؛ من الموت والبعث قدير.

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ ، ولئن أرسلنا ريحا حارّة أو باردة فأيبست زروعهم ، ورأوا الزرع مصفرّا بعد خضرته ، ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥١) ، لصاروا بعد اصفرار النّبت يجحدون ما سلف من النعمة ، يعني أنّهم يفرحون عند الخصب ، وإذا استبطأوا الخصب والرزق جزعوا فكفروا بالنّعم.

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى ؛﴾ يعني الكفار لا يسمع ، والأعمال الذي لا يبصرون ، ولذلك قال : ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ ؛﴾ أي لا تقدر أن تجبرهم على الهدى ، وإنّما بعثت داعيا ومبلّغا. قوله تعالى : ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا ؛﴾ أي إلّا من يصدّق بكتابنا ، ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥٣) ؛ أي هم الذين يستبدلون به فهم مخلصون منقادون لأمر الله.

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ؛﴾ أي من نطفة ضعيفة في بطون الأمّهات ، ثم أطفالا لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرّا ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ، ثم جعلكم أقوياء بما أعطاكم من العقل والاستطاعة والهداية والتصرّف في اختلاف المنافع ودفع المضارّ ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ؛﴾ قوّة الشّباب ، ﴿ضَعْفاً ؛﴾ عند الكبر والهرم ، ﴿وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ ؛﴾ من ضعف وقوة وشيبة وشباب ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤) ؛ أي العليم بخلقه القادر على تحويلهم من حال إلى حال.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ ؛﴾ أي تقوم السّاعة ، يحلف المشركون ما لبثوا في القبور غير ساعة واحدة. وقيل : ما لبثوا في الدّنيا غير ساعة يستقلّون في جنب أيّام الآخرة ، ﴿كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) ؛ أي هكذا كانوا يكذبون في الدّنيا بجهلهم وغفلتهم كما كذبوا في الآخرة.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ ؛﴾ أراد بالذين أوتوا العلم : الملائكة والأنبياء والمؤمنون ، يقولون للكفّار بعد ما أقسموا : لقد لبثتم فيما كتب الله لكم من اللّبث إلى يوم البعث ، وقيل : في حكم الله ، وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ تقديره : وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله ، وهم الذين يعلمون كتاب الله. وقوله : ﴿فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ ؛﴾ أي يوم الذي كنتم تنكرونه في الدّنيا ، وتكذّبون به ، ﴿وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٦) ؛ وقوعه في الدّنيا فلا ينفعكم العلم به الآن.

قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ؛﴾ أي اعتذارهم من الذّنوب إن اعتذروا ، ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٧) ؛ أي لا يجابون إلى ما يطلبون من الرّجعة إلى الدّنيا ، فإنّهم يقولون : ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً﴾[1]. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (لا يقبل من الّذين أشركوا عذر ولا عتاب ولا توبة في ذلك اليوم).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ؛﴾ أي بيّنّا لهم في القرآن من كلّ صفة ، ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ؛﴾ مثل العصا واليد وبكلّ حجّة ، ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨) ؛ أي ما أنتم إلّا على الباطل يا محمّد وأصحابك!.

---

(١) السجدة / ١٢.

قوله تعالى : ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩) ؛ أي يختم على قلوب الذين لا يعلمون توحيد الله ، فكلّ من لا يعلم توحيد الله فذلك لأجل ما طبع الله على قلبه.

قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ؛﴾ أي اصبر يا محمّد على تبليغ الرّسالة والوحي ، وعلى ما يلحقك من أذيّة الكفّار ، فإنّ ما وعد الله من النّصر وإظهار دين الإسلام صدق كائن يأتيك في حينه. والمعنى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ بنصر دينك وإظهارك على عدوّك حقّ فلا يحملنّك تكذيب الكفار الذين لا يستيقنون بأمر الله على الحقّ ، وكن حليما صبورا.

وقوله : ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ (٦٠) ، لا تعجل بالدّعاء عليهم فيما يستعجلون من العذاب لقولهم : ﴿ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ﴾[1] ، و ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ﴾[2] ، و ﴿عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾[3]. ومعنى الآية : (ولا يستخفن) رأيك وحلمك يا محمّد ﴿الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ ؛ بالبعث والحساب.

**آخر تفسير سورة (الروم) والحمد لله رب العالمين**

---

(١) العنكبوت / ٢٩.

(٢) سبأ / ٢٩ ، وغيرها.

(٣) ص / ١٦.

## سورة لقمان

سورة لقمان مكّيّة ألفان ومائة وعشرة أحرف ، وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة ، وأربع وثلاثون آية.

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥) ؛ أي هذه السورة آيات الكتاب الحكيم الذي وعدك الله أن ينزله عليك.

وانتصب ﴿هُدىً وَرَحْمَةً﴾ على الحال. وقرأ حمزة بالرفع على الابتداء ، وقيل : على إضمار هو. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (معنى الآية : هدى من الضّلالة ورحمة من العذاب للموحّدين من أمّة محمّد ﷺ) وما بعد هذا قد تقدّم تفسيره.

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في النّضر بن الحارث (١) ، كان اشترى كتبا فيها أخبار الأعاجم ، ويحدّث بها أهل مكّة ، ويتملّق بها في المجالس ، ويقول : إنّ محمّدا يحدّثكم أحاديث عاد وثمود ، وأنا أحدّثكم أحاديث فارس والروم ، وأقرأ عليكم كما محمّد يقرأ عليكم أساطير الأوّلين ، هو يأتيكم بكتاب فيه قصص الأمم الماضية ، وأنا أتيت بمثله! وكانوا يستملحون حديثه ، وكان إذا سمع شيئا من القرآن يهزا به ويعرض

---

(١) قاله البيهقي في شعب الإيمان : باب في حفظ اللسان : فصل في ترك قراءة كتب الأعاجم : ج ٤ ص ٣٠٥ ، وذكر الحديث ، وفيه عن الكلبي عن أبي صالح ، إسناده ضعيف. وذكره الواحدي في أسباب النزول : ص ٢٣٢.

عنه. فذلك قوله : ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (٦) ؛ أي ليصرف الناس عن دين الله بلا علم ، ومن قرأ (ليضلّ) بفتح الياء ، فمعناه : ليتشاغل بما يلهيه ، وليصير أمره إلى الضّلال والباطل.

ومعنى قوله تعالى ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي باطل الحديث ، هذا قول الكلبيّ ومقاتل ، وقيل : المراد بلهو الحديث الغناء ، وعن النّبيّ ﷺ أنه قال : [لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ ولا شراؤهنّ ، وثمنهنّ حرام ، والّذي نفس محمّد بيده ؛ ما رفع رجل قطّ عقيرته يتغنّى إلّا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما على ظهره وصدره حتّى يسكت][(١)] ، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وابن مسعود ، قالوا : (هو والله الغناء ، واشتراء المغنّية والمغنّي بالمال).

وقال ﷺ : [من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع أصوات الرّوحانيّين يوم القيامة] قيل : وما الرّوحانيّون يا رسول الله؟ قال : [أهل الجنّة][(٢)] ، وعن إبراهيم النخعيّ أنه قال : (الغناء ينبت النّفاق في القلب) [(٣)] وقال مكحول : (من اشترى جارية ضرّابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيما عليه حتّى يموت لم أصل عليه) [(٤)].

قوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي أنه جاهل فيما يفعل ، لا يفعله عن علم ، ﴿وَيَتَّخِذَها هُزُواً﴾ بالرفع عطفا على ﴿مَنْ يَشْتَرِي﴾ ، وبالنصب عطفا على ﴿لِيُضِلَّ﴾ ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٣٥٨) بأسانيد وألفاظ عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ... وذكره. وفي مجمع الزوائد : ج ٨ ص ١١٩ ـ ١٢٠ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني بأسانيد ، ورجال أحدها وثقوا وضعفوا). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٨ ص ١٩٨ : الحديث (٧٨٠٥). وفي مجمع الزوائد : ج ٨ ص ١٢٢ قال : (فيه علي بن يزيد الألهاني ، وهو ضعيف). وفي ج ٨ ص ٢١٢ : الحديث (٧٨٥٥ و٧٨٦٢) ، وفيه علي هذا أيضا.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٥٤ ؛ قال القرطبي : (أخرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول).

(٣) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٠٥ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن أبي الدنيا عن إبراهيم النخعي).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠١١.

والكتابة المذكورة تعود إمّا إلى الآيات المذكورة في أوّل السورة ، وإما الى ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ ، والسبيل يؤنّث لقوله ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي﴾[1].

قوله تعالى : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً ؛﴾ أي أعرض عن قبولها متعظّما عن الإيمان بها ، ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ؛﴾ أي ثقلا يمنعه عن السّماع ، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧) ؛ وجيع في الدّنيا قبل أن يصل إلى الآخرة ، وهو ما روي : (أنّه أخذ أسيرا يوم بدر فقتل صبرا).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٩) ؛ ظاهر المعنى.

وقوله تعالى : ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ؛﴾ أي جبالا ثم أرسيت أوتاد لها لئلّا تميد بأهلها ، ﴿وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ ؛﴾ أي فرّق الدوابّ الكثيرة في الأرض ، ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً ؛﴾ يعني المطر ، ﴿فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (١٠) ؛ أي من كلّ نوع حسن.

وقوله تعالى : ﴿هذا خَلْقُ اللهِ ؛﴾ أي هذا الذي ذكرت لكم مما تعاينون خلق الله ، ﴿فَأَرُونِي ؛﴾ أيّها الكفار ، ﴿ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؛﴾ أيّ شيء خلقه الذي تعبدون من دونه ، فلم تجدوا شيئا يشيرون إليه من خلق غيره ، ولم يقدروا على جواب هذا الكلام ، فقيل : ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ ؛﴾ أي الكافرون ، ﴿فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (١١).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ؛﴾ يعني العقل والعلم والعمل به ، والإصابة في الأمور. واتّفق العلماء على أن لقمان حكيما [2] ، ولم يكن نبيّا إلّا عكرمة

---

(١) يوسف / ١٠٨.

(٢) أخرج الطبري في جامع البيان الآثار عن مجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب في الآثار : (٢١٣٨٥ ـ ٢١٣٩٤) بأن لقمان كان حكيما ولم يكن نبيا.

وحده فإنه قال : (كان لقمان نبيّا) [١] ، وقال بعضهم : خيّر لقمان بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة! [٢]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [حقّا أقوله : لم يكن لقمان نبيّا ، ولكن عبدا صمصامة ، كثير التّفكّر ، حسن اليقين ، أحبّ الله فأحبّه ، فمنّ عليه بالحكمة][٣]. وروي أنه كان تتلمذ لألف نبيّ عليهم السلام.

واختلفوا في حرفته ، فقال الأكثرون : كان نجّارا ، ويقال : كان خيّاطا ، ويقال : كان راعيا ، ويروى : كان عبدا حبشيّا غليظ الشّفتين مشقوق الرّجلين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (مرّ رجل بلقمان والنّاس مجتمعون حوله وهو يعظهم ، فقال : ألست العبد الأسود الّذي كنت ترعى الغنم؟! قال : بلى ، قال : فما بلغ بك إلى ما أرى؟ قال : صدق الحديث ؛ وأداء الأمانة ؛ وترك ما لا يعنيني) [٤].

وعن أنس : (أنّ لقمان كان عبد داود عليه السلام وهو يسرد درعا ، فجعل لقمان يتعجّب ممّا يرى ، ويريد أن يسأله فمنعته حكمته من السّؤال ، فلمّا فرغ منها ، جعلها عليه وقال : نعم درع الحرب هذا ونعم حامله ، فقال لقمان : الصّمت حكمة وقليل فاعله) [٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٣٥). والطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٣٩٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٣٣) عن قتادة.

(٣) ذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب : الرقم (٥٣٨٤). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٦٠ ، وقال : (ذكره ابن عطية). وهو كما قال : في المحرر الوجيز : ص ١٤٨٥. وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني كما في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥١٠ عن أبي الدرداء. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٣٧).

(٤) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥١٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت ، وابن جرير عن عمر بن قيس رضي الله عنه ... وذكره).

(٥) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥١٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه العسكري في الأمثال ، والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان : باب في حفظ اللسان : الحديث (٥٠٢٦).

وقال عكرمة : (كان لقمان من أهون مماليك سيّده ، فبعث مولاه مع عبيد له إلى بستان لمولاهم يأتونه من ثمره ، فجاءوا وليس معهم شيء ، وقد أكلوا الثّمرة ، وأحالوا على لقمان بذلك! فقال لقمان لمولاه : إنّ ذا الوجهين لا يكون عند الله أمينا ، فاسقني وإيّاهم ماء حميما ، فسقاهم فجعلوا يتقيّؤن الفاكهة ، وجعل لقمان يتقيّأ ماء بحتا ، فعرف صدقه وكذبهم).

قال : (وأوّل ما روي من حكمته أنّه جاء مع مولاه فدخل المخدع ، فأطال الجلوس فيه ، فناداه لقمان : إنّ طول الجلوس على الحاجة يتجمّع منه الكدر ، ويورث الباسور ، وتصعد الحرارة إلى الرّأس ، فاجلس هوينا وقم هوينا ، قال : فخرج وكتب حكمته على باب الحشّ [1]).

ومعنى الآية ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ﴾ علم التوحيد والمواعظ والفقه والعقل والإصابة في القول ، وألهمناه أن يشكر الله على ما أعطاه من الحكمة.

ومعنى قوله : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ؛﴾ أي قلنا له : اشكر الله فيما أعطاك من الحكمة ، ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ؛﴾ أي من يشكر نعم الله فإن منفعة شكره راجعة إلى نفسه ، ﴿وَمَنْ كَفَرَ ؛﴾ فلم يوحّد ، ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ ؛﴾ عن شكره ، ﴿حَمِيدٌ﴾ (١٢) ؛ يحمده الشاكر ويثبته على شكره.

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ ؛﴾ أي واذكر : إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ ؛﴾ أحدا في العبادة ، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) ؛ عند الله ؛ أي ليس من الذّنوب شيء أعظم من الشّرك بالله ؛ لأنّ الله تعالى هو الحيّ المميت الخالق الرازق ، فإذا أشركت به أحدا غيره فقد جعلت النعمة لغير ربها ، وذلك من أعظم الظّلم.

قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ ؛﴾ نزل في سعد بن أبي وقّاص ؛ لما آمن بالنّبيّ ﷺ حلفت أمّه لا تذوق طعاما ولا شرابا ولا يظلّها شيء حتّى يرجع سعد

---

(١) الحشّ بفتح الحاء وضمها : البستان ، وهو أيضا المخرج ؛ لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البستان. مختار الصحاح : ص ١٣٧ (ح ش ش).

إلى دينه ، فمضت على هذا أيّاما ، فبلغ من أمرها إلى أن تداخل بعض أسنانها في بعض ، فأنزل الله هذه الآية ، فقال سعد : (لو كان لها سبعون نفسا فخرجت ما ارتددت عن الإسلام) ففتح فاها وصبّ فيه الطّعام والشّراب [١]. ومعنى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ﴾ أي أمرناه ببرّ والديه عطفا عليهما.

وقوله تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ ؛﴾ أي ضعفا على ضعف ، ومشقّة على مشقة ، كلّما ازداد الولد في الرّحم كبر ، ازدادت الأمّ ضعفا.

قوله تعالى : ﴿وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ ؛﴾ أي وفطامه في انقضاء عامين ، وقدّره بعامين بناء على الأغلب ، ولأنّ الرّضاع لا يستحقّ بعد هذه المدّة. والفصال هو الفطام ، وهو أن يفصل الولد عن الأمّ كي لا يرضع. والمعنى بهذا ذكر مشقّة الوالدة بإرضاع الولد عامين. وروي عن يعقوب : (وفصله في عامين) بغير ألف [٢].

قوله تعالى : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ ؛﴾ أي قلنا له اشكر لي على خلقي إياك ، وعلى إنعامي عليك ، واشكر لوالديك على تربيتهما إياك. وقال مقاتل : (اشكر لي إذ هديتك للإسلام ، ولوالديك بما أولياك من النّعم) [٣].

قوله تعالى : ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (١٤) ؛ أي مصيرك ومصير والديك ، وعن سفيان بن عيينة في قوله : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ﴾ قال : (من صلّى الصّلوات الخمس فقد شكر الله ، ومن دعا للوالدين في إدبار الصّلوات فقد شكر للوالدين) [٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٤٠٠ ـ ٢١٤٠٣). واختلفوا في سعد ، هل هو سعد ابن مالك أم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما؟ وفي الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٢١ ؛ قال السيوطي : (أخرج أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي قال : إن سعد بن أبي وقاص قال : ...) وذكر الحديث بطوله ، وقد تقدم في العنكبوت.

(٢) في المحرر الوجيز : ص ١٤٨٦ ؛ قال ابن عطية : (وقرأ الجمهور (وفصاله) وقرأ الحسن وأبو رجاء والجحدري ويعقوب : (وفصله)). ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٦٤. واللباب في علوم الكتاب : ج ١٥ ص ٤٤٦.

(٣) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٢٠.

(٤) ينظر : المحرر الوجيز : ص ١٤٨٦. والجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٦٥. واللباب في علوم الكتاب : ج ١٥ ص ٤٤٦.

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما ؛﴾ أي أجهدا عليك لتشرك بي جهلا بغير علم فلا تطعهما ، فإنّ حقّهما وإن عظم فليس بأعظم من حقّي.

وقوله تعالى : ﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً ؛﴾ قال ﷺ : [حسن المصاحبة أن تطعمهما إذا جاعا ، وتكسوهما إذا عريا ، وعاشرهما عشرة جميلة][(١)]. ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ؛﴾ أي واتّبع طريق من رجع إليّ ؛ أي من سلك طريق محمّد ﷺ وأصحابه. والمعنى : واتّبع دين من أقبل إلى طاعتي وهو النبيّ ﷺ.

وقال عطاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهم : (يعني أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه أنّه حين أتاه عبد الرّحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد وعثمان وطلحة والزّبير فقالوا : يا أبا بكر آمنت وصدّقت محمّدا؟ قال : نعم ، فأتوا رسول الله ﷺ فآمنوا به وصدّقوا ، فأنزل الله تعالى يقول لسعد : ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾ يعني أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه) [(٢)].

ويستدلّ من قوله تعالى ﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾ على أنّ الابن لا يستحقّ القود على أبيه ، ولا يحدّ الأب بقذفة الابن ، ولا يحبس الأب بدين الابن ، لأن في إيجاب القود والحدّ والحبس له عليه ما ينافي مصاحبتهما.

وعن أبي يوسف : (أنّ القاضي يأمر الأب بقضاء دين الابن ، فإن تمرّد حبسه لاستخفاف أمره). وقال محمّد بن الحسن : (يحبس الأب في نفقة الابن الصّغير ، ولا يحبس بالدّين الّذي له عليه ؛ لأنّه لو لم يحبس في نفقة الصّغير لتضرّر الولد).

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ؛﴾ أي مرجعكم ومرجع آبائكم ، ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) ؛ من الخير والشرّ. وقد تضمّنت هذه

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠١٣. وفي المحرر الوجيز : ص ١٤٨٦ ؛ قال ابن عطية : (وحكى النقاش ...) وذكره. وينظر : أسباب النزول للواحدي : ص ٢٢٣.

الآية النّهي عن صحبة الكفّار والفسّاق ، والترغيب في صحبة الصالحين لقوله تعالى ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾.

قوله تعالى : ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ ؛﴾ وذلك أنّ ابن لقمان سأل أباه فقال : أرأيت الحبّة التي تكون في قعر البحار ؛ أيعلمها الله؟ فأعلمه أنّ الله يعلم الحبّة أينما كانت.

وقيل : إنّ ابن لقمان قال لأبيه : يا أبت! إن عملت بالخطيئة حيث لا يراني أحد ، كيف يعلمها الله؟ فقال لقمان لابنه : ﴿إِنَّها إِنْ تَكُ﴾ يعني إنّ المعصية إن تك مثقال حبّة من خردل فتكون في صخرة التي تحت الأرضين السّبع أو في السّموات أو في الأرض يأت بها الله للجزاء عليها [1].

ومن قرأ برفع (مثقال) فتقديره : أن تقع مثقال حبّة.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦) ؛ أي قادر على الإتيان بها ، خبير بموضعها ، يوصلها إلى صاحبها حيث كان. واللّطيف : العالم بكلّ دقيق وجليل. ومعنى الآية : أن الله تعالى ضرب هذا مثلا لأعمال العباد ، يعني أنه يأتي بأعمالهم يوم القيامة ، وإن كان العمل الصالح في الصّغر بوزن حبّة من خردل ، فالله تعالى يحفظه ولا يخفى عليه مكانه حتى يجازيه عليه ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛﴾ أي أقم الصّلاة التي افترضها الله عليك ، وأمر بالطاعة وانه عن المعصية ، ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ ؛﴾ من الأذيّة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) ؛ أي الصّبر على ما أصابك في ذات الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عظام الأمور. وقيل : من حقّ الأمور التي أمر الله بها.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠١٣.

(٢) الزلزلة / ٧ و٨.

قوله تعالى : ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ؛﴾ قرأ نافع وأبو عمرو [1] وحمزة والكسائي وخلف (تصاعر) بالألف ، وقرأ الباقون ﴿تُصَعِّرْ﴾ بغير ألف. قال ابن عبّاس : (معناه : لا تتكبّر فتحقرك النّاس ، ولا تعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك) ، يقال : صعّر خدّك وصاعر ، إذا مال وأعرض تكبّرا. والمعنى : لا تتعظّم على خلق الله ، ولا تعرض عن الناس تكبّرا عليهم ، بل يكون الفقير والغنيّ عندك سواء ، ولا تعبس في وجه أحد من الناس.

قوله تعالى : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ؛﴾ أي ولا تمش في الأرض بالإعجاب والبطر وازدراء الناس ، قال الحسن : (أنّى لابن آدم الكبر وقد خرج من مخرج البول مرّتين؟!).

وروي : أنّ المهلّب بن أبي صفرة مرّ على مطّرف بن عبد الله [2] وهو يتبختر في جبّة خزّ ، فقال : (هذه مشية يبغضها الله ورسوله) فقال له المهلّب : ما تعرفني؟! قال : (بلى ؛ أعرفك ، أوّلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وتحمل بين العذرة) فمضى المهلّب وترك مشيته تلك.

وروي : أنّ عبد الله بن محمّد [3] بن واسع خرج يوما يتمشّى ، فقال محمّد بن واسع : (من هذا؟!) قالوا : هذا ولدك عبد الله ، قال : ادعوه ، فجاؤا به إليه ، فقال له : (يا

---

(١) في المخطوط : (أبو عمر) والصحيح ما أثبتناه.

(٢) هو مطّرف بن عبد الله بن الشخير. ينظر ترجمته في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : ج ٢ ص ١٩٨. قال أبو نعيم : (ومنهم المتعبد الشكير ، مطرف بن عبد الله بن الشخير ، كان لنفسه مذلا ولذكر الله مجلا). وقال في ص ٢١٠ : (أسند مطرف عن غير واحد من الصحابة).

(٣) محمّد بن واسع ، ينظر : حلية الأولياء : ج ٢ ص ٣٤٥ ؛ قال أبو نعيم : (ومنهم العامل الخاشع ، والخامل الخاضع ، أبو عبد الله محمّد بن واسع. كان لله عاملا ، وفي نفسه خاملا) وأسند عن مالك بن دينار قال : (للأمراء قراء ، وللأغنياء قراء ، وإن محمّد بن واسع من قراء الرحمن). وفي ص ٣٥٤ ؛ قال : (كان محمّد بن واسع عالما واعيا ، لا ناقلا راويا ، وعى فأوعى ، قليل الكلام والرواية ، طويل الصيام والسعاية ، روى عن أنس بن مالك ومطرف والحسن وابن سيرين وسالم وعبد الله بن الصامت وأبي بردة رضي الله تعالى عنهم).

بنيّ! أتدري بكم اشتريت أمّك؟ اشتريتها بثلاثمائة درهم ، وأبوك لا كثّر الله من مثله في النّاس ، أتمشي هذه المشية؟!) (١).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) ؛ الاختيال : هو التّبختر في المشي ، والفخور : هو المتطاول بذكر المناقب على السّامع والافتخار عليه ، وذلك مذموم لأن المستحقّ على نعم الله شكرا لا الفخر.

قوله تعالى : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ؛﴾ أي تواضع (٢) ولا تتبختر ، وليكن مشيك قصدا لا تبخترا ولا إسراعا. قال ﷺ : [سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن](٣) يقال : قصد فلان في مشيته إذا مشى مستويا ، وقال مقاتل : (لا تختل في مشيتك) ، وقال عطاء : (قوله تعالى ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي امش بالوقار والسّكينة) كقوله تعالى : ﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾(٤) ، والمعنى : اقصد في المشي ، لا تعجل ولا تمش بالهوينا.

قوله تعالى : ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ؛﴾ أي اخفض صوتك ولا ترفعه على وجه انتهار النّاس وإظهار الاستخفاف بهم ، وقال عطاء : (معناه : اغضض من صوتك إذا دعوت وناجيت ربّك) ، وكذلك وصيّة الله تعالى في الإنجيل لعيسى عليه السلام : مر عبادي يخفضوا أصواتهم إذا دعوني ، فإنّي أسمع وأعلم ما في قلوبهم.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) ؛ أي أقبح الأصوات صوت الحمير ؛ لأن أوّله زفير وآخره شهيق. قال ابن زيد : (لو كان في رفع الصّوت خيرا ما جعله الله للحمير) (٥) ، وعن أمّ سعد قالت : قال رسول الله ﷺ : [إنّ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء : ج ٢ ص ٣٥٠.

(٢) عن مجاهد ، أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٤٩). والطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٤٢٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء : ج ١٠ ص ٢٩٠. ومن طريق أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد : ج ١ ص ٤٣٥ : ترجمة (٤٢٠) محمّد بن إبراهيم.

(٤) الفرقان / ٦٣.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٤٣٣). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٥٤).

الله تعالى يبغض ثلاثة أصوات : نهيق الحمار ، ونباح الكلب ، والدّاعية بالويل والحرب]. وقال سفيان : (صياح كلّ شيء تسبيحه الله إلّا الحمار فإنّه ينهق بلا فائدة) (١).

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي ألم تروا أنّ الله خلق وذلّل لمنافعكم ولمصالحكم ما في السّموات من الشّمس والقمر والنجوم والسّحاب والمطر ، وفي الأرض من الأشجار والأنهار والبحار والدّواب.

قوله تعالى : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً ؛﴾ أي أتمّ عليكم ووسّع لكم نعمه ﴿ظاهِرَةً﴾ من الخلق الحسن وسلامة الأعضاء الظاهرة ، ﴿وَباطِنَةً﴾ من العقل والفهم والفطنة والمعرفة بالله.

وقيل : النعمة الظاهرة هي الإسلام ، والباطنة ما يخفى من الذّنوب ويستر من العورات (٢). وقيل : الظاهرة ما يعلم الناس من حسناتك ، والباطنة ما لا يعلمون من السّيئات.

وقال الضحّاك : (الظّاهرة : حسن الصّورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء ، والباطنة المعرفة). وقيل : الظاهرة الإسلام وما أفضل عليك من الرّزق ، والباطنة ما ستر من سوء عملك.

وقيل : الظاهرة نعم الدّنيا ، والباطنة نعم العقبى (٣). وقيل : الظاهرة تسوية الظواهر ، والباطنة تصفية السرائر. وقيل : الظاهرة الرّزق الذي يكتسب ، والباطنة الرزق من حيث لا تحتسب. وقيل : الظاهرة المدخل للغداء ، والباطنة المخرج للأذى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٥٣).

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٢٦ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما) ، وقال : (أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن الضحاك رضي الله عنه).

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز : ص ١٤٨٨ م ن قول المحاسبي.

وقيل : الظاهرة نعمة عليك بعد ما خرجت من بطن أمّك ، والباطنة نعمة عليك وأنت في بطن أمّك. وقيل : الظاهرة ألوان العطايا ، والباطنة غفران الخطايا. وقيل : الظاهرة المال والأولاد ، والباطنة الهدى والإرشاد. وقيل : الظاهرة التوفيق للعبادات ، والباطنة الإخلاص من المراءات. وقيل : الظاهرة ما أعطى من النّعماء ، والباطنة ما زوى من أنواع البلاء. وقيل : الظاهرة إنزال القطر والأمطار ، والباطنة إحياء الأقطار والأنصار. وقيل : الظاهرة ذكر اللسان ، والباطنة ذكر الجنان. وقيل : الظاهرة ضياء النّهار ، والباطنة ظلمة الليل للسّكون والقرار.

ومن قرأ (نعمة) على التوحيد فهي واحدة تبنى على الجميع ، كما في قوله ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾[1].

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛﴾ يعني النّضر بن الحارث يخاصم في آيات الله وفي صفاته جهلا بغير علم ولا حجّة ، ﴿وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ (٢٠) ؛ وقد تقدّم تفسيره في سورة الحجّ.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ؛﴾ أي اعملوا بما أنزل الله ، ﴿قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ ، قالوا بل نعمل بما وجدنا عليه آباءنا ، وقد تقدّم تفسير ذلك في سورة البقرة. قوله تعالى : ﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ (٢١) ؛ فيتّبعونه.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ؛﴾ أي من يخلص طاعته لله وهو محسن فيها فيفعلها على موجب الشّريعة فقد أخذ بالأمر الأوثق ، ﴿وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ ؛﴾ ترجع خواتم ﴿الْأُمُورِ﴾ (٢٢) ؛ كلّها ، فيجزي كلّ عامل بما عمل.

قرأ السّلميّ : (ومن يسلّم) بالتّشديد. ومعنى قوله تعالى ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ أي اعتصم بالطّرف الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه. قال ابن عبّاس رضي الله

---

(١) ابراهيم / ٣٤.

عنهما : (هو لا إله إلّا الله) [1].

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ؛﴾ وذلك أنّ النبيّ ﷺ كان يحزنه كفرهم مخافة أن يكون ذلك لتقصير من جهته ، فأمّنه الله من ذلك. والمعنى : من كفر فلا تهتمّ لكفره ، فإنّ رجوعهم إلينا وحسابهم علينا ، وهو قوله تعالى : ﴿إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ؛﴾ أي نخبرهم بقبائح أعمالهم في الدّنيا ، ونجزيهم عليها ، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٣) ؛ أي عليم بما في القلوب من خير وشرّ. قوله تعالى : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ؛﴾ أي نمهلهم في الدّنيا يسيرا ، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ (٢٤) ؛ أي ثمّ نجلّيهم في الآخرة إلى عذاب شديد.

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٦) ؛ قد تقدّم تفسيره.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ ؛﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (وذلك أنّ رسول الله ﷺ لما قدم مكّة ، أتته أخبار اليهود فقالوا : بلغنا أنّك قلت : ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال : [بل عنيت الجميع] فقالوا : ألم تعلم أنّ الله أنزل التّوراة على موسى وفيها أنباء كلّ شيء وقد خلّفها [2] فينا فهي معنا؟ فقال ﷺ : [التّوراة وما فيها من الأنباء قليل في علم الله] فأنزل الله هذه الآية) [3].

والمعنى : لو جعل ما في الدّنيا من الأشجار أقلاما يكتب بها ، وصارت الجنّ والإنس كتّابا ، والبحار مدادا يمدّها من بعدها سبعة أبحر ؛ أي سبعة أمثال بحر الدّنيا ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٤٣٨).

(٢) في المخطوط : (خلقها فيها) وهو غير مناسب.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٤٤٢). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٥٩) مختصرا.

وكتب بها كلمات الله وحكمه ، لانكسرت الأقلام ، وأعيت الإنس والجنّ ، وفنيت البحار قبل أن ينقطع كلام الله وحكمه ، ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧) ؛ أي عزيز في سلطانه ذو حكمة في قوله وأفعاله.

وذهب بعضهم إلى أنّ معنى ﴿كَلِماتُ اللهِ﴾ تعالى في هذه الآية : معاني القرآن وفوائده ، وقال بعضهم : وهي نعم الله في الدّنيا والآخرة ، وإن نعمه في الآخرة غير متناهية.

قوله تعالى : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ؛﴾ قال مقاتل : (قالت كفّار قريش : إنّ الله خلقنا أطوارا نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ لحما ، فكيف يبعثنا خلقا جديدا في ساعة واحدة؟ فأنزل الله تعالى ﴿ما خَلْقُكُمْ﴾ «أيها الناس على الله سبحانه» [١] في القدرة إلّا كخلق نفس واحدة ، وبعث نفس واحدة ، ﴿وَلا بَعْثُكُمْ﴾ في قدرة الله على بعث الخلق كلّهم ﴿إِلَّا﴾ كقدرته على بعث نفس واحدة ، ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ؛﴾ لما قالوا من أمر الخلق والبعث ، ﴿بَصِيرٌ﴾ (٢٨) ؛ به [٢].

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ؛﴾ أي ألم تعلم أنّ الله يزيد من ساعات اللّيل في ساعات النهار صيفا ، ويزيد في ساعات النّهار في ساعات الليل شتاء ، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ؛﴾ أي ذلّلهما لمنافع بني آدم يجريان إلى يوم القيامة ، ثم يسقطان ، وينقطع جريهما ، ﴿وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ؛ أي خبير بأعمالكم في الدّنيا ويجازيكم عليها.

قوله تعالى : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ؛﴾ أو لتعلموا أنّ عبادة الله حقّ ، ﴿وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ؛﴾ من عباده ، ﴿الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ ؛﴾ بصفاته ، ﴿الْكَبِيرُ﴾ (٣٠) ؛ الذي لا شيء مثله في كبريائه وعظمته.

---

(١) ما بين «» سقط من المخطوط.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٢٣.

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ؛﴾ أي ألم تعلم أنّ السّفن تجري في البحر بإنعام الله تعالى ، لو لم يخلق الرّياح والماء على الهيئة التي خلقها الله عليها لما جرت السّفن على ظهر الماء ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ ؛﴾ أي لدلالات على توحيد الله ، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) ؛ أي كثير الصّبر على الطاعات والمحن ، شكورا أي كثير الشّكر على نعم الله تعالى ، قال ﷺ : [إنّ أحبّ العباد إلى الله من إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر](١).

قوله تعالى : ﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ؛﴾ أي إذا أصابهم في البحر موج كالجبال في الارتفاع دعوا الله مخلصين له الدّعاء ، ﴿فَلَمَّا نَجّاهُمْ ؛﴾ من البحر وأهواله ، ﴿إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ؛﴾ أي منهم من يثبت على ذلك ، ومنهم من يجحد. ثم قال : ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا ؛﴾ أي لا ينكر دلائل توحيدنا ، ﴿إِلّا كُلُّ خَتّارٍ ؛﴾ أي غدّار ، ﴿كَفُورٍ﴾ (٣٢) ؛ أي أكثر الكفر بآيات الله ونعمه. والختر في اللّغة : أقبح الغدر. والظّلل : جمع ظلّة وهي السّحابة التي ترتفع فتغطّي ما تحتها.

وإنّ هذه الآية كانت سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل ، وذلك أنّه لما كان يوم فتح مكّة ، أمّن النّبيّ ﷺ النّاس إلّا أربعة نفر ، فإنّه قال : [اقتلوهم ، ولو وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة : عكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن الأخطل ، ومقيس بن صبابة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح](٢).

فأمّا عكرمة فركب في البحر ، فأصابهم ريح عاصف ، فقال أهل السّفينة : أخلصوا فإنّ آلهتكم لم تغن عنكم شيئا هاهنا ، فقال عكرمة : (لئن لم ينجّني في البحر إلّا الإخلاص ما ينجيني في البرّ غيره) ثمّ قال : (اللهمّ إنّ لك عهدا إن أنت عافيتني ممّا أنا فيه أن آتي محمّدا حتّى أضع يدي في يده) فجاء فأسلم (٣).

---

(١) أخرجه الطبري عن قتادة قال : (كان مطرف يقول ...) ، ينظر الأثر (٢١٤٤٩). وأبو نعيم في حلية الأولياء : ج ٢ ص ٢٠٠ من قول مطرف بن عبد الله أيضا.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ج ٤ ص ٥١ ـ ٥٣.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠١٥.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ؛﴾ أي اتّقوا مخافة ربكم ، واخشوا عذاب يوم لا يغني والد عن ولده ، ﴿وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً ؛﴾ لاشتغال كلّ منهم لنفسه.

وقيل : معنى ﴿لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي لا يحمل شيئا من سيّئاته ولا يعطيه شيئا من طاعته ، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ؛﴾ في البعث والجزاء أي صدق كائن ، ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ؛﴾ فلا تغترّوا بالحياة الدّنيا وما فيها من زينتها وزهرتها ، ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ (٣٣) ؛ الشّيطان ، فإنه هو الغرور ، وهو الذي من يشاء أن يغرّ ، وغرور الشّيطان تمنيته العبد : فإنّ الله تعالى غفور ، فهوّن عليه ركوب المعاصي وما يهواه.

ومن قرأ (الغرور) بضمّ الغين فهي مصدر ، ومعناه : الأباطيل. وعن سعيد بن جبير : (إنّ الغرور تمنّي المغفرة مع الإصرار على المعصية) [١].

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ؛﴾ نزلت هذه الآية في البراء بن مالك ، أتى رسول الله ﷺ فقال : إنّ أرضنا أجدبت ، فمتى الغيث؟ وقد تركت امرأتي حبلى ، فماذا تلد؟ وقد علمت بأيّ أرض ولدت ـ أي علمت أين ولدت ـ فبأيّ أرض أموت ، وقد علمت ما عملت اليوم ، فما أعمل غدا؟ ومتى السّاعة؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال ﷺ : [مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهنّ إلّا الله ، لا يعلم متى تقوم السّاعة إلّا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلّا الله ، ولا يعلم ما كسبه في غد إلّا الله ، ولا تعلم نفس بأيّ أرض تموت إلّا الله ، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلّا الله][٢].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٤٦٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٤٦٥) عن مجاهد مرسلا بلفظ قريب من هذا. والبخاري في الصحيح : في كتاب التفسير عن ابن عمر رضي الله عنهما. والإمام الطبراني في المعجم الأوسط : ج ٢ ص ٥٤٦ : الحديث (١٩٣٨) عن ابن عمر بلفظ قريب منه..

يقال : إنّ هذه الخمسة الأشياء التي ذكرها الله في هذه الآية هي مفاتيح الغيب لا يعلمها إلّا الله ، استأثر الله بهنّ ، فلم يطلع عليهنّ ملكا مقرّبا ولا نبيّا مرسلا.

ومعنى الآية : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ﴾ قيام ﴿السَّاعَةِ﴾ ، فلا يدري أحد سواه متى تقوم ، في أيّ سنة أو في أيّ شهر ، ليلا أو نهارا. وقوله ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ معناه : هو المختصّ بإنزال الغيث ، وهو العالم بوقت إنزاله ، (ويعلم ما في الأرض) أي لا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى ، أحمر أم أسود ، وإنّما يعلمه الله عزّوجلّ نطفة وعلقة ومضغة ، وذكرا أم أنثى ، وشقيّا وسعيدا ، ومتى ينفصل عن أمّه.

وقوله تعالى ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً﴾ يعني : ماذا تكسب من الخير والشرّ ، أي ما تدري نفس ماذا تكسب غدا خيرا أو شرّا ، ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي في برّ أو بحر أو سهل أو جبل. قال ابن عبّاس : (هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل مصطفى ، فمن ادّعى أنّه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن لأنّه خالفه) [1].

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) ؛ أي عليم بخلقه ، خبير بأعمالهم وبما يصيبهم في مستقبل عمرهم.

وروي أن يهوديا كان في المدينة يحسب حساب النجوم ، فقال اليهوديّ لابن عباس : إن شئت أنبأتك عن ولدك وعن نفسك ، إنك ترجع الى منزلك فتلقى إبنا لك محموما ، ولا يمكث عشرة أيام حتى يموت الولد ، وأنت لا تخرج من الدنيا حتى تعمى ، فقال ابن عباس : وأنت يا يهودي ، قال : لا يحول عليّ الحول حتى أموت؟ قال : فأين

---

. ولم أقف على رواية المصنف رحمه‌الله كما ذكرها هنا. وذكر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٨٣ : (الرجل اسمه : الوارث بن عمرو بن حارثة بن محارب) ، قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٢٥.

ولعل في المخطوط تصحيف من الناسخ ، ولكن لا أستطيع الجزم ؛ لأن الخط واضح برسم اسم البراء بن مالك. لأن البراء رضي الله عنه ليس من البادية ، فهو البراء بن مالك بن النضر الأنصاري ، أخو أنس بن مالك لأبيه وأمه. مما يرجح أن هناك وهم أو تصحيف. والله أعلم.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٦٦) عن قتادة رضي الله عنه.

موتك يا يهودي؟ قال ما أدري ، قال ابن عباس : صدق الله ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال فرجع ابن عباس فلقي إبنا له محموما ، فلما بلغ عشرا مات الصبي ، ويقال عن اليهودي «أنه مات قبل الحول» [١] ، وما خرج ابن عباس من الدنيا حتى كفّ بصره [٢].

**آخر تفسير سورة (لقمان) والحمد لله رب العالمين**

---

(١) تصحيف في أصل المخطوط : (قبل فقالوا مات) ، وضبطت كما في تفسير الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٨٣.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٨٣. ثم قال : (قال الحسين بن علي راوي هذا الحديث : هذا أعجب الأحاديث).

## سورة الجرز

سورة الجرز ؛ يعني السّجدة ؛ مكّيّة ، وهي ألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفا ، وثلاثمائة وثمانون كلمة ، وثلاثون آية.

قال رسول الله ﷺ : [من قرأها أعطي من الأجر كأنّما أحيا ليلة القدر][1]. وكان ﷺ لا ينام حتّى يقرأها وسورة تبارك.

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٢) ؛ أي الم هو تنزيل الكتاب ، لا شكّ فيه أنه تنزّل من رب العالمين ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ؛﴾ معناه : يقول أهل مكّة : اختلقه محمّد من تلقاء نفسه ، وليس كما يقولون ، ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ؛﴾ أي لتخوّف بالقرآن قوما ؛ ﴿ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ؛﴾ لم يشاهدوا قبلك في زمانهم الذي هم فيه رسولا مخوّفا ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣) ؛ أي لكي يهتدوا إلى الإيمان.

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ؛﴾ أي في مقدار ستّة أيام من أيام الدنيا ، أوّلها يوم الأحد ، ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ؛﴾ أي استولى عليه ، وقد تقدّم في ذلك في سورة الأعراف. قوله تعالى : ﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ؛﴾ أي قريب ينفعكم ، ﴿وَلا شَفِيعٍ ؛﴾ يشفع لكم ، ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤) ؛ أي أفلا تعتبرون.

قوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ؛﴾ أي يدبر الله أمر الدنيا مدّة أيامها ، فينزل القضاء والقدر من السّماء إلى الأرض. قوله تعالى : ﴿ثُمَّ

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٧ ص ٣٢٥. ذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٥٠٢.

﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٥) ؛ قال ابن عباس : معناه : يعود إليه الأمر والتّدبير حين ينقطع أمر الأمراء وأحكام الحكّام ، وينفرد الله تعالى بالأمر في يوم كان مقداره ألف سنة) يعني أنّ يوما من أيّام الآخرة مثل ألف سنة ممّا تعدّون من أيّام الدّنيا ، وأراد بهذا اليوم يوم القيامة.

وقيل : معناه : يقطع الملك من المسافة نازلا وصاعدا في يوم واحد وهو مسيرة ألف عام مما يعدّه أهل الدنيا بمسيرهم ، وذلك أنّ بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام لبني آدم ، وصعوده من الأرض إلى السماء كذلك ؛ والملك يقطعه في يوم واحد. ولو أراد الله من الملك الصعود والنّزول بدون مقداره (اليوم) لفعله الملك.

وأما قوله : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[(١)] فإن كان أراد مدّة المسافة من الأرض إلى سدرة [(٢)] المنتهى التي فيها مقام جبريل ، فالمعنى يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا ، فيكون معنى قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ﴾ على هذا التأويل ؛ أي إلى مكان الملك الذي أمره الله أن يعرج إليه ، كقول إبراهيم عليه‌السلام : ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾[(٣)] أي حيث أمرني ربي بالذهاب إليه ، وهو الشّام. وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[(٤)] أي إلى المدينة. ولم يكن الله عزوجل بالمدينة ولا بالشام.

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : [أتاني ملك لم ينزل إلى الأرض قبلها قط برسالة من الله عزوجل ، ثمّ رفع رجله فوضعها فوق السّماء والأخرى في الأرض لم يرفعها][(٥)].

---

(١) المعارج / ٤.

(٢) في أصل المخطوط : (مدة) والصحيح : سدرة.

(٣) الصافات / ٩٩.

(٤) النساء / ١٠٠.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط : ج ٧ ص ٣٥٥ : الحديث (٦٦٨٥). وفي مجمع الزوائد : ج ١ ص ٨٠ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه صدقة بن عبد الله التنيسي ، والأكثر

قوله تعالى : ﴿ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ ؛﴾ أي ذلك الذي صنع ما ذكرناه من خلق السموات والأرض ، هو عالم ما غاب عن الخلق وعالم ما خفي ، لا يقدر عليه سواه كما لا يعلم الغيب غيره. وقوله تعالى : ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٦) ؛ أي القادر الذي لا يقاوم ، المنيع في ملكه ، المنعم على عباده.

وقوله تعالى : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؛﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة :(خلقه) بفتح اللام على الفعل ؛ أي أحكم كلّ شيء مما خلقه. وقرأ الباقون : (خلقه) بسكون اللام ؛ أي أحسن خلق كلّ شيء ، فيكون نصب قوله : (خلقه) على البدل. وقال مقاتل : «معناه : الّذي علم كيف يخلق الأشياء من غير أن يعلّمه أحد» [1]. وقال السديّ : «أحسنه : لم يعلّمه من أحد».

قيل : إنّ الله عزّوجلّ لما طوّل رجل البهيمة والطير ، طوّل عنقه لئلا يتعذر عليه تناول قوته من الأرض ، ولو لم يطوّل عنقه لما نال معيشته.

قوله تعالى : ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ؛ يعني آدم عليه‌السلام كان أول طينا ،﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ؛﴾ أي ذرّيته ، ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ (٨) ؛ أي من قليل من الماء ينسلّ من صلب الرجل وترائب المرأة ، وهي النطفة ، ووصفها بال ﴿مَهِينٍ﴾ لأنه لا خطر له عند الناس. وسميت سلالة لأنّها تنسلّ من الإنسان ؛ أي تخرج. والهيّن هو الضعيف.

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ؛﴾ رجع إلى ذكر آدم ، يعني سوّى خلقه ونفخ فيه من روحه ؛ ثم عاد إلى ذريّته فقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ ؛﴾ بعد أن كنتم نطفا. والأفئدة هي القلوب ، ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ (٩) ؛ هذه النّعم فتوحّدونه. والمعنى : خلق لكم السمع فاستمعوا إلى الحقّ ، والأبصار فأبصروا الحقّ ، والأفئدة ؛ أي القلوب ؛ فاعقلوا الحقّ.

---

ـ على تضعيفه ، وقد وثقه يحيى بن معين ووحيم). ويوجد اضطراب في ترتيب ألفاظ الحديث في أصل المخطوط. وضبط النص على أصله في المعجم.

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٢٧.

وقيل : معنى ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني الماء المهين جمعه وخلقه وصوّره ونفخ فيه من روحه ؛ أي نفخ فيه الروح الذي يحيا به الناس. أضاف الله ذلك إلى نفسه لأنه هو الخالق.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؛﴾ أي قال الكفار : إئذا هلكنا وانقطعت أوصالنا وذهبت آثارنا وصرنا ترابا ، فلم يتبيّن شيء من خلقنا ، أنبعث بعد ذلك؟! هذا لا يكون أبدا. ومعنى الضّلالة في اللغة : الغيبوبة ، يقال : ضلّ متاع فلان وضاع ، بمعنى واحد.

وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ﴾ (١٠) ؛ أي ليس كما يقولون أنّهم لا يبعثون ، بل هم بلقاء ربهم كافرون.

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ ؛﴾ أي يقبض أرواحكم أجمعين ملك الموت ، ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ؛﴾ قال مجاهد : «حويت له الأرض فجعلت له مثل طست ، يتناول منها حيث يشاء» [١]. وقال الكلبيّ : «اسم ملك الموت عزرائيل ، وله أربعة أجنحة : جناح منها بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، والخلق بين رجليه ورأسه وجسده ، وجعلت له الدّنيا مثل راحة اليد لصاحبها ، يأخذ منها ما أمر بقبضه من غير مشقّة ولا عناء ، وله أعوان من ملائكة الرّحمة ومن ملائكة العذاب» [٢].

وعن أنس بن مالك قال : [لقي جبريل ملك الموت بنهر فارس ، فقال : يا ملك الموت كيف تستطيع قبض الأنفس ، هاهنا عشرة آلاف ، وها هنا كذا وكذا؟ قال عزرائيل [٣] : تزوى لي الأرض حتّى كأنّها بين فخذيّ فألتقطهم بيديّ].

وقال ﷺ : [إذا حان أجل الرّجل ، أتاه ملك فقال : أيّها العبد كم خبر بعد خبر ، وكم رسول بعد رسول؟ أنا الخبير ليس بعدي خبير ، وأنا الرّسول ليس بعدي

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٥٠٠).

(٢) ذكر مقاتل بعضه في التفسير : ج ٣ ص ٢٨.

(٣) في المخطوط : (جبرائيل) وهو تصحيف.

رسول ، أجب ربّك طائعا أو مكروها. فإذا قبضت روحه وتصارخوا عليه ، قال : على من تصرخون وعلى من تبكون؟ والله ما ظلمت لكم أجلا ولا أكلت لكم رزقا ، بل دعاه ربّه ، فليبك الباكي على نفسه ، فإنّ لي فيكم عودات وعودات حتّى لا أبقي منكم أحدا](١).

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) ؛ أي تصيرون إليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؛﴾ يعني كفار مكّة ناكسوا رؤوسهم حياء وندما ، والمعنى : ولو ترى يا محمّد إذ المجرمون مطرقوا رؤوسهم من الخزي وشدة الندم في يوم القيامة عند علمهم بأن الحجّة قد قامت عليهم من كلّ جهة ، وأنّهم لا مهرب لهم من العذاب ، وذلك هو الغاية في الوجل والخجل ، يقولون : ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا ؛﴾ أي لك الحجّة علينا لأنا أبصرنا رسلك وسمعنا كلامهم ، ﴿فَارْجِعْنا ؛﴾ أي ولكن نسألك أن ترجعنا إلى الدّنيا حتى ، ﴿نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٢) ؛ بك وبكتابك وبرسلك. وهذه الآية محذوفة الجواب ؛ أي لو رأيت يا محمّد ، لرأيت غاية ما تعتبر به.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٨٣٢) عن أبي جعفر محمّد بن علي رضي الله عنهما. وفي مجمع الزوائد : ج ٢ ص ٣٢٦ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني في الكبير ، وفيه عمر ابن شمر الجعفي والحارث بن خزرج ولم أجد من ترجمهما ، وبقية رجاله رجال الصحيح) وأوله : [ونظر إلى ملك الموت]. عن الحارث بن خزرج قال : سمعت رسول الله ﷺ ... وذكره.

وأما الحارث بن خزرج ، فهو الحارث بن خزمة بن عدي بن أبي بن غنم بن سالم بن عوف ابن خزرج الأنصاري. من الصحابة المقلّ ين ، قال القرطبي : كان من القواقلة. ترجم سيرته ابن عبد البر في الاستيعاب : ج ١ ص ٣٥٢ : الرقم (٤١٢). وابن حجر في الإصابة : الرقم (١٤٠١).

وأما عمر بن شمر الجعفي ، فهو عمرو بن شمر الجعفي ، ترجم سيرته ابن عدي في الكامل : ج ٦ ص ٢٢٦ : الرقم (٣٢٥ / ١٢٩٢) ، وذكر عن حسين الجعفي قال : (أؤذن وكان عمرو بن شمر يؤمّهم ، فمكثت ثلاثين سنة أجتهد أن أسبقه إلى المسجد أو أخرج بعده فلم أقدر) وقال : سمعت ابن حماد يقول : قال السعدي : عمرو بن شمر زائغ كذاب. ونقل عن النسائي قال : عمرو بن شمر كوفي متروك الحديث.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها ؛﴾ قال الحسن : «أراد به مشيئة القدر من الله تعالى ؛ لأنّه لم يعجز عن شيء ، ولكنّه لا يجبر العباد على ذلك لكي لا يبطل الثّواب والعقاب». والمعنى : ولو شئنا لآتينا كلّ نفس رشدها وثباتها ، ومثل ذلك ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾(1)﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى﴾(2).

وقوله تعالى : ﴿وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ؛﴾ معناه : ولكن وجب قولي عليهم بالعذاب ، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) ؛ بكفرهم وذنوبهم.

وقوله تعالى : ﴿فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ؛﴾ معناه : يقال لأهل النار إذا دخلوها : ذوقوا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم هذا ؛ أي بما تركتم الإيمان بيومكم هذا. وقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَسِيناكُمْ ؛﴾ أي تركناكم في العذاب وأحللناكم محلّ المنسيّ ، ﴿وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ ؛﴾ أي الذي لا ينقطع ، ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤) ؛ من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى : ﴿إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا ؛﴾ معناه : إنما يقرّ ويصدّق بدلائلنا ، ﴿الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها ؛﴾ أي وعظوا بها ، ﴿خَرُّوا سُجَّداً ؛﴾ لله مصلّين مع الإمام ، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ؛﴾ أي عظّموا الله ونزّهوه في صلاتهم حامدين لربهم ، ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٥) ؛ أي يعفّروا وجوههم صاغرين.

قوله تعالى : ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ؛﴾ أي ترفع لأجل الصلاة ، قال مجاهد : «هم الّذين لا ينامون حتّى يصلّوا العشاء الآخرة». والمضاجع : هي الفرش التي يضطجعون عليها للنوم ، واحدها مضجع.

وعن أنس رضي الله عنه قال : «نزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار ، حتّى كنّا نصلّي المغرب فلا نرجع حتّى نصلّي العشاء مع رسول الله ﷺ »(3). وروي : أنّ امرأة

---

(١) يونس / ٩٩.

(٢) الأنعام / ٣٥.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول : ص ٢٣٥. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث .

جاءت إلى أنس بن مالك فقالت : إنّي أنام قبل العشاء ، فقال : «لا تنامي ؛ فإنّ هذه الآية نزلت في الّذين لا ينامون قبل العشاء ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع» (١).

وقال الحسن : «المراد بالآية قيام اللّيل والتّهجّد» (٢) ، وكان يقول : «هم قوم أخفوا لله تعالى عملا ، وأخفى لهم ثوابا» (٣).

وعن النبيّ ﷺ أنه قال : [عليكم بقيام اللّيل ، فإنّه دأب الصّالحين قبلكم ، وإنّ قيام اللّيل قربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسّيّئات ، ومطردة للدّاء عن الجسد](٤). وقال الضحّاك : «هو أن يصلّي الرّجل العشاء والفجر في جماعة» (٥).

قوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ؛﴾ أي خوفا من عذاب الله وطمعا في رحمة الله. وانتصب ﴿خَوْفاً﴾ و ﴿طَمَعاً﴾ لأنه مفعول له. وقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (١٦) ؛ أي ومما أعطيناهم من المال يتصدّقون واجبا وتطوّعا.

وقوله تعالى : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ؛﴾ أي لا يعلم أحد ما أخفى الله لهم مما تقرّ به أعينهم وتطيب به أنفسهم ، ﴿جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) ؛ في الدّنيا من الأعمال الصّالحة.

---

. (٢١٥٠٥) بأسانيد عديدة. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٧٨٣٦ . ١٧٨٣٩).

(١) أخرجه عن أنس كثيرون ، في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٤٥ . ٥٤٦ عزاه السيوطي إلى الفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه ومحمد بن نصر وعبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد بن حنبل في وزائد الزهد وابن عدي والبزار والبيهقي.

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٤٨ ؛ قال السيوطي : (وأخرجه ابن نصر وابن جرير عن الحسن) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٥١٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير : الأثر (١٧٨٤٢).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : الحديث (٦١٥٤) من طريق سلمان الفارسي. وفي مجمع الزوائد : ج ٢ ص ٥١ ؛ قال الهيثمي : (وفيه عبد الرحمن بن سليمان ، وثقه وحيم وابن حبان وابن عدي ، وضعفه أبو داود وأبو حاتم). وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : ج ٤ ص ١٥٩ : الحديث (٣٢٧٧) من طريق أبي أمامة الباهلي وإسناده حسن.

(٥) أصل هذا الفهم حديث عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [من شهد العشاء في جماعة كان له قيام نصف ليلة ، ومن صلّى العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة]. أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ١ ص ٥٨ و٦٨. وأبو داود في السنن : الحديث (٥٥٥). والترمذي في الجامع : الحديث (٢٢١).

قال ابن مسعود : «إنّ في التّوراة مكتوب : لقد أعدّ الله للّذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولا خطر على قلب بشر ، وما لم يحمله ملك مقرّب ، وإنّه في القرآن : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.» [1].

قرأ حمزة (ما أخفي لهم) بإسكان الياء ؛ أي ما أخفي لهم أنا ، وحجّته ﴿قُرَّةِ﴾. وقرأ عبد الله : (نخفي لهم) بالنون. وقرأ محمّد بن كعب : (ما أخفى لهم) بفتح الألف والفاء ، يعني أخفى الله لهم.

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) ؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما : «نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، جرى بينهما تنازع وتسابّ ، فقال له الوليد : اسكت فإنّك صبيّ وأنا والله أحدّ منك لسانا وأبسط منك في القول ، وأملأ منك في الكتيبة. فقال له عليّ رضي الله عنه : أسكت فإنّك فاسق تقول الكذب. فأنزل الله هذه الآية» [2]. والمراد بالمؤمن : عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبالفاسق : الوليد بن عقبة.

وقال الزجاج : «إنّه لم يرد بالمؤمن مؤمنا ، ولذلك قال : ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾ ولم يقل : لا يستويان». وقال قتادة في معنى الآية : «والله ما استووا لا في الدّنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة» [3].

قوله تعالى : ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى ؛﴾ التي يأوي إليها المؤمنون ، وقوله : ﴿نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) ؛ أي معدّة لهم بأعمالهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٩ ص ٢١٣ : الحديث (٩٠٣٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وفي مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٩٠ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمّد ابن سعيد وهو ضعيف). وأخرجه الحاكم في المستدرك : كتاب التفسير : الحديث (٣٦٠٣) ، وقال : (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٥٣٢) عن عطاء مرسلا. والواحدي في أسباب النزول : ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٧٨٥٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٨٥٢).

وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ ؛﴾ أي وأما الذين خرجوا من طاعة الله بكفرهم ، فمأواهم النار ، ﴿كُلَّما ؛﴾ رفعهم لهب النار إلى أعلاها ، فظنّوا أنّهم يخرجون منها ف ، ﴿أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها﴾ ، ردّتهم ملائكة العذاب إلى أسفلها بمقامع من حديد ، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٠) ؛ في الدّنيا.

وقوله تعالى : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى ؛﴾ قيل : إن المراد بالعذاب الأدنى هو القحط والجوع الذي أصاب أهل مكّة سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب. وقيل : هو القتل يوم بدر. وقيل : العذاب الأدنى هو مصائب الدنيا وأسقامها وبلاؤها. وقيل : العذاب الأدنى هو عذاب القبر ، والعذاب الأكبر هو عذاب يوم القيامة. وقوله تعالى : ﴿دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ ؛﴾ يعني بالعذاب الأكبر عذاب الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢١) ؛ أي أخبرناهم ليرجعوا عن الكفر.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها ؛﴾ ظاهر المعنى. قوله : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٢٢) ؛ يعني الذين قتلوا ببدر ، وعجّلنا أرواحهم إلى النار. وأراد بالمجرمين المشركين. وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [ثلاث من فعلهنّ فقد أجرم : من عقد لواء في غير حقّ ، أو عقّ والديه ، أو مشى مع ظالم لينصره ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾](١).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ ؛﴾ أعطيناه التوراة جملة واحدة ، ﴿فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ ؛﴾ وعد النبيّ ﷺ أن سيلقى موسى قبل أن يموت ، ثم لقيه في السّماء ليلة المعراج أو في بيت المقدس حين أسري به ، والمعنى : فلا تكن في شكّ من لقاء موسى. قال ابن عباس : «يعني ليلة الإسراء» (٢). ويقال : أراد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير : الحديث (١٧٨٥٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ... وذكره. والطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٥٥٨) واللفظ لابن أبي حاتم كما في التفسير.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٥٥٩) مطولا.

به لقاؤهما في الجنّة. ويقال : أراد به لقاء الله. ويقال : أراد به أن يلقى محمّد ﷺ من قومه الأذى مثل ما لقي موسى من قومه.

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ (٢٣) ؛ أي جعلنا التوراة هدى لبني إسرائيل من الضّلالة ، ﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ؛﴾ أي جعلنا من بني إسرائيل أئمّة ، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنا ؛﴾ يدلّون الناس على ديننا فيقتدى بهم ، فهم أنبياؤهم ومن استقام منهم على الدّين. وقوله تعالى : ﴿لَمَّا صَبَرُوا ؛﴾ أي لما صبروا جعلناهم أئمّة ، كأنه قال : إن صبرتم على طاعتنا وصبرتم على معصيتنا جعلناكم أئمّة.

قرأ حمزة والكسائي : (لما صبروا) بكسر اللام وتخفيف الميم ؛ أي لصبرهم. ومعنى القراءة الأولى : حين صبروا. والمعنى : لما صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوّهم بمصر ، ﴿وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ﴾ (٢٤) ؛ أي ولكونهم موقنين بآياتنا. قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ؛﴾ أي هو الذي يقضي بين المؤمنين والكفار يوم القيامة ، ﴿فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥) ؛ من الدّين.

ثم خوّف كفار مكة فقال : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ؛﴾ أي أو لم يتبيّن لهم آثار عذاب الاستئصال فيمن أهلك قبلهم من الأمم الماضية المكذّبة ما يكون عبرة لهم ، يمشون في مساكن المهلكين على منازلهم وقراهم ، مثل آثار عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ ؛﴾ أي إنّ في إهلاكنا إياهم بالتكذيب ، ﴿لَآياتٍ ؛﴾ لدلالات واضحة لمن بعدهم ، ﴿أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦) ؛ سماع القبول والطاعة. ومن قرأ (أو لم نهد) بالنون ، فالمعنى بإضافة الفعل إلى الله عزّوجلّ.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ؛﴾ معناه : أولم يعلموا أنا نسوق المطر بالسّحاب والرياح إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها ولا شجر ، ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ ؛﴾ بذلك المطر ، ﴿زَرْعاً ؛﴾ رزقا ، ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ ؛﴾ أي تأكل أنعامهم من ساقها ، ﴿وَأَنْفُسُهُمْ ؛﴾ وهم يأكلون من حبها ، ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧) ؛ أفلا يعقلون.

والأرض الجرز : هي التي تأكل نباتها ، يقال : ناقة جروز إذا كانت أكولا ، وسيف جراز إذا كان مستأصلا ، ورجل جرز إذا كان أكولا. قال ابن عباس رضي الله عنهما : «هي أرض باليمن» [1]. وقال مجاهد : «هي أبين» [2].

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ ؛﴾ وذلك أن كفار مكة كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : يوشك أن يكون لنا يوم نستريح فيه من شركهم ، فكان الكفار يهزءون بهم ويقولون : متى هذا الفتح ؛ أي الحكم الذي بيننا وبينكم ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٢٨) ؛ فيما تقولون [3].

والمعنى : أنّ كفار مكة يقولون : متى هذا الفتح ؛ أي القضاء وهو يوم البعث ، يقضي فيه الله بين المؤمنين والكافرين.

فقال الله تعالى : ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ؛﴾ يعني يوم القيامة ويوم القضاء والفصل ، ﴿لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ ؛﴾ لو آمنوا يومئذ ، ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٢٩) ؛ أي ولا هم يمهلون ، ولا يؤخّرون لمعذرة أو توبة ، ولا تؤخّر عنهم عقوبتهم.

وعن ابن عبّاس في هذه الآية : «المراد بالفتح فتح مكّة ، وأنّ الآية نزلت في بني خزيمة ، كانوا هم الّذين يستهزئون بأصحاب النّبيّ ﷺ حين كان أصحاب النّبيّ ﷺ يتذاكرون وهم بمكّة فتح مكة لهم. فلمّا كان يوم الفتح تكلّمت بنو خزيمة بكلمة الإسلام ، فقتلهم خالد بن الوليد ولم يقبل منهم إسلامهم» وكان النّبيّ ﷺ يقول : [اللهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد][4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٥٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٥٦٦).

(٣) نقله ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٨٦٦) عن قتادة. والطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٥٧١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٢ ص ١٥٠ ـ ١٥١. والبخاري في الصحيح : كتاب المغازي : باب بعث النبي ﷺ خالد : الحديث (٤٣٣٩).

قوله تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ؛﴾ أي عن جوابهم ، ﴿وَانْتَظِرْ﴾ ، الفريضة فيهم ، ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ (٣٠) ؛ الفرصة فيك. قال ابن عبّاس : «قوله تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ نسخته آية السّيف» (١). وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي منتظرون لك حوادث الأزمان من موت أو قتل فيستريحون منك.

**آخر تفسير سورة (السجدة) والحمد لله رب العالمين**

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز : ص ١٤٩٨.

## سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنيّة ، وهي خمسة آلاف وسبعمائة وتسعون حرفا ، وألف ومائتان وثمانون كلمة ، وثلاث وسبعون آية.

قال ﷺ : [من قرأها وعلّمها أهله وما ملكت يمينه ؛ أعطي الأمان من عذاب القبر](١) وبه التّوفيق.

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ ؛﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (وذلك أنّ أبا سفيان بن حرب ؛ وعكرمة بن أبي جهل ؛ وأبا الأعور السّلمي قدموا فنزلوا على عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ؛ وجدّ ابن قيس ؛ ومعتب ابن قسر المنافقين.

وكان يومئذ مع المشركين عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فطلبوا النّبيّ ﷺ وقد كانوا طلبوا منه الأمان على أن يكلّموه ، فقالوا له : يا محمّد ارفض ذكر آلهتنا اللّات والعزّى ومنات ، وقل : إنّ لها شفاعة في الآخرة ومنفعة لمن عبدها ، وندعك أنت وربّك! فشقّ ذلك على النّبيّ ﷺ.

فقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : ائذن لي يا رسول الله في قتلهم ، فقال ﷺ : [إنّي قد أعطيتهم الأمان]. فأمر النّبيّ ﷺ عمر أن يخرجهم من المدينة ، فقال لهم عمر رضي الله عنه : أخرجوا في لعنة الله وغضبه ، وأنزل الله هذه الآية (٢).

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٨ ص ٥ عن أبي بن كعب وإسناده ضعيف. وذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٥٤٨.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول : ص ٢٣٦. وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١١٤ ؛.

ومعناها : يا أيّها النبيّ اتّق الله في نقض العهد الذي بينك وبين أهل مكّة لا تنقضه قبل أجله ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ فيما دعوك إليه ، ولا تمل إليهم ، ولا ترفق بهم ظنّا منك أن ذلك أقرب إلى استمالتهم إلى الإيمان ، فإن ذلك يؤدّي إلى أن يظنّ بك مقارنة القوم على كفرهم ، فمعنى قوله ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ يعني أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة ، والمنافقين عبد الله بن أبي وجدّ بن قيس وغيرهما.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (١) ؛ أي عليما بأحوالهم ، حكيما فيما أوجبه عليك في أمرهم وفيما يخلقه.

قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ؛﴾ أي اعمل بما أمرك الله في القرآن من مجانبة الكفّار والمنافقين وترك موافقتهم ، ﴿إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (٢) ؛ قرأ بالياء أبو عمرو ، وقرأ الباقون بالتّاء أي خبير بك وبهم.

قوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ؛﴾ أي فوّض أمرك إلى الله واعتمد عليه في معاملتهم بما أمرت به في شأنهم ، ﴿وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ (٣) ؛ أي حافظا وناصرا.

قوله تعالى : ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ؛﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (نزلت هذه الآية في أبي معمّر جميل بن أبي راشد الفهريّ ، وكان رجلا حافظا لبيبا لما يسمع ، وكان يقول : إنّ في جوفي لقلبين ، أعقل بكلّ واحد منهما أفضل من عقل محمّد! وكانت قريش تسمّيه ذا القلبين لدهائه وكثرة حفظه للحديث ، فأنزل الله عزوجل هذه الآية تكذيبا لهم ، فأخبر أنّه ما خلق لأحد قلبين.

فلمّا كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم أبو معمّر ، تلقّاه أبو سفيان وهو يعدو وإحدى نعليه في يده والأخرى في رجله ، فقال له : يا أبا معمّر ما فعل النّاس؟ قال : انهزموا. فقال له : ما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟! فقال :

---

ـ قال القرطبي : (وقيل : إنها نزلت فيما قال الواحدي والقشيري والثعلبي والماوردي وغيرهم). وذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٣٢.

ما شعرت إلّا أنّهما في رجليّ. فعرفوا يومئذ أنّه لو كان له قلبان ما نسي نعله في يده) [١].

وقال الزهريّ ومقاتل : (هو مثل ضربه الله للمظاهر امرأته والمتبنّي ولد غيره ، يقول : فكما لا يكون للرّجل قلبان ، لا تكون امرأة المظاهر أمّه حتّى لا يكون له أمّان ، ولا يكون ولد ابن رجلين) [٢].

قوله تعالى : ﴿وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ ؛﴾ أي ما جعل نساءكم اللّائي تقولون لهن : أنتنّ علينا كظهور أمّهاتنا ، لم نجعلهن كأمّهاتكم في الحرمة. وكانت العرب تطلّق نساءها في الجاهلية بهذا اللفظ ، فلما جاء الإسلام نهوا عنه ، وأوجبت الكفارة في سورة المجادلة.

قوله تعالى : ﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ؛﴾ أي ما جعل من تدّعونه ابنا من أبناء غيركم كأبنائكم الذين من أصلابكم في الانتساب والحرمة والحكم ، وكان رسول الله ﷺ قد تبنّى زيد بن حارثة بعد أن أعتقه ، فكان يقال : زيد بن محمّد ، فلمّا جاء الإسلام أمر أن تلحق الأدعياء بآبائهم ، وكان يوم تبنّاه رسول الله ﷺ قبل الوحي [٣].

قرأ نافع وأبو عمرو (وتظّهّرون) بفتح التاء وتشديد الظّاء والهاء من غير ألف ، وقرأ الشّاميّ كذلك إلّا أنّه بألف ، وقرأ حمزة والكسائي مثل قراءة شامي إلّا أنه بالتخفيف ، وقرأ عاصم والحسن بضمّ التاء وتخفيف الظّاء وبألف وكسر الهاء ، قال أبو عمرو : (وهذا منكر ؛ لأنّ التّظاهر من التّعاون) [٤].

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٣٤. والواحدي في أسباب النزول : ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧. والبغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٢٢. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١١٦.

(٢) ذكره مقاتل بمعناه في التفسير : ج ٣ ص ٣٤.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول : ص ٢٣٧.

(٤) ينظر : الحجة للقراءات السبعة : ج ٣ ص ٢٨٠.

قوله تعالى : ﴿ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ ؛﴾ أي الذي تقولونه من إضافة القلبين إلى الرجل الواحد ، وقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمّي ، وقول الرجل لغير ابنه : هذا ابني ، قوله : تقولون بأفواهكم من غير أن يكون له حقيقة ولا عليه دلالة ولا حجّة ، ﴿وَاللهُ ؛﴾ تعالى ، ﴿يَقُولُ الْحَقَّ ؛﴾ أي يبيّن أنّ الذين يقولونه قول باطل ، ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (٤) ؛ أي يدلّ على طريق وإلى الدّين المستقيم.

قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ ؛﴾ أي نسّبوا هؤلاء الأدعياء إلى الآباء الذين قد ولدوا على فراشهم وقولوا : زيد بن حارثة ، ولا تقولوا : زيد بن محمّد. وقوله تعالى : ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ؛﴾ أي أعدل في حكم الله من نسبتكم إياهم إلى الذين تبنّوهم. وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول : (ما كنّا ندعوا زيد بن حارثة إلّا زيد بن محمّد حتّى نزل قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾)[1].

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ ؛﴾ فهم إخوانكم في الدّين ؛ أي من أسلم منهم ، ﴿وَمَوالِيكُمْ ؛﴾ أي وبنو أعمامكم ، فقولوا : يا أخي ويا ابن عمّي. في الآية إباحة إطلاق اسم الأخوّة وحظر اطلاق اسم الأبوّة ، وفي ذلك دليل على أن من قال لعبده : هذا أخي ؛ لم يعتق لأنه يحتمل الأخوّة في الدّين ، وإن قال : هذا ابني ؛ عتق لأن ذلك ممنوع في غير النّسب.

قوله تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ؛﴾ أي ليس عليكم إثم في نسبة الرجل إلى غير أبيه على وجه الخطأ. قال قتادة : (ولو دعوت رجلا

---

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٦٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر) وذكره. وأخرجه البخاري في الصحيح : كتاب التفسير : الحديث (٤٧٨٢). ومسلم في الصحيح : الحديث (٦٢ / ٢٤٢٥). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ١٢ ص ٢٣٠ : الحديث (١٣١٧٠).

لغير أبيه وأنت تحسب أنّه أبوه لم يكن عليك بأس) [١] ، ﴿وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ؛﴾ أي ولكن الإثم عليكم فيما تعمّدونه من ادعائهم إلى غير آبائهم ، ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً ؛﴾ أي لمن تعمّد ثم تاب ، ﴿رَحِيماً﴾ (٥) ؛ به بعد التوبة.

قوله تعالى : ﴿وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ موضع قوله ﴿فِيما﴾ خفض عطفا على قوله ﴿فِيما أَخْطَأْتُمْ﴾ تقديره : ولكن فيما تعمّدت قلوبكم.

قوله تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؛﴾ أي هو أشفق وأبرّ وأحقّ بالمؤمنين من بعضهم ببعض ، وهو أولى بكلّ إنسان منه بنفسه. وقيل : معناه : إذا حكم فيهم بشيء نفذ حكمه فيهم ، ووجبت طاعته عليهم.

وقال ابن عبّاس : (إذا دعاهم النّبيّ ﷺ إلى شيء ، ودعتهم أنفسهم إلى شيء ، كانت طاعة النّبيّ ﷺ أولى بهم من طاعة أنفسهم) [٢]. وقال مقاتل : (معناه طاعته النّبيّ ﷺ أولى بهم من طاعة بعضهم لبعض) [٣].

وقالت الحكماء : النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم لأنفسهم ، تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم ، والنبيّ ﷺ يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم. وقال أبو بكر الورّاق : (لأنّ النّبيّ ﷺ يدعوهم إلى العقل ، وأنفسهم تدعوهم إلى الهوى). وقال بسّام بن عبد الله [٤] : (لأنّ أنفسهم تحرس من نار الدّنيا ، والنّبيّ ﷺ يحرسهم من نار الآخرة).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٥٩١). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٥٨٢).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٢٣.

(٣) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٣٥٠.

(٤) بسام بن عبد الله الصيرفي ، أبو الحسن الكوفي. روى عن زيد بن علي بن الحسين وأخيه أبي جعفر الباقر ، وجعفر الصادق وعطاء وعكرمة وغيرهم. وروى عنه ابن المبارك ووكيع وأبو نعيم وغيرهم. ينظر : تهذيب التهذيب : الرقم (٧٠٦) : ج ١ ص ٤٥٤.

قوله تعالى : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ؛﴾ أي كأمّهاتهم في تعظيم حقّهنّ وفي تحريم نكاحهن ، فلا يحلّ لأحد أن يتزوّج بهنّ ، كما لا يجوز التزويج بالأمّ. ولم يرد إثبات الأميّة من جميع الوجوه ، ألا ترى أنه لا تحلّ رؤيتهن ولا يرين المؤمنين بخلاف الأمّهات ، وكذلك لا يخلو بهنّ ، ولا يسافر بهن ، ولا يرثهن ولا يرثونه ، ولو كنّ كالأمّهات من جميع الوجوه لكان النبيّ ﷺ لا يزوّج بناته من أحد من الناس ؛ لأن البنات يكنّ أخوات المؤمنين.

ومن هذا المعنى ما روي : أنّ امرأة قالت لعائشة : يا أمّ ، قالت : (لست لك بأمّ ، إنّما أنا أمّ رجالكم) (١) فبان بهذا أنّ معنى الأمومة تحريم نكاحهن فقط. ولهذا لا يجوز أن يقال لبناتهن أنّهن أخوات المؤمنين.

وفائدة تحريم نكاح أزواج النبيّ ﷺ على المؤمنين في حياته وبعد وفاته تعظيم أمره وتفخيم شأنه ، ولذلك حرم على الابن نكاح امرأة أبيه.

قوله تعالى : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ ؛﴾ أي وذو القرابة بعضهم أحقّ بميراث بعض في حكم الله ، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ ؛﴾ إذا لم يكونوا قرابة ، وذلك أنّهم كانوا يتوارثون في ابتداء الإسلام بالهجرة والمؤاخاة.

قال الكلبيّ : (آخا رسول الله ﷺ بين النّاس ، فكان يوآخي بين الرّجلين ، وإذا مات أحدهم ورثه الثّاني دون عصبته وأهله ، فمكثوا كذلك ما شاء الله حتّى نزلت الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾ من المؤمنين الّذين آخا رسول الله بينهم والمهاجرين ، فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤآخاة والهجرة ، وصارت للأدنى فالأدنى من القرابات) (٢).

---

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٦٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن سعد وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عائشة ...) وذكره.

(٢) نقله الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٦٠) بتفصيل عن ابن زيد.

قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً ؛﴾ (معروفا) استثناء ليس من الأول ، ومعناه : لكن فعلكم إلى أوليائكم جائز ، يريد أن يوصي الرجل لمن يتولّاه ممن لا يرثه بما أحبّ من ثلث ماله ، فيكون الموصى له أولى بقدر الوصيّة من القريب الوارث ، وقال ابن زيد : (معناه إلّا أن توصوا لأولياءكم من المهاجرين) [1]. قوله تعالى : ﴿كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾ (٦) ؛ أي كان الميزان للأقرباء ، والوصية للأصدقاء ، ونسخ الميراث بالهجرة وردّه إلى ذوي الأرحام مكتوبا في اللّوح المحفوظ.

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ ؛﴾ أي واذكر إذ أخذنا من النّبيّين عهودهم ؛ أي يصدّق بعضهم بعضا ، ويبشّر الأول بالآخر ، ويأخذ كلّ رسول منهم على قوله بما أمر الله به ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؛﴾ قيل : إنّ الواو مقحمة ؛ وتقديره : منك ومن نوح ، فيكونوا ﴿مِنْكَ﴾ ما بعده تفسير ﴿النَّبِيِّينَ﴾.

والفائدة في تخصيص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذّكر ؛ لأنّهم أهل الشرائع والكتب ، وأولو العزم من الرّسل ، ولهم الأمم والتّبع. وقدّم ذكر النبيّ ﷺ لأن الخطاب معه. وجاء في التفسير : أنّ النّبيّ ﷺ قال : [إنّي خلقت قبل الأنبياء وبعثت بعدهم][2].

قوله تعالى : ﴿وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ (٧) ؛ أي عهدا وثيقا بأن يعبدوني ولا يشركون بي شيئا. وقيل : وأخذنا منهم عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا. وقوله تعالى : ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ؛﴾ أي لكي يسأل المبلّغين عن تبليغهم وهو قوله تعالى : ﴿ما ذا أَجَبْتُمُ﴾[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٦٠٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٦٠٩) عن قتادة مرسلا. وابن أبي حاتم في التفسير : الحديث (١٧٥٩٤ و١٧٥٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكره.

(٣) القصص / ٦٥.

وفائدة سؤال الرّسل وهم صادقون ؛ لتكذيب الذين كفروا بهم فيكون هذا السؤال احتجاجا على الكاذبين ، وإذا سئل الصّادقون ، فكيف يظنّ بالكاذبين؟! وقوله تعالى : ﴿وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾ (٨) ؛ أي أعدّ للّذين كفروا بالرّسل عذابا شديدا.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ؛﴾ يذكّرهم الله إنعامه عليهم في دفع الأحزاب عنهم من غير قتال ، وذلك : أنّ الكفّار جاءوا بأجمعهم في وقعة الخندق ، وأحاطوا بالمدينة من أعلاها وأسفلها ، طليحة بن خويلد الأسدي [١] وأصحابه من فوق الوادي ، وكان أبو الأعور السّلميّ وأصحابه من أسفل الوادي ، وكان أبو سفيان وأصحابه ويهود بني قريظة في مواجهة المؤمنين [٢] ، فاشتدّ الخوف بالمؤمنين وزاغت أبصارهم ؛ أي مالت من الخوف ، ويقال : مالت أبصار المنافقين خوفا من النّظر إليهم. وكان الكفّار خمسة عشر ألفا ، وبلغت قلوب المسلمين الحناجر ؛ أي كادت تبلغ الحلوق ، وذلك أنّ شدّة الخوف ترفع الرّئة ، فترفع الرّئة القلب.

كما روي : أنّ المؤمنين قالوا : يا رسول الله! قد بلغت القلوب الحناجر ، فهل من شيء؟ فقال ﷺ : [قولوا : اللهمّ استر عوراتنا وآمن روعاتنا ، يكفيكهم الله تعالى][٣] فأرسل الله على الكفّار ريحا باردة منكرة شغلتهم عن الاستعداد للحرب ، ومنعتهم من الثّبات على المكان ، وقلعت خيامهم وأكفأت أوانيهم ، ورسول الله ﷺ والمسلمون منها في سلامة ، وليس بينهم إلّا مسافة الخندق ، وكان ذلك إحدى معجزاته عليه‌السلام كما قال ﷺ : [نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور][٤].

---

(١) في المخطوط : (الأزدي). ترجم له ابن عبد البر في الاستيعاب : ج ٢ ص ٣٢٤ : الرقم (١٣٠٠).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٣٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١٤٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٧٥٩٩). والطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٦١٤). وفي الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٧٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي سعيد ...) وذكره.

(٤) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٧٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في .

قوله تعالى : ﴿إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ ، يعني الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ يوم الخندق ، وهم عيينة بن حصن وأبو سفيان بن حرب وبنو قريظة ، ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ ، وهي الصّبا ، أرسلت عليهم حتى أكفأت قدورهم ونزعت فساطيطهم [1] ، وقوله : ﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها﴾ ، يعني الملائكة ؛ ﴿وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ (٩).

وروي : أنّ شابّا من أهل الكوفة قال لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله هل رأيت رسول الله ﷺ؟ قال : (إي والله لقد رأيته) قال : والله لو رأيناه لحملناه على رقابنا ، وما تركناه يمشي على الأرض ، فقال له حذيفة : (يا ابن أخي أفلا أحدّثك عنّي وعنه؟) قال : بلى. قال : (والله لو رأيتنا يوم الخندق ، وبنا من الجهد والجوع ما لا يعلمه إلّا الله. قام رسول الله ﷺ فصلّى من اللّيل ما شاء الله ، ثمّ قال : [ألا رجل يأتي بخبر القوم جعله الله رفيقي في الجنّة؟] فو الله ما قام منّا أحد ممّا بنا من الخوف والجوع والجهد. ثمّ صلّى ما شاء الله ، ثمّ قال : [ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله رفيقي في الجنّة؟] فو الله ما قام منّا أحد ممّا بنا من الجهد والخوف والجوع. فلمّا لم يقم أحد ، دعاني فلم أجد بدّا من إجابته ، قلت : لبّيك يا رسول الله ، قال : [اذهب فجئ بخبر القوم ، ولا تحدثنّ شيئا حتّى ترجع].

قال حذيفة : قمت وجنبيّ يضطربان ، فمسح رسول الله ﷺ رأسي ووجهي ، ثمّ قال : [اللهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته]. قال : فانطلقت أمشي حتّى أتيت القوم ، وإذا ريح الله وجنوده يفعل بهم ما يفعل ، ما يستمسك لهم بناء ، ولا تثبت لهم نار ، ولا يطمئنّ لهم قدر. فبينما هم كذلك ، إذ خرج أبو سفيان من رحله ، فقال : يا معشر قريش ؛ ما أنتم بدار مقام ، لقد

______

ـ الكنى وابن مردويه وأبو الشيخ في العظمة وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس) وذكره. وأخرجه أبو الشيخ في العظمة : الحديث (٦٠ / ٨٦٠).

(١) الفسطاط فيه لغات : فسطاط وفسطاط وفسّاط وفسّاط وفستاط. وهو : بيت من شعر ، ويطلق ويراد به أيضا المدينة التي فيها مجتمع الناس ، وكل مدينة فسطاط. والمراد هنا الأول. ينظر : كتاب الغريبين : ج ٥ ص ١٤٤٧. ومختار الصحاح : ص ٥٠٣.

هلكت الخفّ والحافر [1] وأخلفتنا بنو قريظة ، وهذه الرّيح لا يستمسك لنا معها شيء ، ولا تثبت لنا نار ولا تطمئنّ قدر. ثمّ عجّل فركب راحلته ، وإنّها لمعقولة ما حلّ عقالها إلّا بعد ما ركبها.

فقال حذيفة : فقلت في نفسي : لو رميت عدوّ الله فكنت قد صنعت شيئا ، فأوترت قوسي وأنا أريد أن أرميه ، ثمّ ذكرت قول رسول الله ﷺ : [ولا تحدثنّ شيئا حتّى ترجع]. فحططت القوس ثمّ رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو يصلّي ، فلمّا فرغ قال : [ما الخبر؟] فأخبرته بذلك ، فضحك حتّى بدت أنيابه في سواد اللّيل. ثمّ أدناني منه وبي من البرد ما أجده ، فألقى عليّ طرف ثوبه ، وألزق صدري ببطن قدميه وهو قائم يصلّي) [2].

قوله تعالى : ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ﴾ أي مالت عن كلّ شيء ، فلم تنظر إلّا إلى عدوّها مقبلا من كلّ جانب ، ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾ ، والحنجرة جوف الحلق. قال قتادة : (شخصت القلوب من مكانها ، فلولا أنّه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت).

وقوله تعالى : ﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها﴾ يعني الملائكة ، بعث الله ملائكة على المشركين فقلعت أوتاد الخيل وأطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران وجالت الخيل بعضها في بعض ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى وقع بهم الرعب فانهزموا من غير قتال.

قوله تعالى : ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ ، أي من فوق الوادي من قبل المشرق عليهم مالك بن عوف البصري ، وعيينة بن حصن الفزّاري في ألف من غطفان ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ ، يعني من قبل المغرب فيهم أبو سفيان في قريش ومن تبعه ، وأبو الأعور السّلمي من قبل الخندق.

---

(١) الخفّ : واحد أخفاف البعير. والحافر حافر الفرس. والمراد هنا الإبل والخيل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٦١٦). ومسلم في الصحيح : كتاب الجهاد والسير : باب غزوة الأحزاب : الحديث (٩٩ / ١٧٨٨).

وكان من حديث الخندق : أنّ نفرا من اليهود منهم حييّ بن أخطب وكنانة بن الرّبيع وهوذة بن قيس وأبو عمارة الوائليّ ، وجماعة من بني النّضير خرجوا حتّى قدموا على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوهم فاجتمعوا مع قريش. فسارت وقائدها عيينة بن حصين الفزّاريّ ، وسارت بنو مرّة وقائدها الحارث بن عوف ، وسارت بنو أشجع وقائدها مسعر بن رخيلة الأشجعيّ ، وسارت قريش وقائدها أبو سفيان.

فلمّا سمع بهم رسول الله ﷺ ضرب الخندق على المدينة ، وكان الّذي أشار بالخندق على رسول الله ﷺ سلمان ، فقال : يا رسول الله ، إنّا كنّا بفارس إذا حوصرنا خندقنا. فحفره رسول الله ﷺ والمسلمون حتّى أحكموه.

فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق ، أقبلت قريش حتّى نزلت بمجمع الأسيال من رومة [(١)] ، فخرج رسول الله ﷺ والمسلمون وهم ثلاثة آلاف من المسلمين ، فكان الخندق بينهم وبين المشركين ، وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف ، وأتاهم العدوّ من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتّى ظنّ المؤمنون كلّ ظنّ ، وظهر النّفاق في المنافقين ، حتّى قال معتب بن بشير المنافق : كان محمّد وعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، فأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ، ما وعدنا الله ورسوله إلّا غرورا [(٢)]. فذلك قوله تعالى : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ (١٠).

فأقام النّبيّ ﷺ وأقام الكفّار معه بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ، ولم يكن بين القوم إلّا الرّمي بالنّبل والحصى والحصار [(٣)].

---

(١) اضطربت العبارة في المخطوط : (وأقبلت قريش حتى أقبلت بالمدينة). وضبطت كما في السيرة النبوية : ج ٣ ص ٢٣٠.

(٢) اختصر الطبراني قصة الخندق من السيرة النبوية لابن هشام : ج ٣ ص ٢٢٤ ـ ٢٣٣. وينظر : الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية بن هشام : ج ٣ ص ٤١٦ ـ ٤٢٥.

(٣) الحصار : (حصره) ضيّق عليه وأحاط به ، وكلّ من امتنع عن شيء فقد حصر عنه ، وأحصره حبسه. ينظر : مختار الصحاح : ص ١٣٩ : (حصر)

فلمّا اشتدّ البلاء على النّاس واستطال ، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصين وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان ، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما من القوم ، فجرى بينهما الصّلح حتّى وقع الكتاب ولم تقع الشّهادة ، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما في ذلك ، فقالا : يا رسول الله ؛ أهذا شيء أمرك الله به أم أمر تحبّه أنت أم أمر تصنعه لنا؟ فإن كان أمرا من الله لك فلا بدّ لنا من العمل به ، وإن كان أمرا تحبّه فاصنع ما شئت ، وإن كان شيئا تصنعه لنا فعرّفنا به ، فقال ﷺ : [بل والله ما صنعت ذلك إلّا أنّي رأيت العرب قد رمتكم بقوس واحدة ، وكالبوكم من كلّ جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم].

فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ﷺ ؛ لقد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشّرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمارنا تمرة إلّا قراء أو شراء ، فكيف وقد أكرمنا الله بالإسلام وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا! ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلّا السّيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال ﷺ : [فأنت وذاك]. فتناول سعد الصّحيفة الّتي كتبوا فيها صلحهم فمحاها (١).

ثمّ إنّهم تراموا بالنّبل ، فوقعت رمية في أكحل سعد بن معاذ فقطعته ، رماه ابن الغرفة من قريش ، فما زال أكحله يسيل دما حتّى خيف عليه ، فقال سعد : اللهمّ إن كنت أبقيت من حرب قريش فأبقني لها ، فإنّه لا شيء أحبّ إليّ من جهاد قوم آذوا رسول الله ﷺ وكذبوه وأخرجوه ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لنا شهادة ولا تمتني حتّى تقرّ عيني من بني قريظة.

ثمّ أتى نعيم بن مسعود الغطفانيّ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ قد أسلمت وإنّ قومي من غطفان لم يعلموا بإسلامي ، فمرني فيهم بما شئت ، فقال عليه السلام : [إنّما أنت رجل واحد فخذّل عنّا إن استطعت]. فخرج نعيم بن مسعود حتّى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : غزوة الخندق : هم الرسول بعقد صلح بينه وبين غطفان ثم عدل : ج ٣ ص ٢٣٤.

أتى بني قريظة ، وكان لهم نديما في الجاهليّة ، فقال لهم : يا بني قريظة ؛ لقد علمتم ودّي لكم وما بيني وبينكم من المحبّة. قالوا : صدقت ؛ لست عندنا بمتّهم.

فقال لهم : إنّ قريشا وغطفان جاءوا لحرب محمّد ، وإنّ قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم ؛ لأنّ هذه بلدكم وبها أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحوّلوا إلى غيركم ، وإنّ قريشا وغطفان أموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدون ، إن رأوا لهم هاهنا صولة وغنيمة أخذوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلّوا بينكم وبين هذا الرّجل وهو رجل ببلدكم لا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوه حتّى تأخذوا رهنا من أشراف قريش وغطفان يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم. فقالوا له : لقد أشرت برأي ونصيحة.

ثمّ خرج حتّى أتى قريشا ، فقال : يا معشر قريش ؛ قد عرفتم ودّي إيّاكم وفراقي محمّدا ، وقد بلغني أمرا رأيت حقّا عليّ أن أبلغكموه نصحا لكم ، فاكتموا عليّ. قالوا : نفعل! قال : اعلموا أنّ معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمّد ، وقد أرسلوا إليه : أنّا قد ندمنا على فعلنا ، فهل يرضيك عنّا أن نأخذ من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب رقابهم ، ثمّ نكون معك على من بقي منهم ، فقال لهم : نعم. وأنتم إذا بعثت اليهود إليكم يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا.

ثمّ خرج حتّى أتى غطفان فقال لهم : يا معشر غطفان ؛ أنتم أصلي وعشيرتي وأحبّ النّاس إليّ ، ولا أراكم تتّهموني. قالوا : صدقت! قال : فاكتموا عليّ ، قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

فأرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى يهود بني قريظة نفرا من قريش وغطفان ، فأتوهم وقالوا لهم : قد هلك الخفّ والحافر ، فأعدّوا للقتال حتّى يفرغ ما بيننا وبين محمّد. فقال بنو قريظة : لسنا بالّذي نقاتل معكم حتّى تعطونا رهنا من رجالكم تكون ثقة بأيدينا ، فإنّا نخاف أنّكم إذا اشتدّ عليكم الحرب والقتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا ، وهذا الرّجل قريب من بلادنا ، ولا طاقة لنا به.

فرجعت الرّسل بما قالت بنو قريظة ، فقالت قريش وغطفان : والله إنّ الّذي حدّثنا به نعيم بن مسعود لحقّ. وأرسلوا إلى بني قريظة : والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، ولكنّكم إن كنتم تريدون الحرب فاخرجوا معنا فقاتلوا ونحن معكم. قالت بنو قريظة : لا نقاتل إلّا إذا أعطيتمونا رهنا من رجالكم. فقالوا لهم : حدّثنا نعيم بن مسعود بذلك فلم نصدّقه ، فقالوا لهم : إنّ الّذي ذكره لكم حقّ. وخذل الله بينهم ، وبعث عليهم الرّيح في ليلة شاتية شديدة البرد حتّى انصرفوا راجعين ، والحمد لله رب العالمين [1].

قوله تعالى : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ ، فأمّا المنافقون فظنّوا أنّ محمّدا وأصحابه سيغلبون ويستأصلون ، وأما المؤمنون فأيقنوا أنّ ما وعدهم الله تعالى حقّ ، وأنه سيظهر دينه على الدّين كلّه ولو كره المشركون. قال الحسن في معنى : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ : (يعني ظنّ المؤمنون بالله خيرا ، وظنّ المنافقون أنّ الكافرين ظهروا على المؤمنين) [2].

قرأ نافع وعاصم وابن عامر : ﴿الظُّنُونَا﴾ و ﴿الرَّسُولَا﴾ و ﴿السَّبِيلَا﴾ بإثبات الألف فيها وقفا ووصلا لأنه من أواخر الآي ، وقرأ أبو عمرو بغير ألف وقفا ووصلا ، وقرأ الباقون بالألف في الوقف دون الوصل.

قوله تعالى : ﴿هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في تلك الحال اختبر المؤمنون بالقتال ليتبيّن المخلص من المنافق. وقيل : معناه : امتحن المؤمنون بالخوف الشّديد الذي عنده يظهر المؤمن القويّ من المؤمن الضعيف ، وذووا العزم الصحيح من غيرهم. وقوله : ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾ (١١) أزعجوا وحرّكوا تحريكا شديدا ، وذلك أن الخائف يكون قلقا مضطربا لا يستقرّ على مكانه.

---

(١) قصة نعيم بن مسعود الغطفاني أخرجها ابن هشام في السيرة النبوية : ج ٣ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٤.

(٢) في جامع البيان : الأثر (٢١٦٢٧). وفي التفسير الكبير لابن أبي حاتم : الأثر (١٧٦٠٨) عن الحسن قال : (ظنونا مختلفة : ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (١٢) معناه : وإذ يقول الذين يستبطنون الكفر والذين في قلوبهم شكّ وضعف اعتقاد : ما وعدنا محمّد أنّ فارس والروم يفتحان علينا ونحن في مكاننا هذا الذي لا يقدر أحد أن يبرز لحاجته إلّا باطلا. قال قتادة : (قال ناس من المنافقين : يعدنا محمّد أن نفتح قصور الشّام وفارس ، وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله ، هذا والله الغرور) [1].

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ؛﴾ قال مقاتل : (هم بنو سالم من المنافقين) [2] ، وقال السديّ : (عبد الله بن أبيّ وأصحابه). ﴿يا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أي يا أهل المدينة ، قال أبو عبيدة : (يثرب اسم أرض ، ومدينة الرّسول في ناحية منها) [3]. وقوله تعالى : ﴿لا مُقامَ لَكُمْ﴾ أي لا موقف لكم في هذا الموضع ، فارجعوا إلى المدينة.

وقرأ عاصم ﴿لا مُقامَ﴾ بضمّ الميم ؛ أي لا إقامة لكم هاهنا ؛ لكثرة العدوّ وغلبة الحراب ، فارجعوا إلى منازلكم ، أمروهم بالهرب من عسكر رسول الله ﷺ [4].

قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ ؛﴾ معناه : ويستأذن فريق منهم النبيّ عليه السلام في الرّجوع إلى منازلهم بالمدينة ؛ وهم : بنو حارثة وبنو سلمة ، وكانوا يعتلّون في الاستئذان بقولهم : ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ ؛﴾ أي بيوتنا خالية من الرّجال تخاف عليها ، وقيل : معناه : إنّ بيوتنا ليست بجديدة. وقال مقاتل والحسن : (معناه : قالوا بيوتنا ضائعة نخشى عليها السّرّاق) [5]. وقال قتادة : (قالوا بيوتنا ممّا يلي العدوّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٦٣١).

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٣٨.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٣١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١٤٨.

(٤) قاله الطبري في جامع البيان : مج ١١ ج ٢٠ ص ١٦٤.

(٥) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٣٩.

ولا نأمن على أهلنا) (1). فكذبهم الله تعالى وأعلم أنّ قصدهم الهرب ، فقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً﴾ (١٣) ؛ من القتال ونصرة المؤمنين.

وقرأ ابن عبّاس وأبو رجاء : (إنّ بيوتنا عورة) بكسر الواو ؛ أي قصيرة الجدران ، فيها خلل وفرجة. قال الزجّاج : (يقال : عور المكان يعورّ عورا وعورة ، وبيوت عورة وعورة ، وهي مصدر). والعورة في اللغة : ما ذهب عنه السّتر والحفظ ، تقول العرب : اعورّ الفارس إذا كان فيه موضع خلل للضّرب ، وعور المكان إذا بدت منه عورة. قال الشاعر :

متى تلقهم ، لا تلق للبيت عورة ... ولا الضّيف محروما ولا الجار مرملا (2)

يقال : أرمل القوم إذا فرغ زادهم (3).

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ؛﴾ أي لو دخلت المدينة على هؤلاء المنافقين من أطرافها ، يعني : لو دخل عليهم هؤلاء الأحزاب من نواحيها ، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها ؛﴾ أي ثم دعوا إلى الشّرك لأجابوها سريعا وأعطوها من أنفسهم. والمعنى : لو أنّ الأحزاب دخلوا المدينة ، ثم أمروهم بالشّرك لأشركوا.

وقرأ أهل المدينة (لأتوها) بالقصر ؛ أي لفعلوها بأنفسهم ، ﴿وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً﴾ (١٤) ؛ أي وما يلبثون بإجابتها إلّا قليلا حتى يقبلوا. قال قتادة : (وما احتبسوا عن الإجابة إلى الكفر إلّا قليلا) ، ويقال : ما يتلبّثون بالمدينة بعد إجابتهم إلّا يسيرا حتى يهلكوا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٦٣).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١٤٨ :

متى تلقهم ، لا تلق للبيت معورا ... ولا الضّيف مفجوعا ولا الجار مرملا

(٣) المرمل : الذي نفذ زاده ؛ ومنه حديث أبي هريرة : كنّا مع النّبيّ ﷺ في غزاة ، فأرملنا وأنفضنا. وحديث أمّ معبد : [وكان القوم مرملين] أي نفذ زادهم. ينظر : تهذيب اللغة للأزهري : ج ١٠ ص ١٤٩. ولسان العرب لابن منظور : ج ٥ ص ٣٢١. والروض الأنف : ج ٢ ص ٣٢٦.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ ؛﴾ قيل : إنّهم بنو حارثة همّوا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة ، فلمّا نزل فيهم ما نزل ، عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها. وقال قتادة : (هم قوم كانوا غابوا عن وقعة بدر ، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة ، فقالوا : لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلنّ ، فلمّا كان يوم الأحزاب لم يفوا بذلك العهد) [1].

ومعنى الآية : ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل غزوة الخندق ﴿لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ﴾ أي لا ينهزمون ولا يولّون العدوّ ظهورهم. وقوله تعالى : ﴿وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾ (١٥) ؛ أي مطالبا مسؤولا عنه محاسبا عليه ، يسألون عنه في الآخرة.

ثم أخبر الله أنّ الفرار لا يزيدهم في آجالهم ؛ فقال : ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ؛﴾ أي من حضر أجله مات أو قتل ، فكلاهما مكتوب عليكم. وقوله تعالى : ﴿وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (١٦) ؛ أي إن فررتم من الموت أو القتل في هذه الوقعة لم يمتّعوا إلّا قليلا حتى يلحقكم أحد الأمرين. والمعنى : لا تمتّعون بعد الفرار في الدّنيا إلّا مدّة أجلكم.

ثم أخبر الله تعالى أنّ ما قدّره عليهم وأراده بهم لا يدفع عنهم ، قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ ؛﴾ أي من الذي يجيركم ويمنعكم من الله ، ﴿إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً ؛﴾ أي هلاكا وهزيمة ، ﴿أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً ؛﴾ أي خيرا وهو النصر. وهذا كلّه أمر للنبيّ ﷺ أن يخاطبهم بهذه الأشياء.

ثم أخبر الله أنه لا ينفعهم قريب ولا ناصر ينصرهم من الله ، فقال تعالى : ﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ (١٧).

قوله تعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا ؛﴾ قال المفسّرون : هؤلاء قوم من المنافقين ، كانوا يبطئون المجاهدين ويمنعونهم عن الجهاد. يقال : عاق يعوق ؛ إذا منع ، وعوّق إذا اعتاد المنع ، وعوّقه إذا صرفه عن الوجه الذي يريده.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٦٤٢).

قال قتادة : (هم قوم من المنافقين ، كانوا يقولون : ما محمّد وأصحابه إلّا أكلة رأس ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وحزبه ، دعوا هذا الرّجل فإنّه هالك ، فخلّوهم وتعالوا إلينا) [1].

وقوله تعالى : ﴿وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا﴾ أي ويعلم القائلين لإخوانهم تعالوا إلينا ودعوا محمّدا فلا تشهدوا معه الحرب ، فإنّا نخاف عليكم الهلاك. وقوله : ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (١٨) ؛ أي لا يحضرون القتال في سبيل الله إلّا قليلا ؛ أي لا يقاتلون إلّا رياء وسمعة من غير احتساب ، ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرا.

قوله : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ؛﴾ أي بخلاء عليكم بأنفسهم وأموالهم ، لا ينفقون شيئا منها في سبيل الله ونصرة المؤمنين. ثم أخبر عن جبنهم فقال تعالى : ﴿فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ ، من الخوف والفزع كما تدور أعين الذي يحضره الموت فيغشى عليه ، ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف ، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم وتحار أعينهم لما يلحقهم من الخوف ، ﴿فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ ؛﴾ أي بسطوا ألسنتهم وأرسلوها ، طاغين عليكم. قال الفرّاء : (معناه : آذوكم بالكلام وعضّوكم بألسنة سليطة ذربة) [2] يقال : خطيب مسلاق إذا كان بليغا في خطابه [3].

وقوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ؛﴾ أي بخلاء بالغنيمة ، يخاصمون فيها ويشاحّون المؤمنين عليها عند القسمة ، فيقولون : أعطونا فلستم أحقّ منّا! وقوله تعالى : ﴿أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ؛﴾ أي هم وإن أظهروا الإيمان ونافقوا فليسوا بمؤمنين ، ﴿فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ ؛﴾ أي أبطل جهادهم وثواب أعمالهم ؛ لأنه لم يكن في إيمان ، ﴿وَكانَ ذلِكَ﴾ الإحباط ، ﴿عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ (١٩) ؛ قال

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٦٤٧). ومعنى (ما هم إلا أكلة رأس) أي قليل ، يشبعهم رأس واحد. وهو جمع آكل.

(٢) قاله الفراء في معاني القرآن : ج ٢ ص ٣٣٩.

(٣) ينظر : إعراب القرآن لابن النحاس : ج ٣ ص ٢١١.

مقاتل : (معنى الآية : فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن والغنيمة ، سلقوكم بألسنة حداد ؛ أي بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة ، وسيقولون : أعطونا فلستم أحقّ بها منّا! فأمّا عند البأس والقتال فأجبن قوم وأخذلهم ، وأمّا عند الغنيمة فأشحّ قوم) [1].

قوله تعالى : ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي يظنّ المنافقون من جبنهم وخبثهم أنّ الأحزاب لم يذهبوا إلى مكّة وقد ذهبوا ، ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ ؛﴾ في المرّة الثانية ؛ أي يرجعون إلى القتال ، ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ ؛﴾ داخلون في البادية مع الأعراب ، ﴿يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ ؛﴾ أي يتمنّون لو كانوا في بادية بالبعد منكم ، يسألون عن أخباركم يقولون : ما فعل محمّد وأصحابه؟! فيعرفون حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة. والمعنى بسؤالهم : أنه إذا كان الظّفر لكم شاركوكم ، وإن كان للمشركين شاركوهم ، كلّ هذا من الخوف والجبن. قرأ يعقوب (يسّاءلون) بالتشديد والمدّ ، بمعنى يتساءلون ؛ أي يسأل بعضهم بعضا عن أخباركم ، ﴿وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ (٢٠) ؛ لو كان هؤلاء المنافقون فيكم ما قاتلوا إلّا رميا بالحجارة من غير احتساب.

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ؛﴾ أي لقد كان لكم في رسول الله قدوة حسنة في الصّبر على القتال والثّبات عليه واحتمال الشّدائد في ذات الله ، ﴿لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ ؛﴾ يرجو ثواب الله ، ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ، وثواب الدنيا والآخرة ، ﴿وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (٢١) ، وذلك : أنّ كلّ من ذاد أو ذكر الله في لسانه ازدادت رغبته في الاقتداء بالنبيّ ﷺ.

ومعنى الآية : لقد كان لكم في رسول الله اقتداء لو اقتديتم به ، والصبر معه في مواطن القتال كما فعل هو يوم أحد إذ كسرت رباعيّته وشجّ حاجبه وقتل عمّه ، فواساكم مع ذلك بنفسه ، فهلّا فعلتم مثل ما فعل هو. وقوله تعالى : ﴿لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ﴾ يدلّ من قوله ﴿لَكُمْ﴾ وهو تخصيص بعد التعميم للمؤمنين.

---

(١) ينظر : تفسير مقاتل بن حيان : ج ٣ ص ٤١ ، بلفظ قريب من هذا.

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؛﴾ وذلك أنّ الله تعالى كان قد وعدهم في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ ...﴾ إلى قوله ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(١) وقوله تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(٢). وقوله تعالى : ﴿وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً﴾ (٢٢) ؛ أي ما زادهم ما رأوه إلّا إيمانا وتصديقا بوعد الله وتسليما لآخره.

قوله تعالى : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ؛﴾ أي من جملة المؤمنين رجال وافوا ما عاهدوا الله عليه بالثّبات على الدّين والعمل بموجبه من الصّبر على القتال وغير ذلك ، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ ؛﴾ أي من وفّى بنذره ، ومنهم من أقام على ذلك العهد حتى قتل شهيدا في سبيل الله. قيل : إنّ المراد به حمزة ابن عبد المطّلب وأصحابه الذين قتلوا يوم أحد.

والنّحب في اللّغة : النّذر ، وقيل : النّحب هو النّفس ، ومنه النّحيب : وهو التّنفّس الشديد والنّشج في البكاء (٣). والمعنى على هذا القول : (منهم من قضى نحبه) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ؛﴾ الموت على ذلك العهد. وقيل : معناه : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ﴾ أي مات أو قتل في سبيل الله فأدرك ما تمنّى ، فذلك قضاء النّحب. وقيل : فرغ من عمله ، ورجع إلى الله. وقال الحسن : (قضى أجله على الوفاء والصّدق) (٤) ، قال ابن قتيبة : (﴿قَضى نَحْبَهُ﴾ : قتل).

وأصل النّحب : النّذر ، كان قوم نذروا أنّهم إن لقوا العدوّ قاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح الله تعالى فقتلوا. يقال : فلان قضى نحبه ، إذا قتل. وقال محمّد بن اسحق : (فمنهم من قضى نحبه ، من استشهد يوم بدر وأحد ، ومنهم من ينتظر ما وعد الله من نصر أو شهادة على ما مضى عليه أصحابه) (٥).

---

(١) الآية / ٢١٤.

(٢) الفتح / ٢٨.

(٣) النّشج : صوت معه يردّد الصبي بكاء في صدره ، فيحزن ببكائه من يسمعه. ينظر : الغريبين في القرآن والحديث : ج ٦ ص ١٨٣٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٦٧١).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٦٦٧) ؛ قال : (حدثني يزيد بن رومان) وذكره. وذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٣٤.

وعن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت : طلحة بن عبيد الله ممّن قضى نحبه ، ثبت مع رسول الله ﷺ حتّى أصيبت يده ، فقال ﷺ : [أوجب طلحة الجنّة][1]. وعن أبي نجيح : أنّ طلحة بن عبيد الله كان يوم أحد عند النّبيّ ﷺ في الجبل ، فجاء سهم متوجّه إلى النّبيّ ﷺ فاتّقاه طلحة بيده فأصاب خنصره.

وعن عائشة : أنّ رسول الله ﷺ قال : [من سرّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قضى نحبه ، فلينظر إلى طلحة][2]. وقال ﷺ : [من سرّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله][3].

قوله تعالى : ﴿وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (٢٣) ؛ أي ما غيّروا عهد الله الذي عاهدوه عليه كما غيّره المنافقون. وقوله تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ؛﴾ أي صدق المؤمنون في عهدهم ليجزيهم الله بصدقهم ، ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ ؛﴾ بنقض العهد ، ﴿إِنْ شاءَ ؛﴾ قال السديّ : (يميتهم الله على نفاقهم إن شاء فيوجب لهم العذاب) [4]. فمعنى شرط المشيئة في عذاب المنافقين إماتتهم على النفاق إن شاء ثم يعذّبهم ، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ؛﴾ فيغفر لهم ، ليس أنه يجوز أن لا يعذّبهم إذا ماتوا على النّفاق ، ﴿إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً ؛﴾ لمن تاب ﴿رَحِيماً﴾ (٢٤) ؛ بمن مات على التّوبة.

قوله تعالى : ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ؛﴾ معناه : وصرف الله الكفّار عن المؤمنين مغتاظين لم يكن فيهم من شفا غيظه ، ولم ينالوا منهم مالا ولا غنيمة ، ولم يروا سرورا ، ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ ؛﴾ بالرّيح

---

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ ؛ قال السيوطي (أخرجه الحاكم). ومن طريق الزبير رضي الله عنه أخرجه الترمذي في الجامع : أبواب الجهاد : باب ما جاء في الدرع : الحديث (١٦٩٢).

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٨٨ ؛ قال السيوطي : (أخرجه سعيد بن منصور وأبو يعلى وابن المنذر وأبو نعيم وابن مردويه عن عائشة).

(٣) عن جابر بن عبد الله ، أخرجه الترمذي في الجامع : أبواب المناقب : الحديث (٣٧٣٩) ، وقال : هذا حديث غريب.

(٤) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٨٩ ، ذكره السيوطي من تفسير قتادة ، وقال : أخرجه الطبري.

والملائكة التي أرسلت عليهم ، ﴿وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا ؛﴾ أي لم يزل قويّا في ملكه ، ﴿عَزِيزاً﴾ (٢٥) ، في قدرته منيعا بالنّقمة من أعدائه.

قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ ؛﴾ معناه : وأنزل الذين عاونوا المشركين من أهل الكتاب وهم بنو قريظة ، نقضوا العهد وأعانوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، فأنزلهم الله من حصونهم مع شدّة شوكتهم ، وألقى في قلوبهم الرّعب. وذلك أنّ بني قريظة كانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا ينصروا أعداءه عليه ، فلما رأوا الأحزاب وكثرتهم ظنّوا أنّهم يستأصلون المؤمنين ، فنقضوا العهد ولحقوا بهم.

فلمّا هزم الله المشركين ورجع النّبيّ ﷺ إلى بيته ، أراد أن ينزع لامته ، فسمع هسيسا ، فنظر فإذا جبريل عليه السلام في درعه وسلاحه ، فقال له جبريل : أتنزع لامتك يا رسول الله والملائكة لم ينزعوا حتّى يقاتلوا بني قريظة ويصلّى فيهم العصر؟! فقال ﷺ : [وكيف لي بقتالهم وهم في حصونهم؟!] فقال جبريل : لألهمنّك ذلك ، فو الله لأدقّنّهم اليوم كما يدقّ البيض على الصّفا. فنادى رسول الله ﷺ في الأصحاب ، فخرجوا إلى حصون بني قريظة ، فألقي الرّعب في قلوب القوم حتّى طلبوا الصّلح ، وأبوا إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ.

وكان سعد قد أصابه سهم في أكحله في حرب الخندق ، فسأل الله أن يؤخّره إلى أن يرى قرّة عين النّبيّ ﷺ ، فاستجاب الله دعاءه. فلمّا طلبت بنو قريظة النّزول على حكم سعد ، رضي رسول الله ﷺ ، فحمل سعد إلى النّبيّ ﷺ وقد احتبس أكحله ، فقال له النّبيّ ﷺ : [احكم فيهم]. فقال : حكمت فيهم بأن يقتل مقاتلتهم ويسبى ذراريهم ونساؤهم وأموالهم. فقال ﷺ : [حكمت فيهم مثل ما حكم الله فيهم]. فلمّا قتلت مقاتلتهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ، انفجر أكحل سعد فمات رحمه الله [1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٦٨٨ ـ ٢١٦٩١) مطولا وفيه قصة.

والصّياصيّ : جمع صيصة ، وصيصة الثّور قرنه ، سمّي بذلك ؛ لأنّ قرنه حصنه الّذي يتحصّن به.

وروي : أنّ رسول الله ﷺ لما رجع من اللّيلة الّتي انصرف فيها الأحزاب ، ورجع رسول الله ﷺ والمؤمنون إلى المدينة ، ووضع النّبيّ ﷺ السّلاح ، أتى جبريل عليه السلام إلى النّبيّ ﷺ معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج ، ورسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد مشّطت عقصته [1] ، فقال جبريل : قد وضعت السّلاح يا رسول الله؟! قال : [نعم] قال : عفا الله عنك يا رسول الله! فو الله ما وضعت الملائكة السّلاح منذ أربعين ليلة ، إنّ الله يأمرك بالسّير إلى بني قريظة.

وكان هذا في وقت الظّهر ، فأمر النّبيّ ﷺ مناديا ينادي : [من كان سامعا مطيعا فلا يصلّينّ العصر إلّا في بني قريظة]. وقدّم النّبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب برايته إليهم ، فسار إليهم عليّ رضي الله عنه حتّى إذا دنا من الحصون سمع منهم مقالة قبيحة في رسول الله ﷺ ، فرجع عليّ رضي الله عنه حتّى لقي النّبيّ ﷺ بالطّريق ، فقال : يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الخبائث ، قال : [أظنّك سمعت منهم أذى؟] قال : نعم. فسار النّبيّ ﷺ نحوهم حتّى دنا من حصونهم ، فقال لهم : [يا إخوان القردة أخزاكم الله ، وأنزل فيكم نقمته] قالوا : يا أبا القاسم! ما كنت جهولا [2].

فحاصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة حتّى جهدهم الحصار ، وقذف في قلوبهم الرّعب. فلمّا أيقنوا أنّ رسول الله ﷺ غير راجع عنهم ، قال لهم كعب بن أسد : يا معشر اليهود ؛ إنّه قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنّي سأعرض عليكم ثلاث خصال ، فخذوا بأيّها شئتم. قالوا : وما هي؟

قال : أمّا الأولى فنبايع هذا الرّجل ونصدّقه ، فو الله لقد تبيّن لكم أنّه نبيّ مرسل ، وأنّه الّذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم. قالوا : لا نفارق ديننا أبدا ، ولا نستبدل به غيره.

---

(١) العقيصة : الضّفيرة ، وعقص الشّعر : ضفر وليّه على الرأس.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٦٨٩).

قال : فإن أبيتم هذه عليّ ، فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثمّ نخرج إلى محمّد رجالا مصلّتين بالسّيوف ، ولم يكن وراءنا ثقل يهمّنا حتّى يحكم الله بيننا وبينهم. قالوا : نقتل هؤلاء المساكين! فلا خير في العيش بعدهم.

قال : فإن أبيتم هذه ، فاعلموا أنّ هذه ليلة السّبت ، وإنّه عسى أن يكون محمّد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا لعلّنا نصيب من محمّد وأصحابه غرّة. قالوا : نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا ، وقد علمت أنّ الّذين أحدثوا فيه الأحداث مسخوا ، ولم يخف عليك من هم.

قال : ثمّ إنّهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاء الأوس ، نستشيره في أمرنا ، فأرسله النّبيّ ﷺ إليهم. فسألوه إن ننزل على حكم محمّد؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه : أنّه الذبح. قال أبو لبابة : فعلمت أنّي قد خنت الله ورسوله ، ثمّ انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتّى ارتبط في المسجد إلى عمود من أعمدته ، وقال : لا أبرح حتّى يتوب الله عليّ ممّا صنعت ، وعاهد الله تعالى أن لا يطأ أرض بني قريظة أبدا ، وقال : لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه. فلمّا علم رسول الله ﷺ أنّه قد مضى على وجهه ولم يأته قال : [أما إنّه لو جاءني لاستغفرت له ، فأمّا إذا فعل ما فعل ، فما أنا بالّذي أطلقه حتّى يتوب الله عليه. ثمّ إنّ الله تعالى أنزل توبته ، فقال ﷺ : [تبت على أبي لبابة] فثار النّاس إلى أبي لبابة ليطلقوه ، فقال : والله لا حتّى يكون رسول الله ﷺ هو الّذي يطلقني بيده. فجاء النّبيّ ﷺ فأطلقه.

قال : فلمّا أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتواثبت الأوس وقالوا : يا رسول الله ؛ إنّهم موالينا ـ أي حلفاؤنا ـ دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي الخزرج ما قد علمت ، وكان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسألهم إيّاه عبد الله بن أبي سلول فوهبهم له. فلمّا كلّمه الأوس ، قال رسول الله ﷺ : [يا معشر الأوس ؛ أما ترضون أن أحكّم فيهم رجلا منكم؟] قالوا : بلى ، قال : [فذاك] إلى سعد بن معاذ ، وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من أسلم يقال لها رفيدة ، تداوي الجرحى وتخدم المرضى.

فلمّا حكّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة ، أتاه قوم فاحتملوه على حمار ، وقد وطّأوا له وسادة من أدم ، وكان رجلا جسيما. ثمّ أقبلوا به إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون : يا أبا عمرو! أحسن في مواليك ، فإنّ رسول الله ﷺ إنّما ولّاك ذلك لتحسن فيهم. فلمّا أكثروا عليه ؛ قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فعرفوا أنّ بني قريظة مقتولون.

فلمّا انتهى سعد إلى النّبيّ ﷺ قال : [قوموا إلى سيّدكم ، فأنزلوه] فقاموا إليه ، فقال : يا أبا عمرو ؛ إنّ رسول الله قد ولّاك مواليك لتحكم بينهم ، فقال سعد : عليكم عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيهم ما حكمت؟ قالوا : نعم. قال : أحكم فيهم أن يقتل الرّجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنّساء. فقال ﷺ : [لقد حكمت فيهم يا سعد بحكم الله من فوق سبعة أرقعة]. ثمّ استنزلوا ، فحبسهم رسول الله ﷺ في دار «ابنة الحارث» (١) امرأة من بني النّجّار ، ثمّ بعث إليهم من يخرجهم إليه إرسالا ، وأمر بضرب أعناقهم.

وكان فيهم يومئذ عدوّ الله حييّ بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم في سبعمائة. وقيل : من ثمانمائة إلى تسعمائة ، فقالوا لكعب وهو يذهب بهم إلى النّبيّ ﷺ أرسالا : يا كعب ما ترى ما يصنع بنا؟ قال : ما لكم لا تعقلون! ألا ترون من ذهب منكم لا يرجع ، هو والله القتل ، فلم يزل ذلك دأبهم حتّى فرغ منهم رسول الله ﷺ ، ثمّ أتي بحييّ بن أخطب عدوّ الله وعليه حلّة له فقّاحيّة (٢) ويداه مغلولتان إلى عنقه بحبل ، ثمّ أجلس فضرب عنقه (٣).

قالت عائشة رضي الله عنها : (كان عليّ والزّبير يضربان أعناق بني قريظة ، ورسول الله ﷺ جالس هناك) ، قالت عائشة : ولم يقتل من نساء بني قريظة إلّا امرأة واحدة ، كانت والله عندي تتحدّث معي وتضحك ، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها ،

---

(١) ما بين «» سقطت من المخطوط.

(٢) أي لونها كلون الورد حين يتفتح.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٦٩٠ ـ ٢١٦٩١).

فبينا هي كذلك إذ هاتف يهتف باسمها : أين فلانة. قالت : هي أنا والله. قالت عائشة : فقلت لها : ويلك وما تلك؟ قالت : طلبت لأقتل ، قلت : ولم؟ قالت : حدثا أحدثته ، قالت : فانطلق بها فضرب عنقها. قالت عائشة : ما أنسى عجبا منها ، طيب نفس وكثرة ضحك ، وقد علمت أنّها تقتل) (١). قال الواقديّ : (واسم تلك المرأة نباتة) (٢) امرأة الحكم القرظيّ ، وكانت قتلت خلّاد بن سويد ، رمت عليه رحى فقتله ، فقتلها رسول الله ﷺ بخلّاد بن سويد.

وعن الزهريّ رضي الله عنه قال : (كان رجل من قريظة يقال له الزّبير بن باطا ويكنّى أبا عبد الرّحمن ، مرّ يوما على ثابت بن قيس بن ثابت بن شمّاس في الجاهليّة يوم بغاث ، أخذه وحزّ ناصيته ثمّ خلّى سبيله. فجاء ثابت بن قيس يوم بني قريظة فوجده قد صار شيخا كبيرا ، فقال له ثابت : يا زبير هل تعرفني؟ قال : نعم ؛ وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال : فإنّي أريد أن أجازيك بما لك عندي من اليد ، قال : افعل ، فإنّ الكريم يجزي الكريم.

قال ثابت : فأتيت النّبيّ ﷺ فقلت : يا رسول الله ؛ قد كان للزّبير عندي يد وصنيعة وله عليّ منّة وقد أحببت أن أجزيه ، فهب لي دمه ، فقال ﷺ : [هو لك] فأتاه ، فقال له : يا شيخ ؛ إنّ رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك. فقال : إنّي شيخ كبير ، فإن ذهب أهلي وأولادي فما أصنع بالحياة؟ قال ثابت : فأتيت رسول الله ﷺ فسألته أهله وولده ، فقال : [هم لك] فقلت : يا شيخ ؛ قد وهب لي رسول الله امرأتك وأولادك. فقال : يا ثابت ؛ كيف يكون أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم على ذلك؟ قال : فأتيت رسول الله ﷺ فسألته ماله ، فقال : [هو لك] فأعلمته بذلك.

فقال لي : يا ثابت ؛ ما فعل الّذي وجهه مرآة مضيئة كعب بن أسد؟ قلت : قتل ، قال : فما فعل سيّد الحاضر والبادي حييّ بن أخطب؟ قلت : قتل ، قال : فما فعل

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٦٩٢).

(٢) ذكره الواقدي في كتاب المغازي : غزوة بني قريظة : ج ٢ ص ١٨.

مقدّمنا إذا شددنا وحامينا إذا كررنا غزال بن شموال؟ قلت : قتل. قال : فما فعل ببني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؟ قلت : قتلوا كلّهم.

قال : فإنّي أسألك يا ثابت بما بيني وبينك من الصّنيعة واليد إلّا ما ألحقتني بالقوم ، فو الله ما لي في العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصائر حتّى ألقى الأحبّة. فضرب ثابت عنقه) [1]. فلمّا بلغ أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه قوله : ألقى الأحبّة ، قال : تلقاهم والله في نار جهنّم خالدا فيها أبدا [2].

قوله تعالى : ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ؛﴾ أي ألقى في قلوبهم الخوف ، ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ؛﴾ يعني المقاتلة ، ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ (٢٦) ؛ يعني الذراري ، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ ؛﴾ يعني عقارهم ونخيلهم ومنازلهم وأموالهم من الذهب والفضّة والحليّ والعبيد والإماء ، ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها ؛﴾ يعني أرض بني النّضير ، وقيل : أرض خيبر.

والمعنى : سيفتح الله لكم أرضا لم تطأوها الآن بأقدامكم يعني خيبر ، ففتحها الله عليهم بعد بني قريظة. وقال الحسن : (هي فارس والرّوم) [3] ، وقال قتادة : (هي مكّة) [4].

قوله تعالى : ﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ (٢٧) ؛ فيه بيان أنّ الله قادر على إظهار الإسلام بغير القتال ، وإنّما أمر المؤمنين بالقتال ليعرضهم لجزيل الثواب.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ (٢٨) ؛ قال المفسّرون : كان بعض أزواج النبيّ ﷺ سألنه شيئا من عرض الدّنيا وآذينه بزيادة النّفقة ، فهجرهنّ رسول الله ﷺ وآلى منهنّ شهرا أن لا يقربهن ولم يخرج إلى أصحابه للصّلوات.

---

(١) القصة بكاملها ذكرها الواقدي في كتاب المغازي : ج ٢ ص ٢٠ ـ ٢١.

(٢) ذكره الواقدي في كتاب المغازي : ج ٢ ص ٢١ ، بلفظ : (قال أبو بكر وهو يسمع قوله : ويحك يا ابن باطا ، إنه ليس إفراغ دلو ، ولكنه عذاب أبدي).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٧٠٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٦٥٠).

فقالت الصحابة : ما شأن رسول الله؟ فقال عمر رضي الله عنه : إن شئتم ذهبت إليه لأعلمكم ما شأنه؟ فذهب إلى النّبيّ ﷺ فاستأذن فأذن له. قال عمر : فجعلت أقول في نفسي : أيّ شيء أكلّم به رسول الله ﷺ لعلّه ينبسط؟ فقلت : يا رسول الله ؛ لو رأيت فلانة وهي تسألني النّفقة فصككتها صكّة؟ فقال ﷺ : [فذلك الّذي أجلسني عنكم]. فأتى عمر حفصة فقال لها : لا تسألي رسول الله ﷺ شيئا فما كان من حاجته لك فأولى.

ثمّ جعل يتتبّع نساء النّبيّ ﷺ يكلّمهنّ ، حتّى قال لعائشة رضي الله عنها : يغرّك أنّك امرأة حسناء وإنّ زوجك يحبّك ، لتنتهينّ أو لينزلنّ الله فيكنّ القرآن. فقالت أمّ سلمة : يا ابن الخطّاب ؛ أو ما بقي لك إلّا أن تدخل بين رسول الله ونسائه! فمن تسأل المرأة إلّا زوجها؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ إلى آخرها [١].

وكان يومئذ مع رسول الله ﷺ تسع نسوة ؛ خمس من قريش : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأمّ سلمة بنت أبي أميّة ، فهؤلاء من قريش. وصفيّة بنت حييّ بن أخطب الخيبريّة ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش ، وجويريّة بنت الحارث المصطلقيّة [٢].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله ﷺ جالسا مع حفصة ، فتشاجرا فيما بينهما ، فقال لها : هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلا؟ قالت : نعم ، قال : فأبوك إذا ، فأرسل إلى عمر رضي الله عنه ، فلمّا دخل عليها قال : تكلّمي ، قالت : يا رسول الله تكلّم ولا تقل إلّا حقّا! فرفع عمر يده فوجّى وجهها ثمّ رفع فوجّى وجهها ، فقال النّبيّ ﷺ : [كفّ].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٧٠٣). ومسلم في الصحيح : كتاب الطلاق : باب أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا : الحديث (٢٩ / ١٤٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٧٠٤) عن الحسن وقتادة.

فقال عمر : يا عدوّة الله! أو يقول رسول الله إلّا حقّا ، والّذي بعثه بالحقّ لو لا مجلسه ما رفعت يدي حتّى تموتي. فقام ﷺ فصعد إلى غرفة ، فمكث فيها شهرا لا يقرب شيئا من نسائه ، يتغدّى ويتعشّى فيها ، فأنزل الله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها﴾ الآية ، فنزل النّبيّ ﷺ فعرض ذلك عليهنّ كلّهنّ ، فلم يخترن إلّا الله ورسوله ، وكان آخر من عرض عليها حفصة ، فقالت : يا رسول الله ؛ إنّي في مكان العائذة بك من النّار ، والله لا أعود لشيء تكرهه أبدا ، بل أختار الله ورسوله ، فرضي عنها.

وقيل : إنّ النّبيّ ﷺ لما نزلت عليه آية التّخيير بدأ بعائشة أحبّهنّ إليه ، فخيّرها فاختارت الله ورسوله والدّار الآخرة ، فرؤي الفرح في وجهه عليه‌السلام ، وتابعها جميع نسائه على ذلك ، فشكرهنّ الله وقصر نبيّه ﷺ عليهنّ ، فقال (لا يحلّ لك النّساء من بعد) [(١)].

قيل : لما نزلت هذه الآية ، قال النّبيّ ﷺ : [يا عائشة ؛ إنّي ذاكر لك أمرا فلا تعجلي حتّى تستأمري فيه أبوك] ثمّ قرأ هذه الآية ، فقال : : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها﴾ إلى قوله : ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ ؛ فقالت عائشة رضي الله عنها : قد علم الله أنّه أبويّ لم يكونا يأمرانني بفراقك ، وهل أستأمر في هذا؟! إنّي أريد الله ورسوله والدّار الآخرة. ثمّ قالت : يا رسول الله ؛ لا تخبر أزواجك أنّي اخترتك. ثمّ فعل أزواج رسول الله ﷺ كما فعلت [(٢)].

---

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٩٨٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة والحسن رضي الله عنهما) وذكره بمعناه. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٧٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٧٠٦ و٢١٧٠٧) بأسانيد عديدة. وابن أبي حاتم في التفسير : الحديث (١٧٦٥٢ ـ ١٧٦٥٥). والبخاري في الصحيح : كتاب التفسير : الحديث (٤٧٨٥) ، وكتاب الطلاق : باب من خيّر أزواجه : الحديث (٥٢٦٢).

وقيل : لما نزلت آية التّخيير ، دعا رسول الله ﷺ نساءه وخيّرهنّ ، وقال لعائشة : [أمّا أنت فلا تحدثي من أمرك شيئا حتّى تشاوري أبويك] فقالت : أفيك أشاورهما؟! أنا أختار الله ورسوله والدّار الآخرة ، ما لنا والدّنيا؟! فتبعها سائر أزواجه ، ولم تختر واحدة منهنّ نفسها إلّا المرأة الحميريّة [١].

قوله تعالى : ﴿فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي أعطيكن مهركنّ ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ أي أطلّقكنّ على وجه السّنة. وقيل : معناه : أخرجكنّ من البيوت ، لأنه ذكر المتعة قبل التّسريح. قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ؛﴾ أي ثواب الله ورضى رسوله ﴿وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي الجنّة ، ﴿فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ ؛﴾ باختيار ثواب الله ورضى رسوله ، ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ (٢٩) ، في الآخرة.

قوله تعالى : ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ؛﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (يعني النّشوز وسوء الخلق) [٢]﴿يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ ؛﴾ أي يجعل عذاب جرمها في الآخرة كعذاب جرمين. والمعنى : يزيد في عذابها ضعفا ، كما زيد في ثوابها ضعفا في قوله ﴿نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ﴾.

وإنّما ضوعف عذابهن على الفاحشة لأنّهن يشاهدن من الزّواجر ما يردع عن مواقعة الذّنوب ما لا يشاهد غيرهن ، فإذا لم يمتنعن استحققن تضعيف العذاب. وقوله تعالى : ﴿وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ (٣٠) ؛ أي وكان عذابها على الله هيّنا.

وقوله تعالى ﴿يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ، قرأ ابن كثير وابن عامر (نضعّف) بالنون وكسر العين مشدّدة من غير ألف (العذاب) بالنصب [٣] ، وقرأ أبو

---

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٩٧ ؛ قال السيوطي : (وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٧٦٥٧).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٣٩.

(٣) في المخطوط : (العذاب بالنصف) وهو تصحيف ، والصحيح ما أثبتناه. ينظر : الحجة للقراءات السبعة : ج ٣ ص ٢٨٣.

عمرو (يضعّف) بالياء وفتح العين والتشديد ، ورفع ﴿الْعَذابُ﴾ ، قال أبو عمرو : (وإنّما قرأت هكذا مشدّدا من غير ألف لقوله ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ، يقال : ضعّفت الشّيء إذا جعلته مثله وضاعفته إذا جعلته أمثاله) [1]. وقرأ الباقون (يضاعف) بالألف ورفع ﴿الْعَذابُ﴾.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ؛﴾ أي ومن يطع منكن لله ورسوله. وقيل : ومن تقم منكنّ على طاعة الله وطاعة رسوله ، ﴿وَتَعْمَلْ صالِحاً ؛﴾ فيما بينها وبين ربها ، ﴿نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ ؛﴾ أي نعطيها مكان كلّ حسنة عشرين حسنة ، ﴿وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً﴾ (٣١) ؛ أي حسنا ؛ يعني الجنّة. والرّزق الكريم : ما سلم من كلّ آفة ، ولا يكون ذلك إلّا في الجنّة.

قرأ يعقوب (تقنت) بالتاء ومثله روي عن ابن عامر ، وقوله ﴿وَتَعْمَلْ صالِحاً﴾ ، قرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف (ويعمل صالحا يؤتها) بالياء فيهما. وقرأ غيرهم ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاء (ونُؤْتِها) بالنّون. قال الفرّاء : (وإنّما قرئ ﴿يَقْنُتْ﴾ بالياء لأن ﴿مَنْ﴾ أداة تقوم مقام الاسم ، يعبّر به عن الواحد والاثنين والجمع والمؤنّث والمذكّر ، قال الله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ [2]﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [3] ، ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ﴾).

قوله تعالى : ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ ؛﴾ معناه : ليس قدركنّ عندي مثل قدر غيركن من النّساء الصالحات ، أنتنّ أكرم عليّ ، وأنا بكنّ أرحم وثوابكن أعظم ، ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ؛﴾ الله. وشرط عليهنّ التقوى بيانا أنّ فضيلتهنّ إنّما تكون بالتّقوى لا باتّصالهن بالنبيّ ﷺ. وقيل : معناه : ليست حالتكن كحالة النّساء غيركن في الطاعة والمعصية والثواب والعقاب إن كنتن متّقيات عن المعاصي مطيعات لله تعالى.

---

(١) ذكره الطبري في جامع البيان : مج ١١ ج ٢٠ ص ١٩١ ـ ١٩٢ وضعّفه. وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١٧٥ ؛ قال القرطبي : (وضعفه الطبري وهو كذلك غير صحيح).

(٢) يونس / ٤٣.

(٣) يونس / ٤٢.

قوله تعالى : ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ؛﴾ أي فلا تلنّ القول للرّجال على وجه يورث ذلك الطمع فيكن ، فيطمع المنافقون في مواقعتكن ، فقوله تعالى : ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ؛﴾ يعني زنى وفجور ونفاق. والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في المقالة ؛ لأن ذلك أبعد من الطّمع من الرّيبة.

وإنّما قال ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ﴾ ولم يقل كواحدة ؛ لأن أحدا عامّ يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنث ، قال تعالى ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[١] وقال تعالى ﴿فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ (٣٢) ؛ أي قلن قولا حسنا لا يؤدّي إلى الزينة ، وقيل : معناه : وقلن ما يوجبه الدّين والإسلام بغير خضوع فيه ، بل بتصريح وبيان. قوله تعالى : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ؛﴾ أي إلزمن بيوتكن ولا تخرجن إلّا في ضرورة.

قرأ نافع وعاصم ﴿وَقَرْنَ﴾ بفتح القاف ، وهو من قررت في المكان أقرّ ، وكان الأصل اقررن في بيوتكنّ ، فحذفت الرّاء الأولى التي هي عين الفعل لأجل نقل التّضعيف ، وألقيت حركتها على القاف كقوله ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[٣] و ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً﴾[٤] ، والأصل ظللت وظللتم. وقرأ الباقون (وقرن) بكسر القاف من الوقار ؛ أي كنّ أهل سكينة ووقار ، والأمر منه للرّجل قرّ ، وللمرأة قرّي ، ولجماعة النساء قرن ، كما يقال من الوعد : عدن ، ومن الوصل : صلن.

وعن محمّد بن سيرين قال : (قيل لسودة بنت زمعة : ألا تحجّين ؛ ألا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت : قد حججت واعتمرت ، ثمّ أمرني الله أن أقرّ في بيتي ، فو الله لا أخرج منه حتّى أموت. فو الله ما أخرجت من باب بيتها حتّى أخرجوا جنازتها رضي الله عنها) [٥].

---

(١) البقرة / ٢٨٥.

(٢) الحاقة / ٤٧.

(٣) الواقعة / ٦٥.

(٤) طه / ٩٧.

(٥) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٥٩٩ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن سيرين وذكره.

قوله تعالى : ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى ؛﴾ التّبرّج : التّبختر وإظهار الزّينة ، وما يستدعي به من شهوة الرّجال وإبراز المحاسن للناس. والجاهلية الأولى : هي ما بين عيسى عليه السلام ومحمّد ﷺ (١) ، كانت المرأة من أهل ذلك الزمان تتّخذ الدّرع من اللّؤلؤ فتلبسه ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها غيره ، وتعرض نفسها للرّجال. وقال بعضهم : الجاهلية الأولى ما بين آدم ونوح ، كان نساؤهم أقبح ما يكون من النّساء ، ورجالهم حسان ، وكانت المرأة تراود الرجل عن نفسه. فنهى الله تعالى هؤلاء عن فعل أهل الجاهليّة وأمرهنّ بإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة وطاعة الله ورسوله في باقي الآية.

قوله تعالى : ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ ؛﴾ أي إنّما أمركنّ الله بما أمركنّ من الطاعة ولزوم البيوت ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ، يعني رجس الذّنوب والعيوب ، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣٣). وقال ابن عبّاس : (عمل الشّيطان وما ليس فيه رضى). ومعنى الرّجس : السّوء وما يوجب العقوبة. والمراد بأهل البيت هاهنا نساء النّبيّ ﷺ لأنّهنّ في بيته. وقيل : أهل البيت كلّ من اتّصل بالنبيّ ﷺ من جهة نسب عليّ أو نسب على العموم (٢). وعن أبي سعيد الخدريّ : (أنّ الآية نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين) (٣).

---

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٠٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس) وذكره.

(٢) في المخطوط : (من جهة نسب أو نسب علي العموم).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٧٢٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٧٦٧٧). وفي مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٩١ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني وفيه عطية ابن سعد ، وهو ضعيف). وفي تهذيب التهذيب : ترجمة عطية : الرقم (٤٧٥٥) ؛ قال ابن حجر : (قال ابن عدي : قد روى عن جماعة من الثقات ، ولعطية عن أبي سعيد أحاديث عدة ، ومن غير أبي سعيد ، وهو مع ضعفه يكتب حديثه ، وكان يعدّ مع شيعة أهل الكوفة). وينظر : الكامل في الضعفاء لابن عدي : ج ٧ ص ٨٥ : الرقم (٥٦٢ / ١٥٣٠).

وعن أمّ سلمة رضي الله عنها قالت : لما نزلت هذه الآية ، دعا رسول الله ﷺ عليّا وفاطمة والحسن والحسين ، فجمعهم وأتى بقطيفة خيبريّة فلفّها عليهم ، ثمّ ألوى بيده إلى السّماء ، فقال : [اللهمّ هؤلاء أهلي أذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا] فقالت أمّ سلمة : أولست من أهلك؟ قال : [نعم][1] فدخلت الكساء بعد ما دعا وانقضى دعاؤه.

وعن عكرمة رضي الله عنه أنه قال : (نزلت هذه الآية في أزواج النّبيّ ﷺ خاصّة ، وليس هو الّذي تذهبون إليه) [2] ، وكان عكرمة ينادي بهذا في السّوق [3] ، واحتجّ بقوله في الخطاب ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وكلا الخطابين لأزواج النبيّ ﷺ ، يعني الخطاب الأول ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ، وهذا الخطاب الثاني. وإنه ذكّر الخطاب في قوله ﴿عَنْكُمُ﴾ و ﴿يُطَهِّرَكُمْ﴾ لأنّ النّبيّ ﷺ كان فيهنّ فغلب المذكّر.

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ؛﴾ أي واحفظن ما يقرأ عليكن في بيوتكن من القرآن والمواعظ. وهذا حثّ لهن على حفظ القرآن والأخبار ومذاكرتهن بهما للإحاطة بحدود الشّريعة. وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ (٣٤) ؛ أي لطيفا بأوليائه ، خبيرا بجميع خلقه وبجميع مصالحهم.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ؛﴾ الآية ، قال قتادة : (لما ذكر الله أزواج النّبيّ ﷺ دخل نساء من المسلمات عليهنّ ؛ فقلن : ذكرتنّ ولم نذكر! فأنزل الله هذه الآية) [4].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٧٣٢ ـ ٢١٧٣٩). وفيها قال : [إنّك من أهلي] و [أنا معهم مكانك وأنت على خير] مرتين. كما أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٧٦٧٩).

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٠٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة) وذكره.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٧٤٠). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٦٧٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٧٤٢).

وقال مقاتل : (لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب ، دخلت على نساء رسول الله ﷺ ؛ فقالت : هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن : لا. فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إنّ النّساء لفي خيبة وخسارة! قال : [ومِمّ ذلك؟] قالت : لأنّهنّ لا يذكرن بخير كما يذكر الرّجال. فأنزل الله هذه الآية) (١).

وقال مقاتل : (قالت أمّ سلمة بنت أبي أميّة ونسيبة بنت كعب الأنصاريّة للنّبيّ ﷺ : ما بال ربنا يذكر الرّجال ولا يذكر النّساء في شيء من كتابه ، فعسى أن لا يكون فيهنّ خير ، ولا لله فيهنّ حاجة. فأنزل الله هذه الآية) (٢).

وقيل : إنّ أزواج النبيّ ﷺ قلن : (يا رسول الله! ذكر الله عزّ وجلّ الرّجال في القرآن ، ولم يذكر النّساء بخير ، فما فينا خير نذكر به ، إنّا نخاف أن لا يتقبّل منّا طاعة). فأنزل الله هذه الآية (٣).

واعلم : أنّ الرجال والنساء يجازون بأعمالهم الصالحة مغفرة لذنوبهم وأجرا عظيما.

ومعنى الآية : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ﴾ يعني المخلصين بالتّوحيد والمخلصات ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ أي المصدّقين بالتوحيد والمصدّقات. والإسلام في اللغة : هو الانقياد والاستسلام. والإيمان في اللغة : هو التّصديق ، غير أنّ معنى الإسلام والإيمان في هذه الآية واحد.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٤١. والواحدي في أسباب النزول : ص ٢٤٠. والسيوطي في أسباب النزول : ص ١٣٩.

(٢) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٤٦ ، ولكنه في المطبوع (نسيبة بن كعب) وليس أنيسة كما في المخطوط. والصحيح نسيبة بنت كعب الأنصارية ، وكما (أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي وحسنه ، والطبراني وابن مردويه عن أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها) ذكره السيوطي في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٠٨ وعزاه إليهم. وأخرجه الترمذي في الجامع : أبواب التفسير : الحديث (٣٢١١). والطبراني في المعجم الكبير : ج ٢٥ ص ٢٧ : الحديث (٥١ و٥٢) وأخرجه الطبراني مرسلا في الحديث (٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٧٤٧) عن ابن عباس.

قوله تعالى : ﴿وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ ؛﴾ أي المطيعين لله في أوامره ونواهيه والمطيعات. والقانت : هو المواظب على الطاعة ، والقنوت : طول القيام في الصّلوات. وقوله تعالى : ﴿وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقاتِ ؛﴾ يعني الصّادقين في إيمانهم والصّادقات. وقوله تعالى : ﴿وَالصّابِرِينَ وَالصّابِراتِ ؛﴾ الصّابر : هو الذي يحبس نفسه عن جميع ما يجب الصّبر عنه ، ويصبر على جميع ما يجب الصبر عليه.

وقوله تعالى : ﴿وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ ؛﴾ يعني بالمتصدّقين الذين يؤدّون ما عليهم من الصّدقة المفروضة. ويقال : أراد به جميع الصّدقات. وأما الخاشع : فهو المتواضع لله تعالى وللناس.

وقوله تعالى : ﴿وَالصّائِمِينَ وَالصّائِماتِ ؛﴾ يعني الصّائمين صوم الفرض بنيّة صادقة ، ولكن فطرهم على حلال. قال ابن عبّاس : (من صام شهر رمضان وثلاثة أيّام من كلّ شهر الغرّ البيض ، كان من أهل هذه الآية ، ويؤتون يوم القيامة بمائدة من الجنّة ، يأكلون منها والنّاس في شدّة ، ويظلّهم الله تحت ظلّ عرشه والنّاس في شدّة ، وينفح من أفواههم ريح المسك) (١).

وقوله تعالى : ﴿وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ﴾ ؛ أي عمّا لا يحلّ ، وقوله تعالى : ﴿وَالذّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذّاكِراتِ﴾ ؛ قيل : أراد به الذّكر في الصّلوات الخمس. وقيل : أراد به الذّكر باللّسان والقلب في جميع الأحوال. قال ابن عبّاس : (يريد في أدبار الصّلوات غدوّا وعشيّا وفي المضاجع ، وكلّما استيقظ من نومه ، وكلّما غدا وراح من منزله ذكر الله). وقال مجاهد : (لا يكون الرّجل من الذاكرين كثيرا حتّى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا) (٢). وعن أبي هريرة ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : [من استيقظ من اللّيل وأيقظ امرأته فصلّيا ركعتين ركعتين ، كتبا

---

(١) في مجمع الزوائد : ج ٣ ص ١٩٦ ؛ قال الهيثمي : (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٤٢. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير : الأثر (١٧٦٨٥).

من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات][1]. وقوله تعالى : ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (٣٥) ؛ وهو الجنّة.

قوله تعالى : ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ؛ نزلت هذه الآية في عبد الله بن جحش وأخته زينب ، وكانت أمّهما أميمة بنت عبد المطّلب عمّة النبيّ ﷺ ، خطب النّبيّ ﷺ زينب بنت جحش لزيد ابن حارثة مولاه ، فكره أخوها عبد الله أن يزوّجها من زيد ، وكان زيد عربيّا في الجاهليّة مولاه في الإسلام ، كان رسول الله ﷺ أصابه من سبي الجاهليّة فأعتقه وتبنّاه.

فقالت زينب : لا أرضاه لنفسي ، ثمّ قالت : يا رسول الله! أنا أتمّ نساء قريش من ابنة عمّك ، فلم أكن لأفعل ولا أرضاه يا رسول الله ، وقال أخوها عبد الله كذلك أيضا ، وكانت زينب بيضاء جميلة ، وكان فيها حدّة ، فقال ﷺ : [لقد رضيته لك] فأنزل الله هذه الآية [2].

﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ أي ما ينبغي لمؤمن ﴿وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني عبد الله بن جحش وأخته زينب إذا اختار الله تعالى ورسوله أمرا ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ بخلاف ما اختار الله ورسوله.

قرأ أهل الكوفة ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ بالياء للحائل بين التأنيث والفعل ، وقرأ الباقون بالتاء [3]. وقوله تعالى ﴿الْخِيَرَةُ﴾ قراءة العامّة بفتح الياء ؛ أي الاختيار ،

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن : كتاب الصلاة : باب قيام الليل : الحديث (١٣٠٩) ، وباب الحث على قيام الليل : الحديث (١٤٥١). وابن حبان في الإحسان : كتاب الصلاة : الحديث (٢٥٦٩) وإسناده صحيح.

(٢) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٤٦. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٧٤٩ ـ ٢١٧٥٣). وفي الدر المنثور : ج ٦ ص ٦١٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن جرير وعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن مردويه عن ابن عباس) وذكره بألفاظ.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١٨٧ ؛ قال القرطبي : (قرأ الكوفيون : (أَنْ يَكُونَ) بالياء ، وهو اختيار أبو عبيد ؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله. الباقون بالتاء ؛ لأنّ اللفظ مؤنث ، فتأنيث فعله حسن).

وقرأ ابن السّميقع (الخيرة) بسكون الياء ، وهما لغتان. وإنّما جمع الضمير في قوله ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ لأن المراد بقوله ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ كلّ مؤمن ومؤمنة في الدّنيا.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ؛﴾ أي فيما أمرته ، ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (٣٦) ؛ أي فقد أخطأ خطأ ، وذهب عن الحقّ والصواب ذهابا بيّنا.

فلما نزلت الآية قالت : قد رضيت يا رسول الله. وكذلك رضي أخوها ، فجعلت أمرها إلى رسول الله ﷺ ، فزوّجها رسول الله ﷺ من زيد وساق إليهما عليه السلام عشرة مثاقيل وستّين درهما ؛ وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا ؛ وخمسين مدّا من طعام وثلاثين صاعا من تمر [1].

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ؛﴾ أي واذكر يا محمّد قولك ﴿لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام وغيره ، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ؛﴾ بالإعتاق ؛ وهو زيد ابن حارثة ؛ وقع بينه وبين امرأته زينب تشاجر ، فجاء زيد إلى النّبيّ ﷺ يشكوها بما كانت تستطيل عليه بشرفها.

فقال ﷺ لزيد على سبيل الأمر بالمعروف : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ؛﴾ امرأتك ولا تطلّقها ، ﴿وَاتَّقِ اللهَ ؛﴾ فيها ولا تفعل في أمرها ما تأثم به. قوله تعالى : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ؛﴾ خطاب للنبيّ ﷺ ، وذلك أنّ النّبيّ ﷺ أضمر في نفسه أنّه إن طلّقها زيد ، تزوّجها هو وضمّها إلى نفسه صلة لرحمها وشفقة عليها ، فعاتبه الله على ذلك وإخفائه ؛ لكي لا يكون ظاهر الأنبياء عليهم السلام إلّا كباطنهم.

وكان النبيّ ﷺ يعلم أنّهما لا يتّفقان لكثرة ما كان يجري بينهما من الخصومة ، فجعل يخفيه عن زيد ، وكان الأولى بالنبيّ ﷺ أن يدعوهما إلى الخلع فلم يفعل ، وقال له : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ خشية أنه لو خالعها ثم تزوجها النبيّ عليه السلام أن يطعن الناس عليه فيقال : تزوّج بحليلة ابنه بعد ما بيّن للناس أنّ حليلة الابن حرام على الأب ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ ؛ أي تخاف لائمتهم أن يقولوا :

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٤٢.

أمر رجلا بطلاق امرأته ثمّ نكحها. قال ابن عبّاس في هذه الآية : (أراد بالنّاس اليهود ، خشي أن يقول اليهود : تزوّج محمّد امرأة ابنه). وقوله تعالى : ﴿وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ ؛﴾ أي هو أولى بأن تخشاه في كلّ الأحوال.

وعن عليّ بن الحسن : أن سئل عن هذه الآية فقال : (كان الله تعالى قد أعلم نبيّه عليه‌السلام أنّ زينب ستكون من أزواجه ، وأنّ زيدا سيطلّقها ، فعلى هذا يكون النبي عليه‌السلام معاتبا على قوله : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ مع علمه بأنّها ستكون زوجته ، وكتمانه ما أخبره الله به ، وإنّما كتم النّبيّ صلى‌الله‌عليه‌وسلم لأنّه استحيا أن يقول لزيد : إنّ زوجتك ستكون امرأتي) (١).

وقيل : إنّ زيد بن حارثة لما أراد فراقها ، جاء إلى رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ إنّي أريد أن أفارق صاحبتي ، فقال : [ما لك؟ أرابك منها شيء؟] قال : لا والله يا رسول الله ، ما رأيت منها إلا خيرا ، ولكنّها تتعظّم عليّ لشرفها وتؤذيني بلسانها ، فقال صلى‌الله‌عليه‌وسلم : [أمسك عليك زوجك واتّق الله].

ثمّ إنّ زيدا طلّقها ، فلمّا انقضت عدّتها قال صلى‌الله‌عليه‌وسلم لزيد : [ما أجد في نفسي أحدا أوثق منك ، إذهب إلى زينب فاخطبها لي] قال زيد : فذهبت فإذا هي تخمّر عجينها ، فلمّا رأيتها عظمت في صدري ، حتّى لم أستطع أن أنظر إليها حين علمت أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ذكرها ، فولّيتها ظهري وقلت : يا زينب أبشري ؛ إنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم يخطبك ؛ ففرحت بذلك ، ونزل القرآن ﴿زَوَّجْناكَها﴾ فتزوّجها رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم فدخل بها ، وما أولم على امرأة من نسائه ما أو لم عليها ، أطعم النّاس الخبز واللّحم حتّى امتدّ النّهار (٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير : الحديث (١٧٦٩٥).

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦١٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن سعد وأحمد والنسائي وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أنس (رض)). وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١٩٢ ؛ قال القرطبي : (معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح. وترجم له النسائي : صلاة المرأة إذا خطبت واستخارت ربها).

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها ؛﴾ قضاء الوطر في اللّغة : بلوغ منتهى ما في النّفس من الشّيء ، يقال : قضى وطرا منها ؛ إذا بلغ ما أراد من حاجته فيها ، ثم صار عبارة عن الطّلاق ؛ لأنّ الرجل إنّما يطلّق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة.

وعن أنس رضي الله عنه أنّه قال : (لما انقضت عدّة زينب بنت جحش خطبها رسول الله ﷺ ، ونزل قوله تعالى ﴿زَوَّجْناكَها﴾ فجاء رسول الله ﷺ حتّى دخل عليها بغير إذن لقوله تعالى ﴿زَوَّجْناكَها﴾. وكانت زينب تفاخر نساء النّبيّ ﷺ وتقول : زوّجكنّ أهلوكنّ ، وزوّجني الله عزّ وجلّ ) [1].

ومعنى الآية : ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً﴾ وطلّقها ﴿زَوَّجْناكَها﴾. وقوله تعالى : ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ؛﴾ أي زوّجناك زينب لكيلا يظنّ أن امرأة المتبنّى لا تحلّ. والأدعياء : جمع دعيّ ؛ وهو الذي يدعى ابنا من غير ولادة.

قال الحسن : (كانت العرب تظنّ أنّ حرمة المتبنّى كحرمة الابن ، فبيّن الله «أنّ نساء» [2] الأدعياء غير محرّمة على المتبنّي وإن أصابوهنّ ، وهو قوله ﴿إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ بخلاف ابن الصّلب ، فإنّ امرأته تحرم بنفس العقد).

وقوله تعالى : ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ (٣٧) ؛ معناه : وكان تزويج النبيّ ﷺ لزينب قضاء كائنا مكتوبا في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى : ﴿ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ﴾ أي ما كان عليه من ضيق وإثم فيما شرّعه الله تعالى وأحلّه له كسنّة الله ، ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ ، أي سائر الأنبياء الماضين في التّوسعة عليهم في النّكاح ،

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١٩٣ ؛ قال القرطبي : (وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ) وذكره ، ثم قال : (أخرجه النسائي عن أنس بن مالك) وذكره. وفي مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٩١ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني من طرق ، رجال بعضها رجال الصحيح). وذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٤٣.

(٢) ما بين «» ليس في الأصل ، ويبدو أنه سقط من الأصل ؛ لأنه من مقتضى إكمال المعنى.

فقوله : ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ منصوب بنزع الخافض ، وقوله تعالى : ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ (٣٨) ؛ أي قضاء مقضيّا ، أخبر الله تعالى أن أمر زينب كان من حكم الله وقدره.

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ ؛﴾ موضع ﴿الَّذِينَ﴾ الخفض ؛ لأنه نعت الأنبياء عليهم‌السلام الذين خلوا من قبل ، كانوا يبلّغون الرسالة ، ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ ، ويخشون الله ولا يخشون أحدا سواه ، أي لا يخشون مقالة الناس ، ﴿وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً﴾ (٣٩) ؛ أي مجازيا لمن يخشاه ، وقيل : حفيظا لأعمال العباد ، مجازيا لهم.

قوله تعالى : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ؛﴾ وذلك أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم لما تزوّج زينب ، قال النّاس : إنّ محمّدا تزوّج امرأة ابنه! فأنزل الله تعالى ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ ، يعني أنّه ليس بأبي زيد حتى تحرم عليه زوجته ، ﴿وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ ؛﴾ فعظّموه وأقرّوا به [1].

قرأ الحسن وعاصم ﴿وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بفتح التاء ؛ أي آخر النّبيّين ، وقرأ الباقون بكسر التّاء على الفاعل ؛ أي إنه ختم النّبيين بالنبوّة ، ﴿وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٤٠) ؛ أي لم يزل عالما بكلّ شيء من أقوالكم وأفعالكم.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٤٢) ؛ اختلفوا في المراد بالذّكر الكثير في هذه الآية. قال الكلبيّ : (المراد به الصّلوات الخمس ، وهي تتضمّن أذكارا كثيرة ، وأراد بالتّسبيح التّنزيه في الصّلاة). وقال مجاهد : (هو أن لا ينساه أبدا). وقال مقاتل : (هو التّسبيح والتّحميد والتّهليل والتّكبير على كلّ حال ، وهو أن يقول : سبحان الله ؛ والحمد لله ؛ ولا إله إلّا الله ؛ والله أكبر. وهذه الكلمات يتكلّم بهنّ صاحب الجنابة والغائط والحدث) [2].

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٤٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ١٩٦.

(٢) قال بعضه مقاتل كما في التفسير : ج ٣ ص ٤٩ ، ونقل عنه ابن أبي حاتم بعضه كما في التفسير الكبير : ج ٩ ص ٣١٣٨ : الأثر (١٧٧٠٢).

قال ﷺ : [يقول الله تعالى : أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرّكت بي شفاهه][1].

قوله تعالى : ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ بالغداة والعشيّ ، قال الكلبيّ : (أمّا بكرة فصلاة الفجر ، وأمّا أصيلا فصلاة الظّهر والعصر والمغرب والعشاء). وقال بعضهم : أراد بذلك صلاة الصّبح وصلاة العصر على قول قتادة ، وصلاة المغرب على قول غيره. وخصّ طرفي النهار بالذّكر ؛ لأنه يجتمع عندهما ملائكة اللّيل والنهار ، فيقولون : أتيناهم وهم يصلّون ، وتركناهم وهم يصلّون. وقيل : خصّ التسبيح بطرفي النهار ؛ لأن صحيفة العبد إذا كان في أوّلها وآخرها ذكر وتسبيح يرجى أن يغفر له ما بين طرفي الصحيفة.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [ما جلس قوم قطّ يذكرون الله تعالى ، إلّا نادى منادي السّماء : أن قوموا فقد غفرت لكم ذنوبكم ، وبدّلت سيّئاتكم حسنات][2]. وقيل : معنى قوله ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ أي باللّيل والنهار ، وفي البرّ والبحر ، والسّفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصّحة والسّقم ، والسّر والعلانية ، وعلى كلّ حال. وقال مجاهد : (الكثير هو الّذي لا يتناهى أبدا) [3].

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ؛﴾ أي يرحمكم ويغفر لكم ، وقوله ﴿وَمَلائِكَتُهُ﴾ أي يدعون لكم. وقيل : يأمر الملائكة بالاستغفار لكم. والصّلاة من الله الرحمة بالثواب ، ومن المؤمنين الدّعاء ، ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : ج ٧ ص ٣٢٦ : الحديث (٦٦١٧) عن أبي هريرة (رض) ، وقال : (لم يرو هذا الحديث عن محمد بن المهاجر إلا أبو توبة). في تهذيب التهذيب : ج ١٠ ص ٥٠٠ : ترجمة كريمة بنت الحسحاس المزنية (٨٩٦٥) ؛ قال : (علق البخاري حديثها هذا في كتاب التوحيد ، وهو أحد الأحاديث المرفوعة التي لم يوصلها في الجامع) ، وقال : (رواه إسماعيل أيضا عن أم الدرداء عن أبي هريرة ، وكلاهما صحيح).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : الحديث (١٥٧٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٧٦ ؛ قال الهيثمي : (رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط وفيه ميمون المرئي وثقه جماعة وفيه ضعف وبقية رجال أحمد رجال الصحيح).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٤٥.

وقوله تعالى : ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ ؛﴾ أي من ظلمات المعاصي والجهل ﴿إِلَى النُّورِ ؛﴾ العلم والطاعة ، وقيل : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. وقوله تعالى : ﴿وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ (٤٣) ؛ أي لم يزل رحيما بهم إذ رضي عنهم وأمر الملائكة بالاستغفار لهم.

قوله تعالى : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ؛﴾ أي تحية المؤمنين من الله تعالى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أن يسلّم عليهم ، يقول لهم الملائكة بأمر الله : السّلام عليكم ؛ مرحبا بعبادي المؤمنين الّذين أرضوني في دار الدّنيا باتّباع أمري. ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾[(١)]. وقوله تعالى : ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ (٤٤) ؛ أي رزقا حسنا في الجنّة ، وقيل : الأجر الكريم هو الذي يكون عظيم القدر.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً ؛﴾ على أمّتك وعلى جميع الأمم بتبليغ الرّسالة ، ﴿وَمُبَشِّراً ؛﴾ للخلق بالجنّة والثواب لمن أطاع الله وصدّقك ، ﴿وَنَذِيراً﴾ (٤٥) ؛ أي مخوّفا بالنار والعقاب لمن عصى الله تعالى وكذبك. وقوله تعالى : ﴿وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ؛﴾ أي وأرسلناك للناس راعيا للخلق إلى دين الله تعالى بأمره ، يعني إنّه أمرك بهذا. وقوله تعالى : ﴿وَسِراجاً مُنِيراً﴾ (٤٦) ؛ أي وأرسلناك سراجا مضيئا لمن تبعك واهتدى بك ، كالسّراج في الظّلمة يستضاء به.

وإنّما سمّي النبيّ ﷺ سراجا ؛ لأنّه بعث والأرض في ظلمة الشّرك ، فكان حين بعث كالسّراج في الظّلمة. وقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ (٤٧) ؛ أراد بالفضل الكبير مغفرة الله لهم ، وما أعدّ لهم في الجنّة.

قوله تعالى : ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ ؛﴾ فيما يطلبونه منك ، فقد ذكرنا تفسيره في أوّل السّورة. وقوله تعالى : ﴿وَدَعْ أَذاهُمْ﴾ أي اصبر على أذاهم واحتمل منهم ، ولا تشتغل بمجازاتهم إلى أن تؤمر فيهم بأمر ، وهذا منسوخ بآية

---

(١) الزمر / ٧٣.

السّيف. وقوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ؛﴾ أي فوّض أمورك إليه ، فإنه سيكفيك أمرهم إذا توكّلت عليه ؛ أي توكّل عليه في كفاية شرّهم وأذاهم ، ﴿وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ (٤٨) ؛ إذا وكّلت أمرك إليه.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ؛﴾ أي إذا تزوّجتموهنّ من قبل أن تجامعوهن ، ﴿فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها﴾ ، تستوفونها بالعدد لا بالحيض ولا بالشّهور. والاعتداد هو استيفاء العدد ، أسقط الله العدّة من المطلّقة قبل الدّخول لبراءة رحمها ، فلو شاءت تزوّجت من يومها.

قوله تعالى : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ (٤٩) ؛ أي أعطوهنّ متعة الطلاق ، وهذا على سبيل الوجوب فيمن يدخل بها ولم يسمّ لها مهرا ، وعلى النّدب في من سمّى لها مهرا ثم طلّقها قبل الدّخول.

وقال سعيد بن المسيّب : (نسخ حكم هذه الآية بقوله في سورة البقرة ﴿فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ﴾[1]). وقال الحسن : (المتعة واجبة لكلّ مطلّقة ومختلعة وملتعنة ، ولكن لا يجبر عليها الزّوج) [2].

وقوله تعالى : ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أراد له التسريح عن المنزل لا عن النكاح ؛ لأن حقّ الحبس لا يثبت إلّا بأحد الأمرين : إما النكاح ؛ وإما العدّة ، وقد عدّ ما جميع في هذا الموضع بعدد الطّلاق المذكور.

والسّراح الجميل : هو الذي لا يكون فيه جفوة ولا أذى ولا منع حقّ. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ : (أي أعطوهنّ المتعة ، قال : وهذا إذا لم يكن سمّى لها صداقا ، فأمّا إذا فرض لها صداقا فلها نصف) [3].

---

(١) الآية ٢٣٧.

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٢٦ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد) وذكره بمعناه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٧٧٦). وأبن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٧٧١٧). وفي الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٢٥ ؛ عزاه السيوطي لابن المنذر أيضا.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَ﴾ أي أبحنا لك نساءك اللّاتي تزوّجتهن بمهور مسمّاة ، وأعطيت مهورهنّ ، وسمّى المهر أجرا لأنه يجب بدلا عن منافع البضع ، كما أنّ الأجر يجب بدلا عن منافع الدّار والعبد.

قوله تعالى : ﴿وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ؛﴾ أي وأبحنا لك ما ملكت يمينك ؛ يعني الجواري التي يملكها. وقوله تعالى : ﴿مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ ؛﴾ أي ممّا أعطاك الله من الغنيمة مثل جويريّة بنت الحارث ، وصفيّة بنت حييّ بن أخطب. ويدخل في هذه اللفظة الشّراء والتزوّج ، كما روي في صفيّة [أنّه عليه‌السلام أعتقها ثمّ تزوّجها ، وجعل عتقها صداقها](١).

قوله تعالى : ﴿وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ ؛﴾ أراد به إباحة تزويج بنات عمّه وبنات عمّاته من (٢) بني عبد المطّلب ، ﴿وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ﴾ ، وبنات خاله وبنات خالاته ؛ يعني نساء بني زهرة من بني عبد مناف. وقوله تعالى : ﴿اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ ؛﴾ أي هاجرن معك من مكّة إلى المدينة ، وهذا إنّما كان قبل تحليل غير المهاجرات ، ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل.

قوله تعالى : ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ ؛﴾ بلا مهر إن أراد النبيّ أن يتزوّجها ، ومن قرأ ﴿وَهَبَتْ﴾ بالفتح ، فمعناه : أحللناها أن وهبت ، وهي قراءة الحسن ، فالفتح على الماضي والكسر على الاستئناف (٣) ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها ؛﴾ أي إن أراد النبيّ أن يتزوّجها فله ذلك. وقوله تعالى :

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٢٤ ص ٥٤ : الحديث (١٨٠ ـ ١٨٢). والبخاري في الصحيح : كتاب النكاح : باب من جعل عتق الأمة صدقها : الحديث (٥٠٨٦).

(٢) في المخطوط : (عن).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٢٠٩ ؛ قال القرطبي : (وقرأ الحسن البصري وأبي بن كعب والشعبي (أن) بفتح الألف ، وقرأ الأعمش : (وامرأة مؤمنة وهبت). قال النحاس : (وكسر (إنْ) أجمع للمعاني ؛ لأنه قيل : إنهن نساء ، وإذا تفح كان على واحدة بعينها ؛ لأن الفتح على البدل من المرأة ، أو بمعنى (لأن). ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٢١٩.

﴿خالِصَةً لَكَ ؛﴾ أي خاصّة لك ، ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؛﴾ فليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير شهود ولا وليّ ولا مهر إلّا للنبيّ ﷺ ، وهذا من خصائصه في النّكاح ، كالتّخيير والعدد في النّساء.

ولو تزوّجها بلفظ الهبة وقبلها بشهود ومهر انعقد النكاح ولزم المهر ، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقال الشافعيّ ومالك : (لا ينعقد النّكاح بلفظ الهبة إلّا للنّبيّ ﷺ خاصّة ؛ لأنّه تعالى قال ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ﴾ ولم يقل لك ، لأنّه لو قال : إن وهبت نفسها لك ، كان يجوز أن يتوهّم أنّه يجوز ذلك لغيره عليه‌السلام كما جاز في قوله تعالى : ﴿وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ﴾ ، لأنّه قال تعالى ﴿خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وحجّة أبي حنيفة وأصحابه : أنّ إضافة الهبة إلى المرأة دليلا أنّ النبيّ لم يكن مخصوصا بالنكاح بلفظة الهبة ، وإنّما كانت خصوصيّة في جواز النّكاح بغير بدل ، ولو لم يكن بلفظ الهبة نكاحا لما قال تعالى ﴿إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها﴾ ، فلمّا جعل الله الهبة جوابا للاستنكاح ، علم أنّ لفظ الهبة نكاح.

وقوله ﴿خالِصَةً﴾ نعت مصدر ؛ تقديره : إن وهبت نفسها هبة خالصة لك بغير عوض ، أحللنا لك ذلك من دون المؤمنين ، فأمّا المؤمنون إذا قبلوا هذه الهبة على وجه النّكاح لزمهم المهر.

ويقال : إن الخالصة نعت للمرأة ؛ أي جعلناها خالصة لك فلا تحلّ لغيرك من بعدك.

وقد اختلفوا في هذه المرأة التي وهبت نفسها للنّبيّ من هي؟ فقال قتادة : (هي ميمونة بنت الحارث) (١). وقال الشافعيّ : (زينب بنت خزيمة ، امرأة من الأنصار ، وكانت تسمّى أمّ المساكين) (٢). وقال الضحّاك ومقاتل : (هي أمّ شريك بن جابر من

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الثر (٢١٧٩١) عن قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان : مج ١٣ ج ٢٤ ص ٢٩ من غير أن ينسبه إلى أجد.

بني أسد) [١]. وقال عروة بن الزّبير : (هي خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم) [٢].

قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ﴾ ، أي قد علمنا المصلحة للمؤمنين في أن لا يتزوّجوا أكثر من الأربع ، ولا يتزوجوا بغير مهر ولا وليّ ولا شهود. والمعنى : أوجبنا عليهم أن لا يتزوجوا أكثر من أربع بمهر وولي وشهود. وقوله تعالى : ﴿وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ ، أي وقد علمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم حتى لا يجوز لهم التزويج بالمعتقة من غير مهر ، وحتى لا يباح لهم بملك اليمين كما أبيح للنبيّ ﷺ ، فإنه كان له الصفيّ من الغنيمة ولم يكن لغيره. وقيل : معناه وما ملكت أيمانهم ممن يجوز سبيه وحربه ، فأما ما كان له عهد فلا.

قوله تعالى : ﴿لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ، أي ضيق في أمر النكاح ومنع من شيء تريده ، وهذا فيه تقديم ؛ تقديره : خالصة لك من دون المؤمنين لكيلا يكون عليك حرج ، أي أحللنا لك ما ذكرنا ؛ ليرتفع عنك الحرج والضيق. قوله تعالى : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً﴾ ، أي غفورا للنبي ﷺ في التزويج بغير مهر ، ﴿رَحِيماً﴾ (٥٠) ، به في تحليل ذلك له. وقيل : غفور لمن يستحقّ المغفرة ، رحيم بالعباد فيما يتّصل بالدّين والدنيا.

قوله تعالى : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ﴾ ، معناه : تؤخّر من تشاء من فراشك من نسائك ، وتضمّ إلى فراشك من تشاء منهن من غير حرج عليك. وهذا من خصائص النبيّ ﷺ تفضيلا له ، أبيح له أن يجعل لمن أحبّ منهنّ يوما أو أكثر ، ويعطّل من شاء منهنّ فلا يأتيها. وكان القسم واجبا على النبيّ ﷺ والتسوية بينهن ، فلما «نزلت» [٣] هذه الآية سقط الوجوب ، وصار الاختيار إليه فيهن. قال منصور عن أبي رزين : (وكان ممّن آوى عائشة وأمّ سلمة وزينب

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٧٩٥). وقاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٥١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٧٩٤).

(٣) ما بين «» سقط من المخطوط.

وحفصة رضي الله عنهنّ ، وكان يسوّي بينهنّ في القسم ، وكان ممّن أرجى سودة وجويريّة وصفيّة وأمّ حبيبة وميمونة ، وكان يقسم لهنّ ما شاء ، وكان قد أراد أن يفارقهنّ ، فقلن له : اقسم لنا ما شئت من نفسك ، ودعنا على حالنا) [١].

قوله تعالى : ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ﴾ ، معناه : إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهنّ من القسمة وتضمّها إليه ، فلا عتب عليك ولا لوم.

وقوله تعالى : ﴿ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ، أي ذلك التخيير الذي خيّرتك في صحبتهنّ أدنى إلى رضاهن إذا كان ذلك منزّلا من الله عليك ، ويرضيهنّ كلّهن بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء وإيواء. قال قتادة : (إذا علمن أنّ هذا جاء من الله لرخصة ، كان أطيب لأنفسهنّ وأقلّ لحزنهنّ) [٢].

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ، والله يعلم ما في قلوبكم من أمر النساء والميل إلى بعضهنّ ، ويعلم ما في قلوبكم من الرّضا والسّخط وغير ذلك ، ﴿وَكانَ اللهُ عَلِيماً﴾ ، بمصالح العباد ، ﴿حَلِيماً﴾ (٥١) ، على جهلهم ولا يعاقبهم بكلّ ذنب.

قوله تعالى : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ ، قال قتادة : (وذلك أنّ النّبيّ ﷺ لما خيّر نساءه فاخترن الله ورسوله ، شكر الله لهنّ فقصره الله عليهنّ وحرّم عليه سواهنّ) [٣]. وكن يومئذ تسعا : عائشة ، وحفصة ، وزينب ، وأمّ سلمة ، وأمّ حبيبة ، وصفيّة ، وميمونة ، وجويريّة ، وسودة [٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٨٠٢ و٢١٨٠٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٨١٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٨١٥).

(٤) ذكره أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٤٨. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٢١٥. وابن عادل في اللباب : ج ١٥ ص ٥٧٣.

ومعنى الآية : لا يحلّ لك من النساء سوى هؤلاء اللّاتي اخترنك ، ﴿وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ ، وليس لك أن تطلّق واحدة منهن وتزوّج بدلها. وقوله : ﴿إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ، يعني ماريّة القبطية وغيرها من السّبايا. وقوله تعالى : ﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ (٥٢) ، أي حفيظا. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : [ما مات رسول الله ﷺ حتّى حلّت له النّساء](١).

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ﴾ ، نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب ، قال أنس ابن مالك : (لما بنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ، أو لم عليها بتمر وسويق وذبح شاة ، وبعثت إليه أمّي أمّ سليم بحيس في تور من حجارة ، فأمرني رسول الله ﷺ أن أدعو أصحابه إلى الطّعام فدعوتهم ، فجعل القوم يدخلون فيأكلون ويخرجون ، ثمّ يجيء قوم آخرون فيأكلون ويخرجون ، فوضع النّبيّ ﷺ يده على الطّعام ودعا فيه ، فأكلوا حتّى شبعوا وخرجوا ، وبقيت طائفة منهم لم يخرجوا.

فقال ﷺ : [ارفعوا طعامكم] فرفعوا وخرج النّبيّ ﷺ وبقي أولئك القوم يتحدّثون في البيت فأطالوا المكث. وإنّما خرج رسول الله ﷺ لكي يخرجوا ، فمشى رسول الله ﷺ إلى جميع بيوت أزواجه ، ثمّ رجع فإذا القوم جلوس يتحدّثون في بيته ، وكان النّبيّ ﷺ شديد الحياء ، فأنزل الله هذه الآية) (٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٨٢٥) بأسانيد عن عائشة وألفاظ. وأخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٦ ص ٤١ و١٨٠ و٢٠١. والترمذي في الجامع : التفسير : باب ومن سورة الأحزاب : الحديث (٣٢١٦) ، وقال : حديث حسن صحيح. والنسائي في السنن : كتاب النكاح : باب ما افترض الله عزّ وجلّ على رسوله : ج ٦ ص ٥٦. وابن حبان في الإحسان : كتاب التاريخ : باب صفته ﷺ واخباره : الحديث (٦٣٦٦) ، وقال : (أرادت بذلك إباحة بعد حظر).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٣ ص ١٦٣. ومسلم في الصحيح : كتاب النكاح : باب زواج زينب بنت جحش : الحديث (٩٤ / ١٤٢٨). والترمذي في الجامع : التفسير : الحديث (٣٢١٨).

قال أنس : (فلمّا نزلت آية الحجاب جئت لأدخل كما كنت ، فقال ﷺ : [وراءك يا أنس]) [1].

ومعنى الآية : ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي إلا أن يدعوا إلى الضيافة أو يؤذن لكم في الدخول ، من غير أن يجتنبوا وقت الطعام فيستأذنوا في ذلك الوقت ، ثم تقعدوا انتظارا لبلوغ الطعام ونضجه.

ومعنى : ﴿غَيْرَ ناظِرِينَ﴾ أي منتظرين نضجه وإدراكه ، يقال : أنى يأني إناه ، إذا حان وأدرك ، وكانوا يدخلون بيته فيجلسون منتظرين إدراك الطعام ، فنهوا عن ذلك.

قوله تعالى : ﴿وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ ، أي فتفرّقوا ، ﴿وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ، ولا تجلسوا مستأنسين لحديث بعد أن تأكلوا ، ﴿إِنَّ ذلِكُمْ﴾ ، إنّ طول مقامكم بعد في منزل النبي عليه‌السلام ، ﴿كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ ، ﷺ ، ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ ، أن يأمركم بالخروج ، ﴿وَاللهُ﴾ ، عزوجل ، ﴿لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ ، أي لا يمنعه عن بيان ما هو الحقّ استحياء منكم ، وإن كان رسوله يفعل ذلك.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ ، أي إذا سألتم أزواج النبيّ ﷺ من متاع البيت ، فخاطبوهم من وراء الباب والسّتر ، قال مقاتل : (أمر الله المؤمنين أن لا يكلّموا نساء النّبيّ ﷺ إلّا من وراء حجاب) [2]. وعن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر : (يا رسول الله إنّه يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمّهات المؤمنين بالحجاب ، فنزلت آية الحجاب) [3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان عمر يقول : يا رسول الله احجب نساءك ، فلم يفعل حتّى نزلت هذه الآية) [4]. وعن عامر رضي الله عنه قال : (مرّ عمر رضي الله عنه على

---

(١) في مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٩٣ ؛ قال الهيثمي : (رواه أبو يعلى وفيه سلم العلوي وهو ضعيف).

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٨٣٧).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب الوضوء : باب خروج النساء إلى البراز : الحديث (١٤٦).

نساء النّبيّ ﷺ فقال لهنّ : احتجبن ؛ فإنّ لكنّ على النّساء فضلا كما أنّ لزوجكنّ على الرّجال فضلا. فلم يلبثوا إلّا يسيرا حتّى نزلت آية الحجاب).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (أمر عمر بن الخطّاب نساء النّبيّ ﷺ فقال : الحجاب ، فقالت زينب : يا ابن الخطّاب إنّك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا؟!) (1).

وقال أنس : (كنت أدخل على رسول الله ﷺ بغير إذن ، فجئت يوما لأدخل فقال : [مكانك يا بنيّ ، قد حدث بعد أن لا يدخل علينا إلّا بإذن](2).

وعن اسماعيل بن أبي حكيم (3) في قوله تعالى : ﴿فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ قال : (هذا أدب أدّب الله به الثّقلاء) (4). وقالت عائشة رضي الله عنها : (حسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم فقال : ﴿فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾(5).

قوله تعالى : ﴿ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ، أي سؤالكم إياهن المتاع من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الرّيبة. وهذا الحكم في الحجاب وإن نزل في أزواج النبي ﷺ ، فالمعنى عامّ فيه وفي غيره ، ونحن مأمورون باتباعه والاقتداء به ، إلا فيما خصّه الله به دون أمّته.

قوله تعالى : ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ ، أي ليس لكم أن تؤذوه بالدخول في منزله بغير إذنه ، ولا بالحديث مع أزواجه ولا بشيء من الأشياء ، ولا يحلّ لكم ذلك.

---

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (21833) وإسناده ضعيف ، قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج 14 ص 224.

(2) تقدم.

(3) في المخطوط : (اسماعيل بن حكيم) والصحيح : اسماعيل بن أبي حكيم ، وكما في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج 14 ص 224.

(4) اسماعيل بن أبي حكيم القرشيّ ، كان عاملا لعمر بن عبد العزيز ، توفي سنة (130) من الهجرة ، وكان قليل الحديث ؛ قال ابن عبد البر في التمهيد : (كان فاضلا ثقة ، وهو حجة فيما روى عنه جماعة من أهل العلم). ينظر : تهذيب التهذيب : الرقم (470).

(5) في الجامع لأحكام القرآن : ج 14 ص 224 ؛ قال القرطبي : (وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي) وذكره. وعلى ما يبدو أنه تحريف من ناسخ المخطوط.

قوله تعالى : ﴿وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ ، نزل في طلحة بن عبيد الله ، قال : (ينهانا محمّد ﷺ أن ندخل على بنات أعمامنا ـ يعني عائشة وهما من بني تيم بن مرّة ـ فلأن مات رسول الله ﷺ وأنا حيّ لأتزوجنّ عائشة) [1]. فحرّم الله أزواج النبي ﷺ على عامّة الناس ، وجعلهنّ كأمّهاتهم في الإكرام والتحريم. وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾ (٥٣) ، أي إنّ الذي قلتم وتمنّيتم من تزويج أزواجه بعد موته كان عند الله عظيما في الوزر والعقوبة.

قوله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ ، أي إن تظهروا قولا أو تضمروه ، فإنّ الله عالم بالظواهر والبواطن والضمائر. وقيل : معناه إن تظهروا أشياء من أمرهنّ ، يعني طلحة ، قوله تعالى : ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي تسرّونه في أنفسكم ، وذلك أنّ نفسه حدّثته بتزويج عائشة. قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٥٤) ، أي عليم بكلّ شيء من السرّ والعلانية.

فلمّا نزلت آية الحجاب قال الأباء والأبناء والأقارب : يا رسول الله ونحن أيضا نكلّمهنّ من وراء حجاب؟ فأنزل الله :

قوله تعالى : ﴿لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ﴾ ، الآية. أي لا حرج عليهن في إذن آبائهن بالدخول عليهن ، ولا في إذن الأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات.

فإن قيل : فهلّا ذكر الأعمام والأخوال؟ قيل : إنّ العمّ والخال يجريان مجرى الوالدين في الرّؤية ، وكان ذكر الأباء يتضمّن ثبات حكم الأعمام والأخوال. وقيل : إنما لم يذكر الأعمام والأخوال لكي لا يدخل أبناؤهما ، ولا يطمعا فيهن.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٥٣. ونسبة هذا القول ل (طلحة بن عبيد الله) فيه نظر ، وكنى ابن عباس رضي الله عنهما ولم يصرح بالاسم ب (بعض الصحابة) ، وفي رواية القشيري أبو نصر عبد الرحمن : (قال رجل من سادات قريش). قال ابن عطية : (لله درّ ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله) ، ينظر : الوجيز : ص ١٥٢١. ونقل القرطبي قال : (قال شيخنا الإمام أبو العباس : وقد حكى هذا القول عن بعض الفضلاء من الصحابة ، وحاشاهم عن مثله! والكذب في نقله ، وإنما يليق هذا القول بالمنافقين الجهال). الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٢٢٩.

قوله تعالى : ﴿وَلا نِسائِهِنَّ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : (يعني نساء المؤمنين ، لا نساء اليهود والنّصارى يصفن لأزواجهنّ نساء رسول الله ﷺ إن رأينهنّ). وقوله تعالى : ﴿وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ﴾ ، يعني العبيد والإماء ، قيل : حمله على الإماء أولى ؛ لأن الحرّ والعبيد يختلفان فيما يباح لهما من النّظر ، فلا يجوز للبالغين من العبيد أن ينظروا إلى شيء منهن.

قوله تعالى : ﴿وَاتَّقِينَ اللهَ﴾ ، أي واتّقين الله أن يراكنّ غير هؤلاء ، وقيل : اتّقين الله في الإذن لغير المحارم في الدخول عليكن ، ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، من أعمال العباد ، ﴿شَهِيداً﴾ (٥٥) ، لم يغب عنه شيء.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ، معناه : أنّ الله يترحّم على النّبيّ ويثني عليه ، وقوله : ﴿وَمَلائِكَتَهُ﴾ أي والملائكة يدعون له بالرّحمة ، وقوله تعالى : ﴿يُصَلُّونَ﴾ الضمير فيه يعود على الملائكة دون اسم الله تعالى ؛ لأن الله عزّ وجلّ يفرد ذكره عن ذكر غيره إعظاما كما تقدم في قوله : ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾. وقرأ ابن عباس : (وملائكته) بالرفع عطفا على محل قوله تعالى قبل دخول ﴿إِنَّ﴾ ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾[1] وقد مضى ذلك.

وقيل : معنى قوله : ﴿وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ﴾ أي يثنون ويترحّمون ويدعون له. وقال مقاتل : (أمّا صلاة الله فالمغفرة ، وأمّا صلاة الملائكة فالاستغفار له). وقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ ، أي قولوا : اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد ، تعظيما وإجلالا وتفضيلا.

وعن كعب بن عجرة قال : لما نزلت هذه الآية ، قيل : يا رسول الله كيف الصّلاة عليك؟ قال : [قولوا : اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد ، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنّك حميد مجيد ، وبارك على محمّد وعلى آل

---

(١) المائدة / ٦٩.

محمّد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد][1].

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : (إذا صلّيتم على النّبيّ ﷺ فأحسنوا الصّلاة عليه ؛ فإنّكم لا تدرون لعلّ ذلك يعرض عليه. قالوا : فعلّمنا ذلك. قال : قولوا : اللهمّ اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتّقين وخاتم النّبيّين محمّد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ورسول الرّحمة. اللهمّ ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأوّلون والآخرون. اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد) [2].

قوله تعالى : ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (٥٦) ، يجوز أن يكون معناه : واخضعوا لأمره خضوعا ، ويجوز أن يكون معناه : الدّعاء بالسلام ، يقول : السّلام عليك يا رسول الله. وعن الحسن قال : سئل النّبيّ ﷺ فقيل : يا رسول الله عرفنا السّلام عليك ، فكيف الصّلاة عليك؟ قال : [قولوا : اللهمّ اجعل صلواتك وبركاتك على محمّد وعلى آل محمّد ، كما صلّيت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد][3]. والأفضل في هذا الباب أن تصلّي على محمّد وعلى آله ، فتقول : اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد. فإنّ اقتصر على أحدهما جاز.

واختلفوا في كيفيّة وجوب الصلاة على النبي ﷺ ، فقال بعضهم : تجب في العمر مرّة واحدة بمنزلة الشهادتين ، وإلى هذا ذهب الكرخيّ قال : (إذا صلّى عليه في عمره مرّة واحدة فقد أدّى فرضه ، إلّا أنّ المستحبّ لكلّ مسلم أن يكثر من الصّلاة عليه في مقابلة حقّه في الدّين علينا ، كما يلزم المرء الدّعاء لأبويه المؤمنين ليقضي بذلك الدّعاء حقّهما عليه).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بأسانيد : الحديث (٢٦٦ ـ ٢٨١) : ج ١٩ ص ١١١ ـ ١١٦. والبخاري في الصحيح : كتاب التفسير : الحديث (٤٧٩٧). ومسلم في الصحيح : كتاب الصلاة : باب الصلاة على النبي ﷺ : الحديث (٤٠٦ / ٤٧).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٢٣٤ ؛ قال القرطبي : (وروى المسعودي ...) وذكره بإسناده. وفي كنز العمال : الحديث (٢١٩٣) عزاه للديلمي عن ابن مسعود. وقال الحافظ ابن حجر : (المعروف أنه رواه موقوف عليه ، كذا رواه).

(٣) ذكره الطبري في جامع البيان من غير إسناد : ينظر : الأثر (٢١٨٥٣).

وقال بعضهم : تجب عليه في كلّ مجلس مرّة بمنزلة سجدة التّلاوة. وقال الطحّاويّ : (تجب الصّلاة على النّبيّ ﷺ كلّما ذكر) واستدلّ بما روي أنّ جبريل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ : [من ذكرت عنده فلم يصلّ عليك فلا غفر الله له][1]. وقال الشافعيّ رضي الله عنه : (الصّلاة عليه فرض في كلّ صلاة) وهذا قول لم يقل به أحد غيره [2].

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ ، قال المفسّرون : هم المشركون واليهود والنصارى ، وصفوا الله بالولد فقالوا : عزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله ، والملائكة بنات الله ، وكذبوا رسوله وشجّوا وجهه وكسروا رباعيته ، وقالوا : مجنون ، وشاعر ، وساحر كذاب. قال ﷺ : [ما من أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى ، جعلوا له ندّا وجعلوا له ولدا ، وهو مع ذلك يعافيهم ويعطيهم ويرزقهم][3] وكذلك قالت اليهود : يد الله مغلولة ، وقالوا : إن الله فقير.

ومعنى : يؤذون الله ، أي يخالفون أمر الله ويعصونه ويصفونه بما هو منزّه عنه ، والله تعالى لا يلحقه أذى. وقوله تعالى : ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أي باعدهم الله يعني بالقتل والجلاء في الدّنيا ، والعذاب بالنار في الآخرة ، وهو قوله تعالى : ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾ (٥٧) ، أي ذي هوان.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ ، أي يرمونهم بما ليس فيهم ، قال قتادة والحسن : (إيّاكم وإيذاء المؤمن ؛ فإنّ الله يغضب له ويؤذي من آذاه) [4]. وعن عبد الرحمن بن سمرة [5] قال :

---

(١) أخرجه ابن حبان في الإحسان : كتاب الرقائق : باب الأدعية : الحديث (٩٠٧).

(٢) أدرج الناسخ كعادته عبارة : (كذا في تفسير عبد الصمد). وقد تقدم ذكره.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٨٦٠) عن قتادة. وذكره الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٨ ص ٦٣ عنهما. وفي الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٥٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم).

(٥) عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أسلم يوم الفتح ، يقال : اسمه عبد كلال ، وقيل غير ذلك ، فسماه

خرج النّبيّ ﷺ على أصحابه فقال : [رأيت اللّيلة عجبا ، رأيت رجالا معلّقون بألسنتهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ فقال : هؤلاء الّذين يرمون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا].

قوله تعالى : ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (٥٨) ، أي فقد قالوا كذبا وجنوا على أنفسهم وزرا وعقوبة.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ ، أي قل لنسائك وبناتك والحرائر من النساء يلقين على رؤوسهن ووجوههنّ من جلابيبهن ، والجلباب : هو المقنعة التي تستر بها المرأة ما يظهر من العنق والصدر ، وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة.

قال المفسّرون : يغطّين رؤوسهن ووجوههن إلا عينا واحدة. وظاهر الآية يقتضي أن يكنّ مأمورات بالسّتر التام عند الخروج إلى الطّرق ، فعليهن أن يستترن إلا بمقدار ما يعرفن به الطريق.

وقوله تعالى : ﴿ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٥٩) ، معناه : ذلك أقرب أن يعرفن الحرائر من الإماء فلا يؤذي الحرائر ؛ لأن الناس كانوا يومئذ يمازحون الإماء ولا يمازحون الحرائر ، وكان المنافقون يمازحون الحرائر ، فإذا قيل لهم في ذلك ، قالوا : حسبنا أنّهن إماء. فأمر الله الحرائر بهذا النوع من السّتر قطعا لأعذار المنافقين.

وعن عمر رضي الله عنه : أنّه كان يضرب الإماء ويقول : (اكشفن رؤوسكنّ ولا تتشبّهن بالحرائر) [(١)]. ومرّت جارية بعمر رضي الله عنه متقنّعة ، فعلاها بالدرّة وقال : (يا لكاع ، أتتشبّهين بالحرائر ، ألقي القناع) [(٢)].

---

. النبي ﷺ عبد الرحمن ، سكن البصرة ، وهو الذي افتتح سجستان وكابل وغيرها ، وشهد غزوة مؤتة ، توفي سنة خمسين من الهجرة. ينظر : تهذيب التهذيب : الرقم (٣٩٩٥) : ج ٥ ص ١٠٢.

(١) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٦٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي قلابة رضي الله عنه) وذكره.

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٦٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه) وذكره.

ويقال في معنى ذلك : ﴿أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ أي أقرب إلى أن يعرفن بالسّتر والصلاح ؛ فييئس منهن فسّاق الرّجال ، فلا يطمعون فيهن كطمعهم فيمن تتبرّج وتتكشّف.

قوله تعالى : ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ ، أي لإن لم ينته المنافقون عن نفاقهم ، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ، يعني الفجور وهم الزّناة وضعفاء الدّين عن أذى المؤمنين ، ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ، وهم قوم كانوا يوقعون الأخبار بما يكره المؤمنون ، ويقولون : قد أتاكم العدوّ ، ويقولون لسراياهم : أنهم قتلوا وهزموا ، يخيفون المؤمنين بذلك. لئن لم ينتهوا عن هذه الأفعال القبيحة ، ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ ، أي لنسلطنّك عليهم ، ونأمرك بقتلهم حتى تقتلهم وتخلو منهم المدينة ، وهو قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلاً﴾ (٦٠) ، أي في المدينة ، والمعنى : لا يساكنونك في المدينة إلا يسيرا حتى يهلكوا ، ﴿مَلْعُونِينَ﴾ ، مطرودين مبعدين عن الرّحمة ، ﴿أَيْنَما ثُقِفُوا﴾ ، أي أينما وجدوا وأدركوا.

قوله تعالى : ﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الحال ، وقيل : على الذمّ ، وتقدير النصب على الحال : لا يجاورونك إلا وهم ملعونون مطرودون مخذولون.

وقوله تعالى : ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ (٦١) ، أي أخذوا وقتلوا مرّة بعد مرّة ؛ لأنه إذا ظهر أمر المنافقين كانوا بمنزلة الكفّار ، ومن حقّ الكفار أن يقتلوا حيث يوجدون. قال قتادة : (أراد المنافقون أن يظهروا ما في قلوبهم من النّفاق ، فلمّا وعدهم الله في هذه الآية فكتموه) [١].

قوله تعالى : ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ ، أراد بالسّنة الطريقة التي أمر الله بلزومها واتباعها ، وقد كانت هذه السّنة في الأمم الماضية ، لما آذى المنافقون أنبياءهم ، أمر الله أنبياءه بقتالهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٨٧٢).

قال الزجّاج : (سنّ الله في الّذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا) [1] ولا يبدّل الله سنّته فيهم ، وهو قوله تعالى : ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (٦٢) ، أي هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق.

قوله تعالى : ﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ ، قال الكلبيّ : (سأل أهل مكّة النّبيّ ﷺ عن السّاعة وعن قيامها) فقال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ ، أي قل لهم يا محمّد : إنّما العلم بوقت قيامها عند الله ، لا يطلع أحدا عليها. وقوله تعالى : ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ (٦٣) ، أي أيّ شيء يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها ، أي أنت لا تعرفه ، ثم قال : ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾.

وما بعد هذه الآية : ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ (٦٥) ، ظاهر المعنى.

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ، أي تقلّب وجوه الكفار ظهر البطن ، وقيل : تقلّب إلى سواد ، وقيل : تقلّب إلى الأقفية.

وقرأ أبو جعفر : (تقلّب) بفتح التاء بمعنى تتقلّب. وقرأ عيسى بن عمر : (نقلّب) بالنون وكسر اللام (وجوههم) بالنصب. وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ (٦٦) ، في الدّنيا.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (٦٧) أي صرفونا عن الدّين وعن سبيل الهدى. قرأ الحسن وابن عامر ويعقوب : (ساداتنا) بالألف وكسر التاء على جمع الجمع.

قوله تعالى : ﴿رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ﴾ ، أي عذّبهم مثلي عذابنا ، فيكون ضعف على كفرهم وضعف على دعائهم لنا إلى الضلال. وقوله : ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (٦٨) ، قرأ عاصم ﴿كَبِيراً﴾ بالباء ؛ أي عظيما ، وقرأ الباقون بالثاء من الكثرة ، وإنما اختاروا الكثرة لقوله : ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [2] وقوله

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ١٧٩.

(٢) البقرة / ١٥٩.

تعالى : ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] فهذا يشهد للكثرة.

حدثنا محمّد بن الحسن العسقلاني ، قال : (سمعت محمّد بن السري يقول : رأيت في المنام كأنّي في مسجد عسقلان ، وكأنّ رجلا يناظرني ويقول : ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ وأنا أقول : (كثيرا). وإذا بالنبيّ ﷺ فدخل علينا المسجد ، وكان في وسط المسجد منارة لها باب ، وكان النبيّ ﷺ يقصدها.

فقلت : هذا النبيّ ﷺ ، فقلت : السّلام عليك يا رسول الله استغفرلي. فأمسك عنّي ، فجئته عن يمينه فقلت : يا رسول الله استغفر لي ، فأعرض عني ، فقمت من تلقاء صدره ، حدّثنا سفيان بن عيينة عن محمّد بن المنكدر وعن جابر بن عبد الله : [أنّك ما سئلت شيئا قط فقلت لا] فتبسّم عليه‌السلام وقال : [اللهم اغفر له]. فقلت : يا رسول الله إني وهذا نتكلّم في قوله تعالى : (والعنهم لعنا كثيرا) ، فأنا أقول : (كثيرا) وهذا يقول : ﴿كَبِيراً﴾ ، قال : فدخل النبيّ ﷺ المنارة وهو يقول : كثيرا ، كثيرا ، بالثاء إلى أن غاب عني صوته) [2].

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا﴾ ، أي لا تكونوا في أذى محمّد ﷺ كبني إسرائيل ، الذين آذوا موسى بعيب أضافوه إليه ، فبرّأه الله مما قالوا عليه ، ﴿وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾ (٦٩) ، أي رفيع القدر والمنزلة.

واختلفوا في العيب الذي أضافه بنوا إسرائيل إلى موسى ، قال بعضهم : كان هارون أحبّ إلى بني إسرائيل من موسى لزيادة رفقه بهم ، فلما مات هارون في حال غيبتهما عنهم ، قالوا : إنّ موسى قتله لتخلص له النّبوة ، فأحياه الله تعالى حتى كذبهم.

وقال بعضهم : كان أذاهم له أنهم رموه بالأدرة لكثرة حيائه واستتاره عن الناس ، وكانت بنوا إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوءة بعض ، وكان

---

(١) البقرة / ١٦١.

(٢) ذكر القصة أيضا بإسناده الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٨ ص ٦٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٣ ص ٢٥٠ مختصره.

موسى يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر [1].

قال : فذهب يغتسل مرّة ، فوضع ثوبه على حجر ، فذهب الحجر بثوبه ، فخرج موسى من الماء في إثر الحجر ، يقول : ثوبي يا حجر ، حتى نظرت بنوا إسرائيل إلى سوأته عليه السلام ، فقالوا : والله ما به من بأس. فقام الحجر بعد ما نظروا إليه وأخذ ثوبه ، فطفق بالحجر ضربا. قال أبو هريرة : [والله إنّ بالحجر ندب ستّة أو سبعة من ضرب موسى][2].

قوله تعالى : ﴿وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾ أي حظيّا لا يسأله شيئا إلا أعطاه.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ ، أي اتّقوا عذاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ (٧٠) ، قال ابن عباس : (صوابا) ، وقال الحسن : (صادقا) يعني كلمة التوحيد : لا إله إلّا الله.

وقوله تعالى : ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ ، قال ابن عبّاس : (معناه : يتقبّل حسناتكم) ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ، بسداد قولكم ، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (٧١) ، أي فقد نال الخير كلّه وظفر به ، والفوز العظيم هو الظّفر بالكرامة والرضوان من الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ﴾ ، معناه : إنا عرضنا الأمانة التي هي الشرائع والفرائض التي يتعلّق بأدائها الثواب وبتركها العقاب. قال ابن عباس : (عرضت الأمانة على السّموات السّبع الّتي زيّنت بالنّجوم وحملت العرش العظيم ، فقيل لهنّ بأخذ الأمانة بما فيها ، قلن : وما فيها ، قيل : إن أحسنتنّ جزيتنّ ، وإن أسأتنّ عوقبتنّ ، قلن : لا. ثمّ عرضت الأمانة على الجبال الصّمّ الشّوامخ الصّلاب البواذح) [3] ، ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها﴾. قال

---

(١) قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم : (آدر : هو بهمزة ممدودة ثم دال مهملة مفتوحة ثم راء مخففتين ، قال أهل اللغة : هو عظيم الخصيتين). المجلد الثاني : ص ٢٧٢.

(٢) أصل هذا القول حديث أبي هريرة كما في الصحيحين ، أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب الغسل : باب من اغتسل عريانا وحده : الحديث (٢٧٨). ومسلم في الصحيح : كتاب الحيض : باب جواز الاغتسال عريانا : الحديث (٧٥ / ٣٣٩).

(٣) البذح : الشّقّ ، وفي رجل فلان بذوح ؛ أي شقوق. ينظر : لسان العرب : (بذح) : ج ١ ص ٣٥٠.

ابن جريج : (قالت السّماء : يا رب خلقتني وجعلتني سقفا محفوظا ، وأجريت فيّ الشّمس والقمر والنّجوم ، لا أعمل فريضة ولا أبتغي ثوابا. وقالت الأرض : يا رب جعلتني بساطا ومهادا ، وشققت فيّ الأنهار ، وأنبتّ فيّ الأشجار ، لا أتحمّل فريضة ولا أبتغي ثوابا ولا عقابا) (١).

ومعنى قوله : ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها﴾ أي مخافة وخشية لا معصية ولا مخالفة ، والعرض كان تخييرا لا إلزاما ، قوله : ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْها﴾ أي خفن من الأمانة أن لا توفّيها ، فيلحقهنّ العقاب ، فأبوا ذلك تعظيما لدين الله وخوفا أن لا يقوموا به ، وقالوا : نحن مسخّرات لأمرك لا نريد ثوابا ولا عقابا.

قوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (٧٢) ، يعني : وحملها آدم عليه‌السلام قال الله له : يا آدم إني عرضت الأمانة على السّموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ولم يطقنها ، فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال : يا رب وما فيها؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت. فتحمّلها آدم ، وقال : حملتها بين أذنيّ وعاتقي.

قال ابن عباس : (عرض الله على آدم أداء الصّلوات الخمس في مواقيتها ، وأداء الزّكاة عند محلّها ، وصيام رمضان ، وحجّ البيت ، على أنّ له الثّواب وعليه العقاب ، فقال : بين أذنيّ وعاتقي) (٢).

وقال مقاتل : (قال الله تعالى لآدم : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حقّ رعايتها؟ فقال آدم : وما لي عندك؟ قال : إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة ، فلك الكرامة وحسن الثّواب في الجنّة ، وإن عصيت وأسأت معذّبك ومعاقبك. قال : قد رضيت يا رب ، وتحمّلها. فقال الله عزوجل : قد حمّلتكها. فذلك قوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣١٥٩ : الرقم (١٧٨١٣).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان بأسانيد : الرقم (٢١٨٩٥).

قال الكلبيّ : (ظلمه حيث عصى ربّه وأخرج من الجنّة ، وجهله حيث تحمّلها). وقال مقاتل : (ظلوما لنفسه ، جهولا بعاقبة ما حمّل) [١]. وقال مجاهد : (لما خلق الله السّموات والأرض والجبال ، عرضت الأمانة عليها فلم تقبلها ، فلمّا خلق الله آدم عرضها عليه فقال : قد تحمّلتها يا رب. قال مجاهد : فما كان بين أن تحمّلها وبين أن أخرج من الجنّة إلّا قدر ما بين العصر والظّهر) [٢].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : (إنّ الله قال لآدم : إنّي عرضت الأمانة على السّموات والأرض فلم يطقنها ، فهل أنت حاملها بما فيها؟ قال : يا رب وما فيها؟ قال : إن حفظتها أجرت ، وإن ضيّعتها عوقبت ، قال : قد تحمّلتها. فما بقي في الجنّة إلّا كقدر ما بين الظّهر والعصر حتّى خرج منها) [٣].

وقال زيد بن أسلم : (الأمانة هي الصّوم والغسل من الجنابة) ، وقال بعضهم : (هي أمانات النّاس والوفاء بالعهود ، فحقّ على كلّ مؤمن أن لا يغشّ مسلما في شيء لا قليل ولا كثير).

وقال السديّ : (هي ائتمان آدم ابنه قابيل على أهله وولده ، وذلك أنّ آدم عليه السلام لما أراد أن يحجّ إلى مكّة ، قال : يا سماء احفظي أولادي بالأمانة ، فأبت. وقال للأرض كذلك ، فأبت. وقال للجبال كذلك ، فأبت. ثمّ قال لابنه قابيل : أتحفظهم بالأمانة؟ قال : نعم ، تذهب وترجع فتجد أهلك كما يسرّك. فانطلق آدم ورجع وقد قتل قابيل هابيل ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ يعني قابيل حين حمل أمانة أبيه ثمّ لم يحفظها) [٤].

قوله تعالى : ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ﴾ ، أي ليعذبهم الله بما خانوا الأمانة وكذبوا الرّسل ، ونقض الميثاق

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٥٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣١٦٠ : الرقم (١٧٨١٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٨٩٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٩٠٥) مطولا ، والأثر (٢١٩٠٦) مختصرا.

الذي أقرّوا به حين أخرجوا من ظهر آدم. قال الحسن : (هؤلاء الّذين خانوها ، وهم الّذين ظلموها).

قوله تعالى : ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ ، لأنّهم أدّوا الأمانة ، وهي الفرائض. وقيل : معنى الآية : إنّا عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق ، وشرك المشرك فيعذّبهم الله ، ويظهر إيمان المؤمنين فيتوب الله عليهم ، أي يعود عليهم بالمغفرة والرّحمة إن حصل منهم تقصير في بعض الطاعات ، وكذلك ذكر بلفظ التوبة ، فدلّ على أن المؤمن العاصي خارج من العذاب ، ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً﴾ ، للمؤمنين إذا تابوا ، ﴿رَحِيماً﴾ (٧٣) ، بمن مات على التوبة.

**آخر تفسير سورة (الأحزاب) والحمد لله رب العالمين.**

## سورة سبأ

سورة سبأ مكّيّة ، وهي ألف وخمسمائة واثنى عشر حرفا ، وثمانمائة وثلاثون كلمة ، وخمس وخمسون آية.

قال ﷺ : [من قرأ سورة سبأ لم يبق نبيّ ولا رسول إلّا كان يوم القيامة له رفيقا ومصافحا](١).

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ؛﴾ الحمد : الوصف بالجميل على جهة التّعظيم ، وقوله تعالى : ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ المعنى : له ما في السموات والأرض ملكا وخلقا ، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ؛﴾ أي يحمده أهل الآخرة على دوام نعمه عليهم كما يحمده أهل الدّنيا ، ولكنّ الحمد في الدّنيا تعبّد ، وفي الآخرة شكر على سبيل السّرور ؛ لأنه لا يكلّف في الآخرة ، يقول أهل الآخرة : الحمد لله الّذي صدقنا وعده ، والحمد لله الّذي هدانا لهذا ، والحمد لله الّذي أذهب عنّا الحزن والنّقم في الدّارين كلّها منه. قوله : ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١) ؛ أي الحكيم في أفعاله ، الخبير بأحوال عباده.

وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها ؛﴾ أي ما يدخل في الأرض ويغيب فيها من المطر والحيوانات من الميتة ، ويعلم ما يخرج منها من أنواع النّبات والزّروع وغير ذلك مما لا يعلمه إلّا هو ، ويعلم ﴿وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ؛﴾ من الأمطار التي هي سبب أرزاق العباد ، ويعلم ﴿وَما يَعْرُجُ ؛﴾

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٥٧٦. وأخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب.

في السّماء ؛ أي من يصعد ، ﴿فِيها ؛﴾ من الملائكة الحفظة لديوان العباد ، وما يرتفع فيها من الرّياح والحرّ والبرد ، ويعلم ما يصعد فيها من أعمال العباد. يقال : عرج يعرج ؛ إذا صعد ، وعرج يعرج إذا صار أعرجا.

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢) ؛ أي الرّحيم بعباده ، الغفور لمن استحقّ المغفرة.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ؛﴾ أي قال الكفّار : لا تأتينا القيامة ، ﴿قُلْ ؛﴾ لهم يا محمّد : ﴿بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ؛﴾ على ما أخبر الله تعالى ، ﴿عالِمِ الْغَيْبِ.﴾

قرأ حمزة والكسائيّ ﴿عالِمِ الْغَيْبِ﴾ بخفض الميم على وزن فعال على المبالغة ، كقوله : علّام الغيوب ، وقرأ نافع وابن عامر : (عالم) برفع الميم على تقدير : هو عالم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم ﴿عالِمِ﴾ بالكسر نعت لقوله ﴿وَرَبِّي﴾[1].

قوله تعالى : ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ ؛﴾ أي لا يغيب عنه ولا يبعد عليه معرفة وزن ذرّة ، ﴿فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ وخصّ الذرّة بالذّكر لأنّها أصغر شيء يدخل في أوهام البشر ، وهذا مثل ؛ لأنه سبحانه لا يخفى عليه ما هو دون الذرة ، والمعنى : الله يعلم كلّ شيء دقّ أو جلّ. قوله تعالى : ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ (٣) ؛ الكتاب المبين في هذه الآية هو اللّوح المحفوظ.

وقوله : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤) ؛ معناه : لتأتينّكم الساعة ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات على أعمالهم بالمغفرة والرّزق الكريم ؛ أي الثواب الحسن في الجنّة.

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ ؛﴾ أي سعوا فيها بعد ظهورها ووضوحها بالتكذيب لها والجحود بها ، مقدّرين أنّهم سيفوتوننا ، ويعاجزون

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٣ ص ٣٥١.

الرسول ﷺ ، ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (٥) ؛ من عذاب مؤلم ، والرّجز : أسوأ العذاب.

قرأ ابن كثير ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع على نعت العذاب ، وقرأ الباقون بالخفض على نعت الرّجز.

قوله تعالى : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٦) ؛ أوّل هذه الآية عطف على قوله ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أي ولكي يعلم الّذين أوتوا العلم الّذي أنزل إليك من ربك وهو القرآن وآيه يهدي إلى صراط العزيز بالنّقمة لمن لا يؤمن به ، الحميد لمن وحّده ، أي يهدي إلى دين الله.

وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب. وقال قتادة : (يعني أصحاب رسول الله ﷺ) [1]. وقوله ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ إنّما دخلت ﴿هُوَ﴾ في هذا الموضع للفصل عند البصريّين ، ويسمّى ذلك عمادا ، ولا يدخل العماد إلّا في المعرفة ، قال الشاعر :

ليت الشّباب هو الرّجيع على الفتى والشّيب كان هو البدئ الأوّل [2]

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٧) ؛ أي قال الكفّار على وجه التّعجّب والإنكار ؛ أي قال بعضهم لبعض : هل ندلّكم على رجل يعنون محمّدا ﷺ يزعم أنّكم تبعثون بعد أن تكونوا عظاما ورفاتا! وذلك قوله تعالى : ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي يقول لكم بليتم وتقطّعت أجسامكم واندرست آثاركم تعودون. وقوله تعالى ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي إذا تفرّقتم في الأرض وتفرّقت العظام والجلود كلّ تفريق ، ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي نجدّد خلقكم بأن تبعثوا.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٩١٩).

(٢) ذكره الفراء في معاني القرآن : ج ٢ ص ٣٥٢.

وقوله تعالى : ﴿أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً ؛﴾ هذا من قول الكفّار بعضهم لبعض ؛ قالوا : افترى محمّد على الله كذبا حين زعم أنّا نبعث بعد الموت! ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ؛﴾ أي جنون ، يقولون : زعم كذبا أم به جنون.

فردّ الله عليهم مقالتهم بقوله : ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ (٨) ؛ أي ليس الأمر على ما قالوا من افتراء وجنون ، كأنه قال : لا هذا ولا ذاك ، ولكنّ الذين لا يؤمنون بالبعث في الآخرة ، والخطأ البعيد في الدّنيا.

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ معناه : إنّ سماءنا محيطة بهم والأرض حاملة لهم ، ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ؛﴾ هذه ، ﴿الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ﴾ تلك ، ﴿كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ فما يحذرون هذا فيرتدعون عن التكذيب بآياتنا.

والمعنى : أنّ الإنسان حيث ما نظر رأى السماء فوقه ، والأرض قدّامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ، فكأنه تعالى قال : إنّ أرضي وسمائي محيطة بهم ، وأنا القادر عليهم ، إن شئت خسفت بهم ، وإن شئت أسقط عليهم قطعة من السماء.

قرأ حمزة والكسائي وخلف : (إن يشأ) و (يخسف) و (يسقط) في ثلاثتها بالياء لذكر الله تعالى قبله ، وقوله تعالى ﴿أَفْتَرى﴾ ألف استفهام دخلت على ألف الوصل فلذلك سقطت.

وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٩) ؛ أي إنّ فيما ذكر من منيعه وقدرته وفيما ترون من السّماء والأرض لعلامة تدلّ على قدرة الله تعالى على البعث ، وعلى من يشاء من الخسف بهم ، لكلّ عبد أناب إلى الله ورجع إلى طاعته وتأمّل ما خلق. قال الحسن : (المنيب : الرّاجع إلى الله تعالى بقلبه وقوله وفعله ، فإذا نوى نوى لله ، وإذا قال لله ، وإذا عمل عمل لله) [1].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٢٦٤ ؛ قال القرطبي : (أي تائب رجّاع إلى الله بقلبه ، وخص المنيب بالذكر ؛ لأنه المنتفع بالفكرة في حجج الله وآياته).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً ؛﴾ يعني النبوة والكتاب والملك. قوله تعالى : ﴿يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ؛﴾ أي سبحي معه إذا سبّح ، فكان داود عليه السلام إذا سبّح سبّحت الجبال معه حتى يسمع صوت تسبيحها. وقرئ (أوبي معه) أي عودي في التّسبيح معه كلّما عاد فيه.

وقال القتيبيّ : (أصله من التّأويب ، وهو السّير باللّيل كلّه ، كأنّه أراد ادني النّهار كلّه بالتّسبيح معه). وقيل : تسير معه كيف شاء.

وقوله ﴿وَالطَّيْرَ﴾ ، قرأ العامة بالنصب ، وله وجوه ؛ أحدها : بالفعل ؛ تقديره : وسخّرنا له الطير ، تقول : أطعمته طعاما وماء أي وسقيته ماء. والثاني : بالنّداء ، يعني بالعطف على موضع النداء ، لأنّ موضع كلّ منادى النصب. والثالث : بنزع الخافض ، كأنه قال : أوّبي معه الطّير ، كما يقال : لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها ؛ أي مع فصيلها. وقرأ يعقوب (والطّير) بالرفع عطفا على الجبال. وقيل : على الابتداء ، قال الشاعر :

ألا يا زيد والضّحّاك سيرا      فقد جاوزتما خمر الطّريق

يروى هذا البيت بنصب (الضّحّاك) ورفعه [1].

وقوله تعالى : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (١٠) ؛ أي جعلنا له الحديد ليّنا يضربه كيف شاء من غير نار ولا مطرقة ، وكان عنده مثل الشّمع والطين المسلول والعجين. قوله تعالى : ﴿أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ ؛﴾ أي قلنا له اعمل دروعا واسعات تامّات يجرّها لابسها على الأرض ، فكان داود عليه السلام أوّل من عمل الدّروع ، والسّابغ : هو الذي يغطّي كلّ ما على الرجل حتى يفضل ، فكان داود يبيع كلّ درع بأربعة آلاف ، فيأكل ويطعم عياله ويتصدّق على الفقراء والمساكين.

قوله تعالى : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ؛﴾ أي اجعل حلق الدّرع متتابعة متناسقة بعضها إلى بعض على مقدار معلوم لا يتفاوت على وجه ، ولا تنفذ فيه السّهام ولا

---

(١) الخمر : بالتحريك : ما يسترك من شجر وغيرها. قاله الفراء في معاني القرآن : ج ٣ ص ٣٥٥.

السّنان. يقال : سرد الكلام يسرده إذا ذكره بالتأليف على وجه تحصل به الفائدة ، ومن هذا يقال لصانع الدّروع : سرّاد وزرّاد. والسّرود والزّرد للوصل.

وقال بعضهم : السّرد سمرك طرفي الحلق ؛ أي لا تجعل المسامير دقاقا فتنغلق ، ولا غلاظا فتكسر الحلق ، واجعل ذلك على قدر الحاجة. والقول الأول أقرب إلى الآية ، لأن الدروع التي عملها داود كانت بغير المسامير ؛ لأنه كانت معجزة.

قوله تعالى : ﴿وَاعْمَلُوا صالِحاً ؛﴾ أي قال الله لآل داود : اعملوا صالحا فيما بينكم وبين ربكم ، ﴿إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١) ؛ من شكر وطاعة.

قوله تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ ؛﴾ أي وسخّرنا لسليمان الرّيح كانت تحمل سريره فتذهب في الغدوّ مسيرة شهر ، وترجع في الرّواح مسيرة شهر.

قال الفرّاء : (نصب ﴿الرِّيحَ﴾ على المفعول ؛ أي وسخّرنا لسليمان الرّيح) (١). وقرأ عاصم (الرّيح) بالرفع على معنى : وله تسخير الرّيح ، والمعنى أنّ الريح كانت تسير في اليوم مسيرة شهرين للرّاكب المسرع.

قوله تعالى : ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ؛﴾ أي أذبنا له عين النّحاس ، فسالت له ثلاثة أيّام كما يسيل الماء ، وإنّما انتفع الناس بما أخرج الله لسليمان ، وكان قبل سليمان لا يذوب. والقطر هو الرّصاص.

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛﴾ أي وسخّرنا له من الجنّ ﴿مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من القصور والبنيان ، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا ؛﴾ أي من يمل من الشّياطين عن أمرنا الذي أمرناه من الطاعة لسليمان ، ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢) ؛ أي من عذاب النّار الموقدة. وقيل : إنّ الله تعالى وكّل ملكا بيده سوط من نار ، فمن زاغ منهم من طاعة سليمان ضربه ضربة أحرقته.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن : ج ٣ ص ٣٥٦.

قوله تعالى : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ ؛﴾ أي يعملون لسليمان ما يشاء ﴿مِنْ مَحارِيبَ﴾ أي مساجد ، كان هو والمؤمنون يصلّون فيها. ويقال : أراد بالمحاريب الغرف والمواضع الشريفة ، يقال لأشرف موضع في الدار محراب ، والمحراب مقدّم كلّ مسجد ومجلس وبيت.

وقوله تعالى ﴿وَتَماثِيلَ﴾ أي تماثيل كلّ شيء ، يعني صورا من نحاس وزجاج ورخام ، كانت الجنّ تعملها ، وكانوا يصوّرون له الأنبياء والملائكة في المسجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة ، وهذا يدلّ على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان ، ثم صار حراما في شريعة نبيّنا محمّد ﷺ كما روي في الحديث : [إنّ الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة](١). وروي : [لعن الله المصوّرين بما صوّروا](٢).

قوله تعالى : ﴿وَجِفانٍ كَالْجَوابِ ؛﴾ الجفان جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة من الصّفر. وقوله ﴿كَالْجَوابِ﴾ أي كالحياض العظام ، فهي كحياض الإبل ، والجواب جمع الجابية ، وسمّي الحوض جابية ؛ لأنّه يجبي الماء ؛ أي يجمعه ، والجباية جمع الماء. يقال : إنه كان يجتمع على جفنة واحدة ألف رجل يأكلون بين يديه.

قوله تعالى : ﴿وَقُدُورٍ راسِياتٍ ؛﴾ أي ثابتات عظام من الحجر كالجبال لا ترفع من أماكنها ، ولكن يوقد تحتها حتى ينطبخ ما فيها من الأطعمة فيأكل منها الألوف ، وكانت هذه الأعمال التي يعملونها معجزة لسليمان عليه‌السلام.

وقوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً ؛﴾ أي قلنا لهم : اعملوا بطاعة الله شكرا له على هذه النّعم التي منّ بها عليكم. وقيل : انتصب قوله ﴿شُكْراً﴾ على المصدريّة. وقوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١٣) ؛ أي قليل من عبادي من يشكر لي ؛ لأن الشّاكرين وإن كثروا فقليل في جنب من لم يشكر.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب اللباس : باب من كره القعود عند الصور : الحديث (٥٩٥٨). ومسلم في الصحيح : كتاب اللباس : باب تحريم تصوير صورة الحيوان : الحديث (٨٥ / ٢١٠٦). وأبو داود في السنن : كتاب اللباس : باب في الصور : الحديث (٤١٥٥).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٢٢ ص ٩٥ : الحديث (٢٩٦ ، وص ٩٦ : الحديث (٢٩٨) مختصرا.

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ؛﴾ وذلك أنّ سليمان عليه‌السلام كان يعتاد طول القيام في الصّلاة ، وكان إذا أعيا اتّكأ على عصاه ، فاتّكأ ذات يوم على عصاه ، فقبض الله روحه ، فبقي على تلك الحالة سنة ، والعملة في أعمالهم يعملون كما هم ولم يجترئ أحد أن يدنو منه هيبة له.

وقوله ﴿ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ دابّة الأرض هي الأرضة التي تأكل الخشب ، وقوله تعالى ﴿مِنْسَأَتَهُ﴾ أي عصاه التي كان يتّكئ عليها.

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ (١٤) ؛ أي فلمّا سقط سليمان لتآكل المنسأة ، تبيّن الجنّ للإنس ؛ أي ظهروا أنّهم لا يعلمون الغيب ، فلو علموا ما عملوا له سنة وهو ميّت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ أي في العذاب من أعمالهم الشاقّة التي كانوا يعملونها في بناء بيت المقدس وغيره ، فلمّا علموا بموته لسقوط العصا تركوا الأعمال.

ثم أن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطّعام لآتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب لآتيناك بأطيب الشراب ، ولكنّا سننقل إليك الطين والماء ، فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ، فما رأيتموه من الطّين في جوف الخشب فهو مما ينقله الشياطين إليها شكرا لها!

وسميت العصا منسأة لأنه ينسأ بها الغنم وغيره ؛ أي يؤخّر ويطرد ، يقال : أنسأ الله في أجله ؛ أي أخّر الله في أجله. وأكثر القرّاء يقرأون ﴿مِنْسَأَتَهُ﴾ بالهمزة ، وقرأ أبو عمرو ونافع بترك الهمزة ، وهما لغتان.

وقوله تعالى ﴿أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ أي ظهر أمرهم. وقيل : في موضع النصب تقديره : علمت وأيقنت الجنّ ﴿أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ ، وكان الإنس قبل هذا يظنّون أن الشّياطين يعلمون السّرّ يكون بين اثنين ، فظهر لهم يومئذ أنّهم لا يعلمون ذلك.

قال أهل التّاريخ : كان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ، ومدّة ملكه أربعون سنة ، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه ، وكان عمر داود مائة وأربعون سنة [1].

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ؛﴾ قال فروة بن مسيك : أتيت رسول الله ﷺ فسألته عن سبأ ما هو؟ فقال : [رجل من العرب أولد عشرة أولاد ، تيامن منهم ستّة ، وتشامّ منهم أربعة. فأمّا الّذين تيامنوا فالأزد وكندة وحمير ومذحج والأشعريّون وإنمار ومنهم بجيلة. وأمّا الّذين شاموا فعاملة وغسّان ولخم وجذام][2]. والمراد بسبأ القبيلة الذين هم من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقوله تعالى ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أنه كانت مساكنهم بمأرب من اليمن (آية) أي علامة يدلّ على قدرة الله وأنّ المنعم عليهم هو الله تعالى. ثم فسّر تلك الآية فقال : ﴿جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ ؛﴾ أي عن يمين واديهم وشماله قد أحاطتا بذلك الوادي الذي بين مساكنهم.

والمعنى : لقد كان لأهل سبأ في مواضعهم علامة ، وهي جنّتان ؛ أي بستانان ؛ إحداهما عن يمين الطريق ، وأخرى عن يسار الطّريق ، ويقال : كان بستانين عن يمين الطريق وبستانين عن شمال الطريق ، إلّا أنّ البساتين كلّ واحد من الجانبين سمي جنّة لاتّصال بعضها ببعض ، وكانوا في النّعمة بحيث كانت المرأة تمشي في تلك الطريق بين البساتين وعلى رأسها الزّنبيل فيمتلئ من ألوان الفاكهة من غير أن تمسّ شيئا بيدها.

---

(١) ذكره القرطبي أيضا في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٢٨١.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ١٨ ص ٢٧٢ : الحديث (٨٣٤ و٨٣٥ و٨٣٦) وإسناده حسن. وأبو داود في السنن : كتاب الحروف والقراءات : الحديث (٣٩٨٨) مختصرا. والترمذي في الجامع : أبواب التفسير : الحديث (٣٢٢٢) ، وقال : حسن غريب. والطبري في جامع البيان : الحديث (٢١٩٨١).

قرأ حمزة والنخعيّ وحفص ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ بفتح الكاف على الواحد ، وقرأ الأعمش والكسائي وخلف : (مسكنهم) بكسر الكاف على الواحد أيضا ، وقرأ الباقون : (مساكنهم) على الجمع [١].

قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ؛﴾ أي قيل لهم : ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني هذه النّعم ، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ ؛﴾ أي لله على نعمة هذه ، وهذا حدّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ؛﴾ أي هذه بلدة طيبة أو لكم بلدة طيبة ، يعني ليست بسبخة ، ولم يكن يرى بعوضة قط ، ولا دباب ولا برغوث ولا حيّة ولا عقرب ، وأنّ الرجل الغريب ليأتيها وفي ثوبه القمل والدوابّ ، فحين يرى بيوتهم تموت الدواب والقمل. والمعنى : بلدة طيّبة الهواء. وقوله تعالى : ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (١٥) ؛ أي غفور الخطايا ، كثير العطايا.

قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ؛﴾ أي فأعرضوا عن الحقّ وكفروا وكذبوا أنبياءهم ، ولم يشكروا نعم الله ، وقالوا : لا نعرف لله تعالى نعمة علينا! وقالوا لأنبياءهم : قولوا لربكم الذي يزعمون أنه منعم فليحبس عنّا نعمه إن استطاع!

قال وهب : (بعث الله تعالى إلى سبأ ثلاثة عشر نبيّا ، فدعوهم إلى الله وذكّروهم نعمه ، وخوّفوهم عقابه ، فكذبوهم وقالوا : ما نعرف لله علينا نعمة) [٢].

قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ ، قال ابن الأعرابيّ : (العرم : السّيل الّذي لا يطاق) [٣] ، وقال مقاتل : (العرم وادي سبأ) [٤]. وقيل : العرم : المطر الشديد الذي يأتي منه سيل لا يطاق دفعه ، وعرمة الماء ذهابه في كلّ مذهب.

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٣٥٧. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج : ج ٤ ص ١٨٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٩٨٥).

(٣) نقله عنه أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٦٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٤) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٦٢.

وقيل : العرم هو الفأر الذي نقب السدّ عليهم ، وصفة ذلك : أن الماء كان يأتي أرض سبأ من الشّجر وأودية اليمن ، فردموا ردما بين جبلين وحبسوا الماء في ذلك الرّدم ، وجعلوا لذلك الرّدم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، وكانوا يسقون من الباب الأعلى ، ثم من الباب الثاني ، ثم من الباب الأسفل ، فلا ينفذ الماء حتى يأتي ماء السّنة الثانية ، فأخصبوا وكثرت أموالهم. فلمّا كذبوا الرّسل بعث الله عليهم جرذا نقب ذلك الرّدم ، فاندفع الماء عليهم وعلى جنّتيهم ، فدفن السّيل بيوتهم وأغرق جنّتيهم وخرّب أراضيهم (١).

قوله تعالى : ﴿وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ؛﴾ أي بدّلناهم بالجنّتين اللّتين أهلكناهما جنّتين ، ﴿ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ؛﴾ الأكل : اسم لما يؤكل. والخمط : شجر الأراك ، ويقال : الخمط كلّ نبت قد أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله. وقيل : هو شجر ذات شوك.

قرأ أبو عمرو ويعقوب (أكل خمط) بالإضافة ، وقرأ الباقون ﴿أُكُلٍ﴾ بالتّنوين ، وهما متقاربان في المعنى.

وقوله تعالى : ﴿وَأَثْلٍ ؛﴾ الأثل : ما عظم من شجر الطّرفاء (٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (١٦) ؛ والسّدر إذا كان بريّا لا ينتفع به ولا يصلح ورقة للغسول ، كما يكون ورق السّدر الذي نبت على الماء. ومعنى قوله تعالى ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ يعني أن الخمط والأثل كان أكثر في الجنّتين المبدّلتين من السّدر. قال قتادة : (كان شجر القوم من خير الشّجر ، فبدّله الله من شرّ الشّجر بأعمالهم) (٣) ، والسّدر : هو شجر النّبق.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢١٩٩٣) عن وهب بن منبه.

(٢) في معاني القرآن : ج ٣ ص ٣٥٩ ؛ قال الفراء : (وأما الأثل فهو الذي يعرف ، شبيه بالطرفاء ، إلا أنه أعظم طولا).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٠٠٥).

قوله تعالى : ﴿ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا ؛﴾ أي جزيناهم ذلك التّبديل والتّخريب بكفرهم بنعم الله تعالى ، ﴿وَهَلْ نُجازِي ؛﴾ بمثل هذه العقوبة وتعجيل سلب النّعمة ، ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (١٧) ؛ أي الكافر المعاند ، وقيل : معناه : إنّ المؤمن نكفّر عنه ذنوبه بطاعاته ، والكافر يجازى على كلّ سوء يعمله. وقال الفرّاء : (المؤمن يجزى ولا يجازى) [(١)] أي يجزى الثّواب بعمله ، ولا يكافؤ بسيّئاته.

قرأ أهل الكوفة : ﴿نُجازِي﴾ بالنّون وكسر الزّاي. ونصب ﴿الْكَفُورَ﴾ لقوله ﴿جَزَيْناهُمْ﴾ ولم يقل جوزوا ، وقرأ الآخرون (يجازي) بياء مضمومة ورفع (الكفور).

وقوله تعالى ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ﴾ من قرأ بالنصب فهو اسم قبيلة ، فلهذا لم ينصرف ، ومن نوّنه وخفضه فهو اسم لرجل.

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً﴾ أي جعلنا بين أهل سبأ وبين قرى الأرض التي باركنا فيها وهي الأرض المقدّسة باركنا فيها بالماء والشّجر ، يعني قرى الشّام ومصر ، وقوله ﴿قُرىً ظاهِرَةً﴾ أي قرى متقاربة متّصلة ، إذا خرج الرجل من واحدة من القرى ظهرت له الأخرى ، فكانوا لا يحتاجون في سيرهم إلى الشّام إلى زاد ، وكانت المرأة تخرج ومعها مغزلها ، وعلى رأسها مكتلها ، ثمّ تغزل ساعة فلا ترجع بيتها حتى يمتلئ مكتلها من الثّمار ، وكان ما بين الشّام وأرض سبأ على تلك الصفة.

قوله تعالى : ﴿وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ ؛﴾ أي جعلنا القرى مواصلة بقدر السّير المتّصل على قدر المقيل والمبيت من قرية إلى قرية ، أنعمنا عليهم في مسيرهم كما أنعمنا عليهم في مساكنهم ، فقلنا لهم : ﴿سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً ؛﴾ إن شئتم باللّيالي وإن شئتم بالأيّام ، ﴿آمِنِينَ﴾ (١٨) ؛ من الظّلم والجوع والعطش وعن جميع ما يخاف في الطريق.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن : ج ٣ ص ٣٥٩ بلفظ : (وأمّا المؤمن فإنّه يجزى ؛ لأنّه يزاد ويتفضّل عليه ولا يجازى).

ومعنى الآية : ﴿وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ﴾ من القرية إلى القرية مقدارا واحدا ، نصف يوم ، وقلنا لهم : ﴿سِيرُوا فِيها﴾ في تلك القرى ، ﴿لَيالِيَ وَأَيَّاماً﴾ ؛ ليلا شئتم السير أو نهارا ﴿آمِنِينَ﴾ من الجوع والعطش والسّباع والتّعب ومن كلّ خوف.

ثم إنّهم بطروا النعمة ، وسألوا أن تكون القرى والمنازل بعضها أبعد من بعض ، ﴿فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا ؛﴾ أي اجعل بيننا وبين الشّام فلوات ومفاوز لنركب عليها الرّواحل ونتزوّد الأزواد [1] ، ذلك أنّهم قالوا لو كانت ثمارنا أبعد مما هي لكان أجدر أن نشتهيها ، فاجعل بين منازلنا وبين مقصدنا المفاوز. ويقال : كانت هذه المسألة من تجّارهم ليربحوا في أموالهم.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو (بعّد) على وجه الدّعاء. وقرأ ابن الحنفيّة ويعقوب (ربّنا) برفع الباء (باعد) بألف وفتح العين والدلالة على الخبر ، استبعدوا أسفارهم بطرا منهم وأشرا. وقرأ الباقون ﴿رَبَّنا﴾ بفتح الباء و ﴿باعِدْ﴾ بالألف وكسر العين وجزم الدّال على الدّعاء. وقد قرئ (بعد) بضمّ العين و (بين) بالرفع ؛ أي بعد ما يتّصل بسفرنا.

قوله تعالى : ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ؛﴾ يعني بترك الشّكر والطاعة ، وقيل : بالكفر ، ﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ ؛﴾ لمن بعدهم يتحدّثون بأمرهم وشأنهم ، ولم يبق منهم ولا من ديارهم أثر. وقوله تعالى : ﴿وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ؛﴾ أي فرّقناهم في البلاد المختلفة كلّ تفريق ، وذلك أنّهم شرّدوا في البلاد ، وصاروا بحيث يتمثل بهم العرب يقولون : تفرّق القوم أيدي سبأ وأيادي سبأ.

قال الشعبيّ : (أمّا غسّان فلحقوا بالشّام ، وأمّا الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأمّا خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأمّا الأزد فلحقوا بعمان) [2] وكانت غسّان ملوك الشّام.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ ؛ أي فيما فعل بسبأ ﴿لَآياتٍ﴾ ؛ لعبر ودلالات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ ، عن معاصي الله ، ﴿شَكُورٍ﴾ (١٩) ؛ لأنعمه.

---

(١) في المخطوط صحف العبارة ، فكتب الناسخ : (وتزود الآن واد ذلك).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٠٢٢).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) ؛ قرأ أهل الكوفة ﴿صَدَّقَ﴾ بالتشديد ؛ أي ظنّ فيهم ظنّا حيث قال : ﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١)﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾(٢) فصدّق ظنّه وحقّقه بفعله ذلك واتّباعهم إيّاه. وقرأ الآخرون (صدق) بالتخفيف ؛ أي صدق عليهم في ظنّه بهم.

وقوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل سبأ ، وقال مجاهد : على النّاس كلّهم إلّا من أطاع الله عزّ وجلّ ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الّذين قال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾(٣).

وقيل : إن إبليس لما وسوس إلى آدم وعملت فيه وسوسته ، طمع في ذرّيته ؛ فقال : إنّه مع فضله وعقله ، وعملت فيه وسوستي ؛ فكيف لا تعمل في ذرّيته؟ فأخبر الله في هذه الآية : أنّ القوم اتبعوه فصدّقوا ظنّه ، إلّا طائفة من المؤمنين لم يتّبعوه في شيء.

وقيل : إن إبليس لما سأل النّظرة فأنظره الله تعالى قال : لأضلّنّهم ولأمنّينّهم ولأموّهنّهم (٤) ، ولم يكن في وقت هذه المقالة مستيقنا ، وإنّما قال ظنّا منه ، فلما اتّبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنّه فيهم.

وقوله تعالى : ﴿وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ ؛﴾ أي ما كان لإبليس عليهم من حجّة ولا نفاذ أمر إلّا بالتّزيين والوسوسة. وقوله : ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ﴾ ؛ أي ما كان تسليطنا إياه عليهم إلّا لنعلم المؤمنين من الشاكرين.

والمعنى : ما سلّطناه عليهم إلّا لنعلم إيمان المؤمن ظاهرا وكفر الكافر ظاهرا ، وقد يذكر العلم ويراد به الإظهار. وقوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (٢١) ؛ أي عالم بكلّ شيء من الإيمان وشكّ وغير ذلك.

---

(١) ص / ٨٢.

(٢) الأعراف / ١٧.

(٣) الاسراء / ٦٥.

(٤) ربما (وَلَآمُرَنَّهُمْ) رسم الكلمة في المخطوط قريب بين الكلمتين.

قوله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي قل لكفّار مكّة : أدعوا الّذين زعمتم أنّهم آلهة من دون الله ، قال مقاتل : (أي ادعوهم ليكشفوا عنكم الضّرر الّذي نزل بكم في سنين الجوع).

وقيل : معناه : ادعوا الذين زعمتم أنّهم آلهة لكم لكي يرزقوكم ويدفعوا عنكم الشدائد ، ثم إنّهم لا يملكون مثقال ذرّة ؛ أي لم يخلقوا زنة ذرّة في السّموات ولا في الأرض ، فمن أين يستحقّون العبادة؟!

وقوله تعالى : ﴿وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ ؛﴾ أي ما لهم في السّموات والأرض من شرك في خلقهما ، وقوله تعالى : ﴿وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) ؛ أي وما الله تعالى منهم من معين فيما خلق.

وقوله تعالى : ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ؛﴾ أي ولا تنفع شفاعة ملك مقرّب ولا نبيّ ولا أحد حتى يأذن الله له في الشّفاعة. وهذا تكذيب من الله لهم حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف (أذن) بضمّ الألف ، وقرأ غيرهم بالفتح ، فمن فتح كان المعنى لمن أذن الله له في الشّفاعة ، وكذلك من قرأ بالضمّ لأنّ الآذن هو الله تعالى في القراءتين جميعا.

قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢٣) ؛ قرأ ابن عامر ويعقوب : (فزّع) بفتح الفاء والزاي ، وقرأ غيرهما بضمّ الفاء وكسر الزاي. والمعنى : حتى إذا كشف الفزع والجزع عن قلوبهم. ومن قرأ بالفتح فالمعنى : حتّى إذا كشف الله الفزع عن قلوبهم.

واختلفوا في هذه الكتابة والموصوفين بهذه الصّفة ، من هم؟ ومن النّصب الذي من أجله فزّع عن قلوبهم؟ فقال قوم : هم الملائكة. واختلفوا في سبب ذلك ، فقال بعضهم : إنّما فزّع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عزوجل .

قال عبد الله بن مسعود : (إذا تكلّم الله تعالى بالوحي ، سمع أهل السّماء صلصلة مثل صلصلة السّلسلة على الصّفوان ، فيصعقون لذلك ويخرّون سجّدا ، فإذا علموا أنّه وحي فزّع عن قلوبهم فتردّ إليهم ، فينادي أهل السّموات بعضهم بعضا : ﴿ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[١].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [إنّ الله تعالى إذا تكلّم بالوحي ، سمع أهل السّماء صلصلة كجرّ السّلسلة على الصّفا ، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتّى يأتيهم جبريل ، فيقولون له : ماذا قال ربّك؟ قال : يقول الحقّ][٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا قضى الله الأمر في السّماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعا لقوله ، كأنّه سلسلة على صفوان ، فإذا فزّع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربّكم؟ قالوا : الحقّ][٣].

وقال ﷺ : [إذا تكلّم الله بالوحي ، أخذت السّموات منه رجفة أو رعدة شديدة خوفا من الله تعالى ، فإذا سمع ذلك أهل السّموات صعقوا وخرّوا سجّدا ، فيكون أوّل من رفع رأسه جبريل عليه‌السلام ، فيكلّمه الله من وحيه بما أراد ، ثمّ يمرّ جبريل بالملائكة ، فكلّما مرّ بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربّنا يا جبريل؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العليّ الكبير ، فيقول مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمر الله][٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٢٠٣٥ و٢٢٠٣٦) بأسانيد عديدة وألفاظ.

(٢) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٩٩ ؛ قال السيوطي : (وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي من وجه آخر عن ابن مسعود ...) وذكره.

(٣) في الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٩٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة ...) وذكره.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٢٠٤٠).

وقال مقاتل والكلبيّ : (لما كانت الفترة بين عيسى ومحمّد ﷺ خمسمائة وخمسون عاما ، فلمّا بعث الله محمّدا ﷺ كلّم الله تعالى جبريل بالرّسالة إلى محمّد ﷺ ، فسمعت الملائكة الصّوت بالوحي ، فظنّوا أنّها القيامة قامت ، فصعقوا ممّا سمعوا ، فلمّا انحدر جبريل بالرّسالة ، جعل أهل كلّ سماء يسألونه على وجه التّعرّف بعد ما انكشف الفزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربّكم؟ قال جبريل ومن معه : قال الحقّ) [1].

وقيل : لما سمعت الملائكة الوحي صعقوا فخرّوا سجّدا ظانّين أنّها القيامة ، فلما نزل جبريل بالوحي انكشف فزعهم فرفعوا رؤوسهم ، وقال بعضهم لبعض : ﴿ما ذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا الْحَقَّ﴾ يعني الوحي ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي الغالب القاهر السيّد المطاع الكبير العظيم ، فلا شيء أعظم منه.

وقرأ الحسن (حتّى إذا فزع عن قلوبهم) بالعين المعجمة والزّاي بمعنى فزعت قلوبهم من الفزع ، وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ قوله ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ راجع إلى المشركين ، فإنّهم إذا شاهدوا أهوال يوم القيامة غشي عليهم ، فيزيل الله ذلك عن قلوبهم ، ثم تقول لهم الملائكة : ماذا قال ربّكم في الدّنيا والآخرة؟ فيقولون : الحقّ ، فأقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار.

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ ؛﴾ أي قل يا محمّد لكفّار مكّة : من يرزقكم من السّموات المطر ، ومن الأرض النبات والثمر؟ وإنّما أمر بهذا السّؤال احتجاجا عليهم ؛ لأنّ الذي يرزق هو المستحقّ للعبادة لا غيره ، وذلك أنه إذا استفهمهم عن الرّزق لم يمكنهم أن يبيّنوا رازقا غير الله ، فيتحيّروا في الجواب فيؤمر النّبيّ ﷺ بالجواب ، فيقول لهم : إنّ الذي يرزقكم هو الله عزّ وجلّ ، وتمّ الكلام.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٦٤. ونقله القرطبي عن الكلبي أيضا كما في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٢٩٧.

ثم أمر بأن يخبرهم أنّهم على الضّلال بعبادة غير الله تعالى بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٤) ؛ وهذا على وجه الإنصاف في الحجّة لاستمالة قلوبهم ، كما يقول القائل من المسارعين : أحدنا كاذب ؛ وهو يعلم أنّه صادق وصاحبه كاذب.

والمعنى : ما نحن وأنتم إلّا على أمر واحد ؛ أحد الفريقين مهتد والآخر ضالّ ، فالنبيّ ﷺ ومن اتّبعه على الهدى ، ومن خالفه في ضلال مبين.

قوله تعالى : ﴿قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) أي قل يا محمّد للكفّار لا تؤاخذون بجرمنا ، ولا نؤاخذ بجرمكم ، فانظروا لأنفسكم واعلموا أنّ حرصنا على إيمانكم لا ينفعكم ، وهذا على وجه التّبرّؤ منهم ومن كفرهم.

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ؛﴾ يعني بعد البعث في الآخرة في المحشر ، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ﴾ ؛ أي ثم يقضي بيننا ويحكم بيننا بالعدل ، ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٦) ؛ أي وهو القاضي العليم بما يقضي.

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلَّا ؛﴾ أي قل لهم أروني الّذين ألحقتموهم بالله تعالى وجعلتموهم شركاء الله في العبادة ؛ هل لهم قدرة على الخلق والأمر ، وهل يرزقون ويخلقون؟ وقوله تعالى ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر ؛ أي ارتدعوا عن مقالتكم وانزجروا ؛ فإنّكم لا تقدرون أن تجعلوا لله شركاء ، ﴿بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧) ؛ أي المنيع الغالب لكلّ شيء [1] ، الحكيم في تدبيره لخلقه ، فأنّى يكون له شريك في ملكه. وقيل : معناه : قل أروني الذين ألحقتموهم بالله في العبادة شركاء هل يرزقون ويخلقون؟ كلّا ؛ لا يرزقون ولا يخلقون ، بل الذي يخلق ويرزق هو الله العزيز في ملكه ، الحكيم في أمره.

قوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ ؛ أي ما أرسلناك يا محمّد إلّا للناس كافّة أي كلّهم ، أحمرهم وأسودهم. وقيل : معناه : إلّا

---

(١) في المخطوط : (أي المنيع الغالب الذي لكل شيء) ولا يستقيم المعنى.

مانعا للناس من الكفر والضّلال ، والكفّ على هذا هو المنع. وأدخلت الهاء هاهنا للمبالغة كالرّواية والعلامة ، ﴿بَشِيراً﴾ بالخير لمن أطاع الله ، ﴿وَنَذِيراً﴾ أي ومخوّفا بالنار لمن كفر بالله ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) ؛ يعني كفّار مكّة لا يتدبّرون القرآن ، فلو تدبّروا لعلموا.

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ ؛﴾ أي يقول الكفّار : متى هذا الوعد الذي تخوّفونا به من البعث والعذاب ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٢٩) ؛ في مقالتكم ، ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٠) ؛ أي قل لبعثكم وعذابكم ميقات يوم لا يؤخّر عن وقت الوعد ولا يقدّم وهو يوم القيامة.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ؛﴾ أي قال الكفّار : لن نؤمن بصدق هذا القرآن ولا بالّذي بين يديه من أمر الآخرة ، والنشأة الثانية.

وقيل : معنى ﴿وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعنون التّوراة والإنجيل ، وذلك : أنّه لما قال مؤمنوا أهل الكتاب : إنّ صفة محمّد ﷺ في كتابنا وهو نبيّ مبعوث ، كفر أهل مكّة بكتابهم.

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ؛﴾ أي ولو ترى يا محمّد مشركي مكّة محبوسون في المحشر للحساب يوم القيامة ، يتجاوبون فيما بينهم يردّ بعضهم على بعض القول في الجدال ، ويحمل كلّ واحد منهم الذنب على صاحبه ، فيقول الأتباع لرؤسائهم : ﴿لَوْ لا أَنْتُمْ ؛﴾ ودعاؤكم إيّانا إلى الكفر ، ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣١) ؛ كغيرنا ، بل أنتم منعتمونا وصددتمونا عن الإيمان.

فأجابهم رؤساؤهم على وجه الإنكار : ﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ (٣٢) باختياركم الكفر على الإيمان.

فقال الأتباع للرّؤساء : ﴿وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً ؛﴾ قال الأخفش : و (اللّيل والنّهار لا يمكران بأحد ، ولكن يمكر فيهما ، وهذا كقوله ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾[1] وهذا من سعة العربيّة) [2].

والمعنى : بل مكركم بنا في الليل والنهار إذ تأمروننا ، وكذلك يقال : فلان نهار صائم وليله قائم ، وقال الشّاعر : (ما ليل المطي بنائم) [3]. ومثله قوله تعالى : ﴿فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾[4]. وقيل : مكر اللّيل والنهار بهم طول السّلامة فيهما ، كقوله ﴿فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[5].

قوله تعالى : ﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ؛﴾ أي أضمروها في أنفسهم ؛ لأنّ موضع النّدامة القلب. وقيل : أظهروها فيما بينهم ، أقبل بعضهم يلوم بعضا ، ويعرض بعضهم بعضا الندامة ، وهذا من ألفاظ الأضداد ، يقال : أسرّ إذا كتم ، وأسرّ إذا أظهر.

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ؛﴾ أي غلّت أيمانهم إلى أعناقهم ، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣) ؛ من الشّرك في الدّنيا.

قوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها ؛﴾ أي ما أرسلنا في أهل قرية من رسول إلّا قال رؤساؤها وأعيانها وأولو النّعمة فيها : ﴿إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ ؛﴾ من الإيمان والتّوحيد ، ﴿كافِرُونَ (٣٤) وَقالُوا ؛﴾ للرّسل :

---

(١) محمّد / ١٣.

(٢) قاله الأخفش في معاني القرآن : ج ٢ ص ٤٤٥ ، تحقيق د. فائز فارس.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣٠٣ ؛ نقل القرطبي قال : وأنشد جرير :

لقد لمتنا يا أمّ غيلان في السّرى ... ونمت وما ليل المطيّ بنائم

(٤) محمّد / ٢١.

(٥) الحديد / ١٦.

﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً ؛﴾ فكما فضّلنا عليكم في الدّنيا لن نعذب بذنوبنا في الآخرة! افتخر مشركوا مكّة على رسول الله والمؤمنين بأموالهم وأولادهم ، وظنّوا أنّ الله إنّما خوّلهم المال والولد كرامة لهم عنده ، فقالوا ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣٥) ؛ أي إنّ الله أحسن إلينا بالمال والولد فلا يعذّبنا!

فقال الله تعالى لنبيّه عليه‌السلام : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؛﴾ يعني أنّ بسط الرزق وتضييقه من الله تعالى بفعله إبتلاء وامتحانا ، ولا يدلّ البسط على رضا الله تعالى ، ولا التضييق على سخطه ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) ؛ يعني أهل مكّة لا يعلمون حين ظنّوا أنّ أموالهم وأولادهم دليل على كرامة الله لهم.

قوله تعالى : ﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ ؛﴾ أي ليست كثرة أموالكم ولا أولادكم ب الخصلة ﴿بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى ؛﴾ أي بالتي تقرّبكم إلى الثواب والكرامة قربة. وقيل : معناه : بالّتي تقرّبكم عندنا قربى. قال الأخفش : ﴿زُلْفى﴾ : اسم المصدر ؛ كأنّه أراد : بالّتي تقرّبكم عندنا تقريبا) [1]. ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ؛﴾ بصرف المال في وجوه الخير ، وبصرف الأولاد في طاعة الله تعالى. وقيل : معناه : إلّا من آمن وعمل صالحا فإنّ إيمانه وعمله يقرّبه منّي.

وقوله تعالى : ﴿فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا ؛﴾ أي لهم الجزاء المضاعف على حسناتهم بالحسنة الواحدة عشرا ، ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ ؛﴾ الجنّة ، ﴿آمِنُونَ﴾ (٣٧) ؛ من كلّ آفة ومكروه. والغرفة : هي البيوت فوق الأبنية.

قرأ حمزة (وهم في الغرفة) على الواحدة ، لقوله ﴿أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾[2] ، وقرأ الباقون ﴿فِي الْغُرُفاتِ﴾ على الجمع ، لقوله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾[3] ، وقرأ

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن : ج ٢ ص ٤٩٥ ؛ وفيه : (تقرّبكم عندنا أزلافا). وج ٢ ص ٦٦٣. تحقيق د. عبد الأمير محمد أمين الورد.

(٢) الفرقان / ٧٥.

(٣) العنكبوت / ٥٨.

يعقوب (فأولئك لهم جزاء) بالنصب منوّنا (الضّعف) بالرفع تقديره : فأولئك لهم الضعف جزاء على التقدير والتأخير.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ ؛﴾ أي يسعون في دلائل التوحيد والنبوّة معاندين ، يحسبون أنّهم يفوتوننا ويعجزوننا ، ﴿أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٣٨) ؛ أي محبوسون.

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ؛﴾ قد تقدّم تفسيره.

وقوله تعالى : ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ؛﴾ أي ما أنفقتم من مال في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه في الدّنيا بالعوض ، وفي الآخرة بالحسنات والدّرجات.

وقوله تعالى ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ لكم أو عليكم ، يقال : أخلف الله له وعليه ؛ إذا أبدل الله له ما ذهب عنه ، وعن رسول الله ﷺ أنّه قال : [من فقه المراد فقه في معيشته][(١)].

وقال الكلبيّ : (معناه : وما أنفقتم في الخير والبرّ فهو يخلفه ، إمّا أن يعجّله في الدّنيا ، وإمّا أن يدّخر له في الآخرة) [(٢)]. وعن سعيد بن بشّار قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من يوم يصبح العباد فيه إلّا وملكان أحدهما يقول : اللهمّ أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهمّ أعط ممسكا تلفا][(٣)]. وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩) ؛ أي وهو خير المخلفين ، وإنّما خير الرّازقين لأنه قد يقال : رزق السّلطان الجند.

---

(١) عن أبي الدرداء ؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٥ ص ١٩٥. وأبو نعيم في حلية الأولياء : ج ١ ص ٢١١ موقوفا. وأخرجه ابن عدي في الكامل : ج ٢ ص ٢١١ بلفظ : [من فقهك نفقتك في معيشتك]. وفي مجمع الزوائد : ج ٤ ص ٧٤ ؛ قال الهيثمي : (رواه أحمد ، وفيه أبو بكر بن أبي مريم ، وقد اختلط).

(٢) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب : ج ١٦ ص ٧٧.

(٣) تقدم.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ؛﴾ يعني المشركين ، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠) ؛ هذا استفهام توبيخ للعابدين كقوله تعالى لعيسى : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[1]. فنزّهت الملائكة ربّهم عن الشّرك و ﴿قالُوا سُبْحانَكَ ؛﴾ تنزيها لك مما أضافوا إليك من الشّركاء ، ﴿أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ ؛﴾ أي ما اتّخذناهم عابدين ، ولا تولّيناهم ولسنا نريد غيرك وليّا ، وأنت العالم بأمورنا وافترائهم علينا ، كنّا نواليك ولا نواليهم ، ﴿بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ، أي أطاعوا الشّياطين في عبادتهم إيّانا ؛ لأن الشياطين كانت دعوتهم إلى ذلك ، فكان أكثرهم بالشّياطين مؤمنين.

قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا ؛﴾ أي يقال لهم : اليوم لا يقدر بعضكم لبعض جرّ نفع ولا دفع ضرّ ، ﴿وَنَقُولُ﴾ ، خزنة النار بأمر الله ، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٢) في الدّنيا.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ؛﴾ معناه : إذا يقرأ على أهل مكّة آياتنا وهي القرآن واضحات الحجج ، ﴿قالُوا ما هذا ؛﴾ يعنون محمّدا ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ ، وقالوا : ما هذا الذي أتانا به إلّا كذب مفترى؟ يعنون القرآن ، ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ ؛﴾ وهو القرآن : ما هذا القرآن؟ ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٣).

قوله تعالى : ﴿وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٤٤) ؛ أي ما آتينا أهل مكّة من كتب يقرؤنها. والمعنى : من أين كذبوك ، ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه ، وما أرسلنا إليهم قبلك يا محمّد من رسول.

---

(١) المائدة / ١١٦.

ثم خوّفهم وأخبر عن عاقبة من كذب قبلهم فقال : ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛﴾ يعني أمم كافرة ، ﴿وَما بَلَغُوا ؛﴾ يعني أهل مكّة ، ﴿مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ ؛﴾ أي ما بلغ هؤلاء الذين أرسلت إليهم عشر ما أوتي الأمم قبلهم من القوّة والعدّة ، ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ (٤٥) ؛ فانظر كيف كان إنكاري عليهم وتعذيبي لهم ، أليسوا مهلكين بالعذاب إذ لم يؤمنوا به معشار. والعشر والعشير جزء من عشرة. قال ابن عبّاس : (المعنى : وما بلغ قومك معشار ما آتيناهم من القوّة وكثرة المال وطول العمر فأهلكهم الله) [(١)].

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ ؛﴾ أي آمركم وأوصيكم بخصلة واحدة وهي : ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ؛﴾ أي تقوموا لله اثنين اثنين وواحدا واحدا ، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ ، فيناظروا ويذكّروا في أمر النبيّ ﷺ [(٢)] ، هل ترون في فعله وقوله ودعائه إلى توحيد الله ما يكون من كلام المجانين وأفعالهم ، وهو كلام عالم حازم؟ قال مقاتل : (والمعنى : ألا يتفكّر منكم واحد ومع صاحبه ينظروا أنّ خلق السّموات والأرض دليل على أنّ خالقها واحد لا شريك له) [(٣)].

قوله تعالى : ﴿ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ ؛ وذلك أنّ المشركين قالوا : إنّ محمّدا ﷺ ساحر مجنون! فقال الله تعالى : ﴿ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ وما صاحبكم بمجنون ، فعلى هذا المعنى يكون قوله ﴿ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى ، ويجوز أن يكون المعنى : ثم تتفكّروا فتعلموا بطلان قولكم في نسبته إلى الجنون. وقوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ ؛﴾ أي ما هو إلّا رسول مخوّف ، ﴿بَيْنَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٠٦٨ و٢٢٠٦٩) مختصرا.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣١١ ؛ قال القرطبي : (لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل ، فأوفرهم عقلا أوفرهم حظا من الله ، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة ، وإذا كانوا اثنان تقابل الذهنان فترائى من العلم لهما أضعف على الانفراد ، والله أعلم).

(٣) في تفسير مقاتل بن حيان : ج ٣ ص ٦٩ ؛ قال مقاتل : (ألا يتفكر الرجل وحده ، ومع صاحبه فيعلم ويتفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما أن عزوجل خلق هذه الأشياء وحده ، وأن محمدا صادق وما به من جنون).

﴿يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦) ؛ أي بين يدي القيامة لكي تخلّصوا أنفسكم من عذاب الله بالتّلافي والتّوبة.

قوله تعالى : ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ؛﴾ معناه : قل لهم يا محمّد : ما سألتكم على تبليغ الرّسالة أجرا فتتّهموني ، وقوله تعالى ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا الرجل يقول لغيره : ما أعطيتني فخذه ، يريد بذلك لم يعطه شيئا ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ؛﴾ أي ما ثوابي إلّا على الله ، ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ ؛﴾ من أعمال العباد ﴿شَهِيدٌ﴾ (٤٧).

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) ؛ القذف : هو الرّمي بألسنتهم والحصى والكلام ، قال الكلبيّ : (فمعنى الآية : قل إنّه يأتي بالحقّ ؛ أي يتكلّم بالوحي وهو القرآن يلقيه إلى نبيّه عليه السلام). والمعنى : قل إنّ ربي ينزل الوحي من السّماء فيقذفه ويلقيه إلى الأنبياء عليهم السلام ، وقوله تعالى ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى : ﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ ؛﴾ يعني الإيمان والقرآن ؛ أي ظهر الإسلام والقرآن ، ﴿وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾ (٤٩) ؛ معناه : ذهب الباطل وزهق ، فلم يبق له بقيّة يبدئ بها ولا يعيد. قال الحسن : (﴿الْباطِلُ﴾ : كلّ معبود سوى الله ، فإنّ كلّ معبود سوى الله لا يبدئ لأهله خيرا في الدّنيا ، ولا يعيد بخيره في الآخرة). فقال قتادة : (الباطل إبليس ؛ أي ما يخلق إبليس أحدا ولا يبعثه) (١).

ويجوز أن يكون هذا استفهاما ، كأنّه قال : وأيّ شيء يبدئ الباطل؟ وأيّ شيء يعيده؟ وعن ابن مسعود قال : دخل رسول الله ﷺ مكّة وحول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنما ، فجعل يطعنها بعود معه ويقول : [جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا ، جاء الحقّ وما يبدئ الباطل وما يعيد](٢) أي ذهب الباطل بحيث لا يبقى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٠٧٦).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ١٠ ص ١٩١ : الحديث (١٠٤٢٧) ، وص ٢٠٠ : الحديث (١٠٥٣٥) من طريق أخرى. والإمام أحمد في المسند : ج ١ ص ٣٧٧. والبخاري في الصحيح :

له بقيّة ، لا إقبال ولا إدبار ولا إبداء ولا إعادة كما قال تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾[1]. ويقال : فلان ظهرت عليه الحجّة ، فما يبدئ وما يعيد ، وما يحل وما يمرّ.

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي ؛﴾ وذلك أنّ كفار مكّة قالوا للنّبيّ ﷺ : لقد ضللت حين تركت دين آبائك! فقال الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي﴾ أي ضرر ذلك راجع إلى نفسي ، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ ؛﴾ إلى الحقّ ، ﴿فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ؛﴾ من القرآن والبيان ، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ ؛﴾ لكلّ ما يقوله الخلق من حقّ وباطل ، ﴿قَرِيبٌ﴾ (٥٠) ؛ منّي ، لا تخفى عليه خافية.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ ؛﴾ ولو ترى يا محمّد الكفّار ، يعني عند البعث ، فلا يمكنهم الغوث ولا الهرب من ما هو نازل بهم ، لرأيت ما يعتبر به غاية الاعتبار. ومعنى الآية : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا﴾ عند البعث فلا يفوتونني ؛ أي لا يفوتني أحد ولا ينجوا منّي ظالم.

وقوله تعالى : ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) ؛ يعني من القبور حيث كانوا ، فهم من الله قريب لا يعدون عنه ولا يفوتونه. تعني هذه الآية ؛ قال بعضهم : أراد بقوله ﴿إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ﴾ مما أصابهم يوم بدر عند القتال. وقال بعضهم : أراد به يوم القيامة إذ فزعوا من مشاهدة عذاب جهنّم ، وعلموا أنّهم لا يفوتون لله ، وأخذوا بالعذاب من مكان قريب إلى جهنّم فقذفوا فيها.

﴿وَقالُوا﴾ ، عند رؤية العذاب : ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ ، أي آمنّا بالله تعالى وبرسوله ، يقول الله تعالى : ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) ؛ أي أين لهم تناول ما أرادوا بلوغه من مكان بعيد ، يعني من الآخرة وقد تركوه في الدّنيا؟ يعني أنّهم قد تعذر عليهم تناول الإيمان كما يتعذر على الإنسان تناول النّجوم.

---

.كتاب المظالم : باب هل تكسر الدنان التي فيها خمر : الحديث (٢٤٧٨) ، وفي كتاب التفسير : الحديث (٤٧٢٠).

(١) الأنبياء / ١٨.

والتّناوش هو التّناول ، نشته أنوشه نوشا ، إذا تناوله ، كأنّه قال : وأنّى لهم التوبة. وقيل : ما يتمنّون. قال ابن عبّاس : (يتمنّون الرّدّ حين لا ردّ) [1].

قرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة والكسائيّ وخلف : (التّناؤش) بالمدّ والهمزة ، وهو الإبطاء والبعد ؛ أي من أين لهم أن يتحرّكوا فيما لا حيلة لهم فيه. يقال : أنشت الشّيء ؛ إذا أخذته من بعيد ، والنّيش : الشيء البطيء. وقرأ الباقون بغير همزة من التّناول ، يقال : نشته إذا تناولته ، وتناوش القوم في الحرب إذا تدانوا وتناول بعضهم بعضا.

واختار أبو عبيد ترك الهمز ؛ لأنه قال : (معناه من التّناول ، فإذا همز كان معناه البعد فكيف يقول : ﴿أَنَّى لَهُمُ﴾ البعد من مكان بعيد) [2]. قوله تعالى : ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني أنّهم يريدون أن يتناولوا التوبة ، وقد صاروا في الآخرة ، وإنّما تقبل التوبة «في الدنيا» [3] وقد ذهبت الدّنيا فصارت بعيدا من الآخرة.

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ؛﴾ أي كانوا كافرين بمحمّد ﷺ والقرآن في الدّنيا قبل ما عاينوا من العذاب وأهوال [4] القيامة. قوله تعالى : ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) ؛ أي ينسبون محمّدا ﷺ إلى السّحر والجنون والكهانة رجما منهم بالغيب والقذف. والرّجم بالغيب : أن يلفظ الإنسان شيئا لا يتحقّق ، ومنه سمّي الرمي بالفاحشة قذفا.

ومعنى قوله تعالى ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أن يقذفون محمّدا ﷺ بالظّنّ لا باليقين ، والغيب على هذا الظّنّ ، وهو ما غاب علمه عنهم [5]. وقوله تعالى ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٠٩٢).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣١٦ ؛ قال القرطبي : (وأبو عبيد يستبعد هذه القراءة ؛ لأن (التّناؤش) بالهمز البعد ، فكيف يكون البعد ، وأنى لهم البعد من مكان بعيد) نقله عن النحاس ، وهو في إعراب القرآن : ج ٣ ص ٢٤٢.

(٣) ما بين «» سقط من المخطوط.

(٤) في المخطوط تحريف العبارة ، رسم الناسخ : (قبل ما عاينوا من أهل ال اليوم القيامة).

(٥) في المخطوط تحريف العبارة ، رسم الناسخ : (ما غاب عليه عنهم).

بعدهم عن الحقّ. وقال قتادة : (معنى ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يقولون : لا بعث ولا جنّة ولا نار) [١].

قوله تعالى : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ ؛﴾ أي حيل بين هؤلاء الكفّار وبين الرّجعة إلى الدّنيا ، وقال الحسن : (معناه : حيل بينهم وبين الإيمان والتّوبة) [٢] ، ﴿كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ ؛﴾ أي كما فعل بنظرائهم أو أشياعهم ، ومن كان على مثل حالهم من الكفّار ، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ، أي قبل هؤلاء ، ﴿إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ ؛﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ، ﴿مُرِيبٍ﴾ (٥٤) ، أي ظاهر الشّكّ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبيّ إلّا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا] [٣].

**آخر تفسير سورة (سبا) والحمد لله رب العالمين.**

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢١٠٠) وأوله : (أي يرجمون بالظن ...).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢١٠٢) بأسانيد ، وفيه : (حيل بينهم وبين الإيمان بالله).

(٣) تقدم أول السورة.

## سورة الملائكة (فاطر)

سورة الملائكة مكّيّة كلّها ، وهي ألف ومائة وثلاثون حرفا ، وسبعمائة وسبعون كلمة ، وخمس وأربعون آية. قال ﷺ : [من قرأها دعته يوم القيامة ثمانية أبواب الجنّة يدخل من أيّ الأبواب شئت](١).

## بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؛ أي خالقهما ، مبتدئا من غير مثال سبق ، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (ما كنت أعرف ما معنى فاطر حتّى اختصم إليّ أعرابيّان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ أي بدأتها) (٢).

قوله تعالى : ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ ؛ قال بعضهم : أراد به الملائكة كلّهم ، فإنّهم كلّهم رسل الله بعضهم إلى بعض وبعضهم إلى الإنس ، وقال بعضهم : أراد بذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والحفظة ، يرسلهم إلى النبيّين وإلى ما شاء من الأمور.

قوله تعالى : ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ ؛ صفة الملائكة أي ذوي أجنحة ، ﴿مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ ، منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، اختارهم الله تعالى لرسالته من حيث علم أنّهم لا يبدّلون.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٣ ص ٦٠١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣١٧٠ : الرقم (١٧٩١٥). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣١٩. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الإيمان) وذكره. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان : باب في طلب العلم : الحديث (١٦٨٢).

وقوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ ؛﴾ أي يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء ، فمنهم من له مائة ألف جناح ، ومنهم من له أكثر ، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما ؛ قال : [رأى النّبيّ ﷺ جبريل ليلة المعراج وله ستّمائة جناح][(١)].

وعن ابن شهاب قال : (سأل رسول الله ﷺ أن يتراءى له في صورته ، فقال له جبريل : إنّك لن تطيق ذلك يا رسول الله ، قال : [إنّي أحبّ أن تفعل] فخرج رسول الله ﷺ إلى المصلّى في ليلة مقمرة ، فأتاه جبريل في صورته ، فغشي على النّبيّ ﷺ حين رآه ، ثمّ أفاق وجبريل مسنده [(٢)] إليه واضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه. فقال النّبيّ ﷺ : [سبحان الله ما كنت أرى شيئا من الخلق هكذا] فقال جبريل عليه السلام : كيف لو رأيت إسرافيل يا رسول الله؟! له اثنا عشر جناحا ، جناح بالمشرق وجناح بالمغرب والعرش على كاهله) [(٣)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (إنّ لله تعالى ملكا يسع البحار كلّها في نقرة إبهامه) [(٤)]. وقيل : معنى قوله ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ﴾ يعني حسن الصّوت ، كذلك قال الزهريّ [(٥)] ، وقال قتادة : (هي الملاحة في العينين والشّعر الحسن والوجه الحسن والخطّ الحسن) [(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب بدء الخلق : باب (٧) : الحديث (٣٢٣٢) ، وفي كتاب التفسير : الحديث (٤٨٥٦ و٤٨٥٧). ومسلم في الصحيح : كتاب الإيمان : باب في ذكر سدرة المنتهى : الحديث (٢٨٠ / ١٧٤).

(٢) في المخطوط : (مستنده).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد : باب تعظيم ذكر الله : ص ٧٤ : الحديث (٢٢١). وذكره القرطبي مختصرا في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣٣٠.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣١٧٠. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٤ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري) وذكره. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان : باب في الإيمان بالله : الأثر (١١٥).

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٦٧. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣٢٠. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان : ج ١ ص ١٣٥ : الأثر (١١٦) مختصرا.

وقوله تعالى ﴿وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ في موضع خفض ؛ لأنه لا يتصرّف. وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) ؛ أي قادر على ما يزيد على الزيادة والنّقصان.

قوله تعالى : ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ؛﴾ أي ما يرسل الله إلى الناس من رسول فلا مانع له ، وذلك لأن إرسال الرسول من الله تعالى رحمة لعباده كما قال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾[1].

وقيل : أراد بالرحمة هاهنا المطر والرزق والعافية وجميع النّعم ، ما يفتح الله من ذلك فلا مانع له ، ولا يستطيع أحد من الخلق حبسه ولا إمساكه ، وقوله تعالى : ﴿وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ؛﴾ أي وما يمسك الله من ذلك فلا يقدر أحد على إرساله ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) ؛ أي العزيز فيما أمسك ، الحكيم فيما أرسل.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ؛﴾ يعني أهل مكّة اذكروا نعمة الله عليكم إذ أسكنكم الحرم ومنعكم من الغارات ، ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ ؛﴾ هذا استفهام ، ومعناه التوبيخ ؛ أي لا خالق سواه. وقوله تعالى : ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي من السّماء بإنزال المطر ومن الأرض بإخراج النبات ، ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٣) ؛ أي فأنّى تصرفون عن الإله الذي هذه صفته إلى معبود لا يقدر على شيء.

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ؛ في هذه الآية تسلية للنبيّ ﷺ لئلّا يجزع على تكذيب قومه ، ويصبر كما صبر على تكذيب الأمم الرسل ، ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ ؛﴾ عواقب ﴿الْأُمُورُ﴾ (٤) ؛ في مجازاة المكذّبين ونصرة المسلمين.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ ؛ معناه إن الذي وعده الله المجازاة والبعث بعد الموت حقّ كائن ، ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ ؛ بزينتها

---

(١) الأنبياء / ١٧٠.

وزهرتها حتى تشتغلوا بها عن أمر دينكم ، ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ (٥) ؛ أي ولا يستزلّكم عن طاعة الله الشيطان الذي من عادته الغرور. وقرأ ابن سماك العدويّ : (الغرور) بضمّ الغين ، وهو أباطيل الدنيا ، وأما ﴿الْغَرُورُ﴾ بفتح الغين فيه ، الشّيطان.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ؛﴾ أي احترزوا [١] من كيده ، ولا تقبلوا منه وتطيعوه ، ﴿إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ ؛﴾ أي أهل طاعته ليكون معه ، ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ (٦) ؛ أي ليسوقهم إلى النار ، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧).

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ؛﴾ نزلن في أبي جهل ومشركي مكّة. وقيل : نزلت في أصحاب الأهواء والملل التي خالفت الهدى ، والمعنى : أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا كمن هداه الله ، ويدلّ على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ.﴾

قوله : ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ؛﴾ أي لا تغتمّ ، ولا تهلك نفسك عليهم حسرات على تركهم الإسلام ، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾ (٨) ؛ في كفرهم فيجازيهم بما هو أولى بهم ، قرأ أبو جعفر (فلا تذهب) بضم التاء وكسر الهاء ، نصب السّين.

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً ؛﴾ معناه : الله الذي أرسل الرياح لإثارة السّحاب ، ﴿فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ ، فأجريناه الى بلد ميت ليس فيه نبات ولا شجر ، ﴿فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ ، فأحيا «الله» [٢] بالمطر الأرض بإخراج الزّرع والأشجار منها بعد يبسها وذهاب النبات منها ، ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ (٩) ؛ كذلك البعث في القيامة.

---

(١) في المخطوط : (احترز).

(٢) ما بين «» ليس في المخطوط.

وهذا احتجاج على منكري البعث ، فإن موتهم كموت الأرض ، وذهاب أثرهم كذهاب أثر الأشجار والزّروع ، والقادر على إخراج الأشجار والزّروع من الأرض قادر على إخراج الموتى من الأرض.

ومعنى الآية : ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً﴾ أي تزعجه من حيث هو ﴿فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أي مكان ليس فيه نبات ﴿فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ أي أنبتنا فيها الزرع والكلأ بعد أن لم يكن ، ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ أي الإحياء والبعث.

وعن أبي رزين العقيليّ قال : (قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ [أو ما مررت بوادي قومك ممحّلا ثمّ مررت به خضرا؟] قلت : بلى ، قال : [فكذلك يحيي الله الموتى] وقال : [كذلك النّشور]) [1].

قوله تعالى : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ؛﴾ أي من كان يطلب العزّة بعبادة الأصنام فليطلبها بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، العزيز من أعزّه الله. وذلك أنّ الكفار كانوا يعبدون الأصنام طمعا في العزّة كما قال الله تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾[2]. أو قيل : معناه : من كان يريد أن يعلم العزّة لمن هي فليعلم أنّها لله تعالى.

قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ؛ إلى الله تصعد كلمة التوحيد وهو قوله لا إله إلّا الله ، ومعنى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ أي يعلم ذلك كما يقال : ارتفع الأمر إلى القاضي والسّلطان أي علمه. وقيل : صعود الكلم الطيّب أن يرفع ذلك مكتوبا أو مقبولا إلى حيث لا مالك إلّا الله ؛ أي إلى سمائه يصعد الكلم الطيّب.

قوله تعالى : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ؛ قال الحسن : (معناه : ذو العمل الصّالح يرفع الكلم الطيّب إلى الله تعالى بعرض القول على الفعل ، فإن وافق القول الفعل قبل ، وإن خالف ردّ ، لأنّ العبد إذا وحّد الله وأخلص في عمله ارتفع العمل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ١ ص ١١ و١٢. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٧٩٣٦). والطبراني في الكبير : باب ٢ : الحديث (٢٨١) ورجاله موثقون.

(٢) مريم / ٨١.

إلى الله تعالى) [١]. قال : (ليس الإيمان بالتّحلّي ولا بالتّمنّي ، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل ، من قال حسنا وعمل غير صالح ردّه الله تعالى ، ومن عمل صالحا رفعه العمل) [٢].

وقرأ أبو عبد الرحمن (الكلام الطّيب) [٣]. وعن أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ في قوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ﴾ : [هو قول الرّجل : سبحان الله ؛ والحمد لله ؛ ولا إله إلّا الله ؛ والله أكبر ، إذا قالها العبد عرج بها ملكٌ إلى السّماء][٤].

وقيل : الكلام الطيب : لا إله إلّا الله ، والعمل الصالح : أداء فرائضه ، ومن لا يؤدّي فرضه ردّ كلامه. وجاء في الخبر : [طلب الجنّة بلا عمل ذنب من الذّنوب][٥] ، وقال النبيّ ﷺ : [لا يقبل الله قولا بلا عمل][٦] ، وعلى هذا المعنى قول الشاعر :

لا ترض من رجل حلاوة قوله ... حتّى يصدّق [٧] ما يقول فعال

فإذا وزنت فعاله بمقاله ... فتوازنا فإخاء ذاك جمال

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٩ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن المبارك وعبد بن حميد وابن المنذر) وذكره. وأخرجه ابن المبارك في الزهد : باب ما جاء في تخويف عواقب الذنوب : الأثر (٩١) : ص ٣٠.

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ١٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد والبيهقي عن الحسن) وذكره.

(٣) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٣٦٧. وإعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٢٤٧.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٩ : الحديث (٩١٤٤) عن ابن مسعود. والحاكم في المستدرك : كتاب التفسير : الحديث (٣٦٤٢).

(٥) في موسوعة الأطراف : ج ٥ ص ٤٠٨ ؛ قال البسيوني : (ذكره ابن عراف في تنزيه الشريعة).

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية : ج ٢ ص ٣٣٥ من قول قتادة والحسن بلفظ : (لا يقبل قول بلا عمل ، فمن أحسن العمل قبل الله قوله). وفي ج ٧ ص ٣٢ أخرجه عن سفيان يقول : (لا يستقيم قول إلّا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلّا بنيّة ، ولا يستقيم قول وعمل ونيّة إلّا بموافقة السّنّة). وذكره القرطبي على أنه حديث في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣٣٠.

(٧) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣٢٩ ؛ قال القرطبي : (حتّى يزيّن).

وقال ابن المقفّع : (قول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر) (١). وقيل : معناه : والعمل الصالح يرفعه الله ؛ أي يقبله.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ؛﴾ أي يفعلونها على وجه المخادعة كما كان الكفار يمكرون بالنبيّ ﷺ في دار النّدوة. وقيل : معناه : الذين يشركون بالله ويعمل السّيّئات لهم عذاب شديد في الآخرة. وقيل : أراد بقوله ﴿يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ﴾ يعملون عملا على وجه الرّياء.

كما روي أنّ رجلا قال : يا رسول الله ؛ فيم النّجاة غدا؟ فقال : [لا تخادع الله ، فإنّه من يخادع الله يخدعه ويخلعه من الإيمان]. فقال رجل : يا رسول الله فكيف يخادع الله؟ فقال : [أن تعمل بما أمرك الله ، لا يقبل مع الرّياء عمل ، فإنّ المرائي ينادى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأربعة أسماء : يا كافر ؛ يا فاجر ؛ يا غادر ؛ يا خاسر ؛ ضلّ عملك](٢).

قوله تعالى : ﴿وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠) ؛ أي يفسد ويهلك ويكسر ولا يكون شيئا.

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ؛﴾ أي خلق أصلكم وأباكم آدم من تراب ، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ؛﴾ أي ثم خلق نسل آدم من نطفة ، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً ؛﴾ يعني ذكرانا وإناثا ، ﴿وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى ؛﴾ أو تلد لتمام وغير تمام ، ﴿وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ ؛﴾ أي ما يطول عمر أحد ، ولا ينقص من عمر أحد إلّا وهو مثبت في اللوح المحفوظ ، وقوله : ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ (١١) ؛ أي كتابة الآجال والأعمال وحفظها من غير كتابة على الله هيّن.

قوله تعالى : ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ ؛ قيل : هذه مثل ضربه الله ، يقول : كما لا يستوي البحران أحدهما عذب في غاية العذوبة هنيء شرابه مريء ، والآخر مرّ زعاف لا يستطاع شرابه ، فكذلك لا

---

(١) ذكره عنه أيضا القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٤ ص ٣٢٩.

(٢) ذكره ابن حجر في المطالب العالية : ج ٣ ص ١٨٤ : الحديث (٣٢٠٢) وسكت عنه البوصيري.

يستوي المؤمن والكافر ، والتقيّ والفاسق. والسائغ : هو السالك في الحلق. والأجاج : شديد الملوحة. وقرأ عيسى (سيّغ شرابه) مثل ميّت وسيّد.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا ؛﴾ أي ومن كلّ البحرين تأكلون السمك لا يختلف طعم السّمك لاختلاف ماء البحرين ، فكذلك قد يولد للكافر ولد مسلم مثل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما.

وقوله تعالى : ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ؛﴾ قيل : أراد به إخراج اللّؤلؤ والمرجان من أحدهما خاصّة وهو الملح. والمعنى : تستخرجون من الملح دون العذب. قيل : إن اللؤلؤ قطر المطر يقع في جوف الصّدف فيكون منه اللؤلؤ.

قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ ؛﴾ أي ترى السفن جواري في البحر ، قال مقاتل : (هو أن ترى سفينتين ، أحدهما مقبلة والأخرى مدبرة ، وهذه تستقبل تلك ، وتلك تستدبر هذه ، تجريان بريح واحدة) (١).

قوله تعالى : ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ؛﴾ لتطلبوا من رزقه التجارة ، فتحمل النّعم فيها من بلد إلى بلد ، قوله تعالى : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ؛ أي فعل ذلك لتعلموا أنّ هذه النعم من الله ، ولكي تشكرونه عليها.

قوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ؛﴾ قد تقدّم تفسيره.

وقوله تعالى : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ ؛ أي الذي يفعل هذه الأشياء هو الله ربّكم ، و؛ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ ؛ الدائم الذي لا يزول ، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ ؛ من الأصنام ، ﴿ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) ؛ لا يقدرون على أن ينفعوكم بقدر قطمير ، وهو القشرة الدّقيقة الملتزقة بنواة الثّمرة كاللّفافة عليها.

قوله تعالى : ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ﴾ ؛ ولو كانوا سامعين ما أجابوكم بإغاثة ولا نصرة ، والمعنى : إن تدعوهم لكشف ضرّ لا يسمعوا دعاءكم لأنّها

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٧٤.

جماد لا تنفع ولا تضرّ ، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ ؛ بأنّ الله خلق فيهم السمع ، ﴿مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ؛ أي يتبرّؤن منكم ومن عبادتكم كما قال الله تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾[1] والمعنى بقوله : ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ اي يتبرّؤن من عبادتكم ، يقولون : ما كنتم إيّانا تعبدون.

قوله تعالى : ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٤) ؛ معناه : لا يخبرك بحقائق الأمور وعواقبها إلّا الله ؛ لأنه عالم بكلّ الأشياء ، لا يخفى عليه منها شيء ، ولا تلحقه المضارّ والمنافع.

قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ﴾ ؛ أي المحتاجون إليه وإلى نعمه ومغفرته حالا بعد حال ، ﴿وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ ؛﴾ عن إيمانكم وطاعتكم ، ﴿الْحَمِيدُ﴾ (١٥) ؛ أي المحمود في أفعاله عند خلقه. وإنّما أمركم بطاعته لتنتفعوا بها لا حاجة به إليها ، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ؛﴾ أي إن يشأ يهلككم ، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) ، ويأت بخلق أطوع منكم ، ﴿وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٧) ؛ أي ليس إهلاككم وإتيانه بمثلكم على الله ممتنع.

قوله تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ ؛ أي لا تحمل يوم القيامة حمل حاملة أخرى ؛ أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ، ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ ؛ بالذّنوب ، ﴿إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ، إلى أن يحمل عنها شيء من ذنوبها لا تحمل من ذنوبها شيء ، ﴿وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ ، ولو كانت المدعوّة ذات قرابة من الداعية لما في ذلك من غلط حمل الآثام ، ولو تحمّلته لا يقبل حملها ؛ لأن كلّ نفس بما كسبت رهينة ، فلا يؤخذ أحد بذنب غيره.

وسئل الحسن بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وبين قوله ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾ فقال (قوله ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ يعني طوعا ، وقوله ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ﴾[2] يعني كرها). قال ابن عبّاس : في

---

(١) البقرة / ١٦٦.

(٢) العنكبوت / ١٣.

قوله (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء) قال : (يقول الأب والأمّ : يا بنيّ احمل عنّي ، فيقول : حسبي ما عليّ) [١].

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ ؛ يقول : إنما ينتفع بإنذارك ووعظك الذين يطيعون ربّهم في السرّ ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ ؛ المفروضة ، ولأن من خشي الله واجتنب المعاصي في السرّ من خشية الله تعالى ، اجتنبها لا محالة في العلانية.

ويقال : إنّ الخشية في السرّ ، والإقدام على الطاعة في السرّ ، واجتناب المعصية في السرّ ، أعظم عند الله ثوابا ، كما قال النبيّ ﷺ : [ما تقرّب امرئ بشيء أفضل من سجود خفيّ في اللّيلة المظلمة][٢]. وأما عطف الماضي في قوله تعالى ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ على المستقبل في قوله ﴿يَخْشَوْنَ﴾ ، ففائدة ذلك أنّ وجوب خشية الله لا تختصّ بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان ، ووجوب إقامة الصّلاة يختصّ ببعض الأوقات.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ ؛ أي ومن تطهّر من دنس الذّنوب والشّرك ليكون عند ربه زكيّا ، فإن منفعة تطهّره راجعة إلى نفسه ، ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨) ؛ أي إليه يرجع الخلق كلّهم في الآخرة ، ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) ؛ يعني المشرك والمؤمن ، ﴿وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢٠) ؛ أي ولا الشّرك ولا الضّلال كالنور والهدى والإيمان.

وقوله تعالى : ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (٢١) ؛ ولا الجنّة ولا النار. وقال عطاء : (يعني ظلّ اللّيل وسموم النّهار) ، ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ ؛﴾ يعني المؤمنين والكافرين ، وهذه أمثال ضربها الله تعالى ، كما لا تستوي هذه الأشياء ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٧٠.

(٢) في تخريج أحاديث الإحياء : ج ١ ص ٣٣٤ ؛ قال العراقي : (أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن أبي مريم عن حمزة بن حبيب مرسلا). وأخرجه ابن المبارك في الزهد : باب العمل والذكر الخفي : الحديث (١٥٤).

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ؛﴾ أي يسمع كلامه من يشاء ؛ أي يتّعظ ويهتدي ، قال عطاء : (يعني أولياءه الّذين خلقهم لجنّته). قوله تعالى : ﴿وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢) ؛ أي كما لا تقدر تسمع من في القبور ، فكذلك لا تقدر أن تسمع الكفار ، شبّههم بالموتى لأنّهم لا ينتفعون كالموتى.

وقرأ أبو رزين العقيليّ [(١)] (ما أنت بمسمع من في القبور) بلا تنوين بالإضافة ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣) ؛ أي ما أنت إلّا رسول تنذرهم النار وتخوّفهم ، وليس عليك غير ذلك.

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ (٢٤) ؛ أي ما من أمّة إلّا سلف فيها نبيّ ،﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ؛﴾ فلست بأوّل رسول كذّب ، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ؛﴾ الواضحات ، ﴿وَبِالزُّبُرِ ؛﴾ وهي الكتب ، وقوله تعالى : ﴿وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢٥) ؛ يعني التوراة. وقيل : إنّما كرّر الزبور هي الكتب أيضا لاختلاف صفات الكتاب ؛ لأن الزبور هو الكتابة الثابتة كالنّقرة في الصخرة ، ثم قال ﴿وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ﴾ الموصوف واحد والصفات مختلفة. وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ؛﴾ أي أخذتهم بالعقوبة ، ﴿فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ (٢٦) ؛ أي إنكاري عليهم وتعذيبي لهم.

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ؛﴾ يعني المطر ، ﴿فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها ؛﴾ وطعمها. قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾ (٢٧) ؛ أي وخلقنا من الجبال ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾ أي طرق يكون في الجبال كالعروق بيض وسود وحمر ، واحدها جدّة ، قال المبرّد : (﴿جُدَدٌ﴾ : طرق وخطوط ونحو هذا ، والجدد الجدّة ، وهي الطّريقة كالمدّة والمدد والعدّة والعدد ، وأمّا الجدد بضمّتين فهي جمع الجديد مثل سرير وسرر).

---

(١) ينظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر : ج ٣ ص ٣٩٧ : الرقم (٢٢٦٦) : لقيط بن عامر العقيلي ، وهو وافد بني المنتفق إلى رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى ﴿وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾ يجوز أن يكون الغرابيب هي الجبال السّود ، كأنّه قال : ومن الجبال غرابيب ، والغرابيب الذي لونه كلون الغراب ، ولذلك حسن أن يقال سود ، وقال الفرّاء : (هذا على التّقديم والتّأخير ، تقديره : وسود غرابيب) [1].

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ﴾ كاختلاف الثّمار والجبال ، وتمّ الكلام على ، ﴿كَذلِكَ.﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ قال ابن عبّاس : (معناه : إنّما يخافون من خلقي من علم جبروتي وعزّتي وسلطاني) [2] ، وقال مقاتل : (أشدّ النّاس لله خشية أعلمهم به) [3] ، وقال مسروق : (كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا) [4]. قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أي عزيز قاهر وغالب في ملكه ، ﴿غَفُورٌ﴾ (٢٨) ؛ لذنوب المؤمنين.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ﴾ يعني القرآن في الصّلاة وغيرها ، ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ المفروضة ، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أي وأنفقوا ممّا أعطيناهم من الأموال تطوّعا سرّا فيسلموا بذلك عن تهمة الرّياء ، وفريضة جهرا فيسلمون بذلك عن تهمة المنع ، ويقال : أراد بذلك النفقة في الجهاد ، ﴿يَرْجُونَ﴾ بذلك ، ﴿تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (٢٩) ؛ أي لن تكسد ولا يرد عليها الفساد والبطلان.

قوله تعالى : ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ ليعطيهم أجر أعمالهم كاملة ، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فوق ما يستحقّوه ، قال ابن عبّاس : (يعني سوى

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن : ج ٢ ص ٣٦٩.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٧٠.

(٣) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٧٦.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٧١. وأدرج الناسخ في المتن سهوا عبارة الكشاف : «وفي الكشّاف : من قرأ (يخشى الله) بالرفع ونصب (العلماء) فمعنى يخشى الله العلماء). قاله الزمخشريّ».

الثّواب) [١] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٠) ؛ إنه غفور لذنوبهم ، شكور يعامل بالأحسن معاملة الشاكر ، قال ابن عبّاس : (غفر العظيم من ذنوبهم ، وشكر اليسير من أعمالهم) [٢].

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ ؛﴾ أي موافقا لما قبله من الكتب ، لأن كتب الله تعالى كلّها دالّة على توحيده وإن اختلفت بالشرائع ، ﴿إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١) ؛ أي خبير بأقوالهم وأفعالهم ونيّاتهم فيجزيهم بما يستحقّون.

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ؛﴾ قال مقاتل : (يعني القرآن) [٣] ، وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ يريد أمّة محمّد ﷺ.

ثم قسّمهم ورتّبهم فقال تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ؛﴾ وهو الذي مات على كبره ولم يتب عنها ، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ؛﴾ وهو الذي لم يصب كبيرة ، ﴿وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ ؛﴾ يعني المقرّبين الذين سبقوا إلى أعمال ، وقال الحسن : (الظّالم : الّذي ترجّح سيّئاته على حسناته ، والمقتصد : الّذي استوت حسناته سيّئاته ، والسّابق : من رجحت حسناته على سيّئاته).

وعن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [سابقنا سابق] [٤] أي إلى الجنّة أو إلى رحمة الله تعالى بالخيرات ؛ أي بالأعمال الصالحة ، ﴿بِإِذْنِ اللهِ ؛﴾ أي بإرادة الله ، ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢) ؛ معناه : إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير ، وسمي إعطاء الكتاب إيراثا لأنّهم أعطوه بغير مسألة ولا اكتساب.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٧١.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٧١.

(٣) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٧٧.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٧١. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٥ ؛ قال السيوطي : أخرجه العقيلي وابن لال وابن مردويه والبيهقي.

وعن رسول الله ﷺ أنّهم قالوا : [السّابقون يدخلون الجنّة بغير حساب ، والمقتصدون يحاسبون حسابا يسيرا ثمّ يدخلون الجنّة ، والظّالمون يحاسبو ما شاء الله أن يحاسبوا ، ثمّ ي‍ﷺ تعالى فيدخلهم الجنّة ، وهم الّذين يقولون : الحمد لله الّذي أذهب عنّا الحزن ...] إلى آخر الآيتين (١).

وعن الحسن أنه قال : (السّابق الّذي ترك الدّنيا ، والمقتصد الّذي أخذ الحلال ، والظّالم الّذي لا يبالي من أين أخذ). ويقال : الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد صاحب الصّغائر ، والسّابق الذي اتقى سيئاته.

فإن قيل ما الحكمة في تقديم الظالم وتأخير السابق؟ قيل : الواو لا توجب الترتيب كما قال تعالى ﴿فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾(٢). وقيل : قدّم الظالم لئلّا ييأس من رحمته ، وأخّر السابق لئلا يعجب بنفسه. وقيل : قدّم الظالم فإذا لم يكن له شيء يتّكل عليه إلّا رحمة الله تعالى ، وثنّى بالمقتصد لحسن ظنّه بربه. وقيل : لأنه بين الخوف والرّجاء ، وأخّر السابق لأنه اتّكل على حسناته. وقيل : لئلا يأمن أحد مكره ، وكلّهم في الجنّة بحرمة كلمة الإخلاص.

وعن عقبة بن صهبان قال : (سألت عائشة عن قوله : ﴿فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ﴾ فقالت : يا بنيّ كلّهم في الجنّة ، وأمّا السّابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له النّبيّ ﷺ بالجنّة ، وأمّا المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتّى لحق به ، وأمّا الظّالم فمثلي ومثلك) (٣). وقال سهل بن عبد الله : (السّابق العالم ، والمقتصد المتعلّم ، والظّالم الجاهل) (٤).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٢١٧٥). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣١٨٢. وفي مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٩٧ ؛ قال الهيثمي : (رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح ... ورواه الطبراني باختصار.

(٢) التغابن / ٢.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط : ج ٧ : الحديث (٦٠٩٠). والحاكم في المستدرك : كتاب التفسير : الحديث (٣٦٤٦).

(٤) نقله أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٧٢.

وقيل : السابق الذي اشتغل بمعاده ، والمقتصد بمعاده ومعاشه ، والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل : الظالم طالب الدّنيا ، والمقتصد طالب العقبى ، والسابق طالب المولى. وقيل : الظالم المرائي في جميع أفعاله ، والمقتصد المرائي في بعض أفعاله دون بعض ، والسابق المخلص في أفعاله كلّها. وقيل : الظالم من كان ظاهره خيرا من باطنه ، والمقتصد من استوى ظاهره وباطنه ، والسابق الذي باطنه خير من ظاهره. وقيل : الظالم الذي يجزع عند البلاء ، والمقتصد الذي يصبر عند البلاء ، والسابق الذي يتلذذ بالبلاء!

وقيل : الظالم الذي يعبد الله خوفا من النار ، والمقتصد الذي يعبده طمعا في الجنّة ، والسابق الذي يعبده لا لسبب من الأسباب إلّا لرحمته الكريم! وقيل : الظالم الذي يعبد الله على الغفلة ، والمقتصد الذي يعبده على الرّغبة ، والسابق الذي يعبده على الهيبة. وقيل : الظالم الذي أعطي فمنع ، والمقتصد الذي أعطي فبذل ، والسابق الذي أعطي فشكر.

وقيل : الظالم غافل ، والمقتصد طالب ، والسابق واصل. وقيل : الظالم من استغنى بماله ، والمقتصد من استغنى بدينه ، والسابق من استغنى بربه. وقيل : السابق الذي يدخل المسجد قبل الأذان ، والمقتصد الذي يدخل وقت الأذان ، والظالم الذي يدخل وقت أقيمت الصلاة! وقيل : الظالم الذي يحبّ نفسه ، والمقتصد الذي يحب دينه ، والسابق الذي يحبّ ربّه. وقيل : الظالم مدعوّ ، والمقتصد مأذون له ، والسابق مقرّب.

قوله تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها﴾ ؛ يعني الأصناف الثلاثة : الظالم ؛ والمقتصد ؛ والسابق. ومعنى الآية : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي بساتين إقامة لا تزول ، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ ؛ أي يلبسون أقلبة من ذهب وسوار القلب [1]. وقوله تعالى : ﴿وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ (٣٣) ؛ من قرأ بالكسر فالمعنى من ذهب ومن لؤلؤ ، ومن قرأ بالنصب فمعناه : ويحلّون لؤلؤا.

---

(١) القلب من السّوار : ما كان قلبا واحد ؛ ما كان قلدا واحدا ، أي ما كان مفتولا من طاق واحد لا من طاقين. مختار الصحاح : ص ٥٤٧.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ؛﴾ أي يقولون بعد دخولهم الجنّة : (الحمد لله الّذي أذهب عنّا الحزن) أي حزن الموت وأهوال يوم القيامة ، وقيل : حزن المعاش وهموم الدّنيا ، فإنّ الدنيا سجن المؤمن. وقال عكرمة : (حزن الذّنوب والسّيّئات) ،

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ليس على أهل لا إله إلّا الله وحشة في قبورهم ، ولا في محشرهم ، كأنّي بأهل لا إله إلّا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التّراب عن رؤوسهم وهم يقولون : الحمد لله الّذي أذهب عنّا الحزن][1].

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) ؛ أي متجاوز عن الذنوب ، يقبل اليسير من العمل ، ويعطي الجزيل من الثواب. قوله تعالى : ﴿الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ ؛﴾ أي دار المقام وهي الجنة ، ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ، بتفضّله لا بالأعمال. وسمي دار المقامة لأن من دخلها يخلد لا يموت ، ويقيم فيها لا يحوّل. قوله تعالى : ﴿لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ؛﴾ أي لا يمسّنا فيها تعب ؛ ﴿وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾ (٣٥) ؛ أي مشقّة وتعب وإعياء وفتور.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ ؛﴾ أي الذين كفروا بمحمّد ﷺ والقرآن لهم في الآخرة نار جهنم ، ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ؛﴾ فلا يقضى عليهم بموت فيستريحون من العذاب ، ﴿وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها ؛﴾ من عذاب النار طرفة عين. قرأ الحسن : (فيموتون) بالنّون ولا يكون حينئذ جوابا للنفي ، والمعنى : لا يقضى عليهم ولا يموتون كقوله ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ (٣٦) ؛ أي هكذا يجزى في الآخرة كلّ كفور بنعم الله تعالى. قرأ العامّة ﴿نَجْزِي﴾ بالنون ونصب اللام ، وقرأ أبو

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط : ج ١٠ : الحديث (٩٤٧٤). وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٣٣٣ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم.

(٢) المرسلات / ٣٦.

عمرو وحده بضم الياء وفتح الزاي على ما لم يسمّ فاعله ورفع اللام [١].

قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها ؛﴾ أي يستغيثون في النار وهو افتعال من الصّراخ يقولون : ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا ؛﴾ من النار ، ﴿نَعْمَلْ صالِحاً ؛﴾ أي بقول لا إله إلّا الله ، وقوله تعالى : ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؛﴾ أي غير الشّرك. فوبّخهم الله تعالى فقال : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ ، معناه : أو لم نعمّركم مقدار ما يتّعظ فيه من كان يريد أن يتّعظ ويؤمن. قال عطاء : (يريد ثمانية عشر سنة) ، وقال الحسن : (أربعين سنة) ، وقال ابن عبّاس : (ستّين سنة) [٢].

قال : (هو العمر الّذي أعذر الله إلى ابن آدم ، قال النّبيّ ﷺ : [من عمّره الله تعالى ستّين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر]) [٣]. وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [أعمار أمّتي ما بين السّتّين إلى السّبعين ، وأقلّهم من يجوز ذلك][٤]. قال النّبيّ ﷺ : [منزل منايا أمّتي ما بين السّتّين إلى السّبعين][٥].

قوله تعالى : ﴿وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ ؛﴾ قال جمهور المفسّرين : يريد النّبيّ ﷺ. وروي عن عكرمة وسفيان بن عيينة : (المراد من النّذير الشّيب) ومعناه : أولم نعمّركم حتى شبتم؟. وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [من أناف سنّه على أربعين سنة ولم تغلب حسناته على سيّئاته فليتجهّز إلى النّار][٦].

---

(١) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب الرقائق : الحديث (٦٤١٩).

(٤) رواه الترمذي في السنن : كتاب الدعوات : الحديث (٣٥٥٠). وابن ماجة في السنن : كتاب الزهد : الحديث (٤٢٣٦). والحاكم في المستدرك : كتاب التفسير : الحديث (٣٦٥١).

(٥) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال : الحديث (٤٢٦٩٦).

(٦) في جامع البيان : مج ١٢ ج ٢٢ ص ١٧١ ؛ قال الطبري : (وأشبه الأقوال بتأويل الآية ، إذا كان الخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ خبرا في إسناده بعض من يجب التثبت في نقله ، قول قال ذلك ، أربعون سنة ؛ لأن في الأربعين يتناهى عقل الانسان وفهمه ، وما قبل ذلك وبعده منتقص عن كماله في حال الأربعين.

قوله تعالى : ﴿فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٧) ؛ أي فذوقوا العذاب فما للمشركين من مانع يمنعهم من العذاب.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨) ؛ أي عالم سرّ أهل السموات والأرض ، إنه عليم بما في القلوب من الخير والشرّ.

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي جعلكم خلفاء عن من كان قبلكم أمّة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن ، ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً﴾ (٣٩) ؛ أي إلّا نقصا ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؛﴾ أي خبروني عن شركائكم الذين أشركتموهم مع الله في العبادة ؛ بأيّ شيء أوجبتهم لهم شركاء مع الله تعالى؟ بخلق خلقوه من الأرض ؛ أم لهم نصيب في خلق السّموات ؛ أم أعطيناهم كتابا فيه ما يدّعونه فهم على بيّنة منه. قوله تعالى : ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾ (٤٠) [1] ؛ ولكن ما يعد الظالمون بعضهم بعضا إلّا خداعا وأباطيل.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا ؛﴾ أي منعهما من الزّوال والذهاب ، ﴿وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛﴾ أي ولو زالتا عن أماكنهما لم يمسكهما أحد غير الله. قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (٤١) ؛ أي حليما عن مقالة الكفّار ، غفورا لمن تاب منهم ، والحكيم هو القادر الذي لا يعجّل بالعقوبة ، والغفور كثير الغفران.

قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ ؛﴾ أي حلف كفار مكّة بالله غاية أيمانهم قبل أن يأتيهم محمّدا ﷺ ، ﴿لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ ؛﴾ أي رسول ، ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ؛﴾ أي ليكوننّ أسرع إجابة وأصوب دينا من

---

(١) في المخطوط كلمة غير مفهومة : (أي الآولاذاك).

إحدى الأمم ، اليهود والنصارى والصّابئين وغيرهم ، ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ؛﴾ يعني محمّدا ﷺ ، ﴿ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ (٤٢) ؛ عن الحقّ وتباعدا عن الهدى ، وقوله تعالى : ﴿اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ ؛﴾ منصوب على أنه مفعول له (أي ﴿ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾. الاستكبار في الأرض عتوّا على الله وتكبّرا عن الإيمان ، وقيل : على البدل من قوله ﴿نُفُوراً﴾. وقيل : على المصدر.

وقوله تعالى : ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ ؛﴾ أي القصد أي الإضرار بالنبيّ ﷺ وأصحابه من حيث لا يشعرون. قوله تعالى : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ؛﴾ أي لا يحيق ضرر المكر السيّء إلّا بفاعله ، فقتلوا يوم بدر ، والمكر السيّء هو العمل القبيح ، وقوله تعالى ﴿وَلا يَحِيقُ﴾ أي ولا يحلّ ولا ينزل إلّا بأهله.

قوله تعالى : ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ؛﴾ أي ما ينظر أهل مكّة إلّا أن ينزل بهم العذاب مثل ما نزل بمن قبلهم من الأمم السّالفة المكذّبة. قوله تعالى : ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (٤٣) ؛ أي لا يقدر أحد أن يحوّل العذاب عنهم إلى غيرهم.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ معناه : أو لم يسافروا في الأرض فينظروا كيف صار آخر أمر الّذين من قبلهم عند تكذيبهم الرسل كيف فعل الله بهم؟ ﴿وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ ؛﴾ من أهل مكّة ، ﴿قُوَّةً ؛﴾ ومكّن لهم ما لم يمكّن لهؤلاء. قوله تعالى : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي لن يعجزه أحد من الخلق في السّموات ولا في الأرض ، ﴿إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ (٤٤) ؛ أي عليما بخلقه ، قادرا عليهم.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ؛﴾ أي لو يؤاخذهم بما كسبوا من المعاصي ما ترك على ظهر الأرض من دابّة ، ﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ ؛﴾ بفضله ، ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ؛﴾ إلى وقت معلوم ، ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ ؛﴾ فإذا جاء ذلك الوقت ، ﴿فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾ (٤٥) ؛ يفعل به ما يستحقّونه من ثواب وعقاب.

**آخر تفسير سورة (فاطر) والحمد لله رب العالمين.**

## سورة يس

سورة يس مكيّة ، وهي ثلاثة آلاف حرف ، وسبعمائة وتسعة وعشرون كلمة ، وثلاثة وثمانون آية. قال النّبيّ ﷺ : [لكلّ شيء قلب ، وقلب القرآن يس ، فمن قرأها كان كمن قرأ القرآن عشر مرّات](١).

وقال ﷺ : [وهي تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها ، يس تدعى المعمّة] قيل : يا رسول الله وما المعمّة؟ قال : [تعمّ صاحبها بخير الدّنيا والآخرة ، وتدعى الدّافعة والقاضية ، تدفع من كلّ سوء ، وتقضي له كلّ حاجة ، ومن قرأها عدلت له عشرين حجّة ، ومن قرأها كان كمن له ألف مثقال ينفقها في سبيل الله ، ومن كتبها وشربها دخل جوفه ألف دواء وألف يقين وألف زلفة وألف رحمة! ونزع من كلّ داء وغلّ](٢).

وقال النّبيّ ﷺ : [من قرأ يس يريد بها وجه الله ، غفر الله له وأعطي من الآخرة كأنّما قرأ القرآن اثنى عشرة مرّة. وأيّما مريض قرئ عنده سورة يس نزل عليه بعدد كلّ حرف عشر أملاك يقومون بين يديه صفوفا ، فيصلّون عليه ويستغفرون له ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع : أبواب فضائل القرآن : الحديث (٢٨٨٧) ، وقال : (هذا حديث غريب وفي إسناده هرون أبو محمد ، شيخ جهول ، وفي الباب عن أبي بكر ولا يصح من قبل إسناده ، وإسناده ضعيف.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣ ؛ قال القرطبي : (ذكره الثعلبي من حديث عائشة ، الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مسندا). وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٣ ؛ قال السيوطي : (وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن حسان بن عطية أن رسول الله ﷺ قال ...) وذكره. وقال البيهقي : (تفرّد به محمد بن عبد الرحمن عن سليمان بن رفاع الجندي ، وهو منكر). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان : باب في تعظيم القرآن : الحديث (٢٤٦٥).

ويشهدون قبضه وغسله ، ويشيّعون جنازته ويصلّون عليه ويشهدوا دفنه ، وأيّما مريض قرأ سورة يس وهو في سكرات الموت أو قريب عنده ، لم تقبض روحه حتّى يجيئه رضوان خازن الجنان بشربة من الجنّة ، فيشربها فيموت وهو على فراشه وهو ريّان ، ويبعث وهو ريّان ، ويحاسب وهو ريّان ، ويدخل الجنّة وهو ريّان ، ويرد [1] إلى حوض من حياض الأنبياء عليهم السلام ].

## بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يس ؛﴾ (١) قال ابن عبّاس : (يريد : يا إنسان) [2] ، يعني محمّدا ﷺ ، وقال أبو العالية : (يا رجل) ، وقال سعيد بن جبير : (يا محمّد ﷺ ) [3] ، قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم بإظهار النّون [4] ، وقرأ عيس بن عمر (يس) بالنصب تشبيها بأين وكيف ، وقرأ ابن أبي إسحق (يس) بكسر النّون تشبيها بأمس وحذام وقطام ، وقرأ هارون الأعور بضمّ النون تشبيها بمنذ وحيث وقطّ ، وقرأ الآخرون بإخفاء النّون [5].

قوله تعالى : ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (٢) ؛ أي المحكم من الباطل ، وقيل : أحكم بالحلال والحرام والأمر والنهي. قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣) ؛ وذلك أنّ كفار مكّة قالوا لمحمّد ﷺ : لست مرسلا ، فأقسم الله تعالى بالقرآن الحكيم إنّك مرسل. قوله تعالى : ﴿عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤) ؛ يعني دين الإسلام وطريق الأنبياء عليهم السلام الذين مضوا قبلك.

---

(١) في المخطوط كلمة : (ويرد) غير واضحة.

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٤١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٢٢١ و٢٢٢٢٢). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٨٠٢٤).

(٣) ذكره أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٧٥.

(٤) إظهار النون : (يسن)

(٥) ذكر القرطبي أيضا هذه القراءات مختصرة في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣.

وقوله تعالى : ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٥) ؛ أي هو تنزيل العزيز في ملكه ، الرحيم بخلقه ، قال مقاتل : (معناه : هذا القرآن الحكيم تنزيل العزيز الرّحيم) [(١)]. وقول ابن عامر وأهل الكوفة ﴿تَنْزِيلَ﴾ بالنصب على المصدر ، كأنّه قال : ونزّل تنزيلا.

وقوله تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ ؛﴾ متّصل بقوله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ ؛ أي لتنذر قوما لم يأتهم نذير قبلك [(٢)] ؛ لأنّهم كانوا في الفترة وهو معنى قوله : ﴿فَهُمْ غافِلُونَ﴾ (٦) ؛ أي عن حجج التّوحيد وأدلّة البعث ، وقيل : ﴿فَهُمْ غافِلُونَ﴾ عن أمر الآخرة.

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) ؛ أي لقد حقّت كلمة العذاب على أهل مكّة لكثرة كفرهم [(٣)] فهم لا يصدّقون ، وهذا إخبار عن علم الله فيهم أنّهم لا يؤمنون ، فقتلوا يوم بدر على الكفر.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً ؛﴾ أي في أعناقهم وأيمانهم أغلالا ، ولم يذكر الأيمان في الآية لأنّ الكلام دليل عليه ؛ لأن الغلّة لا يكون في العنق دون اليد ، ولا في اليد دون العنق ، وإنما تغلّ الأيدي إلى الأعناق. وقوله تعالى : ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ؛﴾ كناية عن الأيدي دون الأغلال ، وقوله تعالى : ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) ؛ أي رافعوا رؤوسهم ، والمقمح : الرافع رأسه الغاضّ بصره.

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ، فروي عن ابن عبّاس : (أنّ الآية نزلت في قوم من الكفّار فيهم أبو جهل ، تواطؤا على أن يقتلوا النّبيّ ﷺ إذا رأوه يصلّي ، وحلف أبو جهل أنّه إذا رآه يصلّي ليدمغنّه بالحجر ، فأتوه يوما وهو يصلّي ، فجاءه أبو جهل ومعه الحجر ، فرفع الحجر ليدمغنّ به النّبيّ ﷺ فيبست يده إلى عنقه

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٨١.

(٢) في إعراب القرآن : ج ٣ ص ٢٥٩ ؛ قال النحاس : (﴿قَوْماً﴾ لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير ؛ لأنها نافية) ورجح هذا الوجه الزجاج كما في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢١٠.

(٣) في المخطوط : (لكثرة بكفرهم).

والتزق الحجر إلى يده ، فلمّا رجع إلى أصحابه خلّصوا الحجر ، فأخبرهم بأمر الحجر ، فقال رجل من بني مغيرة : أنا أقتله! وأخذ الحجر ودنا من النّبيّ ﷺ ، فطمس الله على بصره فلم ير النّبيّ ﷺ وكان يسمع قراءته).

فذلك قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (٩) ؛ أي جعلنا من بين أيديهم غطاء وسدّا ومن خلفهم كذلك فأغشينا أبصارهم حتى لم يروا.

قال الفرّاء : (معنى أغشينا : ألبسنا أبصارهم غشوة أي عمى) [١] ، وعن ابن خثيم قال : (سمعت عكرمة يقرأ (فأعشيناهم) بالعين المهملة) [٢] ، وروي ذلك عن ابن عبّاس أيضا [٣] ، وقال الحسن : (هذا على طريق المثل) وذلك أنّ الله تعالى لما حال بينهم وبين من أرادوا من النّبيّ ﷺ كانوا كمن غلّت يده إلى عنقه لا يمكنه أن يبسطها إلى شيء وهو طافح رأسه لا يبصر موضع قدمه ، قد سدّ عليه طريقه في الذهاب والرّجوع.

قوله تعالى : ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠) ؛ أي من أضلّه الله هذا الضلال لم ينفعه الإنذار ، ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ؛﴾ معناه : إنما ينفع الإنذار من اتّبع القرآن ، ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ؛﴾ أي وخاف من الله بحيث لا يراه ، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ؛﴾ لذنوبه ، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (١١) ؛ وثواب حسن في الجنّة.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن : ج ٣ ص ٣٧٣.

(٢) ذكره الثعلبي عن عكرمة بإسناد آخر ، كما في الكشف والبيان : ج ٨ ص ١٢٢. وفي المخطوط : خضيمة والصحيح هو ابن خثيم ، عبد الله بن خثيم القارئ المكي. ينظر : لسان الميزان : ج ٧ ص ٤٩٣ : الرقم (٥٧٤٧). وتهذيب التهذيب : ج ٤ ص ٣٩٣ : الرقم (٣٥٥٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان معلقا ، وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٠ ؛ قال القرطبي : وقرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى بن يعمر (فأعشيناهم) بالعين غير المعجمة من العشاء ، وهو ضعف بصرها حتى لا تبصر بالليل.

قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا ؛﴾ أي ما أسلفوا من الخير والشرّ ، وقوله تعالى : ﴿وَآثارَهُمْ ؛﴾ أي خطاهم ، فإنّ كلّ خطوة في الطاعة طاعة ، وكلّ خطوة في المعصية معصية. وقيل : معنى ﴿وَآثارَهُمْ﴾ أي ما استنّ به من بعدهم ، قال النّبيّ ﷺ : [من سنّ سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنّ سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة](1).

قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ (١٢) ؛ أي وكلّ شيء من الأعمال أثبتناه في اللوح المحفوظ. وقيل : أراد بالإمام المبين : الصحائف التي يكتبها الملائكة ، وسمي الإمام مبينا لأنه لا يندرس أثر مكتوبه.

قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً ؛﴾ أي مثل لأهل مكّة مثل ، ﴿أَصْحابَ الْقَرْيَةِ ؛﴾ يعني إنطاكيّة ؛ ﴿إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) ، رسل الله تعالى ، ﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ (١٤).

وذلك أنّ عيسى عليه‌السلام أرسل إلى أهل إنطاكيّة رسولين من الحواريّين ليدعوهم إلى عبادة الله تعالى. وإنّما أضيف الإرسال في الآية إلى الله تعالى لأنّ إرساله كان بأمر الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (١٩)

والقصّة : أنّ عيسى عليه‌السلام لما بعث الرسولين إلى أنطاكيّة وقربا من المدينة ، وجدا شيخا كبيرا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجّار فسلّما عليه ، فقال لهما : من

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ٢ ص ٣٣٠ : الحديث (٢٣٧٢ ـ ٢٣٧٥). والإمام أحمد في المسند : ج ٤ ص ٣٥٧ و٣٥٨ و٣٥٩. ومسلم في الصحيح : كتاب الزكاة : باب الحث على الصدقة : الحديث (٦٩ / ١٠١٧).

أنتما؟ قالا : رسولا عيسى عليه السلام ندعوكم إلى عبادة الله تعالى ، قال : هل معكما آية؟ قالا : نعم ؛ نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى. فقال الشيخ : إنّ لي إبنا مريضا صاحب فراش منذ سنين ، قالا : فانطلق بنا إليه.

فانطلق بهما إليه ، فمسحا ابنه فقام من ساعته صحيحا بإذن الله تعالى. ففشا الخبر في المدينة ، وشفى الله على أيديهما كثيرا من المرضى ، وآمن حبيب النجّار ، وجعل يعبد الله تعالى في غار جبل في أبعد أطراف المدينة.

فسمع الملك بخبر هذين الرّسولين ، وكان يعبد الأصنام ، فدعا لهما فأتياه ، فقال لهما : من أنتما؟ قالا : رسولا عيسى عليه السلام ندعوك إلى عبادة الله تعالى ، قال : وما آيتكما؟ فقالا : نبرئ الأكمه والأبرص ، فغضب الملك وأمر بهما فحبسا ، وجلد كلّ واحد منهما مائة جلدة.

فلمّا كذّب الرسولان ، بعث عيسى رسولا ثالثا يقال له : شمعون المصفّي على إثرهما لينصرهما ، فدخل شمعون البلد متنكّرا ، وجعل يعاشر حاشيته حتى أفشوا به ، فرفع خبره الى الملك فدعاه فأكرمه وأنس به. فقال له ذات يوم : أيّها الملك ؛ بلغني أنّك حبست رجلين في السّجن وضربتهما حين دعياك الى دين غير دينك ، فهل كلّمتهما وسمعت قولهما؟ قال : لا ، قال : فإن رأى الملك أن يدعوهما ويسمع قولهما حتى يطّلع على ما عندهما.

فدعاهما الملك ، فقال لهما شمعون : من أرسلكما؟ قالا : الله الذي خلق كلّ شيء وليس له شريك. فقال لهما شمعون : صفاه وأوجزا ، فقالا : إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، قال شمعون : وما آيتكما؟ قالا : ما تتمنّاه.

فأمر الملك حتى جاؤا بغلام مطموس العينين ، موضع العينين كلّ لجهة ، فما زالا يدعوان الله حتى انشقّ موضع البصر ، ثم أخذا بندوقتين فوضعتا في الحدقتين ، فصارتا مقلتين يبصر بهما ، فعجب الملك من ذلك.

فقال شمعون للملك : إن سألت إلهك أن يصنع مثل هذا ، فصنعه كان لك ولآلهتك الشرف. فقال الملك : ليس لي عنك سرّ أسرّه إليك : إنّ إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع.

ثم قال للمرسولين : إنّ هنا ميّتا مات منذ سبعة أيّام ، فلم أدفنه وأخّرته حتى يرجع أبوه ، وكان أبوه غائبا ، فإن قدر إلهكما على إحيائه آمنت به. قالا : إنّ إلهنا قادر على كلّ شيء ، ثم جعلا يدعوان الله علانية ، وجعل شمعون يدعو ربّه سرّا ، فقام الميّت حيّا بإذن الله تعالى ، وقد تغيّر وانتنّ وهو يقول : أيّها الملك إنّي متّ منذ سبعة أيّام ، ووجدت مشركا فأدخلت في سبعة أودية من النار ، فأنا أحذّركم ما أنتم عليه ، فآمنوا بالله واتّبعوا هؤلاء الثلاثة.

فقال الملك : ومن الثلاثة؟ قال : شمعون وهذان ، وأشار الى الرّسولين. فتعجّب الملك من ذلك ، وأجمع هو وقومه على قتل الرّسل. فبلغ ذلك حبيبا النجّار وهو على باب المدينة الأقصى [1].

وقيل : إنّ الملك قال لهم : إنّكم توافقتم على هذا الكلام ، ثم أمر بهم فأخذوا ونتفت حواجبهم وشعور أعينهم ، وطيف بهم ، فلمّا سمع حبيب النجّار ذلك أقبل من أبعد أطراف المدينة يسعى ؛ أي يعدو لينصر الرسل ويذكرهم ويدعو إلى طاعة المرسلين ، وذلك :

قوله تعالى : ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) ؛ وقال حبيب للرّسل : أتريدون أجرا على ما جئتم به؟ قالوا : لا ، فقال لقومه : ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٢١) ؛ أي مصيبون في مقالتهم ، فقالوا له : صبوت إليهم يا حبيب ودخلت في دينهم؟ فقال : ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ؛﴾ أي أيّ شيء لي إذا لم أعبد خالقي ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٢) ، أي إليه ترجعون عند البعث فيجزيكم بكفركم.

ثم إنّ أهل المدينة قالوا : ليس الرّسل بأولى بالنبوّة منا فيما تقولون ، قالوا : ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين ، أي ليس علينا إلّا التبليغ البيّن.

---

(١) القصة أخرجها البغوي أيضا كاملة في تفسيره : ص ١٠٧٦ ـ ١٠٧٧.

فقال القوم للرسل : إنا تطيّرنا بكم ، أي تشاءمنا منكم ، وقد كان حبس عنهم المطر ، فقالوا ما أصابنا هذا الشر إلّا من قبلكم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي لئن لم تنتهوا من مقالتكم هذه لنقتلنّكم رجما وليمسّنكم منا عذاب ، يعنون القتل والضرب.

فقالت لهم الرسل : ﴿طائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي شؤمكم معكم وهو كفركم بالله تعالى. قوله تعالى : ﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ معناه لئن وعظتم بمواعظ الله تشاءمتم بنا بما لا يوجب التشاؤم ولكن أنتم قوم مسرفون ، متجاوزون عن الحدّ في الذنب والمعصية.

قوله تعالى : ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى﴾ يعني حبيبا النجّار ﴿قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي من لا يسألكم أموالكم على ما جاءكم به من الهدى ، فقالوا له : أتّبعتهم أنت يا حبيب؟ قال : نعم ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة.

ثم أنكر عليهم اتخاذ الأصنام وعبادتها ، فقال : ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ، كما اتّخذتم ، ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ﴾ ، في جسدي أو في معيشتي ، ﴿لا تُغْنِ عَنِّي﴾ ، لا تنفع عنّي ، ﴿شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ ، يعني لا شفاعة لها ، ﴿وَلا يُنْقِذُونِ﴾ (٢٣) ؛ أي ولا يخلّصون من ذلك المكروه ولا من عذاب الله ، قوله تعالى : ﴿إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٤) ، إن عبدت غير الله كنت إذا في الخاطئين ، ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٥) ؛ مقالتي.

وقيل : إنّ قوله ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ خطاب المرسل ، قال لهم اسمعوا كلامي لتشهدوا لي به في الآخرة ، فلمّا قال هذا وثب عليه قومه وثبة رجل واحد فقتلوه ، قال ابن مسعود : (ووطؤه بأرجلهم حتّى خرجت أمعاؤه من دبره ، فأدخله الله الجنّة فهو حيّ فيها يرزق) [1] ، وذلك قوله تعالى : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ؛﴾ فلما دخلها ، ﴿قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٧) ؛

---

(١) ذكره الثعلبي أيضا في الكشف والبيان : ج ٨ ص ١٢٦ بلفظ : (حتى خرج قصبه ـ أي أمعاؤه ـ من دبره). والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٩.

تمنّى أن يعلموا أنّ الله غفر له ليرغبوا في دين الرّسل ، والمعنى : يا ليت قومي يعلمون بغفران ربي لي وإكرامه إيّاي بإدخاله لي الجنّة.

قوله تعالى : ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) ؛ وذلك أنّهم لما قتلوه وغضب الله عليهم وعجّل لهم العذاب ، ومعنى الآية : وما أنزلنا على قوم حبيب بإهلاكهم من جند من السّماء يعني الملائكة ؛ أي لم تنتصر منهم بجند من السّماء ، ﴿وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ولا كنّا ننزّل ذلك بمن قبلهم من الأمم إذا أهلكناهم.

ثم بيّن الله تعالى كيف كانت عقوبتهم وعذابهم فقال تعالى : ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾ (٢٩) ؛ أي ميّتون لا يتحرّك منهم أحد. قال المفسّرون : أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة وصاح بهم صيحة واحدة ، فتطايرت قلوبهم فإذا هم ميّتون ، ولم يسمع لهم حسّ ، كالنار إذا طفئت.

قوله تعالى : ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ (٣٠) ؛ قال مقاتل : (يا ندامة عليهم في الآخرة باستهزائهم بالرّسل في الدّنيا) [1]. والحسرة : أن يركب الإنسان من شدّة اللّوم ما لا نهاية بعده حتى يبقى قلبه حسيرا ، والعرب إذا دعت نكرة موصولة بشيء آثرت النصب ، تقول : يا رجلا كريما أقبل [2]. ثم بيّن الله تعالى سبب الحسرة فقال : ﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾.

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (٣١) ؛ معناه : ألم ير أهل مكّة كم أهلكنا قبلهم من الأمم الماضية فخافوا أن يعجّل لهم في الدّنيا مثل ما عجّل لغيرهم وهم يعلمون أنّهم لا يعادون إلى الدّنيا أبدا.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٨٥.

(٢) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٣٧٥.

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ (٣٢) ؛ أي وما كلّ منهم إلّا لدينا محضرون في أرض المحشر للحساب والجزاء ، هذا على قراءة من قرأ (لما جميعا) بالتشديد ، وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة ، وأما على قراءة من قرأ بالتخفيف فإن (ما) صلة مؤكّدة ، فإن ﴿إِنْ﴾ للإثبات كأنه قال : وإن كلّ لجميع لدينا محضرون [١].

ثم وعظ الله كفار مكّة ليعتبروا فقال تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها ؛﴾ أي وعلامة لهم تدلّهم على التوحيد والبعث ، الأرض الميتة اليابسة التي لا نبات فيها ولا شجر ﴿أَحْيَيْناها﴾ بإخراج الأشجار والزّروع ، ﴿وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) ، ما يقتات من الحبوب جمع الحب ، ﴿وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ ؛﴾ أي في الأرض بساتين ، ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٣٤) ؛ أي من عيون الماء.

وقوله تعالى : ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ؛﴾ أي من ثمر النخيل والأعناب على اختلاف طعومها وألوانها ، فيستدلّوا بذلك على قدرة الله تعالى. قرأ الأعمش (ثمره) بضمّ الثاء وسكون الميم ، وقرأ طلحة ويحي وحمزة والكسائي وخلف (ثمره) بضمّ الثاء والميم ، وقرأ الباقون بفتحهما [٢].

قوله تعالى : ﴿وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ؛﴾ أي وما عملت أيديهم شيئا مما ذكرناه ، وإنما هو من فعلنا ، ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥) ؛ نعم الله ، ويجوز أن يكون معناه : ليأكلوا من ثمره ومن ثمر ما عملت أيديهم ، يعني الغروس والحرث.

قرأ أهل الكوفة (وما عملت) بغير هاء ، ويجوز في ﴿ما﴾ ثلاثة أوجه : النفي بمعنى ولم تعمل أيديهم ؛ أي وجدوها معمولة فلا صنع لهم فيها ، وهذا قول الضّحاك ومقاتل [٣]. والثاني : أن يكون بمعنى المصدر ؛ أي ومن عمل أيديهم. والثالث : بمعنى

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٣٧٥. وإعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٢٦٥.

(٢) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٢٦٦.

(٣) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٨٦.

(الّذي) أي ومن الذي عملت أيديهم من الغرس والحرث. ومن قرأ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ بالهاء ، فالهاء عائدة على ﴿ما﴾ التي بمعنى الذي.

قوله تعالى : ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) ؛ أي سبحان الذي خلق الأصناف كلّها من أجناس الفواكه والحبوب ، وأصناف ما تنبت الأرض من الحلو والحامض والأبيض والأحمر وغير ذلك من الطّعوم والألوان. وقوله تعالى : ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي وخلق من أنفسهم الذّكران والإناث. وقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ أي وخلق في البرّ والبحر وأجواف السّموات والأرض من جميع الأنواع والأشياء.

قوله تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) ؛ أي وعلامة لهم أخرى تدلّ على قدرتنا ، الليل المظلم ينزع منه النهار فإذا هم داخلون في الظّلام ، وذلك أنّ الأصل هو الظّلمة ، والنهار داخل عليها لأنّ الله خلق الدّنيا مظلمة ، فإذا طلعت الشمس صارت الدّنيا مضيئة تشبه ضوء النهار باللّباس ، فإذا ذهب الضوء بغروب الشمس كان ذهاب ذلك بمنزلة سلخ جلد الشّاة عن الشاة ، وسلخ الثوب الرجل عن الرجل ، والمعنى : إذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل أن كشفها فأزيل فتظهر الظّلمة.

قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ؛﴾ معناه : وآية لهم ﴿الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾ أي إلى مستقرّ لها وهو آخر مدّة الدنيا ثم تجري بعدها ، ويقال : مستقرّها منازلها إذا انتهت الى أقصى منازلها التي لا تجاوزها في الصيف رجعت ، ويقال : سمعت منازلها مستقرّها ، كما يقال في منزل الرجل : هو مستقرّه ، وإن تصرّف فيه وتحرّك.

وعن أبي ذرّ قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾ قال : [مستقرّها تحت العرش](١). قوله تعالى : ﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح : كتاب بدء الخلق : الحديث (٣١٩٩). ومسلم في الصحيح : كتاب الإيمان : الحديث (٢٥٠ / ١٢٩).

﴿الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) ؛ أي ذلك الذي سبق ذكره تقدير العزيز في ملكه ، العليم الذي لا يخفى عليه شيء. وفي قراءة ابن عبّاس : (تجري لا مستقرّ لها) أي لا قرار لها فهي جارية أبدا ما دامت الدّنيا.

قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ ؛﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (والقمر) بالرفع عطفا على قوله ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ ، وقيل : على الابتداء ، وقرأ الباقون بالنصب على معنى وقدّرناه القمر وقدّرنا منازل ، كما تقول : زيدا ضربته.

والمعنى : قدّرنا له منازل ينزل في كلّ ليلة منزلة ، وجملة منازل ثمانية وعشرون ، فإذا صار إلى آخر منزله وهي ليلة ثمان وعشرين ، ﴿حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣٩) ؛ وهو عذق النخلة الذي فيه الشّماريخ إذا يبس ، ولأن العذق إذا مضت عليه الأيام جفّ وتقوّس وييبس ودقّ واصفرّ وصار شبه الأشياء بالقمر في أوّل الشهر وآخره ، لا يقدر على ذلك إلّا الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ؛﴾ يعني أنّ الشمس أبطأ مسيرا من القمر فلا تدركه ، وذلك أنّ الشمس تقطع منازلها في سنة ، والقمر يقطع منازله في شهر ، وهما مسخّران مقهوران على ما ذكرهما الله تعالى.

ويقال معنى قوله : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي لا يدخل النّهار على الليل قبل انقضائه ، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه ، كلاهما يسيران دائبين ، ولكلّ حدّ لا يعدوه ولا يقصر دونه ، فإذا جاء سلطان هذا ذهب ذلك ، فإذا جاء سلطان ذلك ذهب هذا ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ؛﴾ أي لا تتأخّر الشمس عن مجراها ، فتسبق ظلمة الليل في وقت النّهار.

قوله تعالى : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠) ؛ أي كلّ من الشمس والقمر والنّجوم الغاربة والطّالعة في فلك يسيرون ويجرون بالأبساط. والفلك : هو مواضع النجوم من الهواء ؛ أي الذي يجري فيه ، سمّي بهذا الاسم لأنه يدور بالنجوم ، ومنه فلكة المغزل لأنّها تدور بالمغزل.

قوله تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) ؛ معناه : وآية لهم أخرى يعني أهل مكّة تدلّهم على توحيد الله تعالى : أنّا حملنا ذرّيتهم في السّفينة المملوءة ، وهي سفينة نوح عليه السلام ، وذرّيّته في كلام العرب : الآباء والأبناء والأجداد. قوله تعالى : ﴿وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢) ؛ أي وخلقنا لهم مثل سفينة نوح عليه السلام ما يركبون فيه على البحر ، يعني السّفن التي عملت بعد سفينة نوح عليه السلام على هيأتها وصورتها.

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ؛﴾ أي أنّ الله سبحانه وتعالى ذكر تفضّله أنّه يحفظهم ، ولو شاء أغرقهم فلم يغنهم أحد ولم ينقذهم من الغرق ، ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي فلا مغيث لهم ، ﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ (٤٣) ؛ من المكروه والغرق.

والصّريخ : بمعنى الصّارخ لهم بالاستغاثة. وقيل : الصّريخ المعين على الصّراخ ، كأنه قال : فلا معين لهم ﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي ولا هم يخلّصون من الغرق ، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ﴾ (٤٤) ، إلّا أن تداركهم رحمة الله فتنقذهم إلى حين آجالهم.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ ؛﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار اتّقوا ما بين أيديكم من أمر الآخرة فاعملوا لها ، وما خلفكم من أمر الدّنيا ، فاحذروهم ولا تغترّوا بها ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥) ؛ أي لتكونوا على رجاء الرحمة من الله تعالى ، وجواب ﴿إِذا﴾ محذوف تقديره : إذا قيل لهم هذا أعرضوا. قوله تعالى : ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ ؛﴾ من عبرة ودلالة تدلّ على صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ (٤٦).

قوله تعالى : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ؛﴾ قال مقاتل : (وذلك أنّ المؤمنين قالوا لكفّار قريش : أنفقوا على الفقراء والمساكين ما زعمتم من أموالكم أنّه لله ، وهو ما

جعلوه من حروثهم وأنعامهم لله ، فقال الكفّار : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ورزقه) [1].

قال الحسن : (كان أهل الجاهليّة أهل إجبار ، فقالوا : لم يشأ الله أن نطعمه ، ولو شاء الله لأطعمناه). ويقال لهم : ظنّوا بجهلهم أنه تعالى إذا كان قادرا على أن يطعمهم فيغنيهم عن إنفاق الناس ، وهذا القول منهم خطأ ؛ لأنّ الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ليبلي الغنيّ بالفقير فيما فرض له في ماله من الزّكاة ، والمؤمن لا يعترض على المشيئة ، وإنما يوافق الأمر. وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٧) ؛ هذا من قول الكفّار للمؤمنين ، يقولون لهم : إن أنتم في اتّباعكم محمّدا ﷺ وترك ديننا إلّا في خطأ بيّن.

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٤٨) ؛ أي يقول كفار مكّة : متى هذا الوعد الذي تعدنا يا محمّد ﷺ من القيام إن كنتم صادقين أنت وأصحابك أنّا نبعث بعد الموت فأروني ذلك.

يقول الله تعالى : ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) قال ابن عبّاس : (يعني النّفخة الّتي تفجرهم وهم يخصّمون في أمر الدّنيا وفي مصرفاتهم) ، والمعنى : تأخذهم الصيحة وهم يختصمون في البيع والشّراء ويتكلّمون في الأسواق والمجالس ، وهي نفخة إسرافيل.

قيل : قرأ ابن كثير وورش (يخصّمون) بفتح الخاء وتشديد الصاد ، وقرأ نافع غير ورش ساكنة الخاء مشدّدة الصاد ، وقرأ أبو عمرو بالإخفاء ، وقرأ حمزة ساكنة الخاء مخفّفة ؛ أي فغلب بعضهم بعضا بالخصام ، وأجود القراءة فتح الخاء مع تشديد الصاد ، ولأن الأصل يختصمون فألقيت حركة ألف المدغم على الساكن الذي قبله وهو الخاء ، وقرأ الباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد [2].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٨٨.

(٢) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٢٦٨. والحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٠٨.

وقوله تعالى : ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ؛﴾ أي فلا يستطيع أحد أن يوصي في شيء من أمره ، ﴿وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٠) ؛ أي ولا يلبث أحد أن يصير إلى منزله وأهله ؛ لأنّها تأخذهم بغتة فيموتون في مكانهم وفي أسواقهم.

قال النبيّ ﷺ : [والّذي نفسي بيده لتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبا جديدا يريد أحدهما أن يدفعه إلى صاحبه فيحول قيام السّاعة بينه وبين تسليمه إلى صاحبه ، والّذي نفسي بيده لتقومنّ السّاعة وقد أهوى الرّجل بلقمة ليضعها في فيه فيحول قيام السّاعة بينه وبين وصولها إلى فيه](١).

وقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) ؛ أي ونفخ في الصور نفخة البعث ، فإذا هم من القبور الى عرصات القيامة يخرجون مسرعين ، والنّسلان مقاربة الخطو مع الإسراع ، ومنه نسلان الذّئب وهو هرولته وخببه ، والأجداث هو القبور.

وقوله تعالى : ﴿قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ؛﴾ قال المفسّرون : إنّما يقولون هذا ؛ لأنّ الله يرفع عنهم العذاب فيما بين النّفختين فيرقدون ، فلما بعثوا في النفخة الآخرة وعاينوا القيامة ودعوا بالويل والثّبور ، فقالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ فيقول الملائكة : ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) ؛ على ألسنة الرّسل أنه يبعثكم بعد الموت في موعد البعث.

وقال قتادة : (أوّل الآية للكافرين وآخرها للمؤمنين ، فقال الكافر : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، وقال المسلم : هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون) (٢). ويجوز أن يكون قوله هذا من نعت المرقد ، كأنّهم يقولون : من بعثنا من مرقدنا هذا الذي كنّا راقدين فيه؟ فيقال لهم : ما وعد الرحمن الذي بعثكم. ويجوز أن يكون ما وعد

---

(١) رواه البخاري في الصحيح : كتاب الرقائق : الحديث (٦٥٦٠). ومسلم في الصحيح : كتاب الفتن وأشراط الساعة : الحديث (١٤٠ / ٢٩٥٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٣٤٧).

الرحمن على هذا القول خبر مبتدأ محذوف تقديره : حقّ ما وعد الرحمن ، وهذا ما وعد الرحمن.

قوله تعالى : ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) ؛ هذا في النفخة الثانية ؛ أي ما كانت نفخة البعث إلّا صيحة واحدة لا تثنّى ، فإذا هم الأوّلون والآخرون في عرصات القيامة محضرون ، فإهلاكهم كان صيحة واحدة ، وبعث الخلائق كلّهم كان صيحة واحدة.

قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ؛﴾ أي لا ينقص من حسنات أحد ولا يزاد على سيّئات أحد ، ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤) ، ولا يجزى كلّ عامل إلّا ما عمل من خير أو شرّ.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ﴾ (٥٥) ؛ معناه : إن أصحاب الجنّة في الآخرة في شغل فاكهون. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بجزم الغين ، وقرأ الباقون ﴿فِي شُغُلٍ﴾ بضمّ الغين ، وهما لغتان مثل : السّحت والسّحت [1].

واختلف المفسّرون في شغلهم ، قال مقاتل : (شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النّار فلا يذكرونهم ولا يهتمّون بهم) [2]. وقال الحسن : (شغلوا بما في الجنّة من النّعم عن ما فيه أهل النّار من العذاب) [3].

وعن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله ﷺ : [إنّ أهل الجنّة كلّما جامعوا نساءهم عدن أبكارا][4]. قوله تعالى : ﴿فاكِهُونَ﴾ أي أصحاب فاكهة ، كما يقال : شاحم لاحم [5] ؛ أي ذو شحم ولحم ، وعاسل ذو عسل ، وقرأ أبو جعفر

---

(١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٢٧١.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٨٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٣٥٣).

(٤) في مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٤١٧ ؛ قال الهيثمي : (رواه البزار والطبراني في الصغير ، وفيه معلى ابن عبد الرحمن الواسطي ، وهو كذاب).

(٥) في المخطوط تحريف : (شاخ لاخ).

(فكهون) بغير ألف ، والفكه : الفرح الضّحوك ، الطيّب النفس ، ويقال : فاكه وفكه كحاذر وحذر.

قوله تعالى : ﴿هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ ؛﴾ أي هم وحلائلهم في ظلال أشجار الجنّة ، ﴿عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ﴾ (٥٦) ، على السّرر في الحجال جالسون بالاتّكاء جلسة الملوك. والأرائك : هي السّرر عليها الحجال ، وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ ؛﴾ أي لهم في الجنّة ألوان الفواكه ، ﴿وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ﴾ (٥٧) ؛ أي ولهم ما يتمنّون ويسألون ، وقال مقاتل : (معناه : ولهم ما يريدون) [(١)]. وقيل : معناه : من ادّعى شيئا فهو له يحكم الله عزّوجلّ لأنّهم ما يدّعون إلّا ما يحسن.

وقوله تعالى : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) ؛ أي لهم سلام يسمعونه من الله ، ويعلمهم بدوام الأمن والسلامة مع سبوغ النعمة والكرامة. ويقال : تحيّيهم الملائكة عن الله تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾[(٢)].

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : [بينما أهل الجنّة في نعيمهم إذا سطع لهم نور ، فيرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرّبّ عزّوجلّ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السّلام عليكم يا أهل الجنّة ، فذلك قوله تعالى : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتوا إلى شيء من النّعيم ما داموا ينظرون إليه حتّى يحجب عنهم ، فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم][(٣)].

قوله تعالى : ﴿وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩) ؛ عناه : تفرّقوا ، وقال السديّ : معناه : (كونوا على حدة) [(٤)] ، ومقاتل : (معناه : اعتزلوا اليوم يعني في الآخرة

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٨٩.

(٢) الرعد / ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) رواه ابن ماجة في السنن : المقدمة : الحديث (١٨٤).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٨٣.

من الصّالحين) [1]. وقال الزجّاج : (معناه : تفرّدوا عن المؤمنين) [2]. ومعنى الآية : أنه يقال للمجرمين : تميّزوا عن المؤمنين ، وذلك أنّ الخلق كلّهم يحشرون مختلطين.

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ؛﴾ أي ألم آمركم وأوص إليكم ، وقال الزجّاج : (معناه : ألم أقدم لكم على ألسنة الرّسل يا بني آدم أن لا تعبدوا الشّيطان ، أي لا تطيعوا الشّيطان ، ومن أطاع شيئا فقد عبده) [3].

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) ؛ أي عدوّ ظاهر العداوة ، أخرج أبويكم من الجنّة ، ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي ؛﴾ أي أطيعوني ووحّدوني ، ﴿هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ؛ أي طريق مستقيم قائم ، يعني دين الإسلام.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ؛﴾ أي ولقد أضلّ الشيطان منكم أمما كثيرة ، وقيل : خلقا كثيرا.

قرأ عليّ رضي الله عنه (جبلا كثيرا) بسكون الباء مخفّفا ، وقرأ عاصم ونافع وأيوب : (جبلا) بكسر الجيم والباء وتشديد اللام. وقرأ يعقوب بضمّ الجيم والباء وتشديد اللام ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو : (جبلا) بضمّ الجيم وسكون الباء مخفّفا ، وقرأ الباقون بضمّ الجيم والباء وتخفيف اللام ، وكلّها لغات ، ومعناها الخلق والجماعة.

وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٢) ؛ أي أفلم تعقلوا ما رأيتم من الأمم إذ أطاعوا إبليس وعصوا الرّسول فأهلكوا.

قوله تعالى : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٦٣) ؛ أي يقال لهم حين دنوا من النار : ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في الدّنيا. قوله تعالى :

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٩٠.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٢٠ ، ولفظه : (انفردوا).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٢٠ ؛ قال الزجاج : (ومعناه : ألم أتقدم إليكم بعهد الإيمان وترك عبادة الشيطان).

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٦٤) ؛ أي إلزموها اليوم بكفركم ، وقاسوا حرّها ، وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة.

وقوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ ؛﴾ وذلك أنّهم ينكرون الشّرك فيقولون : والله ربنا ما كنّا مشركين ، فيختم الله على أفواههم ، ﴿وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ ؛﴾ وتكلّمت جوارحهم فشهدت عليهم بما عملوا ، وقوله تعالى : ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥) ؛ قال عقبة بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [أوّل عظم ينطق من الإنسان فخذه من رجله الشّمال][1]. وروي عن النبيّ ﷺ قال : [أوّل ما تكلّم من الإنسان فخذه وكفّه][2].

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ ؛﴾ أي ولو نشاء ذهبنا أعينهم وجعلناها بحيث لا يبدو لها شقّا ولا جفنا ، والمعنى : ولو نشاء لأعميناهم في أسواقهم ومجالسهم بتكذيبهم إيّاك يا محمّد كما فعلنا بقوم لوط حين راودوه عن ضيفه. وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ ؛﴾ فغلبوا السّبق وتبادروا إلى الطريق إلى منازلهم ، ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ (٦٦) ؛ لو فعلنا ذلك بهم.

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ ؛﴾ أي في منازلهم فصيّرناهم قردة وخنازير وحجارة ليس فيها روح ، ﴿فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ﴾ (٦٧) ؛ أي لا يقدرون على ذهاب ومجيء ، والمسخ في اللغة نهاية التبديل.

قوله : ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ؛﴾ أي ومن نطوّل عمره في الدّنيا نردّه إلى الحالة الأولى من الضّعف ، قال الزجّاج : (معناه : من أطلنا عمره نكّسنا خلقه ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند : ج ٤ ص ١٥١. وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣١٩٨. وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٣٥١ ؛ قال الهيثمي : (رواه أحمد والطبراني وإسنادهما جيد).

(٢) رواه الطبراني في كتاب الأوائل : ص ٧٩. والإمام أحمد في المسند : ج ٥ ص ٣. وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٣٥١ ؛ قال الهيثمي : (رجاله ثقات). وفي المخطوط تحريف ، قال : [وكتفه] والصحيح ما أثبتناه.

فصار بدل القوّة ضعفا ، وبدل الشّباب هرما) [1] ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨) ؛ أن القادر على ردّ البشر من حالة القوّة والكمال ؛ أي حال الضّعف وزوال العقل ، قادر على إعادة الخلق بعد الموت.

ومن قرأ (تعقلون) بالتاء فهو على مخاطبة الكفار. قرأ عاصم وحمزة والأعمش : ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ بالتشديد ، وقرأ غيرهم بالتخفيف وفتح النون.

قوله تعالى : ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ ؛﴾ إن كفار مكّة قالوا للنّبيّ ﷺ : إنه شاعر ، وإنّ القرآن شعر ، فأكذبهم الله بقوله تعالى ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي وما يتسهلّ له ذلك ، وما كان يتّزن له بيت شعر جرى على لسانه منكرا.

قال الحكيم : (كان رسول الله ﷺ يتمثّل بقول العبّاس بن مرداس :

أتجعل نهبي ونهب العبد      بين الأقرع وعيينة

قالوا : يا رسول الله ﷺ إنّما هو بين عيينة والأقرع ، فقام إليه أبو بكر وقبّل رأسه وقال : صدق الله ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ﴾ [2].

وعن الحسن رضي الله عنه : أنّ النّبيّ ﷺ كان يتمثّل بهذا البيت : [كفى بالإسلام والشّيب للمرء ناهيا] فقال أبو بكر : يا رسول الله ﷺ إنّما قال الشّاعر (كفى الشّيب والإسلام للمرء ناهيا) [3] فقال عمر رضي الله عنه : ﴿وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ.﴾

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٢١.

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٧١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد). والبيت للعباس بن مرداس :

فأصبح نهبي ونهب العبيد .      بين عيينة والأقرع

(٣) للشاعر سحيم ، وهو عبد حبشي

عميرة ودّع إن تجهّزت غاديا      كفى الشّيب والإسلام للمرء ناهيا

وعن عائشة رضي الله عنها ؛ أنّها سئلت هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيء من الشّعر؟ فقالت : كان الشّعر أبغض الحديث إليه ، ولم يتمثّل بيتا من الشّعر إلّا بيت طرفة : [ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار]. فقال أبو بكر : ليس هذا هكذا يا رسول الله ، إنّما هو : ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد [1] ، فقال : [إنّي لست بشاعر وما ينبغي لي الشّعر][2].

قوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦٩) ؛ أي ما القرآن إلّا ذكر وموعظة ، فيه الفرائض والحدود والأحكام ، ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ؛﴾ قرأ نافع وابن عامر بالتاء ، والخطاب للنبيّ ﷺ ، وقرأ الباقون بالياء ، يعني لينذر القرآن من كان حيّا ، يعني مؤمنا حيّ القلب ، لأن الكافر كالميّت في أنه لا يتدبّر ولا يتفكّر ، ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ (٧٠) ؛ أي وتجب الحجّة بالقرآن على الكافرين.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ﴾ (٧١) ؛ معناه : أو لم يشاهدوا أنّا خلقنا لهم مما تولّينا خلقه بإيداعنا وإنشائنا؟ لم يشاركنا في خلق ذلك شريك ولا معين. وذكر الأيدي ههنا يدلّ على انفراده بما خلق ، والمعنى أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملناه بقدرتنا؟ لا مما عملته أيدي مالكيها أنعاما وهو الإبل والبقر والغنم لها مالكون وضابطون ، قاهرون لها يصرّفونها كيف يشاؤون ، واليد تذكر ويراد بها القدرة وإظهار صنعه.

وقوله تعالى : ﴿وَذَلَّلْناها لَهُمْ ؛﴾ أي لم يخلق الأنعام نافرة من بني آدم ولا يقدرون على ضبطها ، بل هي مسخّرة لهم ، والمعنى : وسخّرناها لهم مع قوّتها

---

(١) طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند : ج ٦ ص ٣١. والطبري في جامع البيان : الحديث (٢٢٣٨٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٠٠. وفي الدر المنثور : ج ١٠ ص ٧١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم) ، وقال : (أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد).

وضعفهم ، ﴿فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ؛﴾ أي مركوبهم ، ﴿وَمِنْها يَأْكُلُونَ﴾ (٧٢) ؛ من لحومها ، فقوله ﴿فَمِنْها رَكُوبُهُمْ﴾ يعني الإبل ، قال عروة : (في مصحف عائشة رضي الله عنها (ركوبتهم)) [1] والركوب والركوبة واحد ، مثل الحمول والحمولة ، يقال : هذه الجمال ركوبة القوم وركوبتهم ، وهذه النّوق حلوبة القوم وحلوبهم.

قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ ؛﴾ أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها ونسلها ومشارب من ألبانها ، ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) ؛ ربّ هذه النعمة فيوحّدونه جميعهم وأفرادهم.

فقال : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٧٤) ؛ أي عبدوا من دون الله أصناما رجاء أن ينصروهم ويشفعوا لهم ، كما قالوا : ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى ، فنفى الله نصرهم بقوله : ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ؛﴾ أي لا تقدر آلهتهم أن تمنعهم من العذاب ، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ (٧٥) ؛ أي لهم الأصنام كالعبيد للأرباب قيام بين أيديهم ينتصرون بهم ، والأصنام لا تقدر على نصرهم ولا نصر أنفسهم. ويجوز أن يكون معناه : والمشركون محضرون من الأصنام في النار توبيخا لهم وتعذيبا للذين كانوا يعبدونهم. وقيل : معناه : إن المشركين ينصرون الأصنام وهي لا تستطيع نصرهم.

قوله تعالى : ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ؛﴾ أي لا يحزنك يا محمّد قول كفّار مكّة في تكذيبهم إياك وقولهم إنك شاعر ، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ ؛﴾ في نفوسهم من تكذيبهم ومكرهم وخيانتهم ، ﴿وَما يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦) ؛ لك من العداوة بألسنتهم. والمعنى : إنا نثبتك ونجازيهم.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) ؛ يعني أبيّ بن خلف الجمحيّ خاصم النبيّ ﷺ في إنكار البعث ، وأتاه بعظم قد بلي وجعل يفتّته ويذرّيه في الرّياح ، ويقول في أصحابه : أيحيي الله هذا العظم بعد ما رمّ؟! وبقولهم : إنّ محمّدا يقول إذا متنا وصرنا ترابا نعاد ، وتنفخ فينا

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٧٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أبو عبيد وابن المنذر) وذكره.

الروح ؛ إنّ هذا الشيء عجيب! من يقدر أن يحيي العظام وهي رميم؟! ، فقال النبيّ ﷺ : [يحيي الله هذا ويميتك ويدخلك النّار] فأنزل الله هذه الآية [1].

والمعنى : أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه مع الحياة والعقل والحواسّ من نطفة فبلّغناه ؛ أي أن صار خصما جدلا ظاهر الخصومة ، وهذا تعجيب من جهله وإنكار عليه خصومته ؛ أي لا يتفكّر بدء خلقه.

وقوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ؛﴾ أي ضرب المثل في إنكار البعث بالعظم البالي يفته بيده ، ونسي خلقنا إياه وبعد أن لم يكن شيئا حتى صار مخاصما ف ﴿قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ؛ أي شيء بال قاس ، قدّر الله تعالى بقدرة الخلق ، فأنكر إحياء العظم البالي ما لم يكن ذلك في مقدور البشر.

قوله تعالى : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) ؛ أي قل لهم يا محمّد : الذي خلق من العدم إلى الوجود قادر على الإعادة بعد الممات ، وهو عليم بالخلق بعد أن خلقهم.

قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (٨٠) ؛ في هذه الآية زيادة بيان عن عجيب صنعه ، ومعنى ذلك الزّنود التي كانت العرب يورّون منها النار ، كانوا إذا احتاجوا إلى النار أخذوا غصنا من شجر المرخ وغصنا من شجر العفار وهو الأدين ، فضربوا أحدهما بالآخر فخرجت النار ، فقيل لهم : إنّ الذي جمع بين الماء والنار في الشّجر الأخضر قادر على تضادّهما ، لا يطفئ الماء النار ، ولا تحرق النار الشجر ، قادر على أن يبعثكم ويردّ أرواحكم إلى أجسادكم [2]. ويقال : ما من شجرة إلّا وفيها نار غير شجرة العنّاب ، ولذلك يختارها

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٢٣٩٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٠٣. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٧٤ ـ ٧٥ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في البعث عن أبي مالك ، وأخرجه عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٦٠ ؛ قال القرطبي : (ويعني بالآية ما في صفات المرخ

القصّارون لدقّ الثياب عليها.

ثم ذكر الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ ، ما هو أعظم خلقا من الإنسان فقال : ﴿بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؛﴾ معناه : إن الذي قدر على خلق السّموات والأرض في عظمهما وعجائبهما يقدر على إعادة خلق البشر ؛ لأن خلق السّموات والأرض وما فيهما أبلغ في القدرة من إحياء الموتى ، أفليس القادر عليهما قادر على الإعادة؟ ﴿بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ ، يخلق خلقا بعد خلق ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ (٨١) ، بجميع ما خلق.

قوله تعالى : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ؛ معناه : إنما أمره إذا أراد شيئا من البعث وغيره أن يقول له : كن بغير واسطة. فإن قيل : لم لا ينصب قوله تعالى ﴿فَيَكُونُ﴾ على جواب الأمر كما يقال : آتني فأكرمك ، قلنا : ذاك مستقبل مستحبّ ، الثاني : بوجوب الأدنى ، وهذا كائن مع إرادة الله تعالى ، فالفعل واجب.

قوله تعالى : ﴿فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ؛﴾ نزّه الله تعالى أن يوصف بغير القدرة ؛ أي تنزيها للّذي له القدرة على كلّ شيء من أن يوصف بغير القدرة ، (و ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ملك كلّ شيء ، والقدرة على كلّ شيء ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) ؛ في الآخرة بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم.

**آخر تفسير سورة (يس) والحمد لله رب العالمين.**

---

. والعفار ، وهي زنادة العرب ، ومنه قولهم : في كلّ شجرة نار واستمجد المرخ والعفار ، فالعفار الزّند وهو الأعلى ، والمرخ الزّندة وهي الأسفل ، ويؤخذ منهما غصنان مثل السّواكين يقطران ماء ، فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار).

## سورة الصّافّات

سورة الصّافّات مكّيّة [1] ، وهي ثلاثة آلاف وثمانمائة وستّة وعشرون حرفا ، وثمانمائة وستّون كلمة ، ومائة واثنان وثمانون آية.

قال النّبيّ ﷺ : [من قرأ سورة والصّافّات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ جنّيّ وشيطان ، وتباعدت منه مردة الشّياطين ، وبرئ من الشّرك ، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمنا بالمرسلين][2].

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ (١) ؛ يعني صفوف الملائكة في السّماء كصفوف الخلق في الدّنيا للصّلاة ، وهذا قسم أقسم الله تعالى بالملائكة التي تصفّ أنفسها في السّماء ، قال ابن عبّاس : (يريد الملائكة صفوفا لا يعرف كلّ ملك منهم من إلى جانبه ، لم يلتفت منذ خلق الله عزّوجلّ ) [3]. وقيل : أقسم الله بصفوف الملائكة تصفّ أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمر الله بما يريد. قوله تعالى : ﴿فَالزَّاجِراتِ زَجْراً﴾ (٢) ؛ أراد به الملائكة الذين يزجرون السّحاب فيسوقونه إلى الموضع الذي أمروا به ويؤلّفونه ، وقال قتادة : (يعني زواجر القرآن) [4] وهو كلّ ما ينهى ويزجر عن القبيح.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٦١ ؛ قرّر القرطبيّ قال : (مكيّة في قول الجميع).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٤ ص ٦٦.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٨٦.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٤٠٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٨١٢٨) عن أنس رضي الله عنه ولفظه : (ما زجر الله عنه في القرآن).

قوله تعالى : ﴿فَالتَّالِيات ذِكْراً﴾ (٣) ؛ يعني جبريل والملائكة يتلون كتاب الله وذكره ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ﴾ (٤) ؛ جواب القسم ، وإنما وقع القسم بهذه الملائكة ؛ لأن في تعظيمها تعظيما لله ، وقيل : هذا أقسم بالله تعالى على تقدير : ورب الصافّات ، إلّا أنه حذف لما يقتضي من التعظيم ، وكذلك ﴿وَالذّارِياتِ وَالطُّورِ﴾ و (والنجم) وغير ذلك.

وقد تضمّنت الآية تشريف الملائكة وتعظيم الاصطفاف في الصّلاة ، وفي الحديث : [إنّهم يصطفّون في صلاتهم في السّماء ويسبحون الله تعالى ويذكرونه ، ويرفعون أصواتهم بقراءة القرآن في الصّلاة كما يصطفّ النّاس في صلاتهم][(١)]. قال مقاتل : (وذلك أنّ كفّار قريش قالوا : أجعل الآلهة إلها واحدا ، فأقسم الله بهؤلاء أنّ إلهكم لواحد ليس له شريك) [(٢)].

قوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ؛﴾ أي خالقهما ومشيتهما وتدبّر ما بينهما ، ﴿وَرَبُّ الْمَشارِقِ﴾ (٥) ، مالك المشارق ، وإنما قال ههنا : ﴿رَبُّ الْمَشارِقِ﴾ لأن للشمس ثلاثمائة وستّين مشرقا ، تطلع كلّ يوم من مشرق ، وتغرب في مغرب ، فإذا تحوّلت السّنة عادت إلى المشرق والمغرب ، فإنما أراد جانب المشرق وجانب المغرب. وقيل : أراد به الجنس ، وقيل : أراد به مشرقها ومغربها في يوم واحد. وأما قوله تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾[(٣)] فقيل : إنما أراد به مشرق الشمس ومشرق القمر. وقيل : أراد بذلك مشرق الشتاء والصيف ومغربها. وشروق الشمس : طلوعها ، يقال : شرقت إذا طلعت ، وأشرقت اذا أضاءت.

قوله تعالى : ﴿إِنّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ﴾ (٦) ؛ أي زيّنّا السماء التي هي أدنى إليكم من سائر السّموات بضوء الكواكب ونورها ، قرأ أبو بكر ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتنوين ونصب (الكواكب) عمل الزّينة في الكواكب ؛ أي بأن زيّنا الكواكب

---

(١) بمعناه : أخرجه مسلم في الصحيح : كتاب الصلاة : الحديث (١١٩ / ٤٣٠).

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٩٤.

(٣) الرحمن / ١٧.

فيها ، وقرأ حمزة وحفص ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتنوين وخفض ﴿الْكَواكِبِ﴾ على البدل ؛ أي بزينة بالكواكب ، وقرأ الباقون بالإضافة [1].

قوله تعالى : ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ﴾ (٧) ؛ أي جعل الكواكب حفظا من كلّ شيطان متجرّد للشرّ ، يقذفون بها إذا استرقوا السمع ، والمارد : الخبيث الخالي من الخير ، والمارد : هو المتمرّد ، قال الحسن : (وهذا دليل أنّه إنّما يرجم بالكواكب بعض الشّياطين وهم المردة).

قوله تعالى : ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى ؛﴾ كأنّه قال : (لا يسمعون) أي لا يسمع مردة الشياطين إلى الملائكة ولا إلى كلامهم ، قال الكلبيّ : (معنى الآية : لكيلا يسمعوا إلى الكتبة من الملائكة). والملأ الأعلى : هم الملائكة ؛ لأنّهم في السّماء ، قرأ أهل الكوفة ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ بالتشديد أي يسمعون.

وقوله تعالى : ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ﴾ (٨) ؛ أي يرمون من كلّ جانب بالشّهب ، يعني أنّ الشياطين يرمون بالشّهب عند دنوّهم من السّماء لاستماع كلام الملائكة في تدبّر أمور الدّنيا ، يرمون بالشّهب من نواحي السّماء وأطرافها.

وقوله تعالى : ﴿دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ (٩) ؛ أي طردا وإبعادا ، يقال : دحره دحرا ودحورا ؛ إذا طرده وأبعده ، ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب واصب أي دائم لا ينقطع ، وقيل : معنى الواصب الموجع ، من الوصب وهو الوجع ، وقيل : الوجع. معنى الآية : أنّهم يدحرون ويبعدون عن تلك المجالس التي يسترقون السمع ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ أي دائم إلى النفخة الأولى.

قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ؛﴾ أي إلّا من اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة ، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ (١٠) ؛ أي لحقه وأصابه نار مضيئة تحرقه ، والثاقب : النّيّر المضيء ، وهذا قوله إلّا من استرق السمع مختلسا.

---

(١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٢٧٨ ؛ قال : (وهي المعروفة من قراءة عاصم). وفي معالم التنزيل : ص ١٠٨٧ ؛ قال البغوي : (قرأ عاصم ، برواية أبي بكر) وذكرها.

والخطف : أخذ الشيء بسرعة. قوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ أي نجم وهّاج متوقّد مضيء.

قوله تعالى : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا ؛﴾ قبلهم من الأمم الماضية ، كانت الأمم الماضية أشدّ منهم قوّة وآثارا في الأرض ، فأهلكناهم بكفرهم وتكذيبهم ، فكيف يأمن هؤلاء الهلاك مع إصرارهم على الكفر وهم أضعف ممّن قبلهم.

ثم ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (١١) ؛ أي خلقنا أصلهم وهو أبو البشر آدم من طين لازب لاصق ثابت ، يقال : له ضربة لازب ، وضربة لازم ، وإذا خلق أصلهم من طين لازم فكيف لا يقرّون بقدرة الله تعالى على البعث.

قوله تعالى : ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٢) ؛ أي بل عجبت يا محمّد من إنكارهم للبعث مع ظهور ما وجب من الحجّة والأدلة ، ويقال : بل عجب من جهلهم حيث اختاروا ما تجب به النار لهم وتركوا ما يجب لهم به الجنّة ، وهم يسخرون من بعثتك ، ويستهزئون بكلامك بالقرآن.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمّ التاء ، وهي قراءة ابن مسعود على معنى أنّهم قد حلّوا محلّ من تعجّب منهم ، وقال الحسن بن الفضل : (العجب من الله على خلاف العجب من الآدميّين ، وإنّما معنى العجب ههنا هو الإنكار والتّعظيم ، وقد جاء الخبر : [أنّ الله ليعجب من الشّاب ليست له صبوة][١]) [٢].

وقيل : إن الجنيد سئل عن هذه الآية فقال : (الله لا يعجب من شيء ولكنّ الله وافق رسوله لما عجب رسوله فقال : ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾[٣] أي هو كما

---

(١) الصّبوة : ميل إلى الهوى.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٤ ص ١٥١. وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٢٧٠ ؛ قال الهيثمي : (رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ، وإسناده حسن). وأخرجه ابن عدي في الكامل : ج ٥ ص ٢٤٣ ؛ وقال : (هذا حديث لا أعلم يرويه غير ابن لهيعة).

(٣) الرعد / ٥.

تقوله) [1]. قال شريح : (إنّما العجب ممّن لا يعلم ، والله تعالى عنده علم كلّ شيء) [2].

وقرأ الباقون ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء على خطاب النبيّ ﷺ. و ﴿بَلْ﴾ معناه : ترك الكلام الأوّل والآخر في كلام آخر ، كأنّه قال : دع يا محمّد ما مضى عجيب من كفار مكّة حين أوحي إليك القرآن ولم يؤمنوا به.

وقوله تعالى ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ لأنّ سخريتهم بالقرآن ترك الإيمان به ، قال قتادة : (عجب نبيّ الله من هذا القرآن حين نزل عليه ، وظنّ أنّ كلّ من سمعه آمن به ، فلمّا سمعه المشركون ولم يؤمنوا به وسخروا منه ، عجب النّبيّ ﷺ من ذلك ، فقال الله عزّ وجلّ : عجبت يا محمّد من نزول القرآن عليك وتركهم الإيمان) [3].

قوله تعالى : ﴿وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ (١٣) ؛ واذا وعظوا بالقرآن لا يتّعظون ، ﴿وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ (١٤) ؛ إذا رأوا معجزة مثل انشقاق القمر وغيره اتّخذوه سخرية ، ونسبوا ما دلّهم على توحيد الله تعالى إلى السّحر ، ﴿وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٥). وقالوا أيضا على وجه الإنكار : ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا ؛﴾ صرنا ؛ ﴿تُراباً وَعِظاماً ؛﴾ بالية ، ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (١٦) ؛ أي أنبعث بعد الموت ، ﴿أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ (١٧) ؛ الذين مضوا قبلنا ، ﴿قُلْ ؛﴾ لهم يا محمّد : ﴿نَعَمْ ؛﴾ تبعثون ﴿وَأَنْتُمْ داخِرُونَ﴾ (١٨) ؛ أنتم وآباؤكم ؛ أي وأنتم أذلّاء صاغرون ، والدّخور أشدّ الذّلّ.

ثم ذكر أنّ بعثهم يقع بزجرة واحدة ؛ أي بصيحة واحدة ، فإذا هم قيام ينظرون ماذا يؤمرون به ، وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ؛﴾ أي فإنّما قضية البعث

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٨٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٠٦. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٨٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق الأعمش).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٤٤٨). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٠٧.

صيحة واحدة من إسرافيل ، يعني نفخة البعث ، ﴿فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٩) ؛ أي بعث الذي كذبوا به.

فلما عاينوا البعث ذكروا قول الرسل في الدّنيا أنّ البعث حقّ ، فدعوا بالويل ، ﴿وَقالُوا يا وَيْلَنا ؛﴾ من العذاب ، ﴿هذا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (٢٠) ؛ أي هذا يوم الحساب والجزاء نجازى فيه بأعمالنا. فقالت الملائكة : ﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ ؛﴾ يوم القضاء ، ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢١) ؛ يفصل به بين المسيء والمحسن ، والمحقّ والمبطل ، وهو اليوم الذي كنتم به تكذّبون في الدّنيا.

قوله تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ ؛﴾ أي فيقال لخزنة جهنّم : اجمعوا الذين ظلموا وقرناءهم من الشّياطين الذين قبضوا لضلالتهم ، ويقال : أراد بالأزواج نظراءهم وأشكالهم من الأتباع. والزّوج في اللغة : النظير ، ومن ذلك : زوجان من الخفّ. ويقال : أراد بالأزواج نساءهم ، سواء أكانت امرأة الكافر كافرة أو منافقة ، والمعنى : اجمعوا الذين ظلموا من حيث هم إلى الوقف للجزاء والحساب ، والمراد بالذين ظلموا المشركين.

قوله تعالى : ﴿وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ ؛﴾ يعني اجمعوا المشركين وأتباعهم وأوثانهم وطواغيتهم وأصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، قال مقاتل : (يعني إبليس وجنوده) [1] فهم الّذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، قال الله تعالى : ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾[2]. قوله تعالى : ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ﴾ (٢٣) ؛ أي سوقوهم واذهبوا بهم إلى فريق الجحيم.

فلما انطلق بهم إلى جهنّم أرسل ملك يقول لخزنة جهنّم : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ (٢٤) ؛ أي اسألهم في موضع الحساب ، يسألوا ويعرفوا أعمالهم ، وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استفهام ، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (إنّهم مسؤولون عن

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٩٧.

(٢) يس / ٦٠.

أعمالهم في الدّنيا وأقاويلهم) [1] ، وقال مقاتل : (تسألهم خزنة جهنّم : ألم يأتكم نذير ، ألم يأتكم رسل منكم) [2].

ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ، وهو قوله : ﴿ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ﴾ (٢٥) ؛ أي يقال لهم على سبيل التوبيخ : ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم في الدّنيا.

وذلك أنّ أبا جهل لعنه الله قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، فقيل لهم ذلك اليوم : ما لكم غير متناصرين ، وأنتم زعمتم في الدّنيا أنكم تناصرون ، فالله تعالى قال : ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (٢٦) ؛ أي منقادون خاضعون لما يراد بهم ، والمعنى : هم اليوم أذلّاء منقادون ، لا حيلة لهم ، فالعابد منهم والمعبود لا يحمل عن أحدهم أحدا ولا يمنع أحد عن أحد.

قوله تعالى : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ (٢٧) ؛ أي أقبل الشياطين والمشركون يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ ، ﴿قالُوا﴾ ، فيقول المشركون للشياطين : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ﴾ (٢٨) ؛ فتزيّنوا لنا الضّلالة ، وتردّوننا عن الخير ، ﴿قالُوا﴾ ، فيقول لهم الشياطين : ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩) ؛ إنما كان الكفر من قبلكم ، ﴿وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ؛﴾ أي من قوّة فنجبركم على الكفر ، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ﴾ (٣٠) ؛ أي متجاوزين ضالّين.

وقال الحسن في معنى الآية : (﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ ؛ أي أقبل التّابعون على المتبوعين من بني آدم ، فيقولون : لو لا أنتم لكنّا مؤمنين ، فيقول لهم الرّؤساء : ما أجبرناكم على الكفر بل كفرتم بسوء اختياركم ، فيقول لهم التّابعون : إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين ؛ أي من أقوى الجهات ، وذلك أنّ جهة اليمين أقوى من جهة الشّمال ، كما أنّ اليمين أقوى من الشّمال) [3] وتقديره : خدعتمونا بأقوى الوجوه ،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٠٨.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٩٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٠٩ مختصرا.

واليمين هي القوّة ، قال الله تعالى : ﴿فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾[1] أي بالقوّة.

وقال قتادة : (معنى : إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين ؛ أي تمنعوننا عن طاعة الله تعالى)[2] فيقول الرّؤساء : لم تكونوا مؤمنين في الأصل ، إذا لم تكونوا تريدونه ، فكيف إجباركم عليه وما كان لنا عليكم من سلطنة الإجبار على الكفر ، ﴿فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا ؛﴾ أي فوجب علينا جميعا كلمة ربنا بالعذاب والسّخط ، وهي قوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ.﴾[3].

وقوله : ﴿إِنَّا لَذائِقُونَ﴾ (٣١) ؛ أي لذائقوا العذاب ، فالضّالّ والمضلّ في النار ، وقوله تعالى : ﴿فَأَغْوَيْناكُمْ ؛﴾ أي أضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى الغواية ، ﴿إِنَّا كُنَّا غاوِينَ﴾ (٣٢) ، بأنفسنا.

يقول الله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٣) ؛ أي لا ينفعهم التنازع والتخاصم ، وكلا الفريقين مشتركون في العذاب ،﴿إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٤) ؛ أي هكذا نعاقب المشركين.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) ؛ أي إنّهم كانوا يستكبرون عن كلمة التوحيد ، ﴿وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا ؛﴾ أنترك آلهتنا وعبادتها ، ﴿لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (٣٦) ؛ يعنون النبيّ ﷺ نسبوه إلى الشّعر والجنون.

فأكذبهم الله تعالى بقوله : ﴿بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧) ؛ أي ما هو بقول شاعر وما صاحبكم بمجنون ﴿بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالقرآن والتوحيد ، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين كانوا قبله ؛ أي أتى بما أتوا به من الإيمان وقول الحقّ.

قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨) ؛ أي يقال لهم : إنّكم أيها المشركون لذائقوا العذاب الأليم على شرككم ونسبتكم النبيّ ﷺ إلى الشّعر

(١) الصافات / ٩٣.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٤٧٤).

(٣) الأعراف / ١٨.

والجنون ، ﴿وَما تُجْزَوْنَ ؛﴾ في الآخرة ، ﴿إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩) ؛ في الدّنيا من الشّرك.

ثم استثنى فقال : ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠) ؛ أي لكن عباد الله الموحّدين ، فإنّهم لا يعذبون ، ﴿أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤١) ؛ أي يجزون بالبرّ ما يستحقّون ، وقيل : لهم رزقهم فيها بكرة وعشيّا.

وقيل : الرزق المعلوم هو ما ذكره بعد هذا في قوله تعالى : ﴿فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ (٤٢) ؛ والفواكه جمع فاكهة ، وعلى الثّمار كلّها رطبها ويابسها ، وهم مكرمون بثواب الله تعالى على السّرر ، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ (٤٤) ؛ لا يرى بعضهم قفا بعض ، ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (٤٥) ؛ أي بآنية مملوءة من الشّراب ، ولا تسمّى الآنية كأسا إلّا إذا كان فيها الشراب ، والمعين ههنا الخمر ، سمّيت معينا لأنّها تجري هناك على وجه الأرض من العيون كما يجري الماء فيها في غير الأخدود.

وقوله تعالى : ﴿بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) ؛ قال الحسن : (خمر الجنّة أشدّ بياضا من اللّبن ، ليست هي على لون خمر الدّنيا ، ولكنّها بيضاء لرقّتها ونورها ورونقها وصفائها)[1]. وقوله تعالى ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لذيذة أو ذات لذة ، يقال شرب لذ ولذيذ.

قوله تعالى : ﴿لا فِيها غَوْلٌ ؛﴾ أي ليس في شربها صداع ولا وجع بطن ولا أذى ، ولا تغتال عقولهم فتذهب بها. ويقال للوجع غول لأنه يؤدّي إلى الهلاك ، وقوله تعالى : ﴿وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾ (٤٧) ؛ أي ولا هم يسكرون ، يقال : نزف الرجل فهو منزوف ونزيف إذا سكر ، وقال الكلبيّ : (يعني لا فيها غول أي إثم ، قال الله تعالى : ﴿لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ﴾[2])[3]. وقال ابن كيسان : (الغول المعصر).

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٨٩.

(٢) الطور / ٢٣.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٨٩.

وقال أهل المعاني : الغول فساد يلحق في خفاء ، يقال : اغتاله اغتيالا إذا فسد عليه أمر فسد في خفية. وقوله تعالى ﴿وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾ ، قرأ حمزة والكسائيّ وخلف بكسر الزاي ههنا ، وفي الواقعة ، ومعناه : لا ينفذ شرابهم بل هو دائم لهم أبدا ، يقال : نزف الرجل إذا نفذ شرابه ، ومن قرأ بفتح الزاي فمعناه : لا يسكرون منها ، يقال : نزف الرجل فهو منزوف ونزيف ؛ إذا سكر وزال عقله [1].

قوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (٤٩) ؛ أي يعقد لهم مجلس الشّراب ، ويسقون هذه الكؤوس اللّذيذة ، وتحضرهم حور عين قاصرات الطّرف ، قصرت أطرافهن على أزواجهنّ لا يبتغين بهم بدلا ، لا ينظرون إلى غير أزواجهن ، والعين جمع العين وهنّ كبار الأعين وحسانها ، وقال الحسن : (اللّاتي بياض عينهنّ في غاية البياض ، وسوادها في غاية السّواد).

ومعنى الآية : وعندهم حابسات أعينهن الأعين غاضّات الجفون قصرن أعينهن عن غير أزواجهن ، فلا ينظرن إلّا إلى أزواجهنّ.

قوله تعالى : ﴿عِينٌ﴾ أي كبار الأعين حسانها ، واحدها عيناء يقال : رجل أعين ، وامرأة عيناء ، ونساء عين. وقوله تعالى : ﴿عِينٌ﴾ وامرأة عيناء ونساء عين.

وقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ أي مستور مصون ، والبيض محّ البيضة ، قال الحسن : (يشبهن بيض النّعام يكنّها الرّيش من الرّيح) [2] وهذا من تشبيهات العرب في وصف النّساء بالبيض ، فشبّه الأبياض أبدانهن ببياض البيض المكنون ، ويقال : أراد بالبيض المكنون ههنا البياض الذي في داخل القشر الخارج.

قوله تعالى : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ (٥٠) ؛ أي يتحدّثون في الجنة عن أمور الدّنيا ، ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ ؛﴾ في جواب ما يسأل عنه : ﴿إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١) ؛ أي كان لي صاحب في الدّنيا يقول لي حين صدّقت وهو منكر للبعث ، ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ (٥٢) ؛ بالبعث ، ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا

---

(١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٢٨٤. والحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩٠.

﴿تُراباً وَعِظاماً ؛﴾ بالية ، ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (٥٣) ؛ أي لمجزيّون محاسبون؟ وهذا استفهام إنكار ، والدّين : الحساب والجزاء ، كأنه يقول : إنّ هذا الأمر ليس بكائن. ﴿قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ (٥٤) ، قال قائل من أهل الجنة لأصحابه : هل تطّلعون على النار وعلى أهلها فتنظرون إلى هذا الذي كان قرينا لي وتعرفون حاله ، فاطّلع هو بنفسه على النار وأهلها فرأى قرينه في وسط الجحيم يعذب بألوان العذاب. قال ابن عبّاس : (وذلك أنّ في الجنّة كوّة ينظر منها إلى أهل النّار) [١] ، ﴿فَاطَّلَعَ﴾ ، هذا المؤمن ، ﴿فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ (٥٥) ؛ أي في وسط النار يعذب.

ف ﴿قالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ (٥٦) ؛ أي أردت أن تهلكني كهلاك المتردّ من الشّاهق ، وقال مقاتل : (معناه : لقد كدت أن تغويني فأنزل منزلك) [٢] ، والإرداء الإهلاك ، ومن أغوى إنسانا فقد أهلكه. قوله تعالى : ﴿وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي ؛﴾ أي لو لا إنعامه عليّ بالإسلام ، ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٥٧) ؛ معك في النار.

وقال الكلبيّ : (ثمّ يؤتى بالموت فيذبح بين الجنّة والنّار ، وينادي مناد بأهل الجنّة : خلود فلا موت ، وبأهل النّار : خلود فلا موت) فيقول هذا القائل لأصحابه على جهة السّرور : ﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ (٥٨) ؛ في هذه الجنّة أبدا ، ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى ؛﴾ التي كانت في الدّنيا ، ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٥٩) ؛ أبدا. فيقال لهم : لا ، فيقولون : ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٠) ؛ فزنا بالجنّة ونعيمها ، ونجونا من النار وجحيمها. فهذه قصة الأخوين ذكرهما الله في سورة الكهف بقوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾ (٦١) ؛ أي لمثل هذا النّعيم المقيم ، والملك العظيم فليعمل العاملون في الدّنيا ، يعني بالنعيم ما ذكره الله من قوله

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩٠.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٩٩.

(٣) الآية / ٣٢.

﴿أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ...﴾ إلى قوله ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾.

وقوله تعالى : ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (٦٢) ؛ معناه : أذلك الفوز الذي سبق ذكره لأهل الجنّة خير مما يهيّأ من الإنزال أم نزل أهل النار؟ وقوله تعالى : ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ لأهل النار في النار ، والزّقّوم : هو ما يكره تناوله ، والذي أراده الله شيء مرّ كريه تناوله ، وأهل النار يكرهون على تناوله ، فهم يتزقّونه على أشدّ كراهة ، تقول : تزقّم هذا العظام ؛ أي تناوله على نكد ومشقّة شديدة.

قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٣) ؛ روي سبب نزول هذه الآية : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ كانوا يقولون لا ندري ما الزقوم؟ فكانوا يتذاكرون هذا الحديث إذ جاءهم عبد الله بن الزبعرى السهمي فذكروا له ، فقال : أكثر الله في بيوتكم منها ، إن أهل اليمن يدعوا الزّبد والتمر الزقّوم ، فقال أبو جهل لجاريته : زقّمينا يا جارية ، فأتته بزبد وتمر ، فقال : تزقّموا فإنّ هذا الذي يخوّفكم به محمّد ، فشاع في أهل مكّة أن محمّدا يخوّف أصحابه بالزّبد والتمر ، فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾[1] أي عذابا بالكافرين ، والفتنة : هي العذاب كما قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾[2] أي عذابكم فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، طَعامُ الْأَثِيمِ﴾[3].

ويجوز أن يكون معنى الفتنة في هذه المحنة والبليّة كما قال الله تعالى : هذه الشجرة افتتن بها الظّلمة ، قالوا : كيف يكون في النار شجرة وهي تأكلها ؛ لأن النار تأكل الشجر ، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي خبرة لهم افتتنوا بها وكذبوا بكونها [4].

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : النص (٢٢٥٣٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢١٦.

(٢) الذاريات / ١٣ ـ ١٤.

(٣) الدخان / ٤٣ ـ ٤٤.

(٤) في اللباب في علوم الكتاب : ج ١٦ ص ٣١٤ ؛ قال ابن عادل : (أو يكون المراد بالفتنة الامتحان.

وبيّن الله تعالى : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤) ؛ أي تنبت في قعر الجحيم ، قال الحسن : (أصلها في قعر جهنّم ، وأصلها في دركاتها ، بالنّار غذّيت ومنها خلقت بلهب النّار ، كما ينمو شجر بالماء ، كلّما ازدادت النّار التهابا ازدادت تلك الشّجرة نموّا وارتفاعا ، وإنّ أهل النّار ليأكلون ويشربون ويلبسون النّار ، ويتقلّبون في النّار ، وإنّ أهون أهل النّار عذابا رجل يكون له نعلان يغلي من حرّهما دماغه) [1].

قوله تعالى : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٦٥) ؛ أي ثمرها كريه مرّ هائل المنظر كأنه حيّات هائلات الرّؤوس تكون في طريق اليمن ، تسمّي العرب تلك الحيّات رؤوس الشّياطين لقبحها. وقال بعضهم : أريد به الشياطين المعروفة ، وقد اعتقد الناس قبحهم وقبح رؤوسهم ، وإن لم يشاهدوهم ، ولذلك يشبهون الشيء القبيح بالشياطين ، يقول الرجل : رأيت فلانا كأنّه شياطين ، ورؤوسه رأس الشيطان ، فالشياطين موصوفة بالقبح وإن كانت لا ترى.

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي من ثمرها ، ﴿فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٦٦) ؛ وذلك أنّ الله تعالى يلقي من أهل النار من شدّة الجوع ما يلجؤهم الى أكلها بما هي عليه من الحرارة والمرارة والخشونة ، فيبتلعونها على جهد حتى يختنقوا بها وتمتليء بطونهم منها ، ويكون حالهم في الأكل منها أضرّ كحالهم في الأكل منها أولا.

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ (٦٧) ؛ وذلك أنّ الله تعالى يلقي عليهم عطشا بعد ذلك حتى يشربوا من الحميم ، وهو الماء الحارّ الذي قد انتهى حرّه ، والشّوب كما هو خلط الشيء بما ليس منه ، بما هو شرّ منه ، يقال له شابه الشيء إذا خالطه ، فشوب الجحيم في بطونهم الزقوم فيصير شوبا له.

---

والاختبار ، فإن هذا الشيء بعيد عن العرف والعادة ، وإذا ورد على سمع المؤمن فوّض علمه إلى الله ، وإذا ورد على الزنديق توسّل به إلى الطعن في القرآن والنبوّة).

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩٠.

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٦٨) ؛ معناه : إن مرجعهم بعد شرب الجحيم وأكل الزقوم الى الجحيم ، وذلك أنّهم يوردون الحميم من شربه وهو خارج من الجحيم كما تورد الإبل الماء ، ثم يردّون إلى الجحيم ، فيتجرّعونه ويصبّ على رؤوسهم ، ومرّة يردّون إلى النار الموقدة ، وهذا عذابهم أبدا. وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [أيّها النّاس اتّقوا الله ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون ، فلو أنّ قطرة قطرت من الزّقوم من الأرض لأمرّت على أهل الدّنيا معيشتهم ، فكيف بمن هو طعامه ليس لهم طعام غيره](١).

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ﴾ (٦٩) ؛ معناه : إنّهم وجدوا آباءهم في الدّنيا ضالّين عن الحقّ والدّين ، ف ، كانوا ، ﴿فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ (٧٠) ؛ أي يمضوا مسرعين كأنّهم يزعجون من الإسراع الى اتّباع آبائهم ، يقال : هرع وأهرع إذا أسرع.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١) ؛ أي ولقد ضلّ قبل هؤلاء المشركين أكثر الأوّلين من الأمم الخالية ، كما ضلّ قومك ، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٧٢) ؛ أي رسلا ينذرونهم العذاب ؛ أي يخوّفونهم بالعذاب على ترك الإيمان ، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣) ؛ الذي أنذروا فكذبوا الرسل ، كيف أهلكهم الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٧٤) ؛ يعني إلّا عباد الله الموحّدين الذين لم يكذّبوا ، فإنّهم نجو من العذاب ولم يهلكوا.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) ؛ أي ولقد دعانا نوح على قومه بالإهلاك حين يئس من إيمانهم ، وأذن له في الدّعاء ، وقال ﴿أَنِّي

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ج ١١ : الحديث (١١٠٦٨). والترمذي في الجامع : أبواب صفة جهنم : الحديث (٢٥٨٥). وابن ماجة في السنن : كتاب الزهد : الحديث (٤٣٢٥). والإمام أحمد في المسند : ج ١ ص ٣٠٠. وابن حبان في الإحسان : كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة : الحديث (٧٤٧٠).

مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[١] ، وقال ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾[٢] ، وقوله ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي نعم المجيبون فأجبناه وأهلكنا قومه الكافرين ، ﴿وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ ؛﴾ ومن آمن به ، ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ؛ وهو الغرق.

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ ؛﴾ وذلك من كان معه من المؤمنين في السّفينة انقرضوا من غير عقب ، وكان نسل نوح عليه السلام من أولاده الثلاثة : سام وحام ويافث ، فأما سام فأبو العرب وفارس والرّوم ، وحام أبو الحبش وجميع السّودان والسّند والهند والبربر ، ويافث أبو التّرك ويأجوج ومأجوج وما هنالك من باقي الناس [٣]. قال ابن عبّاس : (لما خرج نوح عليه السلام من السّفينة مات من معه من الرّجال والنّساء إلّا ولده الثّلاثة ونساءهم) [٤] فذلك قوله تعالى : ﴿هُمُ الْباقِينَ﴾ (٧٧).

وقوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) ؛ أي تركنا على نوح الذّكر الجميل في الباقين بعده ، وذلك الذكر قوله تعالى : ﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ﴾ (٧٩) ؛ أي يصلّى عليه إلى يوم القيامة ، قال الزجّاج : (معنى قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي وأبقيناه ذكرا حسنا وثناء جميلا فيمن بعده إلى يوم القيامة) [٥] ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) ؛ أي كما جزينا نوحا وأنعمنا عليه ، فكذلك نجزي المحسنين في القول والعمل ، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١) ؛ وقيل : (معناه : تركنا على نوح في الآخرين أن يصلّى عليه إلى يوم القيامة) [٦] ، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٨٢).

---

(١) القمر / ١٠.

(٢) نوح / ٢٦.

(٣) أصله كما في الدر المنثور : ج ٧ ص ٩٩ حديث سمرة رضي الله عنه ، قال السيوطي : (أخرجه ابن سعد وأحمد والترمذي وحسّنه ، وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه) وحديث أبي هريرة ، قال السيوطي : (أخرجه البزار وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩١. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٨٩. وابن عادل في اللباب : ج ١٦ ص ٣١٩.

(٥) ينظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج : ج ٤ ص ٢٣٢.

(٦) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٣٢.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ﴾ (٨٣) ؛ معناه : وإنّ من أهل ملّة نوح عليه السلام والمتمسّكين بدينه لإبراهيم ، ﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤) ؛ أي إذ أقبل إلى طاعة ربه بقلب سليم من الكفر والمعاصي ومن كلّ عيب. والشّيعة : هي الجماعة التّابعة لذي رأي لهم [١].

قوله تعالى : ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥) ؛ هذا إنكار من إبراهيم على قوله ، كالرجل ينظر غيره على قبيح من الأمر ، فيقول له : ما هذا الذي تفعل؟

قوله تعالى : ﴿أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ (٨٦) ؛ معناه : أأتّخذ آلهة تريدون عبادتها على وجه الكذب. وقيل : معناه : أتأفكون إفكا هو أسوأ الكذب ، وتعبدون آلهة سوى الله ، ﴿فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٨٧) ؛ إذا لقيتموه وقد عبدتّم غيره ، أي فما ظنّكم أنه يصنع بكم.

قوله تعالى : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩) ؛ قال بعضهم : إنّما نظر إلى النّجوم نظر تدبّر واعتبار ، وليستدلّ بها على وقت الحمّى كانت تأتيه ، فلما عرف بذلك وقت حماه قال إنّي سقيم ؛ أي جاء وقت سقمي ومرضي.

ويقال : أوهمهم بهذا القول أن به مرضا فتركوه ، وكان يريد بهذا القول في نفسه : إنّي سقيم القلب بما أرى من أحوالكم القبيحة في عبادة غير الله ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجّة في أنّها غير معبودة ، وكان لهم عيد يخرجون إليه ، فكلّفوه الخروج معهم إلى عيدهم ؛ فنظر في النّجوم يريهم أنه مستدلّ بها على حاله ، فقال : إنّي سقيم ، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (٩٠) ؛ فتركوه وذهبوا إلى عيدهم.

---

(١) في الكليات : ص ٥٢٣ ؛ قال الكفوي : (كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع ، وغالب ما يستعمل في الذم).

قوله تعالى : ﴿فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾ (٩٢) ؛ أي مال إلى أصنامهم ميلة في خفية سرّا لما أدبروا عنه فوجد بين أيديهم طعاما كانوا قد وضعوه قبل خروجهم إلى عيدهم ، وزعموا بجهلهم أن أصنامهم تبارك لهم فيه ، فإذا رجعوا من عيدهم أكلوه. قال مقاتل : (كانت أصنامهم اثنين وسبعين صنما من خشب وحديد ورصاص وذهب وفضّة ، وكان أكبرهم من ذهب وعيناه ياقوتتان ، فلمّا رآهم إبراهيم كذلك وبين أيديهم الطّعام ، قال : ألا تأكلون ما حولكم من الأطعمة ، فلمّا لم يكن منهم أكل ولا جواب قال لهم : ألا تنطقون إن كنتم آلهة) [1].

قوله تعالى : ﴿فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ (٩٣) ؛ أي مال عليهم بالضّرب بيده اليمنى وبالقوّة ، ويقال : برّ يمينه التي كان حلف بالله لأكيدنّ أصنامكم ، فجعل يضربهم بالفأس حتى جعلهم جذاذا ، ثم جعل الفأس على عاتق كبير الأصنام ، والرّوغان في اللغة : هو الميل على وجه الاضطراب.

قوله تعالى : ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ (٩٤) ؛ أي أقبل المشركون إليه بعد رجوعهم من عيدهم يسرعون في المشي ، كأنّهم أخبروا بصنعه فقصدوه. والزّفيف : هو المشي السّريع ، ومن ذلك زفيف النّعام وهو خببه الذي يكون بين المشي والعدو ، ومنه الآزفة لسرعة مجيئها وهو القيامة.

وقرأ حمزة (يزفّون) بضمّ الياء ؛ أي يحملون دوابّهم وظهورهم على الإسراع في المشي ، وذلك أنّهم أخبروا بصنع إبراهيم بآلهتهم ، وأسرعوا إليه ليأخذوه ، فلما انتهى إليه ؛ ﴿قالَ﴾ لهم محتجّا عليهم : ﴿أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) ؛ بأيديكم من الأصنام ، أي تعبدون ما تنحتونه من الخشب والحجر أمواتا لا تنطق ولا تسمع ولا تنصر ولا تعقل.

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ؛ تنحتون بأيديكم ؛ أي خلقكم ومعمولكم وهو منحوتهم الذي نحتوه ، والمعنى : خلقكم وعملكم ، وهذا

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٠٢.

مذهب أهل السّنة ؛ لأنّهم يعتقدون أنّ الله خلقهم وعملهم ، والقدريّة تنكر خلق الأعمال.

فلمّا ألزمهم إبراهيم عليه‌السلام الحجّة ، ﴿قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٩٧) ؛ أي قالوا : ابنوا له حائطا من حجارة طوله في السّماء ثلاثون ذراعا ، وعرضه عشرون ذراعا ، وملؤوه نارا ، وذلك قوله تعالى : ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وهي النار العظيمة ، فبنوا له ذلك وجمعوا فيه الحطب ، وأرسلوا فيه النار حتى صار جحيما ، ثم رموه بالمنجنيق.

فنجّاه الله تعالى ، وجعل النار عليه بردا وسلاما لم يؤذه منها شيء ولا أحرقت شيئا من ثيابه ، وذلك لإخلاصه وقوّة دينه وصدق توكّله ويقينه ، كما روي أنه عليه‌السلام لما انفصل من المنجنيق أتاه جبريل في الهواء ، فقال هل لك من حاجة؟ فقال : وأمّا إليك فلا.

قوله تعالى : ﴿فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً ؛﴾ أي أرادوا به شرّا ، وهو أن يحرقوه بالنار ، ﴿فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨) ؛ لأن إبراهيم علاهم بالحجّة حين سلّمه الله تعالى وردّ كيدهم عنه ، ولم يلبثوا إلّا يسيرا حتى أهلكهم الله تعالى ، وجعلهم في نار أعظم وأسفل مما ألقوه فيها.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٩٩) ؛ أي قال إبراهيم : إنّي ذاهب إلى مرضات ربي سيهديني لما فيه رشدي وصلاحي ، وأراد بهذا الذهاب إلى الأرض المقدّسة ، وقيل : إلى أرض الشّام ، قال مقاتل : (فلمّا قدم الأرض المقدّسة سأل ربّه الولد)[1] فقال : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠) ؛ أي ولدا صالحا.

واستجاب الله دعاءه بقوله : ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١) ؛ قال الزجّاج : (هذه البشارة تدلّ على أنّه مبشّر بابن ذكر ، وأنّه يبقى حتّى ينتهي في السّنّ ،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٠٣.

ويوصف في الحلم) ، قال الحسن : (وهو إسحاق عليه السلام ) [١]. وقال الكلبيّ : (هو إسماعيل ، وكان أكبر من إسحق بثلاثة عشر سنة).

قوله : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ؛﴾ أي فلمّا بلغ ذلك الغلام معه حالة السّعي في طاعة الله تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ﴾[٢] ، وقيل : معناه : فلما بلغ أن يمشي معه ، وقال مجاهد : (لما شبّ حتّى بلغ أن يتصرّف معه ويعينه ، وكان يومئذ ابن ثلاثة عشر سنة) [٣]. وقيل : أراد بالسّعي في الوقت الذي ينتفع الوالد بالولد في قضاء حوائجه.

قوله تعالى : ﴿قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ؛﴾ أي رأيت في المنام رؤيا تأويلها أنّي أذبحك ، وقيل : رأيت في المنام أنّي أذبحك ، قال مقاتل : (رأى إبراهيم ذلك في المنام ثلاث ليال متواليات) [٤] ، قال ابن جبير : (رؤيا الأنبياء وحي) ، وقال قتادة : (رؤى الأنبياء حقّ ، إذا رأوا شيئا فعلوه) [٥].

وقوله تعالى : ﴿فَانْظُرْ ما ذا تَرى ؛﴾ أي من الرأي فيما ألقيت إليك ، وقرأ حمزة والكسائيّ : (ماذا تري) بضمّ التاء وكسر الراء ، ومعناه : ماذا تشير وماذا تريني من صبرك أو جزعك؟ ﴿قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ﴾ ؛ به من ذبحي ، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٠٢) ؛ على بلائه ، وإنما قال له إبراهيم هذا القول مع كونه مأمورا بذبحه ؛ لأنه أحبّ أن يعلم صبره وعزيمته على أمر الله وطاعته.

---

(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [الذبيح إسحق]. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ١٠٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه الدارقطني في الأفراد والديلمي عن ابن مسعود) وذكره.

(٢) البقرة / ١٢٧.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٦٠٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٢١.

(٤) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٠٤ ، وفيه قال : (ثلاث ليال متتابعات) بدل (متواليات).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٦٠٨).

وفي الآية دلالة على أنّ إبراهيم كان مأمورا بذبح ولده ، لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي بمنزلة الوحي إليهم في اليقظة ، ولذلك قال الابن : ﴿يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ﴾ ولم يقل : افعل ما رأيت في المنام.

واختلفوا في الذبيح من هو؟ فذهب الأكثرون إلى أنه إسحق ، وإليه ذهب من الصّحابة عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبّاس بن عبد المطّلب ، ومن التابعين كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهريّ والسدي.

وقال آخرون : هو إسماعيل ، وهو قول ابن عمر وابن عبّاس وسعيد بن المسيّب والشعبيّ والحسن ومجاهد والكلبيّ والربيع بن أنس ومحمّد بن كعب القرظيّ. وروي عن أبي إسحق الزجّاج أنه قال : (الله أعلم أيّهما الذبيح) (1).

وسياق الآية يدلّ على أنه إسحق ؛ لأنه تعالى قال ﴿فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ ولا خلاف أنه إسحق ، ثم قال : فلما بلغ معه السعي ، فعطف بقصّة الذبح مع ذكر اسحق ، وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم القولان ، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : [الّذي أراد إبراهيم ذبحه هو إسحق](2).

وعن معاوية رضي الله عنه أنه قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل فقال : يا رسول الله عدّ عليّ ممّا أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل معاوية ومن الذبيحان؟ فقال : [إنّ عبد المطّلب لما حفر زمزم نذر لله تعالى لئن سهّل الله أمره ليذبحنّ أحد ولده ، فخرج السّهم على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا : إفد ابنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من الإبل ، والذبيح الثّاني

---

(1) ينظر : معالم التنزيل للبغوي : ص ١٠٩٤. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج ١٥ ص ١٠٠.

(2) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب : ج ٢ : الحديث (٣١٧٣). وفي مجمع الزوائد : ج ٨ ص ٢٠٢ ؛ قال الهيثمي : (رواه البزار وفيه مبارك بن فضالة وقد ضعفه الجمهور). وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ١٠٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه الدارقطني في الأفراد والديلمي عن ابن مسعود وأخرجه ابن مردويه عن (بهار) وكانت له صحبة).

إسماعيل][1] ، ويدلّ على صحّة هذا قوله عليه السلام : [أنا ابن الذبيحين] يريد أباه الأدنى عبد الله بن عبد المطّلب وجدّه إسماعيل [2].

وقال محمّد بن كعب القرظي : (إنّ الّذي أمر الله إبراهيم بذبحه من بنيه إسماعيل ، وإنّا لنجده في كتاب الله تعالى ، إنّ الله تعالى يقول حين فرغ من قصّة المذبوح : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3]) [4].

وقال الأصمعيّ : (سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحق؟ فقال : يا أصمعيّ أين ذهب منك عقلك؟! وأين كان إسحق؟ وإنّما كان إسماعيل بمكّة وهو الّذي بنى البيت مع أبيه كما قال ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ﴾[5] ، والنّحر بمكّة لا شكّ فيه) [6]. وسئل أبو سعيد الضّرير عن الذبيح فأنشد :

إنّ الذبيح هديت إسماعيل ... نطق الكتاب بذاك والتّنزيل

شرف به خصّ الآله نبيّه ... وأتى به التّفسير والتّأويل

وأما قصّة الذبح فقال السديّ : (لما فارق إبراهيم قومه مهاجرا إلى الشّام هاربا بدينه ، دعا الله تعالى أن يهب له من سارة ابنا صالحا ، فقال : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ وهو اسحق). قال السديّ : (فهو والله إسحق

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك : كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء : الحديث (٤٠٩٠). وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ١٠٥ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن جرير والآمدي في مغازيه والخلعي في فوائده ، والحاكم وابن مردويه بسند ضعيف).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا : ج ١ ص ١٨١ ؛ قال : (كذا في الكشاف ، قال الزيلعي وابن حجر في تخريج أحاديثه : لم نجده بهذا اللفظ ، وقال في المقاصد : حديث ابن الذبيحين رواه الحاكم في المناقب). وأخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٢٦٤٥).

(٣) الصافات / ١١٢.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٦٤٥). وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ١٠٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن إسحق وابن جرير).

(٥) البقرة / ١٢٧.

(٦) ذكره البغوي في تفسيره : ص ١٠٩٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٨١.

الذبيح) [١]. وقال محمّد بن كعب : (هو إسماعيل) [٢].

فلمّا أمر الله إبراهيم بذبح من أمر ، قال لابنه : يا بنيّ خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذا الشّعب لنحتطب ، فلمّا خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير قال له : ﴿إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ ما ذا تَرى﴾ قال : يا أبت افعل ما تؤمر واشدد رباطي حتى لا أضطرب ، واكفف ثيابك عني حتى لا ينضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمّي فتحزن ، واستحدّ شفرتك وأسرع حدّ السكّين على حلقي حتى تجسر عليّ فتذبحني ليكون أهون عليّ ، فإن الموت شديد ، وإذا أتيت أمّي فأقرئها منّي السّلام ، فإن رأيت أن تردّ إليها قميصي فافعل ، فإنه عسى أن يكون أسلا لها عني.

فقال إبراهيم : نعم العون أنت يا بنيّ على أمر الله ، فأقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكي ، والابن يبكي حتى استفرغ الدموع تحت خدّه ، ثم إنه وضع السكّين في حلقه فلم تعمل في حلقه شيئا.

قال السديّ : (ضرب الله تعالى في حلقه صفحة من نحاس فلم تقطع السّكين شيئا ، فقال الابن عند ذلك : يا أبت كبّني على وجهي فإنّك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك الرّقّة فتحول بينك وبين الله تعالى ، ففعل ذلك إبراهيم ، ثم وضع السكّين على قفاه فانقلبت السكين.

ونادى أن يا إبراهيم قد صدّقت الرّؤيا هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه ، فنظر إبراهيم فإذا هو جبريل عليه‌السلام ومعه كبش أقرن أملح ، فكبّر جبريل عليه‌السلام وكبّر إبراهيم وكبّر ابنه ، فأخذ إبراهيم الكبش وأتى به المنحر من منى فذبحه ، فلما ذبح إبراهيم الكبش رجع إلى إبنه فجعل يقول له : يا بنيّ قد وهبك الله لي ، ثم رجع إلى أمّه فأخبرها الخبر فجزعت وقالت : يا إبراهيم أردت أن تذبح ولدي ولا تعلمني [٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٦٠٧).

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ١٠٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن إسحق وابن جرير).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٦٠٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (لما رأى إبراهيم ذبح ابنه قال الشّيطان : والله لئن لم تزلّ آل إبراهيم في هذا الأمر لا بقيت استزلّ منهم أحدا ، فتمثّل الشّيطان رجلا وأتى الولد فقال له : هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال : نعم نحتطب لأهلنا حطبا من هذا الشّعب ، قال : والله ما يريد إلّا أن يذبحك ، قال : ولم؟ قال : زعم أنّ ربّه أمره بذبحك ، قال : فليفعل ما أمره به ربّه ، فسمعا وطاعة لله عزّ وجلّ . فرجع الشّيطان إلى أمّ الولد فقال لها : أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت : نعم ذهبا يحتطبان ، قال : لا والله ما ذهب به إلّا ليذبحه ، قالت : كلّا هو أرحم به وأشدّ حبّا له من ذلك ، قال : إنّه زعم أنّ الله أمره بذلك ، قالت : فإن كان ربّه قد أمره بذلك فقد أحسن في امتثال أمر ربه.

فخرج الشّيطان من عندها حتّى أتى إلى إبراهيم عليه السلام فقال : أين تريد أيّها الشّيخ؟ قال : أريد هذا الشّعب لحاجة ، قال : إنّي والله لأدري الشّيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا ، فعرفه إبراهيم وقال : يا عدوّ الله لأمضيينّ لأمر ربي. فرجع إبليس لعنه الله بغيظه ولم يصب من آل إبراهيم شيئا ممّا أراد) [(١)].

قوله تعالى : ﴿فَلَمّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١٠٣) ؛ أي فلمّا انقادا وخضعا لأمر الله تعالى ورضيا به ، وقرأ ابن مسعود : (فلمّا سلّما) أي فوّضا. قوله تعالى : ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه وأضجعه وكبّه على وجهه للذبح ، وقيل : طرحه على الأرض على أحد جنبيه كما يفعل بالكبش حين يذبح ، نادته الملائكة من الجبل بإذن الله : ﴿وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا ؛﴾ أي وفّيت الرّؤيا حقّها ؛ أي وفّيت بما أمرت به في المنام ، دع ابنك وخذ الكبش الذي ينحدر إليك من الجبل المشرف على مسجد منى.

وقوله تعالى ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ أي نودي من الجبل أن يا إبراهيم قد صدّقت الرّؤيا لأنّ الله تعالى قد عرف منهما الصدق حين قصد إبراهيم الذبح بما أمكنه

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك : كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء : الحديث (٤٠٩٩). وأخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٢٦٣٠). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٨٢٣٦).

وطاوع الابن بالتمكين من الذبح ، ففعل كلّ واحد منهما ما أمكنه وإن لم يحقّقوا الذبح ، وكان قد رأى في المنام معالجة الذبح ولم يرق الدم ، ففعل في اليقظة ما رأى في المنام ، فلذلك قيل له : ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ وتمّ الكلام. ثم قال ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٠٥) ؛ أي هكذا نجزي كلّ محسن ممن سلك طريقهما في الانقياد لأمر الله ، وجميل الصبر على ابتلائه.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ (١٠٦) ؛ أي لهو الاختبار البيّن فيما يوجب النعمة والنقمة ، وأيّ اختبار أعظم من أن يؤمر الشيخ الكبير بذبح الولد العزيز بيده. وقوله تعالى : ﴿وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠٧) ، أي بكبش عظيم ؛ أي أقمنا الذبح مقامه وجعلناه بدلا عنه.

وعن عطاء بن يسار قال : (لما بلغ إسماعيل سبع سنين رأى إبراهيم عليه‌السلام أنّه يذبح ، فأخذ بيده ومضى به إلى حيث أمر حتّى انتهى إلى منحر البدن اليوم ، فقال : يا بنيّ إنّ الله أمرني بذبحك ، قال إسماعيل : فأطع ربّك.

ففعل إبراهيم ، فجعل ينحره في حلقه ، نحر في فأس لم تؤثّر فيه الشّفرة ، فشحدها مرّتين أو ثلاثا بالحجر ، وفي كلّ لا يستطيع ، فرفع رأسه فإذا هو بكبش قد رعى في الجنّة أربعين خريفا).

قال الحسن بن الفضل : (ما فدي إلّا بتيس هبط عليه من ثبير فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه) [1]. وقيل : كان الفداء وعلا من الأوعال الجبليّة.

وأما قوله ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال سعيد بن جبير : (حقّ عليه أن يكون عظيما ، وقد رعى في الجنّة أربعين خريفا) [2]. وقال مجاهد : (سمّي لأنّه متقبّل) [3] ، وقال الحسن ابن الفضل : (لأنّه كان من عند الله تعالى) ، وقال أبو بكر الورّاق : (لأنّه لم يكن عن نسل وإنّما كان بالتّكوين).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٦٦٤). والبغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٦٥٥). والبغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩٥.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٦٦٥). والبغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩٥.

قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨) ؛ أي تركنا على إبراهيم في العالمين أن يقال : ﴿سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ﴾ (١٠٩) ، ويصلّى عليه إلى يوم القيامة ، ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٠) ، وبقينا عليها حسنا ، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١).

قوله تعالى : ﴿وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٢) ؛ من جعل الذبيح إسماعيل قال : بشّر الله إبراهيم بولد بعد هذه القصّة جزاء لطاعته ، ومن جعل الذبيح إسحق قال : بشّر إبراهيم بنبوّة إسحق ، وأثيب إسحق بصبره بالنبوّة.

قوله تعالى : ﴿وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ ؛﴾ أي وباركنا على إبراهيم وعلى إسحق ، وقيل : على إسماعيل وعلى إسحق ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ؛﴾ المحسن هو المؤمن ، والظالم المبين هو الكافر.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ﴾ (١١٤) ؛ أي أنعمنا عليهما بالنبوّة والرسالة وغير ذلك من أنواع النعيم ، والمنّ قطع كلّ أذيّة ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[١] أي غير مقطوع. قوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (١١٥) ؛ أي وخلعناهما من الخزي القطيع من استعباد فرعون إيّاهم ، ومن ذبح الأبناء ، وتسخير الرجل في الأمور الشاقّة ، ﴿وَنَصَرْناهُمْ﴾ ، على فرعون وقومه ، ﴿فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ﴾ (١١٦) ؛ بعد ما كانوا مغلوبين ، ﴿وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ (١١٧) ؛ أي أعطيناهما الكتاب البيّن وهو التوراة ، ﴿وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١١٨) ؛ وهو دين الاسلام ، ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٢).

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٣) ؛ قال ابن عبّاس : (هو عمّ اليسع ، وهو من ذرّيّة هارون بن عمران ، وهارون هو جدّ أبيه)[٢]. وقال ابن

---

(١) الانشقاق / ٢٥.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩٥.

إسحق : (إلياس هو يوشع بن نون) [١].

ويقال : إلياس والخضر في الأحياء ، فإلياس صاحب البراري ، والخضر صاحب الجزائر ، ويجتمعان في كلّ سنة مرّة بعرفات!

وعن أنس رضي الله عنه قال : (غزونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنّا نفح الناقة إذ نحن بصوت يقول : اللهم اجعلني من أمة محمّد المرحومة المغفور لها المثوب عليها المستجاب لها ، فقال رسول الله ﷺ : [يا أنس انظر هذا] فدخلت الجبل فاذا أنا برجل أبيض الرأس واللحية ، عليه ثياب بيض طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع ، فلما نظر إلى قال : أنت من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قلت : نعم ، قال : ارجع إليه فأقرئه مني السّلام ، وقل له : أخوك إلياس يريد لقاءك ، فجاء النبيّ ﷺ وأنا معه ، حتى إذا كنّا قريبا منه ، تقدّم النبيّ ﷺ وتأخرت ، فتحادثا طويلا ، فنزل عليهما من السّماء شبه السّفرة ، فدعوني أكلت معهما ، فإذا فيها كمأة ورمّان وكرفس ، فلما أكلت قمت فتنحيت ، فجاءت سحابة فاحتملته وأنا أنظر إلى بياض ثوبه ، فهوت به قبل الشّام) [٢].

قوله تعالى : ﴿إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (١٢٤) ؛ عقاب الله بعبادة غير الله ، وقوله تعالى : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً ؛﴾ أي أتدّعون بالإلهيّة بعلا صنما ، ﴿وَتَذَرُونَ﴾ ، وتتركون عبادة ، ﴿أَحْسَنَ الْخالِقِينَ﴾ (١٢٥) ؛ وكان قومه يعبدون صنما لهم من ذهب يقال له بعل ، وكان طوله عشرين ذراعا ، وكان له أربعة وجوه ، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله وهم في ذلك لا يسمعون منه شيئا.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١٠٩٥.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة : ج ٥ ص ٤٢١ ؛ قال : (إسناد هذا الحديث ضعيف). وذكره ابن كثير في البداية والنهاية : ج ١ ص ٣٩٤ ؛ وقال : (فقد كفانا البيهقي أمره وقال ... والعجب أن الحاكم أبا عبد الله أخرجه في مستدركه على الصحيحين ، وهذا مما استدرك به على المستدرك ، فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه). وفي لسان الميزان : ج ٦ ص ٢٩٥ ؛ قال ابن حجر : (حديث باطل أخرجه الحاكم في مستدركه ... فما استحى الحاكم من الله بتصحيح مثل هذا). وقال في تلخيص المستدرك : (هذا حديث موضوع ، ما كنت أحسب أن الجهل يبلغ بالحاكم أن يصحح هذا ، وهذا ما افتراه يزيد البلوي).

وقوله تعالى : ﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢٦) ؛ أي خالقكم وخالق آبائكم ، ومن قرأ ﴿رَبَّكُمْ﴾ بالنصب فعلى صفة ﴿أَحْسَنَ الْخالِقِينَ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٢٧) ؛ أي لمحضرون في النار والعذاب بتكذيبهم ، ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٢٨) ؛ أي لكن عباد الله المخلصين مبعدون من الموضع الذي فيه المشركون.

قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٢٩) ، يريد إلياس ومن آمن معه ، ﴿سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٢) ؛ قال أبو علي الفارسي : (تقديره : الياسيّين)[2] إلّا أنّ اليائين للنّسبة حذفتا ، كما حذفتا في الأشعريّين والأعجمين ، وقرأ نافع (الياسين) أي سلام على أهل كلام الله وآل محمّد ﷺ ، فإن يس من كلام الله تعالى في القرآن.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) ؛ أي من جملة المرسلين ، ﴿إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ﴾ (١٣٥) ؛ يعني امرأته المنافقة تخلّفت في موضع العذاب في جملة الباقين ، ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (١٣٦) ؛ أي أهلكناهم بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٨) ؛ هذا خطاب لمشركي العرب ، كانوا يعدون على قريات قوم لوط فلم يعتبروا.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤٠) ؛ أي هرب من قومه إلى السفينة المملوءة بالناس والدواب ، وإنما هرب لأن الله كان أوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا فلم يؤمنوا ، وعلم أنّ العذاب نازل بهم ، فخرج من بينهم من غير أن يأمره الله تعالى بالخروج ، فكان ذلك دينا منه وكان

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٣٥ ؛ قال الزجاج : (وقرئت (الله ربكم) على صفة أحسن الخالقين الله ، وقرئت (الله ربّكم) على الابتداء والخبر).

(٢) الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٢٠.

قصده حين خرج منهم للمبالغة في تحذيرهم وإنذارهم ، فكان بذهابه كالفارّ من مولاه ، فوصف بالأباق.

وقوله تعالى : ﴿فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (١٤١) ؛ وذلك أنه لما ركب السفينة ، وقفت السفينة ولم تسر بأهلها ، فقال الملّاحون : ههنا عبد آبق من سيّده ، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها عبد آبق لا تجري واقترعوا فوقعت القرعة على يونس فقال : أنا الآبق ، ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ.﴾

قال سعيد بن جبير : (لما استهموا جاء حوت إلى السّفينة فاغرا فاه ينتظر أمر ربه ، كأنّه يطلب واحدا من أهلها ، فقال يونس : يا أهل السّفينة أنا المطلوب من بينكم ، فقالوا : أنت أكرم على الله تعالى من أن يبتليك بمثل هذه البليّة ، فقال لهم : اقترعوا فمن خرجت القرعة على اسمه ألقي إلى الحوت ، وكان يعلم أنّ القرعة تخرج عليه ، إلّا أنّه لم يبدأ بإلقاء نفسه إلى الحوت مخافة أن تلحقه سمة الجنون ، فساهم فوقع السّهم عليه فكان من المسهومين).

والمدحض في اللغة : هو المغلوب في الحجّة ، وأصله من دحض الرجل إذا نزل من مكانه ، فلما ألقي عليه السّلّم في البحر ابتلعه الحوت ابتلاع اللّقمة.

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (١٤٢) ؛ أي أتى بما يستحقّ عليه اللّوم ، والمليم : الآتي بما يلائم على مثله ، وسبب استحقاقه اللّوم خروجه من بين قومه قبل ورود الإذن عليه من الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) ، أي لو لا أنه كان قبل أن يلتقمه الحوت من المصلّين لله تعالى ، ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤) ؛ لمكث في بطن الحوت إلى يوم البعث والنّشور. قال الحسن : (ما كانت له صلاة في بطن الحوت ، ولكنّه قدّم عملا صالحا قبل ذلك) [1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٧١٧). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٢٩.

ويقال : إن المراد بالتسبيح في هذه الآية قوله في الحوت : لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين. قال السديّ : (لبث يونس في بطن الحوت أربعين يوما) [1] ، وقال الضحّاك : (عشرين يوما) [2] ، وقال عطاء : (تسعة أيّام) [3] ، وقال مقاتل : (ثلاثة أيّام) [4].

قوله تعالى : ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ (١٤٦) ؛ أي ألهمنا الحوت أن يطرحه على فضاء من الأرض ، والعراء هو المكان الخالي من الشّجر والبناء ، قال مقاتل : (معنى : ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ يعني وجه الأرض وهو سقيم قد بلي لحمه مثل الصّبيّ المولود) ، قال ابن مسعود : (كهيئة الفرخ الّذي ليس عليه ريش).

وقيل : معنى ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي وهو مريض ، وذلك لما أصابه في بطن الحوت من الشدّة والضّغطة والبعد من الهواء والغذاء ، حتى ضعف جسمه ورقّ جلده ولم يبق ظفر ولا شعر كالولد أوّل ما يخرج من بطن أمّه.

فلما ألقي على وجه الأرض كان يتأذى بحرّ الشّمس ، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين ، قال الكلبيّ : (هي القرع) ، وهي شجرة الدّبّاء العربي ، وكلّ شجرة لا تقوم على ساق وتمتدّ على وجه الأرض مثل القرع والبطّيخ ونحوها فهو يقطين ، واشتقاقه من قطن من المكان إذا أقام به ، فهذا الشّجر يكون ورقه وساقه على وجه الأرض ، فلذلك قيل : يقطين ، ومن خصائص شجرة القرع أنّها لا يقربها ذباب ، قالوا : فكان يستظلّ بها من الشّمس ، وسخّر الله له وعلة [5] بكرة وعشيّا تختلف إليه ، فكان

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٧٢٠).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠١.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠١.

(٤) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٢٣ عن مقاتل بن حيان. وكذا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠١.

(٥) الوعل : تيس الجبل. والأنثى : وعلة. ينظر : القاموس المحيط : (وع ل)

ثم أرسله الله بعد ذلك وهو قوله : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧) ؛ وقال الحسن : (معناه : بل يزيدون) ، وقال الكلبيّ : (معناه : ويزيدون) ، وكان الذين أرسل إليهم أهل نينوى ، كأنّه أرسل قبل ما التقمه الحوت إلى قوم ، وبعد ما نبذه الحوت إلى قوم آخرين.

قوله : ﴿فَآمَنُوا﴾ ؛ أي فآمن من أرسل إليهم يونس عليه السلام بما جاءهم به من عند الله تعالى. قوله تعالى : ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (١٤٨) ؛ أي إلى حين آجالهم. واختلفوا في الزيادة على مائة ألف ، قال مقاتل : (كانت الزّيادة عشرين ألفا) [(١)] ، وقال الحسن : (بضعا وثلاثين ألفا) [(٢)] ، وقال سعيد بن جبير : (سبعين ألفا) [(٣)].

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١٤٩) ؛ أي سلهم ـ يا محمّد ـ أهل مكّة سؤال توبيخ وتقريع (ألربك البنات ولهم البنون)؟ وذلك أنّ قريشا وقبائل من العرب منهم خزاعة وجهينة وبنو سليم كانوا يقولون : إنّ الملائكة بنات الله ، تعالى الله عمّا يقولون علوّا كبيرا. وقوله تعالى : ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ﴾ (١٥٠) ؛ أي حاضروا خلقنا إيّاهم ، فكيف جعلوهم إناثا ولم يشهدوا خلقهم كما قال الله تعالى : ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾[(٤)].

قوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ (١٥٢) ؛ في إضافة الأولاد إلى الله تعالى حين زعموا أنّ الملائكة بنات الله ، تعالى عمّا يقولون علوّا كبيرا ، ﴿أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٣) ؛ القراءة المعروفة المشهودة بفتح الألف على الاستفهام الذي فيه التوبيخ ، والمعنى : سلهم أصطفى البنات ، إلّا أنه حذف ألف الوصل وبقيت ألف الاستفهام مفتوحة

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٠٨.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٢.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٧٤٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٣١.

(٤) الزخرف / ١٩.

مقطوعة على حالها مثل أستكبرت وأستغفرت [١] ، وأذهبتم ونحوها. وقرأ نافع برواية ورش ﴿أَصْطَفَى﴾ موصولة على الخبر والحكاية عن قول المشركين ، تقديره : ليقولون ولد الله ويقولون اصطفى البنات [٢].

وقوله تعالى : ﴿ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٤) ؛ هذا توبيخ لهم ؛ أي كيف ترضون لله ما لا ترضون لأنفسكم ،﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥) ، أفلا تتّعظون فتمتنعون عن مقالتكم ،﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ﴾ (١٥٦) ؛ أم لكم حجّة بيّنة على صحّة دعواكم هذه ، ﴿فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ ؛﴾ وحجّتكم ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (١٥٧) فيما تدّعون.

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً ؛﴾ أي جعل هؤلاء بين الله وبين الملائكة الذين يشاهدونهم نسبا ، وسميت الملائكة جنّة في هذا لاستتارهم عن أعين الناس كاستتار الجنّ ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٥٨) ؛ أي علمت الملائكة أنّ الكفار الذين عبدوهم لمحضرون في العذاب لدعائهم إلى هذا القول.

ثم نزّه الله تعالى نفسه فقال : ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٥٩) ؛ أي عمّا يصفونه ويضيفونه إليه ، ﴿إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٦٠) ؛ لكنّ عباد الله المخلصين من الجنّ والإنس لا يحضرون هذا العذاب.

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ﴾ (١٦١) ؛ هذا خطاب لأهل مكّة ، معناه : فإنّكم أيّها المشركون وما تعبدونه من دون الله الأصنام ، ﴿ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ﴾ (١٦٢) ؛ أي ما أنتم على ذلك بمضلّين أحدا ، ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ﴾ (١٦٣) ، إلّا من كان في علم الله أنه يصلى الجحيم ، وفي هذا بيان على أنّهم لا يفسدون أحدا إلّا من كان في معلوم الله أنه سيكفر ، يعني أن قضاء الله سبق في قوم بالشّقاوة ، فإنّهم يصلون النار ، فهم الذين يضلّون في الدّين ويعبدون الأصنام.

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) ينظر : إعراب القرآن : ج ٣ ص ٢٩٩. والحجة للقراء السبعة : ص ٣٢٢.

قوله تعالى : ﴿وما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١٦٤) ؛ هذا من قول جبريل عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : ليس منّا معشر الملائكة ملك في السّموات والأرض إلّا له موضع معلوم يعبد الله فيه ، لا يتجاوز ما أمر به ، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ (١٦٥) ؛ أي المصطفّون في الصّلاة كصفوف المؤمنين. وقيل : صافّون حول العرش ينتظرون الأمر والنهي من الله تعالى ، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١٦٦) ؛ أي المصلّون لله ، المنزّهون له عن السّوء ، وعن جميع ما لا يليق بصفاته.

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ﴾ (١٦٧) ، أي وقد كان كفار مكّة يقولون : ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦٨) ، لو جاءنا ذكر كما جاء غيرنا من الأوّلين من الكتب ، ﴿لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٦٩) ؛ لأخلصنا العبادة لله ، فلمّا جاءهم الرسول والكتاب كما قالوا وطلبوا ؛ ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ ، كفروا بذلك ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٠) ، ماذا ينزل بهم ، وهذا كما قالوا : لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنّا أهدى منكم.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ؛ معناه : لقد تقدّم وعدنا بالنصر والظّفر لعبادنا المرسلين ، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ، يعني بالكلمة قوله تعالى : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[1] فهذه الكلمة التي قد سبقت ، فالله تعالى لم يفرض على نبيّ الجهاد إلّا ونصره وجعل العاقبة له ، قال الحسن : (ما غلب نبيّ في حرب ولا قتل فيه قط) [2].

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ (١٧٣) ؛ أي جند الله لهم الغلبة بالحجّة والنصر في الدّنيا ، وينتقم الله من أعدائه في الآخرة. قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٧٤) ؛ أي أعرض عنهم حتى تنقضي المدّة التي أمهلوا فيها ، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ ، في عذاب الآخرة ، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٥) ؛ ما وعدوا من

---

(١) المجادلة / ٢١.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٣٩.

العذاب. وقيل : معناه : أعرض عنهم حتى نأمرك بقتالهم ، وأبصرهم بقلبك فسوف يبصرون العذاب بأعينهم.

فقالوا للنّبيّ ﷺ : متى ينزل بنا العذاب الذي تعدنا به؟ فقال الله تعالى : ﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦) ؛ أي يطلبون تعجيل عذابنا لجهلهم ، ﴿فَإِذا نَزَلَ ؛﴾ العذاب ، ﴿بِساحَتِهِمْ ؛﴾ أي بفناء دارهم وموضع منازلهم ، ﴿فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (١٧٧) ؛ أي فبئس صباح قوم أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا.

وعن أنس رضي الله عنه قال : لما أتى النّبيّ ﷺ خيبر ، قال : [الله أكبر ، خربت خيبر إنّا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين](١).

وقوله تعالى : ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٧٨) ؛ إنّما ذكره ثانيا تأكيدا لوعد العذاب ، وقوله تعالى : ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٩) ؛ ليس هذا بتكرار ؛ لأنّهما عذابان ، أراد بالأول عذاب الآخرة ، وبالثاني عذاب الدّنيا يوم بدر.

قوله تعالى : ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) ؛ أي تنزيها لربك رب القدرة والمنعة والغلبة عمّا يقولون من الكذب بالأوثان آلهة ، وأنّ الملائكة بنات الله.

وقوله تعالى : ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١) ؛ الذين بلّغوا عن الله التوحيد والشرائع. قال النّبيّ ﷺ : [إذا سلّمتم عليّ فسلّموا على المرسلين ، فإنّما أنا رسول من المرسلين](٢).

قوله تعالى : ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (١٨٢) ؛ أي الشّكر لله رب الخلائق على إهلاك الأعداء وإعزاز الأولياء. وقيل : معناه : والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه البخاري في الصحيح : كتاب الأذان : الحديث (٦١٠). ومسلم في الصحيح : كتاب النكاح : الحديث (١٢٠ / ١٣٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : ج ١٢ ص ١٣٩ : الحديث (٢٢٨٠٦). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٣٤. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ١٤٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن سعد وابن مردويه مرسل).

على إهلاك المشركين ونصرة الأنبياء.

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال : (من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه من مجلسه : سبحان ربك رب العزّة عمّا يصفون ...) [١] إلى آخر السّورة.

**آخر تفسير سورة (والصافات) والحمد لله رب العالمين.**

---

(١) أخرجه البغوي في معالم التنزيل بإسناده عن أصبغ بن نباته عن علي رضي الله عنه ، وذكره. وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٤١ ؛ قال القرطبي : (ذكره الثعلبي من حديث رضي الله عنه مرفوعا). ينظر : الكشف والبيان للثعلبي : ج ٨ ص ١٧٤.

## سورة ص

سورة ص مكّيّة ، وهي ثلاثة آلاف وتسع وتسعون حرفا ، وسبعمائة واثنان وثمانون كلمة ، وثمان وثمانون آية.

قال النّبيّ ﷺ : [من قرأ سورة ص أعطي من الأجر وزن كلّ جبل سخّره الله تعالى لداود حسنات ، وعصم من أن يصرّ على ذنب صغير أو كبير][1].

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) ؛ اختلفوا في قوله (ص) قال : (صدق الله) وهو قول الضّحّاك [2] ، وقال عطاء : (صدق محمّد ﷺ) ، وقال محمّد بن كعب القرظي : (هو مفتاح اسم الله صمد وصانع المصنوعات وصادق الوعد) [3]. وقيل : هو من فواتح السّور. قال ابن عبّاس : (هو قسم أقسم الله به) [4] ، وقال سعيد بن جبير : (هو بحر يحيي الله به الموتى بين النّفختين) [5]. وقيل : هو إشارة إلى صدود الكفّار عن القرآن والهدى.

قال الكلبيّ : (معناه : أعرض عن الهدى) كأنّه ذهب إلى أنّه كان في الأصل صدّ ؛ أي صدّ أبو جهل أو صدّ أهل مكّة عن الحقّ ، فأبدلت إحدى الدّالين ألفا).

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٤ ص ١٠٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٨١٢).

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٨١٠).

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٤٣.

وقرأ عيسى بن عمر : (صاد) بفتح الدّال ، ومثل قاف ونون ، لاجتماع السّاكنين وحرّكها بأخفّ الحركات. ومعناه : صاد محمّد قلوب الرّجال واستمالها حتى آمنوا به. وقرأ الحسن : (صاد) بكسر الدّال من المضادّات التي هي من المقابلة والمعارضة ؛ أي عارض عملك بالقرآن [1].

قوله تعالى : ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي ذي البيان الهادي إلى الحقّ. وقيل : معناه : ذي الشّرف ، كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2] والمعنى : أقسم الله تعالى بالقرآن أنّ محمّدا صادق ، وجواب قسم محذوف تقديره : والقرآن ذي الذّكر ما الأمر كما يقول الكفّار [3].

قوله تعالى : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾ (٢) ؛ يعني : كفّار مكّة في منعة وحميّة وتكبّر عن الحقّ ، ﴿وَشِقاقٍ﴾ أي خلاف وعداوة لمحمّد ﷺ. قوله تعالى : ﴿كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ؛﴾ أي من أمم بتكذيبهم الرّسل ، ﴿فَنادَوْا ؛﴾ عند وقوع الهلاك بهم بالاستغاثة ، ﴿وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾ (٣) ؛ أي وليس الحين حين نزو ولا قرار [4] ، قال وهب : (لات باللّغة السّريانيّة : وليس ، وذلك أنّ السّريانيّ إذا أراد أن يقول وليس يقول : ولات) [5] وقال أئمّة اللّغة : (أصلها (لا) زيدت فيها التّاء ، كما زيدت في ثمّت وربّت).

وقال قوم : إنّ التاء زيدت في ﴿حِينَ﴾ كما زيدت في قول الشّاعر :

العاطفون تحين ما من عاطف ... والمطعمون زمان أين المطعم؟ [6]

---

(١) ذكره ابن النحاس في إعراب القرآن : ج ٣ ص ٣٠٢.

(٢) الزخرف / ٤٤.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٤٤ ؛ قال القرطبي : (ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب ؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة ، بل هم في تكبّر عن قبول الحق).

(٤) النّزو : من نزا ، أي وثب ، وبابه عدا. والمراد : ضرب العدوّ.

(٥) في الدر المنثور : ج ٧ ص ١٤٥ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه وذكره.

(٦) البيت لأبي وجزة السعدي. قاله ابن النحاس في إعراب القرآن : ج ٣ ص ٣٠٤. وينظر : اللسان : (ليت) : ج ١٢ ص ٣٧٣.

والمراد بتحين : حين. فمن قال : إنّ التاء مع لا ، فالوقف عليه بالتاء. وروي عن الكسائيّ (ولاه) بالهاء في الوقف ، ومثله روى قنبل عن ابن كثير. ومن قال : إن التاء مع حين لا ، فالوقف عليه ، (ولا) ثم تبتدئ : تحين مناص [1].

قال ابن عبّاس : (كان كفّار مكّة إذا قاتلوا فاضطربوا في الحرب ، قال بعضهم لبعض : مناص ؛ أي اهربوا وخذوا حذركم ، فلمّا نزل بهم العذاب ببدر قالوا : مناص ، على عادتهم ، فأجابتهم الملائكة : ولات حين مناص ؛ أي ليس هذا حين منجى) [2].

وقيل : معناه : ﴿وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾ أي ليس هذا حين نزو ولا حين فرار ، والمناص مصدر من النّوص ، يقال : ناصه ينوصه إذا فاته ، ويكون النّوص بمعنى التأخّر ؛ أي ليس هذا حين التأخّر ، والنّوص هو الفوت والتأخّر.

قوله تعالى : ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ؛﴾ أي وعجب المشركون أن جاءهم نبيّ منهم يخوّفهم من عذاب الله ، ﴿وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٤) ؛ يعنون النبيّ ﷺ.

وقوله تعالى : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ؛﴾ أي قالوا لفرط جهلهم على وجه الإنكار : أجعل محمّد الآلهة إلها واحدا؟ ﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ (٥) ؛ أمّا هذا الذي يقول محمّد ﷺ من ردّ الحوائج إلى إله واحد ، إلّا شيء مفرط في العجب.

والعجاب : ما يكون في غاية العجب ، يقال : رجل طوال ، وأمر كبار ، وسيف قطاع ، وسيل حجاف ، ويراد بذلك كلّ مبالغة.

وذلك أنّ عمر بن الخطّاب لما أسلم شقّ على قريش ، فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم الرّؤساء والصّناديد والأشراف ، وكانوا خمسة وعشرين رجلا ، منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم سنّا ، وأبو جهل ، وأبيّ بن خلف ، وأبو البحتري بن

---

(١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٣٠٤.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٥. وينظر : الدر المنثور : ج ٧ ص ١٤٤. والجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٤٦.

هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والعاص بن وائل ، والنضر بن الحارث ، ومخرمة بن نوفل ، وزمعة بن الأسود ، والأخنف بن شريق ، وغيرهم.

قال لهم الوليد بن المغيرة : امشوا إلى أبي طالب وقولوا له : أنت شيخنا وكبيرنا ، وإنّا أتيناك لتقض بيننا وبين ابن أخيك. فمشوا إليه وهو يومئذ مريض مرض الموت ، فشكوا إليه النّبيّ ﷺ ، فقال له : يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال : [أريد منهم كلمة واحدة إذا قالوها ملكوا العرب ودانت لهم العجم] فقالوا : وما هي؟! قال : [قولوا لا إله إلّا الله] فنفروا من ذلك ؛ وقالوا : أنجعل آلهة إلها واحدا؟! [1]

وقيل : إنّ أبا طالب لما دعا النبيّ ﷺ قال : يا ابن أخي ؛ هؤلاء قومك يسألونك السّواء ، فلا تمل كلّ الميل عليهم ، فقال : [وماذا يسألونني؟] قال : ترفض ذكر آلهتهم ويدعونك وإلهك ، فقال النبيّ ﷺ : [إنّي أدعوهم إلى كلمة واحدة] قالوا : وما هي؟ قال : [لا إله إلّا الله].

فنفروا من ذلك ، وقال : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً﴾ ، فاغتاظوا من ذلك وخرجوا من عند أبي طالب يقول بعضهم لبعض : أمشوا واصبروا على آلهتكم [2]. فذلك قوله تعالى : ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾[3] ؛ أي انطلق من مجلسهم وهم يقولون الذي كانوا فيه عند أبي طالب ، وهم يقولون : اثبتوا على عبادة آلهتكم واصبروا ، ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ ؛﴾ على دينكم ، ﴿إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ﴾ (٦) ؛ أي هذا الشيء يريده محمّد صلّى الله عليه وسلّم ولا يتمّ له ذلك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ١ ص ٢٢٧. والترمذي في السنن : كتاب التفسير : الحديث (٣٢٣٢). والنسائي في السنن الكبرى : ج ٥ ص ٨٧٦٩.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٥٠.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٥٠.

قوله تعالى : ﴿ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ؛﴾ أي قالوا : ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمّد ﷺ من التّوحيد في الملّة الآخرة ، يعنون النّصرانية ؛ لأنّها آخر الملل ، والنصارى لا توحّد بأنّهم يقولون : ثالث ثلاثة. ﴿إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ﴾ (٧) ؛ أي قالوا : ما هذا الذي يقوله محمّد ﷺ إلّا كذب اختلقه من تلقاء نفسه ، يعنون الذي جاء به من التوحيد والقرآن.

قوله تعالى : ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا ؛﴾ أي قال المشركون : اختصّ محمّد ﷺ بالنّبوة والكتاب من بيننا ، ونحن أكبر منه سنّا وأعظم شرفا! والمعنى بالذّكر القرآن.

يقول الله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ؛﴾ أي يقولون ما يعتقدونه إلّا شاكّين ، ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ﴾ (٨) ؛ الاستئصال ، وهذا تهديد لهم ، أي أنّهم سيذوقوا العذاب ثم لا ينتفعون بزوال الشّكّ في ذلك الوقت.

قوله تعالى : ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهّابِ﴾ (٩) ؛ معناه : عندهم خزائن رحمة ربك ؛ أي بأيديهم مفاتيح النّبوة والرّسالة فيضعونها حيث شاؤا. وقيل : معناه : عندهم خزائن رحمة ربك فيمنعونك ما منّ الله به عليك من الكرامة وفضّلك به من الرّسالة. ومعنى الآية : ليس ذلك بأيديهم ولكنه بيد العزيز في ملكه ، الوهّاب الذي وهب النبوّة لك.

قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾ (١٠) ؛ وذلك أنّهم كانوا يحسدون النبيّ ﷺ على ما خصّ به من النبوّة والوحي ، فقال الله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فينازعوا خالقهم ، وينزّل الوحي على من يختار ، فقال لهم : ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾ أي فليصعد في طوق السّموات من سماء إلى سماء ، فليمنع الوحي عنك إن كان لهم مقدرة على ذلك.

قوله تعالى : ﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ﴾ (١١) ؛ أخبر الله تعالى نبيّه أنه سيهزم جند المشركين ببدر ، و ﴿جُنْدٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف ؛ أي هم جند ، و ﴿ما﴾ زائدة ، و ﴿هُنالِكَ﴾ إشارة إلى بدل ومصارعهم بها و ﴿الْأَحْزابِ﴾ سائر من تقدّمهم

من الكفّار الذين تجرّؤوا على الأنبياء عليهم السلام [١].

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ، أي كذبت قبل قومك قوم نوح ، ﴿وَعادٌ﴾ ، هودا ، وكذب ، ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ﴾ (١٢) ، وموسى عليه السلام ، ﴿وَثَمُودُ﴾ ، صالحا ، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ ، لوطا ، ﴿وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ ؛﴾ شعيبا ، كذب هؤلاء أنبياءهم فحلّ بهم عذاب الاستئصال ، وكذلك ﴿أُولئِكَ ؛﴾ أي أؤلئك ، ﴿الْأَحْزابُ﴾ (١٣) ، والأحزاب الجماعة الكثيرة القويّة ، ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ ، كلّهم كذبوا الرّسل رسلهم ، ﴿فَحَقَّ عِقابِ﴾ (١٤) ، فحقّ عليهم عقابي وعذابي ، وكذلك يحقّ على قومك.

وسمّي فرعون ذو الأوتاد ؛ لأنه كان يمدّ بين الأوتاد فيرسل عليهم الحيّات والعقارب. وقيل : إنه كان إذا غضب على الإنسان واتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض ، قال عطيّة : (﴿ذُو الْأَوْتادِ﴾ ؛ أي ذو الجنود والجموع الكثيرة) [٢] يعني أنّهم كانوا يقوّن أمره ويشددون ملكه كما يقوّي الوتد الشيء. وقيل : الأوتاد الأبنية المشيدة ، سمّيت بذلك لارتفاعها كما سميت الجبال أوتادا.

قوله تعالى : ﴿وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ؛﴾ أي ما ينظر أهل مكّة لوقوع العذاب بهم إلّا صيحة واحدة وهي نفخة البعث ، وذلك أنّ العقوبة في قوم النبيّ صلى الله عليه وسلم مؤخّرة إلى يوم البعث ، وعقوبة الأمم الماضية كانت معجّلة في الدّنيا ومؤجّلة في الآخرة ، ألا ترى أنّ الله تعالى ذكر عقوبة الاستئصال في الدّنيا من الأمم الماضية ، وقال في هذه الأمّة ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ما لَها مِنْ فَواقٍ﴾ (١٥) ؛ أي ما لتلك الصّيحة من رجعة إلى الدّنيا ، والفواق بضمّ الفاء وفتحها بمعنى واحد وهو رجوع ، ومن ذلك قولهم : أفاق فلان من الجنون ومن المرض ؛ إذا رجع إلى الصحّة. والفواق بضمّ الفاء ما بين

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٣٩٩. وإعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٣٠٦.

(٢) ذكره أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٦.

(٣) القمر / ٤٦.

حلبتي النّاقة ؛ لأن اللّبن رجوعه إلى الضّرع بين الحلبتين. والمعنى : ما ينظر هؤلاء إلّا صيحة واحدة ما لها من رجوع. وقيل : يردّد لك الصوت فيكون له رجوع [1].

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾ (١٦) ؛ أي قاله المشركون عجّل لنا صحيفتنا قبل الحساب حتى نعلم ما فيها ، قال الكلبيّ : (لما نزل في الحاقّة : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ و ﴿أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ﴾ قالوا على جهة الاستهزاء : ربّنا عجّل لنا قطّنا في الدّنيا ، فقيل : يوم الحساب أعجل لنا كتابنا ، قالوا ذلك تكذيبا واستهزاء) [2].

والقطّ : الصّحيفة التي أحصت كلّ شيء. وقيل : القطّ : النّصيب ، وسميت كتب الجوائز قطوطا لأنّهم كانوا يكتبون الأنصباء من العطايا في الصّحائف ، يقال : أخذ فلان قطّه ؛ إذا أخذ كتابه الذي كتب له بجائزته وصلته.

وقال ابن عبّاس : (معنى قوله ﴿قِطَّنا﴾ أي حظّنا من العذاب والعقوبة) [3]. قال قتادة : (نصيبنا من العذاب) [4]. قال مجاهد : (عقوبتنا) [5]. وقال عطاء : (هو يقوله النّضر بن الحارث : اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء أو اءتنا بعذاب أليم) [6].

قوله تعالى : ﴿اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ؛﴾ اصبر يا محمّد على ما يقولون من تكذيبك وعلى قولهم إنّك ساحر وشاعر ومجنون وكاهن ، وانتظر ما وعدك الله من

---

(١) الفواق والفواق : اسمان من الإفاقة. ومعنى الإفاقة الرجوع والسكون كما في إفاقة المريض ، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر ، والفواق اسم لذلك الزمان الذي يعود فيه اللبن. والفيقة بالكسر اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين. ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ١٥٦. واللباب في علوم الكتاب : ج ١٦ ص ٣٨٧.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٨٧٥).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٨٧٧).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٨٧٦).

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٦. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ١٤٨ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد).

النصر عليهم والانتقام منهم ، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ ؛﴾ أي ذي القوّة في العبادة وذا النّعم الكثيرة ، كيف صبر على أذى قومه ، ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) ؛ أي مطيع لله ، مقبل على طاعته. والأوّاب : كثير الأوب الى الله تعالى. قال الزجّاج : (كانت قوّة داود على العبادة أتمّ قوّة ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وذلك أشدّ الصّوم ، وكان يصلّي نصف اللّيل).

قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ﴾ (١٨) ؛ معناه : إنّ الجبال كانت تسبح معه غدوة وعشيّة. والإشراق طلوع الشّمس وإضاءتها ، يقال : شرقت إذا طلعت ، وأشرقت في الآية بصلاة الضّحى ، وعن ابن عبّاس رضي الله عنه : (كنت أقرأ هذه الآية لا أدري ما هي ، حتّى حدّثتني أمّ هانيء في بيت أبي طالب أنّ رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء ، فتوضّأ ثمّ صلّى الضّحى ، وقال : [يا أمّ هانيء هذه صلاة الإشراق]) (١).

قوله تعالى : ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (١٩) ؛ أي وسخّرنا له الطّير مجموعة إليه تسبح الله معه غدوة وعشيا ، ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي كلّ لله تعالى مسبح ومطيع يرجع التسبيح مع داود كلما سبّح. وقيل : معناه : كلّ له رجّاع إلى طاعته وأمره.

قوله تعالى : ﴿وَشَدَدْنا مُلْكَهُ ؛﴾ أي قوّينا ملكه وثبّتناه بالهيبة ، ويقال بالحرس ، كان يحرس محرابه كلّ ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل ، كان فيهم أبناء الأنبياء لم يطمع في ملكه أحد. قرأ الحسن : (وشدّدنا) بالتشديد. قوله تعالى : ﴿وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ﴾ (٢٠) ؛ قال ابن عبّاس رضي الله عنه : (الحكمة هي النّبوّة والمعونة بكلّ ما حكم). فقال مقاتل : (الحكمة الفهم والعلم) (٢). وقيل : الحكمة كلّ كلام حسن يدعو إلى الهدى وينهى عن الرّدى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط : ج ٥ : الحديث (٤٢٥٨). وفي مجمع الزوائد : ج ٧ ص ٩٩ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو بكر الهذلي ، وهو ضعيف).

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١١٥.

وأما ﴿فَصْلَ الْخِطابِ﴾ فهو فصل القضاء بين الحقّ والباطل فيما بين الخصوم ، لا يتعتع في قضائه [١]. وقيل : فصل الخطاب وهو الحكم بالبيّنة واليمين. وقيل : هو قوله : أمّا بعد ، وهو أوّل من قال : أمّا بعد ، ومعناه أما بعد حمد الله فقد بلغت كذا وسمعت كذا.

قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ﴾ (٢١) ؛ اختلفوا في خطيئة داود عليه‌السلام والذي هو مستفيض بين العوامّ ما ذكره الكلبيّ : (أن داود عليه‌السلام كان يصلّي ذات يوم في محرابه ، والزّبور منشور بين يديه ، إذ جاءه إبليس في صورة حمامة من ذهب فيها كلّ لون حسن ، فوقفت بين يديه فمدّ يده ليأخذها ، فطارت غير بعيد من غير أن توسّد من نفسها ، فامتدّ إليها ليأخذها فطارت حتى وقعت في الكوّة ، فذهب ليأخذها فطارت من الكوّة ، فجعل داود عليه‌السلام ينظر أين تقع ، فأبصر امرأة في بستان تغتسل ، وإذا هي من أعجب النّساء وأحسنهنّ ، وأعجبته ، فلما حانت منها التفاتة أبصرته فأسبلت شعرها على جسمها فغطّى بدنها ، فزاده ذلك إعجابا بها. فسأل دواد عنها وعن زوجها ، فقالوا اسمها تشايع بنت شائع وزوجها أوريّا بن حنانا وهو غائب في غزاة بالبلقاء مع أيّوب بن صوريا ابن أخت داود ، فكتب داود إلى ابن أخته : اذا أتاك كتابي هذا فابعث أوريا إلى موضع كذا وإلى القلعة الفلانيّة ، ولا يرجعوا حتى يفتحوها أو يقتلوا. فلما جاء الكتاب ندبه وندب الناس معه ، فأتوا القلعة فلما أتوها رموهم بالحجارة حتى قتلوهم وقتل أوريا معهم. فلما انقضت عدّتها تزوّجها داود عليه‌السلام ، فهي أمّ سليمان [٢].

---

(١) التّعتة في الكلام : التردد من حصر أو عيّ. والأصل أن فصل الخطاب عبارة عن كون الذي أوتيه يكون قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال ، بحيث لا يختلط شيئا بشيء ، وبحيث يفصل كل مقام عما يخالفه. وهذا معنى عام يتناول فصل الخصومات ويتناول الدعوة إلى دين الله الحق.

(٢) ما أورده الطبراني هنا في حقّ داود عليه الصلاة والسّلام من قبيل الإسرائيليات ، ولا صحة له. وأورده الطبري على سبيل حكاية اختلاف كما في جامع البيان : الآثار (٢٢٩٣٥ ـ ٢٢٩٤٢). وهي ضرب من أوهام القصّاص وخيالاتهم التي يجل الله عنها المؤمنين فضلا عن الأنبياء والمرسلين.

فلما دخل داود عليه السلام بها ، فلم يلبث إلّا يسيرا حتى بعث عليه ملكين في صورة آدميّين ، فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته ، وكان من عادته أنّه جزّأ الدهر يوما لعبادته ؛ ويوما لنسائه ؛ ويوما للقضاء بين النّاس.

فلما جاء الملكان في يوم عبادته منعهما الحرس من الدخول عليه ، فتسوّروا المحراب ؛ أي دخلوا عليه من فوق المحراب [1] ، ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ﴾ ، فلم يشعر وهو يصلّي إلّا وهما بين يديه جالسين ، ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ﴾ ، ففزع منهما ، فقالا : لا تخف يا داود نحن ، ﴿خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ ؛﴾ أي ولا تجر ، قال السدّيّ : (ولا تسرف) [2] ، وقال المؤرّج : (ولا تفرّط).

وقرأ أبو رجاء (تشطط) بفتح التاء وضمّ الطاء الأولى من الشّطط ، والإشطاط مجاوزة الحدّ. قوله تعالى : ﴿وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ﴾ (٢٢) ؛ أي وأرشدنا إلى الطريق المستقيم.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ؛﴾ قال أحد الملكين : إن هذا أخي ؛ أي على ديني له تسع وتسعون امرأة. والنعجة : البقرة الوحشيّة ، والعرب تكنّي عن المرأة بها ، وتشبه النساء بالنّعاج من البقر ، وإنما يعني بهذا داود ؛ لأنه كان له تسع وتسعون امرأة ، وهذا من أحسن التّعريض ، ويسمّى تعريض التفهيم والتنبيه ؛ لأنه لم يكن هناك نعاج.

وقوله تعالى : ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ ؛﴾ أي امرأة واحدة ، ﴿فَقالَ أَكْفِلْنِيها ؛﴾ أي ضمّها إليّ واجعلني كبعلها أعولها. والمعنى : طلّقها حتى أتزوّجها ، وقال ابن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٣٨. وقال ابن كثير في التفسير : ج ٤ ص ٣٢ : (وقد ذكر المفسرون قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ، ويزيد وإن كان من الصالحين ، ولكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، فالأولى أن يقتصر في رواية هذه القصة وأن يردّ علمها إلى الله عزّ وجلّ ).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٩١٤) بلفظ : (ولا تخف)

جبير : (معنى قوله : ﴿أَكْفِلْنِيها﴾ أي تحوّل عنها) ، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ﴾ (٢٣) ؛ أي غلبني ، وقال الضحّاك : (أي تكلّم وكان أفصح منّي ، وإن عاداني كان أبطش منّي) [١] ، وقال عطاء : (معناه أعزّ منّي وأقوى على مخاطبتي لأنّه كان الملك).

قوله تعالى : ﴿قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ ؛﴾ أي إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك بما كفلك من قوله عن امرأتك ليتزوّجها هو. قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ؛﴾ معناه : وإنّ كثيرا من الشّركاء ليظلم بعضهم بعضا ، ظنّ داود أنّهما شريكان. وقوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ؛﴾ معناه : إلّا الذين آمنوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ؛﴾ فإنّهم لا يظلمون أحدا ، ﴿وَقَلِيلٌ ما هُمْ ؛﴾ أي هم قليل ، يعني الذين لا يظلمون.

قال السديّ : (لما قال أحدهما : إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، قال داود عليه‌السلام للآخر : ما تقول؟ قال : نعم لي تسع وتسعون نعجة وله نعجة ، وأنا أريد أن آخذها وأكمّل نعاجي مائة ، قال داود عليه‌السلام : وهو كاره؟ قال نعم وهو كاره ، قال : إذا لا ندعك وإن رمت ذلك ضربنا منك هذا ، وهذا يعني طرف الأنف ، وأصله : الجبهة.

قال : يا داود أنت أحقّ أن يضرب مثل هذا ، وهذا يعني طرف الأنف وأصله ، حيث كان له تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريّا إلّا امرأة واحدة ، فلم تزل تعرّضه للقتل حتى قتل وتزوّجت امرأته. ثم صعدا إلى السّماء ، فعلم داود عليه‌السلام أنّ الله قد ابتلاه وامتحنه ، فخرّ راكعا أي ساجدا وأناب ، ورجع إلى طاعة الله تعالى بالتّوبة والنّدامة [٢].

ومعنى قوله تعالى : ﴿وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ ؛﴾ أي وعلم داود أنّا امتحنّاه بما قدّرنا عليه من نظره إلى المرأة وافتتانه بها ، وهذا قول بعض المفسّرين ، إلّا أنّ هذا قول مردود ، لا يظنّ بداود عليه‌السلام ضلالة ، فهو أجلّ قدرة وأعظم منزلة ، وكيف يظنّ بالأنبياء عليهم‌السلام أن يعرّض المسلمين للقتل لتحصيل نسائهم لأنفسهم ، ومن

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٩٢٩).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٠٩.

نسب الأنبياء عليهم السلام إلى هذا وصدّق به فهو ممّن لا يصلح لإيمانه بهم ، ولئن يخطئ الإنسان في نفي الفواحش عنهم خير ممّن يخطئ في إضافتها إليهم ، وقد أمرنا في الشّريعة بحمل أمور المسلمين على الصّحّة والسّداد ما أمكن.

وعن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال : (ما زاد داود عليه السلام على أن قال لزوجها : تحوّل لي عنها) (١). وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال : (لئن سمعت أحدا يقول إنّ داود عليه السلام قارب من تلك المرأة سواء أو حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصّاص معتقدا صحّته جلدته مائة وستّين جلدة) (٢) يعني مثل حدّ قذف سائر الناس.

وقيل : إنّ ذنب داود عليه السلام أنه تمنّى أن تكون له امرأة أوريا حلالا ، وحدّث نفسه بذلك ، فاتفق غزو أوريا وتقدمه في الحرب وهلاكه ، فلما بلغه قتله لم يجزع ولم يتوجّع عليه كما يجزع على غيره من جنده إذا هلك ، ثم تزوّج امرأته فعاتبه الله على ذلك ؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله.

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ﴾ (٢٤) ؛ أي خرّ ساجدا ، وعبّر عن السّجود بالرّكوع لأن كليهما بمعنى الانحناء ، روي أنه مكث ساجدا أربعين ليلة حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض جبينه ، وكان يقول : رب زلّ داود زلّة أبعد ما بين المشرق والمغرب ، سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء ، سبحان خالق النّور ، إلهي تبكي الثّكلى على ولدها إذا فقدته ، وداود يبكي على خطيئته.

إلهي أنت خلقتني وفي سابق علمك ما أنا إليه صائر ، سبحان خالق النّور ، إلهي الويل لداود إذا كشف الغطاء ، فيقال : هذا داود الخاطئ ، سبحان خالق النّور ، إلهي بأيّ عين أنظر إليك يوم القيامة ، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفيّ ، وبأيّ قدم أقوم بها يوم تزلّ أقدام الخاطئين ، سبحان خالق النّور.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٢٩٢٤). وابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٤٠. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ١٦١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس) وذكره.

(٢) ذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب : ج ١٦ ص ٤٠٢.

إلهي أنا الذي لا أطيق حرّ شمسك فكيف أطيق حرّ نارك؟ سبحان خالق النّور ، إلهي قرح الجبين وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدي ، سبحان خالق النّور ، إلهي أنت المغيث وأنا المستغيث ، إلهي أنت تعلم سريرتي وعلانيتي ، فاقبل معذرتي ، سبحان خالق النّور ، إلهي برحمتك اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك فإنّ إليك رغبتي ، سبحان خالق النّور.

إلهي أعوذ بنور وجهك الكريم من ذنوبي التي أو بقتني ، إلهي أعوذ بك من دعوة لا تستجاب ، وصلاة لا تقبل ، وذنب لا يغفر ، سبحان خالق النّور ، إلهي فررت إليك بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ، ولا تخزني يوم الدّين ، سبحان خالق النّور ، إلهي قرح الجبين وفنيت الدموع وتناثر الدّود من ركبتيّ وخطيئتي الزم بي من جلدي ، سبحان خالق النّور.

فأتاه نداء من السّماء يا داود أجائع أنت فتطعم؟ أظمان أنت؟ لتبقى مظلوم أنت فتنصر ، ولم يجبه في ذكر خطيئته بشيء ، فصاح صيحة فنودي : ارفع رأسك فقد غفرت لك ، فلم يرفع رأسه حتى أتى جبريل فرفعه.

قال وهب : (لما نودي داود عليه السلام يا داود إنّي قد غفرت لك ، قال : يا رب وكيف أنت لا تظلم أحدا؟ قال اذهب إلى قبر أوريا فناده وأنا أسمعه نداءك فتحلّل منه ، وانطلق حتى أتى قبره ، وناداه يا أوريا فقال : لبّيك من هذا الذي قطع عليّ لذتي؟ فقال أنا داود ، فقال ما جاء بك يا نبيّ الله؟ قال : أسألك أن تجعلني في حلّ مما كان منّي إليك ، قال : وما كان منك إليّ؟ قال : عرّضتك للقتل ، قال : إنما عرّضتني للجنّة ، فأنت في حلّ.

فأوحى الله إليه : يا داود ألم تعلم إنّ حكمي عدل ، ألا أعلمته أنّك قد تزوّجت امرأته. قال : فرجع فناداه ، فقال : من هذا الذي قطع عليّ لذتي؟ فقال : أنا داود ، قال : يا نبيّ الله أليس قد غفرت عنك؟ قال : بلى ؛ ولكن إنّما فعلت ذلك بك لمكان امرأتك ، وقد تزوّجتها فسكت فلم يجبه ، فدعا فلم يجبه ، ودعاه فلم يجبه ، فقام عند قبره وجعل التراب على رأسه. ثم نادى : الويل لداود ثم الويل الطويل لداود إذا نصبت الموازين القسط يوم القيامة ، سبحان خالق النّور ، الويل ثم الويل لداود حين

يؤخذ بذنبه ، سبحان خالق النّور ، الويل لداود ثم الويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النّار ، سبحان خالق النّور.

فنودي يا داود قد غفرت لك ذنبك ورحمت بكاءك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك ، فقال : يا رب تعفوني وصاحبي لم تعف عنه؟ قال : يا داود أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أدناه ، وأقول له : هذا عوض من عبدي داود ، فاستوهبك منه فيهبك لي ، قال : يا رب الآن قد عرفت أنّك قد غفرت لي [1] ، فذلك قوله تعالى : ﴿فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا ؛﴾ بعد المغفرة ؛ ﴿لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٢٥) ؛ أي لقربة ومكانة ومنزلة حسنة.

وعن مالك بن دينار في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى﴾ قال : (يقول الله لداود وهو قائم بساق العرش : يا داود مجّدني بصوتك الرّخيم ، فيقول : كيف وقد سلبتنيه في الدّنيا؟ فيقول : إنّي أردّه عليك ، قال : فرفع داود صوته بالزّبور فيستفرغ نعيم أهل الجنّة وهو قوله ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ يعني الجنّة الّتي هي مآب الأولياء والأنبياء) [2].

وعن وهب بن منبه قال : (لما تاب الله على داود بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا ترقى له دمعة ليلا ولا نهارا ، وكان أصاب الذنب وهو ابن سبعين سنة ، وكان يخرج إلى الفيافي فيبكي ويبكي معه الشجر والرمال والطير والوحش ، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالبكاء فتبكي معه الحجارة والجبال والدواب ، ثم يجيء إلى الساحل فيبكي وتبكي معه الحيتان ودوابّ البحر وطير الماء.

ثم يرجع إلى محرابه وقد بسط له فيه فرش من مسوح حشوها ليف ، فيجلس عليها ويجيء الرّهبان فيجلسون معه فيبكي وينوح ، والرهبان معه فلا يزال يبكي حتى تغرق الفرش في دموعه ويصير داود مثل الفرخ ، فيضطرب ويجيء ابنه سليمان عليه‌السلام

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١١٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٤٠.

فيحمله ، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدّنيا لعدله) [١].

وروي أن داود عليه السلام ما شرب قطّ بعد المغفرة شرابا إلّا ونصفه ممزوج بدموعه ، وكان يقول : سبحانك إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدّت إليّ روحي ، إلهي أتيت أطبّاء عبادك فكلّهم عليك دلّوني.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [خدت الدّموع في وجه داود خديد الماء في الأرض][٢] ، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [كان النّاس يعودونه وأنّه يظنّون أنّ به مرض وما به من مرض إلّا الخوف والحياء من الله عزّ وجلّ ، وما رفع داود عليه السلام رأسه بعد الخطيئة إلى السّماء حتّى مات][٣].

وكان داود عليه السلام اذا ذكر عقاب الله تخلّعت أوصاله ، وإذا ذكر رحمته تراجعت. وعن الحسن رضي الله عنه أنه قال : (كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجلس إلّا مع الخاطئين ، ثم يقول : تعالوا إلى داود عليه السلام الخطّاء ، وكان يؤتى بخبز الشّعير في الإناء ، فلا يزال يبكي حتى يمتلئ بدموع عينيه ، وكان يذرأ عليه الرّماد ويأكله ويقول : هذا أكل الخاطئين) [٤].

وقال الكلبيّ رضي الله عنه : (سجد داود أربعين يوما حتى سقطت جلدة وجهه ونبت العشب من دموعه فعلى غطاء رأسه ، وكان لا يقوم من سجوده إلا لصلاة أو قضاء حاجة ، وكان يقول في دعائه ومناجاته : قد عرفت يا رب رحمتك واسعة ، ولو لا رحمتك لفضحتني ، فمن الذي ينصرني إن خذلتني؟ ومن الذي يغفر لي خطيئتي إن لم تمحها عنّي؟ ومن الذي يتداركني برحمته إن لم تجاوز عنّي؟

---

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٨ ص ١٩٣ ـ ١٩٤. وذكره أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١١١.

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٨ ص ١٩٥. وذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١١١. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ١٦٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أحمد في الزهد ، والحكيم الترمذي عن الأوزاعي).

(٣) لم أجده.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١١٢.

تصدّعت الخدود وانقطت الاشجار وارتجّت البحار وفزعت الجبال والآكام من عظم خطيئتي ، لا أطيق حملها إن لم تحملها عني ، فني دمعي وطال حزني ودقّ عظمي وبان لحمي ، وبقي ذنبي على ظهري.

إليك أشكو فاقتي وضعفي وإفراطي في أمري ، يا إله إبراهيم واسحق ويعقوب ، تنام كلّ عين وتستريح ، وقد شخصت عيناي تنتظران إلى رحمتك ، أدعوك يا رب فأسرع إجابتي وتقبّل دعائي وارحم شحطي [1] ، وتجاوز عنّي برحمتك. فاستجاب الله دعاءه وغفر له ذنبه.

قوله تعالى : ﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي قال الله له بعد المغفرة ، ﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ اي نبيّا ملكا على بني إسرائيل ، والخليفة هو المدبر للأمر والمقيم. يا داود إنّا صيّرناك خليفة في الأرض تدبر أمور العباد من قبلنا ، ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ؛﴾ أي العدل الذي هو حكم الله بين خلقه ، ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى﴾ ، في الحكم بين النّاس ، ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ ، أي فيصرفك الهوى عن طاعة الله ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ ، أي عن دين الله ، ﴿لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ ، في الآخرة ، ﴿بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾ (٢٦) أي تركوا العمل ليوم الحساب.

قوله تعالى : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ؛﴾ أي ما خلقناهما وما بينهما من الخلق عبثا إلّا للأمر والنّهي ، وإنّما خلقناهما للتعبّد ولنجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته. قوله تعالى : ﴿ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ؛﴾ يعني أهل مكّة الذين ظنّوا أنّهما خلقا لغير شيء ، وأنّه لا قيامة ولا حساب ، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧).

---

(١) الشّحط والشّحط : البعد ، وقيل : البعد في كلّ الحالات ، يثقّل ويخفّف ، وشحط المزار : بعد ، وأشحطته : أبعدته ، وشواحط الأودية : ما تباعد منها ، وشحط فلان في السّوم : إذا استام بسلعته وتباعد عن الحقّ وتجاوز القدر). ينظر : لسان العرب : (شحط) : ج ٧ ص ٤٥.

قال مقاتل : قال كفّار قريش : إنّا نعطى في الآخرة ما تعطون فأنزل الله تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[1] ؛ معناه : أنجعل المؤمنين المطيعين كالمفسدين في الأرض؟ ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٢٨)؟ أي أم نجعل الذين يتّقون الكفر والكبائر كالفجّار الذين يرتكبون تلك الكبائر [2] ، لا نسوّي بين الفريقين ولا ننزلهما منزلة واحدة.

قوله تعالى : ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك مبارك فيه بركة لكم ، كثير خيره ونفعه يعني القرآن ، وقوله تعالى : ﴿لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ؛﴾ أي ليتدبّر الناس آياته يعني آيات الله ، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٢٩) ؛ أي ليتّعظ ذوي العقول من الناس.

قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ ؛﴾ أي أعطينا لداود ولدا وهو سليمان ، ثم أثنى على سليمان فقال : ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) ؛ أي رجّاع إلى الله ، مقبل على طاعته.

وقوله تعالى : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ﴾ (٣١) ؛ معناه : إذ عرض على سليمان بعد العصر الخيل السّوابق وهي الخيول التي غنمها سليمان من أهل دمشق وأهل نصيبين ، كانوا جمعوا جموعا ليقاتلوه فهزمهم وأصاب منهم ألف فرس غراب فعرضت ، فجعل ينظر إليها ويتعجّب من حسنها حتى شغلته عن صلاة العصر وغربت الشمس.

فذكر الصلاة فغضب وقال : ردّوا الخيل عليّ ، فردّت فجعل يضرب سوقها وأعناقها بالسّيف حتى عقر منها تسعمائة فرس ، وهي التي كانت عرضت عليه وبقيت مائة لم تعرض عليه ، فكلّ ما في أيدي الناس من الخيل العراب فهي من نسل تلك المائة. هذا ذكره الكلبيّ [3].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١١٧.

(٢) في المخطوط : (ذلك الكبائر).

(٣) نقله أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١١٣.

وقد اعترض على هذا القول فقالوا : كيف يجوز على النبيّ ﷺ من الأنبياء أن يغفل عن الصّلاة المفروضة ثم يعمد إلى خيل لا ذنب لها يعقرها؟! ويجاب عنه : أن لم يكن ضرب سوقها وأعناقها إلّا وقد أباح الله ذلك وأجزى به ، وليس في الآية ما يقتضي أنّ الصلاة كانت مفروضة عليه في ذلك الوقت. وقد يذكر المسح ويراد الضرب ، يقول العرب : مسح علاوته [١] اذا ضربها بالسّيف.

والصّافنات هي الخيل التي تقوم ثلاثا وتكون القائمة الرابعة تصل إلى طرف حافرها بالأرض. صفن الفرس إذا يصفنّ صفونا إذا قام على ثلاث ، وقلب أحد حوافره. والجياد جمع جواد ، يقال فرس جواد اذا «كان سابقا» [٢] بالرّكض.

قوله تعالى : ﴿فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ؛﴾ يعني إنّي آثرت الخير ، ينال بهذا الخيل فشغلت به عن الذّكر ، وقد يذكر الخير ويراد به الخيل ، لأن الخيل معقود بنواصيها الخير. قال الفرّاء : (يعني آثرت حبّ الخير) [٣]. وقال قطرب : (أراد حبّا على المصدر ، ثمّ أضاف الحبّ إلى الخير).

وقوله تعالى : ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني صلاة العصر. وقوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾ (٣٢) ؛ كناية عن الشّمس ، والمعنى حتى استوت الشمس بما يحجبها عن الأبصار ؛ ولأنّ قوله تعالى ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ كناية عن الشّمس ؛ أي فيه ما يجري مجرى الشمس ، وجاز الإضمار إذ في الكلام ما يدلّ عليه ، قال لبيد :

حتّى إذا ألقت يدا في كافر ... وأجنّ عورات الثّغور ظلامها

وقوله تعالى : ﴿رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ (٣٣) ؛ قال أبو عبيد : (معنى الطّفق يقول مثل ما زال يفعل [٤] ، وهو مثل : ظلّ وبات ، والمعنى

(١) العلاوة : بالكسر ، ما علّيت عليه من البعير بعد تمام الوقر ، أو علّقته عليه كالسّقاء والسّفود. والجمع (العلاوى) مثل إدواة وإداوى. قاله الرازي في مختار الصحاح.

(٢) ما بين «» سقطت من المخطوط ، وفي معالم التنزيل : ص ١١١٣ ؛ قال البغوي : (والجياد : الخيار السّراع ، وقال ابن عباس : يريد الخيل السّوابق).

(٣) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٤٠٥.

(٤) في المخطوط : (يفعل مثل ما ذاك يفعل). وهو كما اثبته البغوي في معالم التنزيل : ص ١١١٣.

طفق يمسح مسحا ؛ أي يضرب ضربا). وقال الفرّاء : (المسح ههنا القطع) (١). والمعنى : أنه ضرب سوقها وأعناقها ؛ لأنّها كانت سبب فوت صلاته ، وقال عند ذلك : حتى لا تشغلني عن عبادة ربي مرّة أخرى. والسّوق جمع ساق.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ ؛﴾ اختلفوا في سبب فتنة سليمان ، قال بعضهم : سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صدوق ، بها ملك عظيم الشّأن ، فخرج سليمان إلى تلك المدينة تحمله الرّيح حتى نزل بها بجنوده من الجنّ والانس ، فقتل ملكها وسبا ما فيها ، وأصاب فيما أصاب بنتا لذلك الملك يقال «لها» جرادة ، لم ير مثلها حسنا وجمالا.

فدعاها سليمان إلى الاسلام فأسلمت على قلّة نيّة منها ، ولم يعلم سليمان ما في قلبها ، فتزوّجها وأحبّها محبة شديدة لم يحبّ أحدا من نسائه ، فكانت عنده لا يذهب حزنها ولا يرقى دمعها ، فشقّ ذلك على سليمان ، وقال لها : ويحك! ما هذا الحزن الذي لا يذهب؟ قالت : إنّي أذكر أبي أذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه ، فيحزنني ذلك. قال سليمان : قد أبدلك الله به ملكا هو أعظم من ملكه ، وسلطانا خيرا من سلطانه ، وهداك للإسلام ، وهو خير من ذلك كلّه. قالت : هو كذلك ؛ ولكن إذا ذكرت أبي أصابني ما ترى من الحزن ، فلو أمرت الشّياطين فصوّروا صورته في داري التي أنا فيها أراها بكرة وعشيّا لرجوت أن يذهب ذلك حزني ، ويسلّي عني بعض ما أجد. فأمر سليمان الجنّ فمثّلوا لها صورة أبيها في دارها كأنّه هو ، إلّا أنه لا روح فيه ، فعمدت إليه حين صنعوه فأزرته وقمّصته وعمّمته وردته بمثل ثيابه التي كان يلبسها.

وكان إذا خرج سليمان من دارها تغدو عليه في ولائدها حتى تسجد له ويسجدن هنّ له ، وكذلك كانت تعمل بالعشيّ وسليمان عليه‌السلام لا يعلم شيئا من ذلك ، فكانت على ذلك أربعين صباحا ، وبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صدّيقا ، فقال لسليمان عليه‌السلام : إنّ غير الله يعبد في دارك منذ أربعين صباحا في هوى امرأة ، قال : في داري؟! قال : في دارك ، قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٤٠٥.

ثم رجع سليمان إلى داره فكسر ذلك الصنم وعاقب تلك المرأة وولائدها ، ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده ، فأمر برماد قد رشّ ، ثم أقبل تائبا إلى الله حتى جلس على ذلك الرماد وتمعّك فيه بثيابه تذلّلا لله عزّ وجلّ وتضرّعا إليه ، يدعو ويبكي ويستغفر مما كان في داره ، فلم يزل يومه كذلك حتى أمسى ثم رجع.

وكانت أمّ ولد يقال لها الأمينة ، كان إذا دخل لقضاء حاجته وضع خاتمه عندها حتى يتطهّر ، وكان لا يمسّ خاتمه وإلّا وهو طاهر ، وكان ملكه في خاتمه ، فوضع يوما من الأيام خاتمه عندها كما كان يضعه ، ثم دخل موضع الحاجة فأتاها الشيطان صاحب البحر وكان اسمه صخرا على صورة سليمان لا تنكر منه شيئا ، فقال : يا أمينة هات خاتمي ، فناولته إياه ، فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس.

وخرج سليمان فأتى أمينة وقد تغيّر من حاله وهيئته عند كلّ من رآه ، فقال : أمينة هات خاتمي ، قالت : ومن أنت؟! قال : أنا سليمان بن داود عليه السلام ، قالت : لست سليمان ، وقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سريره في ملكه. فعرف سليمان أنّ الخطيئة قد أدركته ، فخرج فجعل يقف على الدّور من دور بني اسرائيل ، فيقول : أنا سليمان بن داود ، فيحثّون عليه التراب ويسبّونه ويقولون : انظروا إلى هذا المجنون يزعم أنه سليمان.

فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر ، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السّوق ويعطونه كلّ يوم سمكتين ، فاذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة وشوى الأخرى فأكلها. فمكث كذلك أربعين يوما صباحا عدّة ما كان عبد الوثن في داره.

فلما مضى أربعون يوما طار الشيطان عن مجلسه ، ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتم فيه ، فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيّادين وكان قد عمل له سليمان ، فأعطاه سمكتين أجرته ، فباع سليمان إحدى السّمكتين بأرغفة وعمد إلى السّمكة الأخرى فشقّ جوفها ليشويها ، فوجد الخاتم فجعله في يده ، ووقع ساجدا وعكفت عليه الطير والجن ، وأقبل عليه الناس وعرف أنّ الذي كان دخل عليه إنما هو بسبب ما كان أحدث في داره ، فرجع إلى مملكته وأظهر التوبة من ذنبه.

وأمر الشياطين فقال : إئتوني بصخر ، فطلبته له الشياطين حتى وجدته ، فأتي به فأدخل في صخرة وسدّ عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرّصاص ثم أمر به فقذف في البحر (١).

وقال بعضهم : كان سبب فتنته قتله الخيل وضربه سوقها وأعناقها.

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ؛﴾ أي شيطانا اسمه صخر ، وقد ذكرناه. ويقال : معنى ذلك أنّ سليمان كان له ولد فاجتمعت الشياطين فقال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد لم ننفكّ ما نحن فيه من البلاء والخدمة ، فسبيلنا أن نقتل الولد أو نخبله ، فعلم سليمان بذلك فأمر الرّيح فحملته إلى السّحاب فأودعه السحاب خوفا عليه من الشياطين ، فعاقبه الله تعالى على تخوّفه من الشياطين ، وأمات ولده في السّحاب فألقي ميّتا على كرسيّه فهو الجسد الذي أريد بقوله ﴿وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ لأن الجسد عبارة عما لا يكون روحا. وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنابَ﴾ (٣٤) ؛ ثم رجع بعد أربعين يوما إلى ملكه.

قوله تعالى : ﴿قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ؛﴾ معناه : لما رجع ملك سليمان إليه قال : رب اغفر لي ذنبي وهب لي ملكا لا أسلب فيه كما سلبت في المرّة الأولى ، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٣٥) ، ولا يجوز أن يكون سؤاله الملك برغبته له في الدّنيا ولا بخلا بمثله على من بعده ، ولكن طلب آية تدلّ جميع الخلق على أنّ الله تعالى غفر له ذنبه وردّه إلى منزلة الأنبياء عليهم السلام.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنّه صلّى صلاة فقال : [إنّ الشّيطان عرض لي ليفسد عليّ صلاتي ، فأمكنني الله منه فخنقته ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتّى تصبحوا وتنظروا إليه جميعا ، فذلك قول سليمان عليه السلام ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾](٢).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك : كتاب التفسير : الحديث (٣٦٧٥) مختصرا. وذكره السيوطي في الدر المنثور : ج ٧ ص ١٧٨ ؛ وقال : (أخرجه الفريابي والحكيم الترمذي والحاكم). وذكره البغوي بطوله في معالم التنزيل : ص ١١١٤ - ١١١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب العمل في الصلاة : باب ما يجوز من العمل في الصلاة :

قوله تعالى : ﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ (٣٦) ؛ فاستجبنا له دعاءه وسخّرنا له الريح تسير بأمره ليّنة كيف أراد ، وذلك أنه كان إذا أراد تسيير الريح عاصفة كانت تجري عاصفة حالة حمل السّرير لكثرة من عليه من النّجوم والحشم والأواني والفرش والأطعمة والأشربة ، وكانت في حالة ما تجري بالسّرير وذلك أرفق بمن يكون على السّرير ، وأبعد من الضّرر.

ومعنى الآية : فسخّرنا له الريح تجري بأمره ليّنة الهبوب ليست بالعاصف ﴿حَيْثُ أَصابَ﴾ أي حيث أراد من النواحي ، وحيث قصد.

قوله تعالى : ﴿وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (٣٧) ؛ أي وسخّرنا له الشياطين يبنون له الأبنية الرفيعة التي تعجز عنها الإنس ، ويبنون له أيضا ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وقوله تعالى : ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ أي ويغوصون له في البحر فيستخرجون له اللآّلئ والجواهر.

وقوله تعالى : ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ (٣٨) ؛ أي وسخّرنا آخرين من الشياطين وهم المردة ، سخّروا له حتى قرنهم في الأصفاد وهي السّلاسل من الحديد ، فكان سليمان يجعل الشياطين مقرّنين في القيود والأغلال ، ويعرف من شاء منهم في الأعمال ، فمعنى قوله ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ أي مشدودون في القيود.

قوله تعالى : ﴿هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ (٣٩) ؛ معناه : قلنا له هذا عطاؤنا لك من المال والملك والجنود المسخّرة لم نعطه أحدا قبلك ، ولا نعطيه أحدا بعدك.

وقوله ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أي إعطاء ما أعطيناك من شئت وكيف شئت وما شئت ولمن شئت ، واحبس عمّن شئت بغير تقدير ، ولم يؤخذ عليك حدّ محدود في المنع ولا في الإعطاء ، ولا حرج عليك فيما فعلت من ذلك ، وقال في معنى ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أي أطلق من الشّياطين الذين أوثقتهم [1] أو امسك في الوثاق من شئت منهم ، وليس عليك في ذلك تبعة ولا جزاء.

---

. الحديث (١٢١٠) ، وفيه : [فدعتّه] بدل [فخنقته].

(١) في المخطوط : (الذي أوثقتهم).

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى ؛﴾ أي وإنّ مع ما خصّ به في الدّنيا في الملك والبسطة والنبوّة والرسالة لقربه عندنا ، ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٤٠) ، في الآخرة ونصيبا وافرا من ثوابنا في الجنّة ، فجمع له ملك الدّنيا وملك الآخرة.

وروي أن مدة ملك سليمان قبل الفتنة عشرين سنة ، وملك بعد الفتنة عشرين سنة ، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشر سنة ، ومات وله ثلاث وخمسون سنة ، ومدّة ملكه أربعون سنة.

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ﴾ (٤١) ؛ معناه : واذكر يا محمّد عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه في البلاء فقال : يا رب إنّي أصابني الشيطان بنصب ؛ أي بتعب في بدني وعذاب في أهلي ومالي. والنّصب والنّصب بمعنى واحد ، مثل الرّشد والرّشد والحزن والحزن.

قرأ أبو جعفر (بنصب) بضمّتين ، وقرأ يعقوب (بنصب) بفتح النون والصاد ، وقرأ هبيرة عن حفص وعاصم (بنصب) بفتح النون وجزم الصاد ، وقرأ الباقون ب (النّصب) بضمّ النون وسكون الصاد ، وكلّ ذلك لغات فيه [١].

قال قتادة : (معنى قوله ﴿بِنُصْبٍ وَعَذابٍ﴾ النّصب الضّرّ في الجسد ، والعذاب في المال) [٢]. قال السديّ : (النّصب أنصب الجسد ، والعذاب أهلك المال) [٣].

ثم فرّج الله عنه ، واختلفوا في سبب بلاء أيّوب ، قال الحسن رضي الله عنه : (إنّ ابليس قال : يا رب هل من عبيدك من إن سلّطتني عليه يمتنع عليّ؟ قال : نعم ؛ عبدي أيّوب ، فجعل يأتيه الشيطان بوساوسه وحبائله فلا يقدر منه على شيء. قال : يا رب إنه قد امتنع عليّ فسلّطني على ماله ، فجعل يأتيه فيقول : يا أيوب هلك من مالك كذا وكذا ، فيقول أيوب : اللهمّ أنت قد أعطيتنيه وأنت قد أخذته ، اللهمّ لك الحمد على ما منعت ، ولك الحمد على ما أبقيت ، فمكث كذلك حتى هلك ماله كلّه.

---

(١) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦. وإعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٣١٢.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٠١٩).
(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٠٢٠).

فقال إبليس : يا ربّ إنّه لا يبالي بماله فسلّطني على جسده ، فأنّك لو سلّطتني على جسده لم تجده شاكرا ، فسلّطه عليه فنفخ في أنفه فانتفخ وجهه وسرى ذلك إلى جسده ، فوقع فيه الديدان.

إلّا أنّ هذا القول لا يصحّ ولا وجه لقبوله ، ولا يجوز أن يسلّط الله إبليس على نبيّ من أنبيائه فيفعل به ما أحبّ.

ويقال : سبب ابتلائه أنّ إنسانا استغاث به في ظلم يدرؤه عنه ، فصبر لورده حتى فاته فابتلي. فلمّا مكث أيوب في البلاء ما مكث ، قاربت امرأته الشيطان في بعض الأمور ، قيل : إنّ الشيطان قال لها : لئن أكل أيّوب طعاما لم يذكر اسم الله عليه عوفي. ويقال : إنّها قالت لأيّوب : لو تقرّبت إلى الشيطان فذبحت له عناقا ، فقال : لا والله ، ولا كفّا من تراب. وحلف ليجلدنّها إن عوفي مائة جلدة. وقيل : إن إبليس قال لها : إن شفيته تقولين لي شفيته ، فأخبرت بذلك أيوب فحلف.

فلما طال البلاء على أيّوب ، وبلغ به غاية الجدّ سأل الله تعالى أن يكشف ضرّه ، فقيل له : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾ (٤٢) ؛ أي اضرب بها الأرض ، فركض برجله الأرض فنبعت عين ماء فاغتسل منها فذهب الداء من ظاهره ، فضرب برجله الأرض مرّة أخرى فنبع ماء وشرب منه ، فذهب الداء من باطن جسده. والرّكض : هو الدفع بالرّجل على جهة الإسراع ، ومنه ركض الفرس لاسراعه ، والمغتسل موضع الاغتسال.

قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ ؛﴾ أي أحيينا له أهله وأولاده الذين كانوا بأعيانهم ، ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ ، ورزقناه مثلهم في المستقبل ، ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ ، أي نعمة منّا عليه ، ﴿وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (٤٣) ، وعظمة لأولي العقول من النّاس ، وذلك ليعلم العاقل أنّ ما يصيبه في الدّنيا من المحن والمكاره والمصائب في النّفس والأهل والمال ، لا يكون لهوان العبد على الله كما يظنّه الجهّال ، وإنّما هو امتحان من الله لأوليائه كي يعوّضهم بذلك جزيل ثوابه.

قوله تعالى : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ﴾ ؛ وذلك أنّ أيوب كان حلف في مرضه أن يجلد امرأته مائة جلدة ، وكان ذلك لشيء كرهه منها على ما تقدّم ، فجعل الله تحلّة يمينه أن يأخذ حزمة واحدة فيها مائة قضيب فيضربها به. والضّغث : هو ملء الكفّ من الشجرة والحشيش والشّماريخ.

وقوله تعالى : ﴿وَلا تَحْنَثْ﴾ أي لا تدع الضّرب فتحنث ، وفي هذا دليل على جواز الاحتيال بمثل هذه الحيلة في اليمين على الضّرب ، فأما في الحدود فلا يجوز الاحتيال بمثل هذا ؛ لأنّ الله تعالى قال : ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾[1] وهذا نهي عن التخفيف عن من وجب عليه الحدّ.

قوله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤) ؛ أي إنّه صبر على البلاء الذي ابتلي به. فإن قيل : كيف صبر وهو يقول مسّني الضّرّ؟ قيل : إنه لم يشك إلى مخلوق وإنما شكا إلى الله عزّ وجلّ حين ألحّ عليه الشيطان بالوسوسة ، وخاف على نفسه أن لا يقوم بطاعة الله تعالى ، فدعا الله بعد أن أذن له في الدّعاء. والأوّاب : هو المقبل على طاعة الله تعالى الرّاجع إليه.

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ معناه : اذكر يا محمّد لقومك وأمّتك حديث هؤلاء الأنبياء ؛ ليقتدوا بهم في حسن إقبالهم ؛ فيستحقّوا بذلك جميل الثّناء وجزيل الثّواب. وقال مقاتل : (معناه : واذكر يا محمّد صبر عبادنا إبراهيم حين ألقي في النّار ، وصبر اسحق على الذبح ، وصبر يعقوب حين ذهب بصره ، ولم يذكر اسماعيل لأنّه لم يقبل بشيء) [2].

قوله : ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ﴾ (٤٥) ؛ معناه : أولي القوّة في طاعة الله والأبصار في معرفة الله. قال قتادة : (أعطوا قوّة في العبادة ، وبصر في الدّين) [3]. ويقال : إنّ الأيدي جمع اليد وهي الصّنيعة ؛ أي وهم ذوو الصّنائع الجميلة في طاعة الله تعالى.

---

(١) النور / ٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٢١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٠٤٤).

وقرأ الحسن : (الأيد) بغير الياء وهو عبارة عن القوّة [1]. ويجوز أن يكون المراد به ، فخذف الياء كما نحذف الدّاعي والهادي.

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) ؛ معناه : إنا آثرناهم بخصلة خالصة وهي ذكرى الدار الآخرة. وقال مجاهد : (إنّهم كانوا يكثرون ذكر الآخرة لم يكن لهم همّ غيرها) [2]. وقال السديّ : (أخلصوا بذكر الآخرة ؛ أي بخوف الآخرة) [3] ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾ (٤٧) ؛ الأصفياء هو إخراج الصّفوة من كلّ شيء ، فهم صفوة وغيرهم كدر.

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ؛﴾ أي اذكرهم بصبرهم وفضلهم لتسلك طريقهم ، ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ﴾ (٤٨). واليسع نبيّ من الأنبياء ، قال الكلبيّ : (هو ابن عمّ الياس). وأمّا ذي الكفل وهو نبيّ أيضا كفل مائة نبيّ عليهم السلام يطعمهم ويسقيهم. وقيل : إنه كان يعمل في العبادة عمل رجلين فسمّي ذا الكفل ، والكفل الضّعف كما في قوله تعالى : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[4].

وقوله تعالى : ﴿هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٤٩) ؛ أي هذا القرآن عظة وشرف للناس ، وقيل : هو ذكر في الدّنيا لهؤلاء الأنبياء يذكرون به أبدا ، وإنّ لهم مع ذلك لحسن مرجع في الآخرة ، فسّر حسن المرجع فقال : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ ؛﴾ أي بساتين إقامة ، ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ﴾ (٥٠) ؛ وانتصب على الحال ، وذلك أنّهم اذا انتهوا إليها وجدوها مفتّحة الأبواب لا يحبسون على الباب ليفتح لهم عند الورود. ويقال : إنّ أبوابها تفتح من غير فتح ولا مفتاح ، والمفتّحة أبلغ من اللفظ من المفتوحة ، والألف واللام في قوله ﴿الْأَبْوابُ﴾ عوض عن الإضافة ؛ تقديره : مفتّحة لهم أبوابها كما في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾[5].

---

(١) في معاني القرآن للفراء : ج ٢ ص ٤٠٦ : (أنها قراءة عبد الله).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٠٤٧).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٠٤٨).

(٤) الحديد / ٢٨.

(٥) النازعات / ٤١.

وقوله تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها﴾ أي في الجنّات ، ﴿يَدْعُونَ فِيها﴾ في الجنات ، ﴿بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ﴾ (٥١) ؛ أي يدعون في الجنات بألوان الفاكهة وألوان الشّراب. والاتّكاء : هو الاستمساك بالسّناد على هيئة جلوس الملوك.

وقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ﴾ (٥٢) ؛ أي وعندهم حور في الجنّة قاصرات الطّرف على أزواجهنّ لا يردن غيرهم بقلوبهم ولا ينظرن إلى غير أزواجهنّ. وقوله ﴿أَتْرابٌ﴾ أي مستويات على ميلاد امرأة واحدة ، مستويات في السّنّ والشباب والحسن ، كلّهن بنات ثلاث وثلاثين سنة.

قوله تعالى : ﴿هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ (٥٣) ؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء ؛ ومعناه : قل للمتّقين : هذا ما يوعدون به ليوم الحساب. وقرأ الباقون (يوعدون) بالياء ؛ أي هذا الذي تقدّم ذكره ما يوعد به المتّقون على لسان النبيّ ﷺ. ومعنى الآية : هذا الذي ذكرناه ما توعدون به يوم الحساب.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هذا لَرِزْقُنا﴾ أي هذا الذي ذكرناه رزقنا لهم ، ﴿ما لَهُ مِنْ نَفادٍ﴾ (٥٤) ؛ أي ما له من انقطاع ولا فناء. قال ابن عبّاس : (ليس بشيء في الجنّة نفاد ، ما أكل من ثمارها خلّف مكانه مثله ، وما أكل من حيوانها وطيرها عاد حيّا مكانه) [1].

قوله تعالى : ﴿هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ (٥٥) ؛ أي هذا الثواب الذي تقدّم ذكره للمتّقين ، ثم ابتدأ الخبر عمّا للطّاغين فقال : ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ أي الذين طغوا على الله وكذبوا الرّسل وجاوزوا الحدّ في الكفر والمعصية ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أي لشرّ مرجع ومصير ، ثم أخبر بذلك فقال : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها﴾ أي يلزمونها يوم القيامة ، ﴿فَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ (٥٦) ؛ يمهّدنّها لأنفسهم ، ﴿هذا﴾ العذاب ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ (٥٧) ؛ أي يقال لهم في ذلك اليوم : هذا حميم وغسّاق فليذوقوه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٠٦٢) عن السدي.

والحميم : الماء الحارّ الذي قد انتهى حرّه من طينة الخبال وهي عصارة أهل النّار. والغسّاق : ما سال من جلود أهل النّار من القيح والصّديد ، من قولهم : غسقت عينه إذا تصبّت ، والغسقان الانصباب.

قرأ حمزة والكسائي وخلف : ﴿وَغَسّاقٌ﴾ بالتشديد على معنى أنه يسال من صديد أهل النار. وقرأ الباقون بالتخفيف مصدر غسق يغسق إذا سال.

قال الكلبيّ : (الغسّاق هو الزّمهرير البارد الّذي قد انتهى برده ، يحرقهم ببرده كما تحرقهم النّار). وقال ابن زيد : (هو المنتنّ بلغة التّرك والطّخاريّة [1] والعماليق) [2]. وقال الحسن : (لا أدري ما الغسّاق وما سمعت فيه شيئا من الصّحابة إلّا أنّه بعض ما أعدّ لأهل النّار ، قوم أخفوا من المعصية أعمالا فأخفى الله لهم عقابا).

قوله تعالى : ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ﴾ (٥٨) ؛ قرأ الأكثرون ﴿وَآخَرُ﴾ على الوحدان ؛ أي وعذاب آخر من شكل العذاب الأوّل ، والشّكل المثل ؛ يعني ضربا من العذاب على مثل الحميم والغسّاق في الكراهة. وقرأ أهل البصرة (وأخر) على الجمع على معنى : وأنواع أخر من شكله ؛ أي وأصناف من العذاب ، وقوله ﴿أَزْواجٌ﴾ أي ألوان وأنواع وأشباه.

وقوله تعالى : ﴿هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ؛﴾ معناه : أنّ القادة والرؤساء من المشركين إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الاتباع ، قال الملائكة من الخزنة للقادة : هذا فوج ؛ أي قطيع من الناس مقتحم معكم النار ، أي داخلون معكم النار ، فتقول القادة : ﴿لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ﴾ (٥٩) ؛ كما صليناها ، فيقول الاتباع للقادة :﴿قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا ؛﴾ أي أنتم بدأتم بالكفر قبلنا ، ﴿فَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ (٦٠) ؛ جهنّم للمشركين.

---

(١) لعله يريد أهل طخارستان.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٠٧٦) عن عبد الله بن بريدة.

ثم يقول الأتباع: ﴿قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ (٦١) ؛ أي يقولون ربّنا من شرّع لنا هذا الكفر وسنّة لنا فزده عذابا ضعفا في النار. والاقتحام: هو الدخول في الشّيء بشدّة وصعوبة، وذلك أنّ أهل النار يساقون إليها فوجا فوجا، فيقال للرّؤساء: هؤلاء الاتباع داخلون معكم، فيقولون لا مرحبا بهم، كيف يدخلون معنا ونحن في هذا الضّيق[1]؟! فيقول لهم الخزنة: إنّهم صالوا النّار ؛ أي داخلوها كما دخلتم.

والرّحب في اللغة هو السّعة، وكذلك المرحب، ومعنى لا مرحبا بهم يعني لا اتّسعت بهم مساكنهم ولا كرامة لهم، وهذا إخبار أن مودّتهم تنقطع وتصير عداوة، فيقول لهم الأتباع: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ﴾ أي لا وسّع الله عليكم، أنتم شرعتم لنا بهذا العذاب، فيقول الله تعالى: ﴿فَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ أي بئس المكان الذي أنتم فيه.

قوله تعالى: ﴿قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ أي قالت الأتباع والقادة جميعا: ربّنا من سنّ لنا هذا الكفر قبلنا فزده عذابا ضعفا مما علينا من العذاب، يعني حيّات وعقارب وأفاعي. قال الحسن: (ما من أحد من أهل النّار إلّا وهو يعرف يوم القيامة شيطانه الّذي يضلّه ويوسوس إليه في الدّنيا).

قوله تعالى: ﴿وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ﴾ (٦٢) ؛ قال الكلبيّ: (وذلك أنّ كفّار قريش ينظرون في النّار، فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين في دار الدّنيا يعني فقراء المؤمنين، فعند ذلك يقولون: ربّنا ما لنا لا نرى رجالا كنّا نعدّهم في الدّنيا من الأشرار ؛ أي كنّا نعدّهم في الدّنيا من السّفلة، ونقول لهم: أنتم تتركون شهواتكم تطلبون بذلك النّعم بعد الفناء، فهذا معنى ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ﴾ وهم عمّار وخبّاب وصهيب وبلال وسلمان وسالم وأشباههم من فقراء المؤمنين).

---

(١) في المخطوط: (ضيق).

قوله تعالى : ﴿أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ﴾ (٦٣) ؛ أي يقولون قد اتّخذناهم سخريّا ؛ أي مالت أبصارنا عنهم فلم نكن نعدّهم شيئا ، قال الحسن : (كلّ ذلك قد فعلوه ، اتّخذوهم سخريّا وزاغت عنهم أبصارهم محقّرة لهم).

ومن قرأ ﴿أَتَّخَذْناهُمْ﴾ بقطع الألف وفتحها معناه الاستفهام ؛ كأنّهم ينكرون ذلك على أنفسهم ، وهم يقولون في الآخرة سخّرناهم وزاغت أبصارهم عنهم لضعفهم ، فيقولون : ما لنا لا نراهم ، ولم يدخلوا معنا في النار ، أم دخلوا معنا ولكن لا نراهم.

وفي قوله ﴿سِخْرِيًّا﴾ قراءتان : ضمّ السّين وكسرها ، فمن ضمّها فهو من السّخرية ؛ أي استذلّوهم ، ومن قرأها بالكسر فهو من الهزؤ [(١)].

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ ؛﴾ أي إنّ الذي وصف عنهم لصدق كائن واقع ، ثم بيّن ما هو فقال : ﴿تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٦٤) ؛ أي تخاصم القادة والأتباع على ما أخبر به عنهم.

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ ؛﴾ أي قل يا محمّد لأهل مكّة : إنّما أنا منذر لكم أحذّركم عقوبة الله ، ﴿وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٥) ؛ أي وقل لهم أيضا : ما من إله إلّا الله الواحد لا شريك له ، القهّار لخلقه الغالب عليهم ، ﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (٦٦) ؛ أي المنتقم ممّن لا يؤمن به ، المتجاوز عمّن تاب وآمن به.

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٧) ؛ أي قل يا محمّد لهم هذا القرآن الذي أتيتكم به عظيم الشّأن والشرف ، أنتم عن تدبّره والعمل به معرضون. وقيل : معناه أمر القيامة عظيم ؛ ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ ؛﴾ عن الاستعداد له ، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ (٦٨).

وقوله : ﴿ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٦٩) ؛ معناه : إن النبأ الذي أتيتكم به من قصّة آدم وإبليس دليل واضح على نبوّتي ؛ لأن ذلك

---

(١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٣١٦. والحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٣٣.

لا يعلم إلّا بوحي من الله تعالى أو بقراءة الكتب ، ثم بيّنه من بعد بقوله : ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها﴾[1] الآية أي إنّي ما علمت ذلك إلّا بوحي من الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿إِنْ يُوحى إِلَيَّ ؛﴾ معناه : ما يوحى إليّ هذا القرآن ، ﴿إِلَّا أَنَّما ؛﴾ لأنّي ؛ ﴿أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٠) ؛ أي ما يوحى إليّ إلّا لأنّي نبيّ ونذير مبين ، أبيّن لكم ما تأتون من الفرائض والسّنن ، وما تتركون من الحرام والمعصية.

قوله تعالى : ﴿إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ (٧٤) ؛ قد تقدّم تفسير هذا.

وقوله : ﴿قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؛﴾ أي ما منعك عن السّجود لمن تولّيت خلقه من غير واسطة وسبب ، وقوله : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ﴾ (٧٥) ، أي رفعت نفسك فوق قدرك ، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ﴾ الذين علو في منزلة من السّجود لمثله.

قال ابليس : ﴿قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦) ؛ والنار شيء مضيء ، والطّين شيء مظلم.

وقوله تعالى : ﴿قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧) ؛ أي قيل : من السّماء ، وقيل : من الجنّة ، وقيل : من الأرض إلى جزائر البحار. والرّجيم : هو المرجوم بالخزي والفضيحة والشّهب إذا رجع إلى السّماء. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩).

قوله تعالى : ﴿قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٨١) ؛ المؤجّلين إلى وقت النّفخة الأولى ، فلم يجبه إلى ما سأل ، ولم يعرّفه ذلك الوقت.

---

(١) البقرة / ٣٠.

وقوله تعالى : ﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) ؛ أي لأدعونّهم إلى الغواية ولأضلّنّهم ، ﴿إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٨٣) ، إلّا عبادك الذين أخلصتهم وعصمتهم فلا سبيل لي عليهم.

قوله تعالى : ﴿قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥) ؛ قول مجاهد والأعمش وحمزة وخلف : برفع الأوّل ونصب الثاني ؛ أي بمعنى فأنا الحقّ أو فمنّي الحقّ وأقول ، وقرأ الباقون بنصبهما.

واختلف النّحاة في وجه ذلك ، فقيل : نصب الأول على الإغراء ، والثاني بإيقاع القول عليه. وقيل : الأول قسم ، والثاني مفعول ، تقديره : قال فبالحقّ وهو الله ، أقسم بنفسه ثم حذف الخافض فنصب كما يقول الله : لأفعلنّ ، أقسم الله تعالى ليملأنّ جهنّم من إبليس وأتباعه [١].

قوله تعالى : ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ؛﴾ أي قل يا محمّد لكفّار مكّة : ما أسألكم على تبليغ الوحي والقرآن من مال تعطونيه جعلا ، ﴿وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) ؛ أي لم أتكلّف دعاءكم اليه من تلقاء نفسي بل أمرت بذلك.

قوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ (٨٧) ؛ أي ما القرآن إلّا موعظة للحقّ أجمعين ، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ ؛﴾ أنتم يا كفار مكّة ، ﴿نَبَأَهُ ؛﴾ أي خبر صدقه ، ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ (٨٨) ؛ أي بعد الموت ، وقيل : يوم القيامة. وقال الحسن : (يا ابن آدم ؛ عند الموت يأتيك الخبر اليقين) [٢].

**آخر تفسير سورة (ص) والحمد لله ربّ العالمين**

---

(١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٣ ص ٣١٨. والحجة للقراءات السبعة : ج ٣ ص ٣٣٦.

(٢) ذكره أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٢٠.

## سورة الزّمر

سورة الزّمر مكّيّة إلّا قوله [1] : ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ...﴾ الآية ، وهي أربعة آلاف وسبعمائة وثمانية أحرف ، وألف واثنان وتسعون كلمة ، وخمس وسبعون آية. قال رسول الله ﷺ : [من قرأ سورة الزّمر لم يقطع الله رجاءه ، وأعطاه ثواب الخائفين][2].

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) ؛ معناه : هذا تنزيل من الله العزيز بالنّقمة لمن لا يؤمن ، الحكيم في أمره وقضائه. ويجوز أن يكون ﴿تَنْزِيلُ﴾ مبتدأ وخبره ﴿مِنَ اللهِ﴾ كما يقال : نعم الدّنيا والدين من الله تعالى. قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ؛﴾ أي أنزلنا إليك هذا القرآن بالحقّ ولم ينزله باطلا ، وقوله تعالى : ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) ؛ أي اعبد الله وحده لا كما يعبده عبدة الأوثان.

وقوله : ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ ؛﴾ أي إنّ العبادة الخالصة لله ، وفي هذا بيان أنّ غير الخالص لا يكون لله ، والإخلاص أن يقصد العبد بنيّته وعمله خالقه لا يجعل ذلك تعرّضا للدّنيا.

---

(١) في المخطوط : (إلى). والصحيح كما أثبتناه. وفي معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٥٨ ؛ قال الزجاج : (مكية ما خلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، قوله تعالى : ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ...﴾ إلى تمام ثلاث آيات). وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٢١٠ ؛ قال السيوطي : (وأخرج النحاس في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (نزلت بمكة سورة الزمر سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة ﴿قُلْ يا عِبادِيَ ...﴾ إلى ثلاث آيات).

(٢) ذكره البيضاوي في التفسير : ج ٢ ص ١٧٥ ، وهو من رواية الثعلبي في تفسيره ، وفيه نظر.

وقيل : معنى ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾ أي إن الدين الخالص من الشّرك هو لله ، وما سواه من الأديان فليس بدين الله الذي أمره به. قال قتادة : (الدّين الخالص شهادة أن لا إله إلّا الله) [1].

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ؛﴾ يعني الذين يعبدون الأصنام والملائكة والشّمس والقمر والنجوم يقولون : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى ؛﴾ أي يقولون ما نعبدهم إلّا ليشفعوا لنا إلى الله.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ؛﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة ، ﴿فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ؛﴾ من أمور الدين ، كلّ يقول : الحقّ ديني ، فهم مختلفون ، وحكم الله بينهم : أن يعذّب كلّا على قدر استخفافه ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٣) ؛ أي لا يرشد لدينه من كذب في زعمه أنّ الآلهة تشفع له الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ أي لو أراد أن يتّخذ لنفسه ولدا كما زعم بعض الكفّار أنّ الملائكة بنات الله! لما اقتصر على الأدون من البنات دون الأعلى من الذّكران ، وهذا كقوله تعالى ﴿أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً﴾ [2] ، وقال تعالى ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى﴾ [3].

وقيل : معناه : لو أراد أن يتّخذ ولدا كما قالت النصارى في المسيح واليهود في العزير لاختار خلقا أفضل من عيسى عليه‌السلام وعزير. وقوله تعالى : ﴿سُبْحانَهُ ؛﴾ أي تنزيها له في كلّ صفة لا تكون من أرفع الصّفات ، وقوله : ﴿هُوَ اللهُ الْواحِدُ ؛﴾

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢١٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة). وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣١١٨).

(٢) الاسراء / ٤٠.

(٣) النجم / ٢١.

لا شريك له و «ليس» [١] شيء كمثله ، ﴿الْقَهَّارُ﴾ (٤) ؛ الغالب على خلقه الذي لا يحتاج إلى ولد وظهير.

قوله تعالى : ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ ؛﴾ أي خلق السّموات والأرض عبرة للخلق ، وإقامة للحقّ لا للعبث والباطل ، يدير الليل على النهار ، ويدير النهار على الليل ، وكلّ واحد على الآخر ، ويزيد من ساعات أحدهما في ساعات الآخر.

والتكوير : هو إدارة الشيء على الشيء ، ومنه كور العمامة ، وقد تسمّى الزيادة كورا ، كما قيل في الدّعاء : (اللهمّ إنّي أعوذ بك من الحور بعد الكور) [٢] أي من النّقصان بعد الزيادة. وقوله : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ؛﴾ أي إلى الوقت الذي وقّت الله الدنيا إليه وهو انقضاؤها وفناؤها ، وقوله : ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (٥) ؛ أي خالق هذه الأشياء هو الله الغالب على كلّ شيء ، الغفّار لأوليائه وأهل طاعته.

وقوله تعالى : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها ؛﴾ أي خلقكم من نفس آدم وحدها ثم خلق منها زوجها حوّاء من ضلع من أضلاعه القصيرة ، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ؛﴾ يعني الإنزال ههنا الإنشاء والخلق ؛ أي وخلق لكم من كلّ صنف من الإبل والبقر والضّأن والمعز زوجين ذكرا وأنثى.

وقوله : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ، أي خلقكم نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن تخرجوا من البطون ، ﴿فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ؛﴾ يعني

---

(١) (ليس) سقطت من المخطوط ، والسياق يقتضيها.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح : كتاب الحج : باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره : الحديث (٤٢٦ / ١٣٤٣) : عن علي الأزدي أن ابن عمر علّمهم أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره ... الحديث. والترمذي في الجامع الصحيح : الدعوات : باب ما يقول إذا خرج مسافرا : الحديث (٣٤٣٩) ، وقال : حديث حسن صحيح من طريق عبد الله بن سرجس.

ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة [١]. وقيل : ظلمة الأصلاب وظلمة الأرحام وظلمة البطون. وقوله تعالى : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ؛﴾ الدائم الذي لا يزول ، ولا خالق غيره ، ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٦) ؛ بعد هذا البيان والبرهان.

قوله تعالى : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ؛﴾ أي إن تكفروا يا أهل مكّة بنعم الله ، فإنّ الله غنيّ عنكم ، لم يأمركم بالإيمان من حاجة له إليكم لا لجلب منفعة ولا لدفع مضرّة ، وإنما آمركم به لنفعكم ، ﴿وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ ؛﴾ أي لا يرضى لأوليائه وأهل طاعته الكفر. وقيل : معناه : ولا يرضى لعباده المخلصين الذي قال «فيهم» [٢]﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾[٣] فألزمهم شهادة لا إله إلّا الله وحبّبها إليهم.

وقال السديّ : (ولا يرضى لعباده المؤمنين أن يكفروا) ، وهذه طريقة من قال بالتخصيص في هذه الآية ومن أجراها على العموم فمعناه : لا يرضى الكفر لأحد ، وكفر الكافر غير مرض ، وإن كان بإرادة ، فالله تعالى مقدّر الكفر غير راض به لأنه «ما» يمدحه [٤] ولا يثني عليه ، قال قتادة : (ما رضي الله لعبد ضلالة ولا أمره بها ولا دعاه إليها ، ولكن قدّره عليه) [٥].

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ؛﴾ معناه : وإن تشكروا ما أنعم عليكم من التوحيد يرض ذلك الشكر لكم ويثيبكم عليه ، ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ؛﴾ أي لا تؤخذ نفس وزرا بذنب أخرى ، ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ؛﴾

---

(١) قاله الطبري في جامع البيان : مج ١٢ ج ٣ ص ٢٣٣ ، وعزاه إلى عكرمة وابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد والضحاك.

(٢) ما بين «» ليس في المخطوط.

(٣) الاسراء / ٦٥.

(٤) (ما) سقطت من المخطوط ، والسياق يقتضي ذكرها.

(٥) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢١٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : (والله ...) وذكره).

في الآخرة ، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ، فيجزيكم ، ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ، في الدّنيا ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧) ، بعزائم القلوب.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ؛﴾ إذا أصاب الكافر شدّة في عيشه أو بلاء في جسده دعا ربّه راجعا إليه بقلبه ، قال عطاء : (يريد عتبة بن ربيعة) [1] ، وقال مقاتل : (يعني أبا حذيفة بن المغيرة) [2].

وقوله : ﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ ؛﴾ أي ثم إذا أعطاه نعمة منه ؛ أي أغناه وأنعم عليه بالصحّة ، ﴿نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ؛﴾ أي نسي الضرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه ، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً ؛﴾ أي رجع إلى عبادة الأوثان ، ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ؛﴾ أي ليزلّ عن دين الإسلام ، ويضلّ الناس ، ﴿قُلْ ؛﴾ يا محمّد لهذا الكافر : ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ؛﴾ في الدّنيا إلى أجلك ، لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد والوعيد ، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾ (٨) ؛ في الآخرة فما ينفع التمتّع القليل من الدنيا.

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ؛﴾ معناه : هذا خير أيّها الكافر أم من هو قانت؟ وقيل : معناه : أمّن هو قانت كمن جعل لله أندادا. وقيل : معناه : أهذا الخير أم من هو قانت لله؟. والقانت : هو المواظب على طاعة الله تعالى ، القائم بما يجب عليه لأمر الله. و ﴿آناءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاته.

وقوله : ﴿ساجِداً وَقائِماً﴾ نصب على الحال ؛ أي تارة ساجدا وتارة قائما ، يفعل ذلك حذرا من العذاب وطمعا في الثواب. وقرأ نافع وابن كثير : (أمن) بالتخفيف ؛ لأن ألف الاستفهام دخلت على (من) هو استفهام إنكار ، والمعنى : أمن هو قانت

---

(١) في معالم التنزيل : ص ١١٢٢ ؛ قال البغوي : (نزلت في عتبة بن ربيعة) ونقل قول مقاتل ثم قال : (وقيل : عامّ في كل كافر).

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٢٨ ؛ قال : (يعني أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي).

كالأوّل. وروي أنّ قوله : (أم من هو قانت آناء اللّيل ساجدا وقائما) نزلت في عثمان ابن عفّان رضي الله عنه [1].

وقوله تعالى : و ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ؛﴾ أي لا يستوي العالم والجاهل ، فكذلك لا يستوي المطيع والعاصي ، ﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٩) ؛ أي يتّعظ بمواعظ الله ذوو العقول من الناس.

وقال مقاتل : (نزلت هذه الآية في عمّار بن ياسر وأبي حذيفة بن المغيرة المخزوميّ. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني عمّار ﴿وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أبا حذيفة).

وعن ابن عبّاس ؛ أنّه قال : (من أحبّ أن يهوّن عليه الموقف يوم القيامة ، فليره الله ساجدا في سواد اللّيل [2] ساجدا أو قائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) [3].

قوله تعالى : ﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ؛﴾ أي أطيعوه واجتنبوا معاصيه ، وتمّ الكلام ثم قال : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا ؛﴾ أي وحّدوا الله وأحسنوا العمل ، ﴿حَسَنَةٌ ؛﴾ يعني الجنّة.

قوله تعالى : ﴿وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ ؛﴾ أي ارحلوا من مكّة ، وهذا حثّ لهم على الهجرة من مكّة إلى حيث يأمنون ، فيه بيان أنه لا عذر لأحد في ترك طاعة الله تعالى لكونه بأرض لا يتمكّن فيها من ذلك.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الحديث (١٨٣٧٨) عن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر قرأ الآية ، ثم قال : (ذلك عثمان بن عفّان رضي الله عنه) وفسّر ابن أبي حاتم قوله : (وإنّما قال ابن عمر ذلك ؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان باللّيل وقراءته).

(٢) كرر الناسخ (ساجِداً) والسياق لا يقتضيها.

(٣) بمعناه ذكره الطبري تفسيرا في جامع البيان : مج ١٢ ج ٢٣ ص ٢٤٠ ، ونقله مختصرا بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في الأثر (٢٣١٦٣). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير مختصرا : الأثر (١٨٣٧٩).

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ (١٠) ؛ معناه : إنما يوفّى الصّابرون على دينهم فلا يتركونه بمشقّة تلحقهم. وهذه الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين لم يتركوا دينهم ، ولما اشتدّ عليهم الأمر صبروا وهاجروا [١] ، والمعنى : يعطون أجرهم كاملا على صبرهم على البلاء ، وهجران أهلهم وأوطانهم بغير وزن ولا مقدار ، بل يعطون نعيما وثوابا لا يهتدي إليه عقل ولا وصف.

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) ؛ أي قل يا محمّد لكفّار مكّة : إنّي أمرت أن أعبد الله ، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٢) ، وأمرت أن أعبده على التوحيد والإخلاص ، لا يشوب عبادته شرك.

قال مقاتل : (وذلك أنّ كفّار قريش قالوا له : يا محمّد ما يحملك على ما أتيتنا به؟ ألا تنظر إلى ملّة أبيك وجدّك وسادة قومك يعبدون اللّات والعزّى فتأخذ بها؟ فأنزل الله هذه الآية) [٢]. أي قل لهم إنّي أمرت بالقرآن بتوحيد الله تعالى ، وأن آمر الخلق كلهم بذلك ، وأمرت أن أكون أوّل من أسلم من أهل هذا الزّمان.

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣) ؛ بالرّجوع إلى دين آبائي ، ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ (١٤) ؛ بالتوحيد لا أشرك به شيئا ، ﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ؛﴾ هذا أمر تهديد ، ﴿قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ؛﴾ بأن صاروا إلى النار ، ﴿أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ (١٥) ، يعني الكفار هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم من الأزواج والخدم بالتخلية في النار. ويقال : خسران الأهل أن يخسروا أهلهم من الحور العين التي أعدّت لهم في الجنّة لو أسلموا.

---

(١) أيضا ذكره البغوي وبعبارة المصنف في معالم التنزيل : ص ١١٢٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٢٩ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ؛﴾ أي أطباق من النار تلهب عليهم ، ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ؛﴾ أي مهاد من النار. يريد بذلك أنّهم جعلوا بين أطباق جهنّم ، فأحاطت بهم النار من كلّ جانب.

وإنما سمي الذي من تحتهم ظلا لأنه ظلل لا يكون أسفل منهم. وقوله تعالى : ﴿ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ ؛﴾ أي ذلك الذي ذكر من عذاب الكفّار تخويف للمؤمنين ليخافوه فيتّقونه بالطاعة والتوحيد. ثم أمرهم بذلك فقال : ﴿يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾ (١٦) ؛ أي اتّقوا عذابي بامتثال أوامري.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها ؛﴾ يعني اجتنبوا كلّ ما يعبد من دون الله ، ﴿وَأَنابُوا إِلَى اللهِ ؛﴾ أي ورجعوا إلى طاعة الله بعزائمهم وأقوالهم وأفعالهم ، ﴿لَهُمُ الْبُشْرى﴾ ، بالجنّة ، ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ؛﴾ وذلك لأنّ القرآن يشتمل على ذكر المباحات والطّاعات ، والمباحات حسنة ، والطاعات أحسن ، واستحقاق الثواب يتعلّق بفعل الأحسن.

ويجوز أن يكون معنى الآية : أن العفو عن القصاص أحسن من استيفاء القصاص ، والصبر أحسن من الانتصار ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾[(١)] ، وقال الله تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[(٢)] ، وقال الله تعالى : ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾[(٣)] فجعل الأخذ بأحسن الطّريقين أعظم للصواب.

وقيل : معنى ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي أحسنه وكلّه حسن ، قوله تعالى : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ ؛﴾ أي الذين وصفناهم ، ﴿وَأُولئِكَ﴾ ، هم الذين وفّقهم الله للصواب ، ﴿هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (١٨) ؛ أي ذوو العقول.

---

(١) البقرة / ٢٣٧.

(٢) الشورى / ٤٣.

(٣) البقرة / ١٨٤.

وقال عطاء عن ابن عبّاس : (أنّ أبا بكر رضي الله عنه آمن بالنّبيّ ﷺ فصدّقه ، فجاء عثمان رضي الله عنه وعبد الرّحمن بن عوف وطلحة والزّبير وسعد وسعيد ، فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا ، فنزل فيهم ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ أي يستمعونه من أبي بكر ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي حسنه ، وكلّه حسن ، أولئك الّذين هداهم الله وأولئك هم ذوو العقول) [1].

وقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ ؛﴾ معناه : أفمن وجبت عليه كلمة العذاب بكفره كمن ليس كذلك ، ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (١٩) ؛ أي سبق في علم الله أنه من أهل النار ، أفأنت تنقذه فتجعله مؤمنا ، يعني لا تقدر على ذلك.

قال عطاء : (يريد أبا لهب وأولاده ومن تخلّف من عشيرة النّبيّ ﷺ عن الإيمان به) [2]. قوله تعالى : ﴿لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ؛﴾ بالإيمان والطاعة ، ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ؛﴾ أي لهم منازل في الجنّة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها ، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ﴾ (٢٠) ، وعدهم الله تلك الغرف والمنازل وعدا لا يخلفه.

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ؛﴾ يعني المطر ، ﴿فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي فأجراه في الأرض ينابيع وهو جمع ينبوع ، والينبوع : المكان الذي ينبع منه الماء. قال مقاتل : معناه (فجعله عيونا وركايا [3] في الأرض) [4] وذلك أنّ أصل المياه الّتي في الأرض من السّماء.

---

(١) أيضا ذكره البغوي مختصرا في معالم التنزيل : ص ١١٢٣.

(٢) ذكره البغوي مختصرا في معالم التنزيل : ص ١١٢٣. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٤٤.

(٣) الرّكايا : أصلها (الرّكوة) وهي شبه تور من أدم ، وفي الصحاح : الرّكوة التي للماء وجمعها (ركاء) و (ركوات) بفتح الكاف. وهي إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء. وركا الأرض ركوا : حفرها. وركا ركوا : حفر حوضا مستطيلا. والرّكية : البئر تحفر ، والجمع ركيّ وركايا. ينظر : مادة (ركا) في لسان العرب.

(٤) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٣٠.

وقوله : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ؛﴾ أي ثم يخرج بالمطر زرعا من بين أحمر وأصفر وأبيض وأخضر ، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ ؛﴾ أي ييبس ، ﴿فَتَراهُ ؛﴾ بعد الخضرة ، ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ ؛﴾ الله ، ﴿حُطاماً ؛﴾ أي متكسّرا متفتّتا دقاقا ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (٢١) ؛ أي الذي ذكر من صنع الله وقدرته لدلالة ذوي العقول على سرعة زوال الدّنيا ، وعلى قدرة الله على البعث بعد الموت.

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ؛﴾ معناه : أفمن وسّع الله صدره لقبول الإسلام ، فهو على بيان وحجّة من ربّه يبصر به الحقّ من الباطل ، كمن طبع الله على قلبه فلم يهتد للحقّ لقسوته ، قال قتادة : ﴿فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ : النّور هو كتاب الله تعالى ، فيه يأخذ وبه ينهى) [(١)].

وتقدير الآية : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، كمن قسي قلبه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ، قالوا : يا رسول الله وما هذا الانشراح؟ قال : [إذا دخل نور القلب انشرح وانفسح] قلنا يا رسول الله ؛ وما علامة ذلك؟ قال : [الإنابة إلى دار الخلود ، والتّجافي عن دار الغرور ، والتّأهّب للموت قبل لقاء الموت][(٢)]. قيل : إنّ هذه الآية نزلت في عمّار بن ياسر [(٣)] ، وقال مقاتل : (أفمن شرح الله صدره للإسلام يعني النّبيّ ﷺ).

قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ؛﴾ هم أبو جهل وأصحابه من الكفّار ، ﴿أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٢). وقيل : إنّ قوله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني عليّا وحمزة ، وقوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ هو أبو لهب وأولاده [(٤)]. وقوله ﴿مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ أي عن ذكر الله.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣١٨٣).

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢١٩ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود) وذكره.

(٣) نقله القرطبي في مقاتل ، كما في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٤٧.

(٤) ذكره أيضا القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٤٨.

قوله تعالى : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ؛﴾ يعني القرآن ، سمي حديثا لأن النبيّ ﷺ كان يحدّث به قومه. وقوله : ﴿كِتاباً ؛﴾ منصوب على البدل من أحسن الحديث. قوله : ﴿مُتَشابِهاً ؛﴾ أي يشبه بعضه بعضا في كونه حكمة ومصلحة ، وفي أنه حقّ لا تناقض فيه.

وقوله تعالى : ﴿مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ؛﴾ أي مكرّر الأنباء والقصص للإبلاغ والتأكيد ، وتثنى تلاوته في الصّلاة وفي غيرها فلا يمل من سماعه.

وقوله : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خوفا مما في القرآن من الوعيد ، ومعنى تقشعرّ : تأخذهم قشعريرة وهي تغيّر يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف. قال رسول الله ﷺ : [إذا اقشعرّ جلد العبد من خشية الله ، تحاتّت عنه ذنوبه كما يتحاتّ عن الشّجرة ورقها](١). وقال الزجّاج : (إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرّت جلود الخائفين) (٢) ، وقال النّبيّ ﷺ : [إذا اقشعرّ جلد الإنسان من خشية الله حرّمه الله على النّار](٣).

وعن عبد الله بن عروة قال : قلت لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه : كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت : (كانوا كما نعتهم الله تعالى ، تدمع عيونهم وتقشعرّ منه جلودهم) فقلت لها : إنّ ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرّوا مغشيّا عليهم؟ قالت : (أعوذ بالله من الشّيطان) (٤).

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٢٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه) وذكره. وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٣١٠ ؛ قال الهيثمي : (رواه البزار ، وفيه أم كلثوم بنت العباس ، ولم أعرفها ، وبقية رجالها ثقات). وأخرجه البغوي بإسناده في معالم التنزيل : ص ١١٢٤.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٤٦.

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٥٠ ، بلفظ : [ما اقشعرّ جلد عبد ...]. وأخرجه البغوي بإسناده في معالم التنزيل : ص ١١٢٥.

(٤) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٢٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن

وروي : أنّ ابن عمر رضي الله عنه مرّ برجل من أهل العراق ساقط فقال : (ما بال هذا؟) فقالوا : إنّه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط ، فقال ابن عمر رضي الله عنه : (إنّا لنخشى الله ولا نسقط) وقال ابن عمر : (إنّ الشّيطان ليدخل في جوف أحدهم! ما كان هذا صنع أصحاب رسول الله ﷺ ) [1].

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ؛﴾ أي تسكن رعدة أعضائهم إذا سمعوا آيات الرّحمة ، وقيل : تلين جلودهم وقلوبهم ؛ أي تطمئنّ وتسكن إلى ذكر الله للجنّة والثواب.

قال قتادة : (هذا نعت أولياء الله ، وصفهم الله بأن تقشعرّ جلودهم وتطمئنّ قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، إنّما ذلك في أهل البدع وهو من الشّيطان) [2].

وقوله تعالى : ﴿ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ ؛﴾ يعني أحسن الحديث وهو القرآن ، هدى الله يهديه ، ﴿مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ (٢٣).

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ؛﴾ قال ابن عبّاس : (وذلك أنّ الكافر يلقى في النّار مغلول اليد إلى العنق ، لا يتهيّأ له أن يتّقي النّار إلّا بوجهه) [3] ، فكان معنى الآية : أفمن يتّقي بوجهه شدّة العذاب يوم القيامة كمن يدخل الجنة ويتلذذ بنعيمها.

---

. مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر ع عروة بن الزبير ...) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٨٣٨٣).

(١) أخرجه البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٢٥.

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٢١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ...) وذكره.

(٣) في جامع البيان : مج ١٢ ج ٢٣ ص ٢٥١ : تفسير الآية ؛ قال الطبري : (وقال آخرون : هو أن ينطلق به إلى النّار مكتوفا ، ثم يرمى به فيها ، فأوّل ما تمسّ النار وجهه ، وهذا قول يذكر عن ابن عباس من وجه كرهت أن أذكره لضعف إسناده).

قيل : إنّ هذه الآية نزلت في أبي جهل ، قال الكلبيّ : (ينطلق به إلى النّار مغلولا ، فإذا دفعته الخزنة فيها تتلقّفه النّار بأوّل وجهه) ، وقوله : ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٤) ؛ أي يقول الخزنة للكفار : ذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون في الدّنيا من الكفر والمعاصي.

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛﴾ أي كذب الذين من قبل كفّار مكّة رسلهم ، ﴿فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٥) ؛ يعني وهم آمنون في أنفسهم غافلون عن العذاب. وفي هذه الآية تحذير لأهل مكّة لئلّا يسلكوا طريقة من قبلهم فينزل بهم من العذاب ما نزل بمن قبلهم.

وقوله تعالى : ﴿فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ؛﴾ أي الهوان والعذاب في الحياة الدنيا ، ﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ؛﴾ مما أصابهم في الدّنيا ، ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) ؛ ولكنّهم لم يعلموا ذلك.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ؛﴾ أي ولقد ضربنا لأهل مكّة في هذا القرآن من كلّ مثل لهم فيه من كلّ وجه ما يحتاجون إليه ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ؛ فيؤمنوا.

وقوله تعالى : ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨) ؛ قرآنا نصبه على الحال كما يقال : جاءني زيد رجلا صالحا ، وقوله تعالى ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي مستقيم وليس مختلف ، وعن ابن عبّاس : ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ ؛ أي غير مخلوق) (١) ، وقيل : غير تضادد واختلاف ، لا يخالف الكتب المنزّلة قبله.

قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ ؛﴾ أي وصف الله مثل آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، يقول الله : الذي يعبد آلهة شين في أخلاقهم وشراسة ، والذي يعبد ربّا واحدا خالصا في عبادته إياه ، والمعنى فيه شركاء متشاحّون ، ورجلا سلما لرجل سلم له من غير منازع ، وقيل : معناه : أنّ أربابا كثيرة فيه

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٢٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه الآجري في الشريعة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات).

شركاء متشاحّون سيّئة أخلاقهم ، وكلّ واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه ، يقال : رجل شكس وشرس ، وضرس وضبس ، إذا كان سيّء الخلق ومخالفا للناس.

قوله تعالى : ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ؛﴾ (ورجلا سالما) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ومجاهد والحسن ويعقوب ، واختيار أبي عبيد ؛ لأن السالم «الخالص» [1] ضدّ المشترك ، وقرأ الباقون ﴿سَلَماً﴾ من غير ألف بفتح اللام وهو ضدّ المحارب ، ولا موضع للحرب ههنا ، والمعنى ورجلا ذا سلم لرجل ، من قولهم : هو لك سلم ؛ أي مسلم لا منازع لك فيه.

وقوله : ﴿هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً ؛﴾ أي هل يستوي عندك شرك فيه مختلفون يملكونه جميعا ورجل خالص لرجل لا شركة فيه لأحد. والمعنى هل يستوي من يعبد آلهة شتّى مختلفة ، يعني الكافر ، والذي يعبد ربّا واحدا ، يعني المؤمن ، وهذا استفهام معناه الإنكار ؛ أي لا يستويان.

قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ؛﴾ أي الشكر لله دون غيره من المعبودين ، وقوله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩) ؛ ما يصيرون إليه من العقاب ، والمراد بالأكثر الكلّ.

قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ؛ إنك يا محمّد ميّت عن قليل وإنّهم ميّتون ، وقيل : معناه : إنك ستموت وإنّهم سيموتون ، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣١) ؛ يعني المحق والمبطل ، والظالم والمظلوم. قوله : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ﴾ ، بأن جعل له ولدا وشريكا ، ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ ؛﴾ وكذب بالصدق بالتوحيد والقرآن إذ جاء به محمّد ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾ (٣٢) ؛ لفظة استفهام وهو تقدير وتحقيق ؛ أي مثواهم جهنّم.

قوله : ﴿وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ ؛﴾ رسول الله ﷺ ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ ؛﴾ أبو بكر رضي الله عنه كان يصدّقه في كلّ ما أخبر به ، فلذلك سمي صدّيقا ، وقوله تعالى :

---

(١) في المخطوط : (هو) وضبطت كما في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٥٣.

﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣) ؛ يعني أبا بكر وأصحابه المؤمنين ، وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؛﴾ يعني لهم ما يشاؤون من الكرامة في الجنّة و ﴿ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤) ؛ في أقوالهم وأعمالهم. وقوله تعالى : ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ؛﴾ أي ليكفّر الله عنهم أقبح أعمالهم التي عملوها في الدّنيا بحسناتهم ، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥) ، قال مقاتل : (بالمحاسن من أعمالهم ، ولا يجزيهم بالمساوئ)[(١)].

قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ ؛﴾ وذلك «أن»[(٢)] المشركين من أهل مكّة قالوا للنبيّ ﷺ : إنّك لا تزال تشتم آلهتنا وتعيبها فاتّقها أن لا تصيبك بشيء فتخبلك! فأنزل الله هذه الآية. وقيل : معناه : أليس الله بكاف عبده محمّدا ﷺ يكفيه عداوة من يعاديه.

ومن قرأ (عباده) فالمراد بالعباد الأنبياء ، وذلك أنّ الأمم قصدتهم بالسّوء ، وهو قوله تعالى : ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾[(٣)] فكفاهم الله شرّ من عاداهم ، يعني إنه كافيك كما كفى هؤلاء الرسل قبلك.

وقوله تعالى : ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ، أي بالذين يعبدون من دونه هم الأصنام. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ﴾ (٣٧).

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ ؛﴾ وذلك أنّهم «مع»[(٤)] عبادتهم غير الله يقرّون أن الله خالق هذه الأشياء ، فجعل الله إقرارهم بذلك حجّة عليهم.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٣٣.

(٢) (أن) سقطت من المخطوط.

(٣) غافر / ٥.

(٤) «مع» سقطت من المخطوط.

وبيّن أنه تعالى إذا أراد بعبده ضرّا لم تقدر الأصنام على دفعه عنه ، وإذا أراد بعبد رحمة لم تقدر الأصنام على حبسها عنه ، فكيف يعبدونها ويتركون عبادة الله الذي له هذه الصفات.

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ﴾ أي أمر الله النبيّ ﷺ أن يحتجّ عليهم بأن جميع ما تعبدون من دون الله لا يملكون كشف ضرّ ، قال ابن عبّاس رضي الله عنه : (والمعنى : أرادني الله بفقر أو مرض أو بلاء أو شدّة ، هل هنّ كاشفات ضرّه ، أو أرادني برحمة أي بخير وصحّة ، هل هنّ حابسات تلك الرّحمة عنّي).

قرأ أبو عمرو ويعقوب (كاشفات) و (ممسكات) بالتنوين ؛ لأنّ اسم الفاعل غير واقع ، وما لم يقع منه فوجهها التنوين ، وقرأ الباقون بغير تنوين استخفافا ، وكلا الوجهين حسن.

وقوله تعالى : ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ ؛﴾ أي يكفيني الله تعالى الذي بيده الضرّ والرحمة ، ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٣٨) ؛ أي به يثق الواثقون لا بغيره.

قوله تعالى : ﴿قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ ؛﴾ أي على ناحيتكم التي اخترتموها ، ﴿إِنِّي عامِلٌ ؛﴾ على ناحيتي وجهتي ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ؛﴾ أي يفضحه ويهلكه في الدّنيا ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ (٤٠) ؛ وينزل عليه عذاب دائم في الآخرة. ويجوز أن يكون قوله ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى ، وخبره ﴿يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ﴾.

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ؛﴾ يعني القرآن لتعلموا ما فيه وتعملوا به ، ﴿فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ ؛﴾ أي فمنفعة اهتدائه راجعة إلى نفسه ، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾ ، ومن ضلّ فضلاله راجع إليه ، ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١) ؛ أي بحفيظ ؛ أي تجبرهم بالإيمان ، وهذا كان قبل أن يؤمر بقتالهم.

قوله تعالى : ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ معناه : الله يقبض الأرواح عند انقضاء آجالها ، ويقبض الأرواح التي لم تمت في منامها ، ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى ؛﴾ فيحبس الأرواح التي قضى عليها الموت ولا يردّها إلى الأجساد ، ويردّ أرواح النائمين إليهم عند الاستيقاظ ، ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ؛﴾ أي إلى الأجل الذي قدّر الله لهم وهو انقضاء الأجل ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ ؛﴾ إن في ردّ الأرواح بعد القبض لعلامات ، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢) ؛ في قدرة الله تعالى ، فيستدلّون بذلك على قدرته على البعث.

قال الزجّاج : (لكلّ إنسان نفسان ؛ أحدهما : نفس التّمييز ؛ وهي الّتي تفارقه إذا نام فلا يعقل. والأخرى : نفس الحياة ؛ إذا زالت زال معها النّفس ، والنّائم يتنفّس) [١]. وعن ابن جريج عن ابن عبّاس أنه قال : (إنّ النّفس الّتي هي العقل والتّمييز ، والرّوح هو الشّعاع الّذي به يتحرّك الإنسان ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه ، وإذا مات قبض نفسه وروحه) [٢].

ويقال : إن الأشباح له نفس وروح وحياة ، والبهائم لها أرواح ، والنبات له حياة ، فنما النبات بحياته ، وتحرّك البهائم بأرواحها ، وتمييز الإنسان بنفسه ، فإذا نام غرب عنه عقله وفهمه وتمييزه ، فإذا انتبه عاد كما كان ، وكذلك الميّت إذا بعث عاد يبعث كما كان.

---

(١) بمعناه في معاني القرآن وإعرابه للزجاج : ج ٤ ص ٢٦٨ ، وعلى ما يبدو أن المصنف ساقه بالمعنى ، ونقل البغوي معناه في معالم التنزيل : ص ١١٢٧ ـ ١١٢٨.

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٣٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس). وذكره بلفظ قريب. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٣٨٩٧). وبمعناه أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : ج ١ ص ١١٦ : الحديث (١٢٢). وفي مجمع الزوائد : ج ٧ ص ١٠٠ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح).

وسئل رسول الله ﷺ : أينام أهل الجنّة؟ فقال : [النّوم أخو الموت ، وأهل الجنّة لا ينامون ولا يموتون][(١)]. وروي أن في التوراة مكتوب : يابن آدم كما تنام تموت ، وكما تستيقظ تبعث.

وقوله ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ أي يمسكها عن جسد ، يعني الروح التي توفّاها فلا تعود إلى الجسد ، وقوله ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرى﴾ يعني النّفس إلى الجسد (إلى أجل مسمّى) أي إلى انقضاء الأجل.

قرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف : (قضي عليها) بضمّ القاف وكسر الضاد وفتح الياء ، ورفع (الموت) على ما لم يسمّ فاعله. وقرأ الباقون : ﴿قَضى﴾ على الفعل الماضي ، ونصب (الموت عليها) [(٢)].

قوله تعالى : ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ قال المفسّرون : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتعارفوا ما شاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات فلا يردّها ، وأرسل أرواح الأحياء إلى الأجساد إلى وقت انقضاء مدّة حياتها. وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليضطجع على جنبه الأيمن ، وليقل : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصّالحين][(٣)].

قوله تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ﴾ ؛ نزلت في أهل مكّة ، زعموا أن الأصنام شفعاؤهم عند الله ، فقال تعالى منكرا عليهم (أم اتخذوا من دون الله آلهة) أي بل اتّخذوا من دون الله آلهة يعبدونها طمعا في شفاعتها ، ﴿قُلْ﴾ ،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : الحديث (٩٢٤) عن جابر بن عبد الله ، والحديث (٨٨١١) مختصرا. وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ٤١٥ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني في الأوسط والبزار ، ورجال البزار رجال الصحيح).

(٢) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٤٢.

(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء : الحديث (٣٥٤ ـ ٣٥٦). ومسلم في الصحيح : كتاب الذكر والدعاء : الحديث (٦٤ / ٢٧١٤). والترمذي في الجامع : أبواب الدعوات : الحديث (٣٤٠١) ، وقال : حسن.

لهم يا محمّد : ﴿أَوَلَوْ كانوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) ، أتعبدونهم وإن كانوا لا يقدرون على شيء من الشفاعة ولا يعقلون الشفاعة ، فكيف يشفعون؟ وقيل : ولا يعقلون أنّكم تعبدونهم.

ثم أخبر أنه لا شفاعة إلّا بإذنه ، فقال : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٤) ؛ أي لا يشفع أحد إلّا بإذنه ، والمعنى لا يملك [1] أحد الشفاعة إلّا بتمليكه ، وهو إبطال لشفاعة الأصنام.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ؛﴾ وذلك أنّ المشركين إذا قيل لهم لا إله إلّا الله وحده نفروا من ذلك واستكبروا.

والاشمئزاز في اللّغة : النّفور والاستكبار. قال ابن عبّاس رضي الله عنه : (اشمأزّت انقبضت عن التّوحيد) وقال قتادة : (استكبرت) [2] ، وقال أبو عبيدة : (نفرت).

قوله تعالى : ﴿وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؛﴾ يعني الأصنام التي يعبدونها من دون الله ، ﴿إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥) ؛ والمعنى إذا قيل لهم : لا إله إلّا الله ، نفروا من ذلك ، وإذا ذكرت أصنامهم فرحوا بذكرها. فقيل له : ﴿قُلِ ؛﴾ لهم يا محمّد : ﴿اللهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي خالقهما ، ﴿عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ ؛﴾ أي عالم ما غاب عن العباد ، وما علمه العباد ، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ﴾ ، أي تقضي بين عبادك ، ﴿فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦) ؛ من الدّين.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ؛﴾ أي لو كان للّذين ظلموا أنفسهم بالشّرك ما في الأرض جميعا من المال ومثله معه لفدوا به أنفسهم لشدّة ما ينزل بهم من العذاب ، ثم لا يقبل منهم ذلك الفداء ، وظهر لهم من عقاب الله ما لم يكونوا يتوقّعون في الدّنيا أنه ينزل بهم في الآخرة.

---

(١) في المخطوط : (يَمْلِكُونَ).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٢٣٥).

وذلك أنّهم لما كانوا لا يقرّون بالبعث والنّشور كانوا لا يتوقّعون أهوال يوم القيامة ، بل كانوا ينتظرون ثواب الله أن لو قامت القيامة كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿وما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾[1] فإذا رأوا العذاب فقد ، ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ؛﴾ وظهر لهم عقوبات ما كسبوا من المعاصي ، ﴿وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ (٤٨) ، وحلّ بهم جزاء استهزائهم بالكتاب والرسول.

قوله تعالى : ﴿فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ؛﴾ أي إذا أصابه مكروه دعانا لنكشف عنه ، ﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ ، ثم أعطيناه نعمة منّا من صحّة وعافية ، ويسر بعد شدّة ، ﴿قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ؛﴾ الله أنّني أهل لذلك ، وقال : على علم منّي فيه بوجوه مكاسبة.

وقوله : ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ؛﴾ أي بل النعمة والشدّة بليّة وامتحان من الله للغنيّ والفقير ، للغنيّ بالشّكر وللفقير بالصبر ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩) ؛ أنّها من الله.

قوله تعالى : ﴿قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛﴾ أي قد قال تلك الكلمة قارون حين قال ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[2]. والمعنى قد قالها الذين من قبل هؤلاء الكفّار ، ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٠) ؛ أي ما أغنى عنهم الكفر من العذاب شيئا ، والمعنى أنّهم ظنّوا إنما آتيناهم لكرامتهم علينا ، ولم يكن كذلك ؛ لأنّهم وقعوا في العذاب ، ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئا ، وقوله تعالى : ﴿فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ؛﴾ أي جزاؤها.

ثم أوعد كفار مكّة فقال : ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ؛﴾ أي جزاء ما قالوا وعملوا ، ﴿وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥١) ؛ لأن مرجعهم الله ، فهم لا يعجزونه ولا يفوتونه فيجازيهم بأعمالهم.

---

(١) فصلت / ٥٠.

(٢) القصص / ٧٨.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؛﴾ معناه : أو لم يعلموا أنّ الله يوسع الرزق على من يشاء ويضيّق على من يشاء ، كلّ ذلك من عنده لا بحول الإنسان وقوته ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) ؛ إنّ في البسط والتقتير لآيات لقوم يصدّقون أنّها من الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ؛﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنه : (إنّ هذه الآية نزلت في وحشي وأصحابه الّذين قتلوا حمزة عمّ النّبيّ ﷺ وجماعة من المؤمنين ، أرسلوا إلى النّبيّ ﷺ رسولا يطلبون التّوبة ، فأنزل هذه الآية)[١].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه : يا محمّد كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أنّه من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا؟! وأنا قد فعلت ذلك كلّه ، فهل تجد لي فيه رخصة؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً﴾[٢].

فقال وحشي : هذا شرط شديد لا أقدر على هذا ، فهل غير ذلك؟ فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾[٣] وقال وحشي : وإنّي في شبهة فلا أدري أيغفر لي أم لا ، فهل غير ذلك؟ فأنزل الله ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ فجآء وحشي فأسلم ، فقال المسلمون : هذه له خاصّة أم للمسلمين عامة؟ فقال : [بل للمسلمين عامّة][٤].

معنى الآية : قل يا عبادي الذي جاوزوا الحدّ في المعاصي بالكفر والزّنا والقتل ونحوها : لا تيأسوا من رحمة الله ، ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ؛﴾ أي الصغائر

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٨٤٠١). وذكره الفراء في معاني القرآن : ج ٢ ص ٤٢١.

(٢) الفرقان / ٧٠.

(٣) النساء / ٤٨.

(٤) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٣٥ ؛ قال السيوطي : (أخرجه الطبري وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند لين عن ابن عباس رضي الله عنهما) وذكره.

والكبائر ، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ ؛﴾ لمن تاب وآمن ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) ؛ بمن تاب على التوبة.

قوله تعالى : ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ ؛﴾ أي ارجعوا إلى طاعة ربكم بالتوبة ، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ (٥٤) ، واستسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تمنعون مما يراد بكم.

قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ؛﴾ وهو القرآن ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) ؛ وقت مجيئه.

قوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ؛﴾ معناه : بادر واحذر من أن تقول نفسي ، أو حذار من أن تصير إلى حالة تتحسّرون فيها على التفريط فيما ينال به ثواب الله ، قال الفرّاء : (معنى قوله ﴿فِي جَنْبِ اللهِ﴾ : هو القرب ؛ أي في قرب الله وجواره) [1].

والمعنى : أن تقول نفسي : يا حسرتا على ما فرّطت في طلب جوار الله وقربه وهو الجنّة ، وقال عطاء : (معناه : على ما ضيّعت من ثواب). وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (٥٦) ؛ أي وما كنت إلّا من المستهزئين بالقرآن والمؤمنين في الدّنيا وبمن دعاني إلى التوحيد.

قوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) ؛ أي وخوفا أن تقول لو أنّ الله نجّاني من العذاب لكنت من جملة المتّقين الشّرك.

قوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ﴾ ، الموحدين ، ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) ؛ أو تقول حين ترى العذاب أو لئلّا تقول حين ترى العذاب : لو أنّ لي رجعة إلى الدّنيا فأكون من الموحّدين المحسنين.

---

(١) نقله عنه أيضا القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٧١.

فيقال لهذا القائل : ﴿بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي ؛﴾ يعني القرآن ؛ ﴿فَكَذَّبْتَ بِها ؛﴾ أي قلت : ليست من عند الله ، ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ ؛﴾ أي وتكبّرت من الإيمان بها ، وتعظّمت عن الإقرار بذلك ، ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ (٥٩) ، وصرت من الجاحدين لنعم الله ، فأصابك ما أصابك بجنايتك على نفسك.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ؛﴾ أي وترى يا محمّد يوم القيامة الذين كذبوا على الله في قولهم : عزير ابن الله ، وقولهم : المسيح ابن الله ، وقولهم : الملائكة بنات الله تعالى ، وقول عبدة الأصنام : ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى ، ترى هؤلاء تسودّ وجوههم وتزرقّ أعينهم. وقوله : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠) ؛ تحقيق وتقرير ، والمثوى : هو المنزل ، والمتكبر : هو المتعظّم عن الإيمان.

قوله تعالى : ﴿وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ ؛﴾ أي يخلّصهم من العذاب بفوزهم الذي استحقّوه بأعمالهم ، قال المبرّد : (المفازة : مفعلة من الفوز) [١] وهي السّعادة وإن جمع فحسن كقولهم السّعادة والسّعادات ، ويقرأ (بمفازاتهم). وقوله : ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ؛﴾ أي لا يصيبهم العذاب ، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦١) ؛ لأنّهم رضوا بالثواب.

وقوله تعالى : ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ؛﴾ أي جميع ما في الدّنيا والآخرة من شيء فالله خالقه ، وهو المستحقّ للعبادة ، قوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦٢) ؛ أي الأشياء كلّها موكلة إليه ، فهو القائم بحفظها ، المدبر لأمورها ، الكفيل بأرزاقها.

قوله تعالى : ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي له خزائن السّموات والأرض ، يفتح الرزق على من يشاء ويغلقه ، قال ابن عبّاس : (المقاليد المفاتيح) [٢] واحد المقاليد مقليد ، كما يقال منديل ومناديل ، وقال الضحّاك : (مقاليد السّموات

---

(١) ذكره عنه أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ٢٢٣١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٢٧٣).

والأرض خزائنها) [1]. ويجوز أن تكون المقاليد جمع المقلاد ، وهو مفعال من المقلادة ؛ أي هو مالك الخلق وله طاعتهم وبيده قلوبهم.

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٣) ؛ معناه : والذين كفروا بالقرآن هم الذين خسروا حتى صاروا في النار.

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤) ؛ وذلك أنّ المشركين من قريش قالوا للنّبيّ ﷺ : أتؤمن ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك ، فأنزل الله هذه الآية [2]. والمعنى أتأمرونني أن أعبد غير الله أيّها الجاهلون بالنعمة.

قرأ نافع (تأمروني) بنون واحدة خفيفة على التخفيف ، وقرأ ابن عامر بنونين على الأصل ، وقرأ الباقون بنون واحدة مشدّدة على الإدغام.

وقوله : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) ؛ أي ليحبطنّ عملك الذي عملته قبل الشّرك ، وهذا أدب من الله لنبيّه ﷺ وتهديد لغيره ، لأنّ الله قد عصمه من الشّرك ومداهنته الكفار. قوله تعالى : ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ ؛﴾ أي وحّد ؛ لأن عبادته لا تصحّ إلّا بتوحيده ، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦) ؛ لإنعامه عليك به.

قوله تعالى : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ؛﴾ أي ما عرفوا الله حقّ معرفته ، ولا عظّموه حقّ تعظيمه ، إذ عبدوا الأوثان من دونه ، وأمروا النبيّ ﷺ بعبادة غيره. ثم أخبر عن عظمته فقال : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ؛﴾ أي وجميع الأرض في مقدوره يوم القيامة كالذي يقبض عليه القابض في قبضته ، وهذا كما يقال : فلان في قبضة فلان ؛ أي تحت أمره وقبضته ، والقبضة في اللغة : ما قبضت عليه بجمع كفّك ، أخبر الله تعالى عن قدرته فذكر أن الأرض كلّها مع عظمتها وكثافتها في مقدوره ، كالشّيء الذي يقبض عليه القابض بكفّه.

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن زيد في جامع البيان : الأثر (٢٣٢٧٦).

(٢) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٣٨.

قوله تعالى : ﴿وَالسَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ ؛﴾ ذكر اليمين للمبالغة في الاقدار ، يعني أنّه يطويها بقدرته كما يطوي الواحد منّا الشيء المقدور له طيّه بيمينه ، قال الأخفش : (معناه مطويّات في قدرته نحو قوله أو ما ملكت أيمانكم ؛ أي ما كانت لكم عليه قدرة وليس الملك لليمين دون الشّمال) [1]. وقد يذكر اليمين بمعنى القوّة كما قال الشاعر [2] :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقّاها عرابة باليمين

ثم نزّه نفسه عن شركهم فقال : ﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٧).

قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ؛﴾ قد ذكرنا أن النفخة نفختان في قول أكثر المفسّرين وبينهما أربعون سنة ، فالنفخة الأولى هي نفخة الصّعق.

والصعق : هو الموت بصيحة شديدة حالّة هائلة ، ومنها الصواعق وهي التي تأتي بشدّة الرّعد ، وعن عبد الله بن عمر قال : سألت رسول الله ﷺ عن الصّور فقال : [قرن ينفخ فيه فيصعق من في السّموات ومن في الأرض] [3] أي يموتون من الفزع وشدّة الصوت.

قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ؛﴾ يعني الملك الذي ينفخ في الصّور ، ثم يميته الله بعد ذلك ، وقال الحسن : (يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش وملك الموت) [4]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنّ رسول الله ﷺ سأل

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن : ج ٢ ص ٦٧٤. تحقيق د. عبد الأمير. وج ٢ ص ٤٥٧ ، تحقيق د. فائز فارس.

(٢) قاله الحطيئة ، وقيل : الشماخ الذبياني ، (؟ - ٢٢ ه‍).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٢ ص ١٦٢ و١٩٢. وأبو داود في السنن : كتاب السنة : باب في ذكر البعث والصور : الحديث (٤٧٤٢). والترمذي في الجامع : أبواب صفة القيامة : باب ما جاء في شأن الصور : الحديث (٢٤٣٠) ، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٢٩٥) عن السدي.

جبريل عن هذه الآية : [من الّذي شاء الله أن يصعقهم؟ قال : هم الشّهداء متقلّدون أسيافهم حول العرش][1].

عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله ﷺ عنهم وقال لهم : [جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فيقول الله تعالى : يا ملك الموت خذ نفس إسرافيل ، فيأخذها ؛ ثمّ يقول : خذ نفس ميكائيل ، فيأخذها ، ثمّ يقول الله تعالى : يا ملك الموت من بقي؟ فيقول : سبحانك يا رب تباركت وتعاليت بقي جبريل وملك الموت ، فيقول الله تعالى : مت يا ملك الموت ، فيموت ، ثمّ يقول الله تعالى : يا جبريل من بقي؟ فيقول : تباركت وتعاليت بقي وجهك الباقي الدّائم ، وبقي جبريل الميّت الفاني ، فيقول : يا جبريل مت ، فيبقى ساجدا يخفق بجناحيه فيموت][2].

وقال الضحّاك : (معنى قوله : ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ هم رضوان والحور ومالك والزّبانية) ، وقال قتادة : (الله أعلم بثنياه). وقيل : هم عقارب النار وحيّاتها [3].

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى ؛﴾ يعني نفخة البعث ، ﴿فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٦٨) ؛ ماذا يقال لهم.

قوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها ؛﴾ وأضاءت الأرض يومئذ بعدل ربها ، فسمّي العدل نورا كما سمّي النبيّ ﷺ نورا وسمّي القرآن نورا. ويقال : إن نور الأرض العدل ، كما أنّ نور الدين العلم ، وقال بعضهم : يخلق الله تعالى يومئذ نورا يضيء لأهل القيامة غير الشمس والقمر.

قوله تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ ؛﴾ يعني صحائف الأعمال ، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ ؛﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنه : (المراد بقوله ﴿وَالشُّهَداءِ﴾ هم الّذين

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٤٩ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أبو يعلى والدارقطني في الافراد وابن المنذر والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في البعث) وذكره.

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٥٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وأبو نصر السجزي في الإبانة وابن مردويه) وذكره.

(٣) ذكره أيضا القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٨٠.

يشهدون للرّسل بتبليغ الرّسالة) [١] وهم أمّة محمّد ﷺ ، وقال عطاء : (يعني الحفظة) [٢] وقال السديّ : (يعني الّذين استشهدوا في طاعة الله) [٣].

وقوله تعالى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ؛﴾ أي قضي بين الرّسل والأمم بالعدل ، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٩) ؛ أي لا ينقص من حسنات أحد ولا يزاد في سيّئات أحد. قوله : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ ؛﴾ أي أعطيت كلّ نفس برّة أو فاجرة جزاء ما عملت من خير أو شرّ ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ﴾ (٧٠) ؛ وهو أعلم بفعلهم ، لا يحتاج إلى كاتب ولا شاهد.

قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً ؛﴾ وذلك أنّهم يساقون إلى جهنّم فوجا فوجا ، الأوّل فالأول ، يساق كفار كلّ أمة على حدة ، والزّمر : جماعات في تفرقة بعضها على إثر بعض ، يساقون سوقا عنيفا ، يسحبون على وجوههم إلى جهنّم ، ﴿حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها ؛﴾ عند مجيئهم ، ﴿وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها ؛﴾ وهم الزّبانية : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ﴾ ، ويخوفونكم ، ﴿لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ ، اليوم ، ﴿قالُوا بَلى﴾ ، أتونا بالرسالة ، ﴿وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ (٧١) ؛ ولكن وجبت كلمة العذاب على الكافرين ، فيقول لهم الزبانية : ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٢) ؛ ادخلوا أبواب جهنّم السبعة خالدين فيها.

ومعنى قوله (ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين) هو قوله تعالى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٤]. واختلف القراء في قوله (فتحت) فخفّفها الكوفيّون ، وشدّدها الباقون على التكثير.

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٦٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن جرير وابن مردويه) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٣١١). وذكره البغوي أيضا في معالم التنزيل : ص ١١٣٣.

(٢) ذكره أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٣٣.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٣١).

(٤) هود / ١١٩.

قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ؛﴾ وذلك أنّ المؤمنين ينطلق بهم إلى الجنّة فوجا فوجا بالتلطّف والإكرام ، ﴿حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها ؛﴾ قال الأخفش : (هذه الواو زائدة) [1] والمعنى : فتحت أبوابها حتّى تكون جوابا لقوله ﴿حَتَّى إِذا جاؤُها﴾. وقال الزجّاج : (القول عندي أنّ الجواب محذوف ، تقديره : حتّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وسلّم عليهم خزنتها ساروا إلى السّعادة ووصلوا إلى مقصودهم) [2].

وقيل : هذه الواو واو الحال تقديره : حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها ، وأدخل الواو ههنا لبيان أنّها قد كانت مفتّحة قبل مجيئهم ، وحذفها من الآية الأولى لبيان أنّها قد كانت مغلقة قبل مجيئهم.

ويقال : زيدت الواو ههنا لأن أبواب الجنّة ثمانية وأبواب جهنّم سبعة فزيدت الواو فرقا بينهما. وحكي عن أبي بكر بن عيّاش [3] : (أنّها تسمّى واو الثّمانية) [4] وذلك أنّ من عادة قريش أنّهم يعدّون العدد من الواحد إلى الثّمانية ، فإذا بلغوا الثّمانية زادوا فيها الواو ، فيقولون : خمسة ستّة سبعة وثمانية ، يدلّ عليه قوله تعالى ﴿سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ﴾[5] ، وقال الله ﴿التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ﴾[6] فلمّا بلغ الثامن [7]﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، وقال تعالى ﴿سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[8] ، وقال تعالى

---

(١) قاله الأخفش في معاني القرآن : ج ٢ ص ٦٧٣ ، تحقيق د. عبد الأمير. وج ٢ ص ٤٥٨ ، تحقيق د. فائز.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٧٤ مع بعض التصرف في العبارة. ونقله كما عند المصنف البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٣٣

(٣) في المخطوط : (عن أبي بكر بن عبد أوس) والصحيح : (عن أبي بكر بن عياش) وهو الكوفي الخياط المقرئ ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب : الرقم (٨٢٦٥). وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٨٥.

(٤) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٠ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ؛ قال القرطبي : (وحكى القرطبي عن أبي بكر ابن عياش أن قريشا ...) وذكره. وينظر : ج ١٥ ص ٢٨٥.

(٥) الحاقة / ٧.

(٦) التوبة / ١١٢.

(٧) في المخطوط (الثا) ولم يتمها الناسخ.

(٨) الكهف / ٢٢.

﴿ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً﴾[1]). وقيل : زيادة الواو في صفة الجنّة علامة لزيادة رحمة الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ﴾ (٧٣) ؛ قال ابن عبّاس : (معنى قوله ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طاب لكم المقام) [2] ، وقيل : معناه ظفرتم بصالح أعمالكم وكنتم طيّبين في الدنيا. وقيل : طابت لكم الجنّة فادخلوها خالدين. فلما دخلوها ﴿وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾ ، أي أنجزنا وعده ، ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ ، وأنزلنا أرض الجنّة ، ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ؛﴾ أي نتّخذ فيها من المنازل ما نشاء ، لقول الله تعالى ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ (٧٤) ؛ أي نعم ثواب العاملين لله في الدّنيا الجنّة.

قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ؛﴾ أي محدّقين حول العرش محيطين به ، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ؛﴾ إجلالا لعظمته ، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ؛﴾ الخلائق ، ﴿بِالْحَقِّ ؛﴾ أي بالعدل وانتصف بعضهم من بعض ، ﴿وَقِيلَ﴾ ، ويقال لهم بعد الفراغ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٧٥) ؛ وذلك أنّ الله تعالى ابتدأ خلق الأشياء بالحمد فقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾[3] فلمّا بعث الخلق واستقرّ أهل الجنّة في الجنة ، وأهل النار في النار ، ختمه بقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

**آخر تفسير سورة (الزمر) والحمد لله رب العالمين.**

---

(١) التحريم / ٥.

(٢) ذكره عنه أيضا ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب : ج ١٦ ص ٥٥٥.

(٣) الأنعام / ١.

## سورة المؤمن (غافر)

سورة المؤمن مكّيّة [١] ، وهي أربعة آلاف وسبعمائة وستّون حرفا [٢] ، وتسع وتسعون كلمة ، وخمس وثمانون آية.

قال رسول الله ﷺ : [من قرأ حم المؤمن ، لم يبق روح نبيّ ولا صدّيق إلّا صلّوا عليه واستغفروا له][٣]. قال النّبيّ ﷺ : [من أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة ، فليقرأ الحواميم في صلاة اللّيل][٤] ، وقال النّبيّ ﷺ : [الحواميم أدباج القرآن][٥]. قال النّبيّ ﷺ : [الحواميم سبع ، وأبواب جهنّم سبع ، فيجيء كلّ حم منهنّ يوم القيامة على باب من هذه الأبواب تقول : لا يدخل النّار من كان يقرؤني][٦].

وقال النّبيّ ﷺ : [لكلّ شيء ثمرة ، وثمرة القرآن الحواميم ، هنّ روضات حسنات مخصبات ، فمن أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليقرإ الحواميم][٧]. وقال ابن مسعود : (إذا وقعت في الحواميم وقعت في روضات أتأنّق فيهنّ) [٨].

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٧٦ ؛ قال الزجاج : (الحواميم كلها مكية). وتسمى سورة غافر ، وسورة الطّول ، وهي سورة المؤمن. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٨٨.

(٢) في اللباب في علوم الكتاب : ج ١٨ ص ٣ ؛ قال ابن عادل : (أربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفا).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

(٤) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٦٩ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن الضريس عن إسحق بن عبد الله).

(٥) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٦٩ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أبو الشيخ ، وأبو نعيم والديلمي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ...) وذكره.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان : باب في تعظيم القرآن : الحديث (٢٤٧٩) ، وقال : (هكذا بلغنا بهذا الإسناد المنقطع).

(٧) تقدم.

(٨) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٣٤. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٦٨ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أبو عبيد ومحمد بن نصر وابن المنذر عن ابن مسعود). وذكره.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم﴾ (١) ؛ قال رسول الله ﷺ : [حم ، اسم من أسماء الله تعالى ، وهي مفتاح خزائن ربك][(١)] ، وقال ابن عباس : [هو اسم الله الأعظم][(٢)]. وعن عكرمة قال : (ألر وحم ون حروف الرّحمن مقطّعة) [(٣)] ، وقيل : (أقسم الله بحملة «عرشه» وملائكته لا يعذّب أحدا عاد إليه يقول : لا إله إلّا الله مخلصا من قلبه) [(٤)] ، وقال عطاء الخراسانيّ : (الحاء : افتتاح أسماء الله : حليم وحميد وحيّ وحكيم ، والميم : افتتاح أسمائه : ملك ومجيد ومنّان) [(٥)] ، وقال الضحّاك : (حم قضى ما هو كائن) [(٦)].

قوله تعالى : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٢) ؛ أي هذه تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم بخلقه ، وقرأ حم بفتح الميم ؛ أي أتل حميم. قوله تعالى : ﴿غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ؛﴾ أي غافر الذنب لمن قال لا إله إلّا الله ، وهم أولياؤه وأهل طاعته ، وقابل التّوب من الشّرك ، شديد العقاب لمن مات على الشّرك.

---

(١) في جامع البيان : الأثر (٢٣٣٢٨) عن ابن مسعود موقوفا. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٧٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه) موقوفا. وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٨٩ ، وذكره القرطبي كما عند المصنف ﵀ ، وأشار إلى إسناده عن عكرمة ، قال النبي ﷺ. فهو مرسل ولم أقف على إسناده.

(٢) ذكره القرطبي أيضا في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٨٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٣٢٧) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) ذكره الثعلبي عن محمد بن كعب القرظي ، كما في الكشف والبيان : ج ٨ ص ٢٦٣. وفي المخطوط : (بحمله) ولعله يريد (بحلمه) وترجح عندي كما أثبتناه.

(٥) عطاء بن أبي مسلم الخراساني ، روى عن الصحابة مرسلا ، ولد سنة (٥٠) ومات سنة (١٣٥) من الهجرة. ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب : الرقم (٣٧٣٧). ونقل قال : (وقال الطبراني : لم يسمع من أحد من الصحابة إلا من أنس).

(٦) ذكره القرطبي عن الضحاك والكسائي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٨٩.

والتّوب : جمع التّوبة ، ويجوز أن يكون مصدرا من تاب يتوب توبا ، قوله تعالى : ﴿ذِي الطَّوْلِ ؛﴾ أي ذي الغنى عمّن لا يوحّده ولا يقول : لا إله إلّا الله. وقال الكلبيّ : (ذو الفضل على عباده والمانّ عليهم) ، وقال مجاهد : (ذو السّعة والغنى).

قوله تعالى : ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ؛﴾ أي لا معبود للخلق سواه ، ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢) ؛ أي مصير من آمن ، ومصير من لم يؤمن ، وعن الحسن رضي الله عنه : (أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه سأل عن بعض إخوانه الّذين كانوا بالشّام ، فقال : ما فعل أخي فلان؟ وقالوا : ذاك أخو الشّيطان يخالط أهل الأشرفيّة وخالف أصحابه. فقال : إذا خرجتم إلى الشّام فآذنوني. فلمّا أرادوا الخروج أعلموه ، فكتب :

من عبد الله عمر بن الخطّاب أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان. بسم الله الرّحمن الرّحيم. سلام عليك ؛ فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إله إلّا هو.

أمّا بعد : فإنّ الله تعالى قال : ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ...﴾ إلى قوله ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فلمّا جاءه الكتاب قالوا له : اقرأ كتابك أيّها الرّجل ، فلمّا قرأ ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ قال : عليم بما أصنع ، ﴿غافِرِ الذَّنْبِ﴾ إن استغفرت غفر لي ، و ﴿قابِلِ التَّوْبِ﴾ إن أنا تبت ليقبل توبتي ، ﴿شَدِيدِ الْعِقابِ﴾ إن لم أفعل عاقبني ﴿ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. ثمّ قال : صدق الله ونصح عمر رضي الله عنه ، فأقبل بطريقة حسنة إلى أن مات.

فلمّا بلغ عمر أمره ، قال : هكذا فاصنعوا ؛ إذا رأيتم أخاكم نزل فشدّدوه ووفّقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشّيطان عليه) (١).

قوله تعالى : ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ؛﴾ أي ما يخاصم في آيات الله لتكذيبها والطّعن فيها والمراء عليها إلّا الذين كفروا ، ﴿فَلا يَغْرُرْكَ

---

(١) أخرج القصة من وجه آخر ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٨٤١٦ و١٨٤١٧). وأورد القصة بألفاظ قريبة القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٢٩١.

﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ (٤) ؛ بالتّجارات وسلامتهم في تصرّفاتهم بعد كفرهم ، فإنّ عاقبة أمرهم العذاب كعاقبة من قبلهم من الكفّار. وقيل : معناه : فلا يغررك ذهابهم ومجيئهم في الأسفار بالتّجارات ، فإنّهم ليسوا على شيء.

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ؛﴾ أي قبل قومك ، ﴿قَوْمُ نُوحٍ ؛﴾ وقوله تعالى : ﴿وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ؛﴾ وهم الذين تحزّبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود ؛ أي كذبوا رسلهم كما كذبك قومك ، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ؛﴾ فيقتلوه ، ﴿وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ؛﴾ أي وخاصموا الرّسل بالباطل ليبطلوا به الحقّ الذي جاءت به الرسل ، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ ، بعاقبة الاستئصال ، ﴿فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾ (٥) ؛ لهم.

قوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ؛﴾ أي مثل ما حقّ على الأمم المكذّبة حقّت كلمة ربك بالعذاب على الذين كفروا من قومك ، ﴿أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ (٦) ، في الآخرة.

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ؛﴾ يعني حملة العرش والطائفين به ، وهم الكرّوبيّون وهم سادة الملائكة ، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ؛﴾ بأنه واحد لا شريك له ، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، ويقولون : ﴿رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ؛﴾ أي وسعت رحمتك كلّ شيء ، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا ؛﴾ عن الشّرك والمعصية ، ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ؛﴾ الطريق الذي دعوتهم إليه ، ﴿وَقِهِمْ﴾ ، وادفع عنهم ، ﴿عَذابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ؛﴾ أي ربّنا وأدخلهم بساتين إقامة ، ﴿الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ؛﴾ في الكتب على ألسنة الرّسل ، وأدخل معهم ، ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ؛﴾ ونسائهم وأولادهم ، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ؛﴾ في ملكك وسلطانك ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ (٨) ؛ في أمرك وقضائك ، ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ ؛﴾ وادفع عنهم عقوبة السّيئات ، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ ومن يدفع عنه عقوبة السيئات ، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩) ؛ أي النجاة الوافرة.

وانتصب قوله (رحمة وعلما) على التمييز ، قال ابن عبّاس : (حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدمه مسيرة خمسمائة عام ، ومستقرّ أرجلهم في الأرض السّابعة السّفلى ، ورؤوسهم تحت العرش ، وهم خشوع لا يرفعون أبصارهم ، وهم أشدّ خوفا من أهل السّموات السّبع) (١).

وعن الضحّاك قال : (لما خلق الله حملة العرش قال لهم : احملوا عرشي ، ولم يطيقوا! فخلق مع كلّ ملك من الأعوان مثل جنود سبع سموات من الملائكة ، وقال لهم : احملوا عرشي ، فلم يطيقوا! فخلق مع كلّ واحد من الأعوان مثل جنود سبع سموات وأرضين من الملائكة ، ومثل من في الأرضين من الخلق ، وقال لهم : احملوا عرشي ، فلم يطيقوا! فخلق مع كلّ واحد منهم مثل جنود سبع سموات وجنود سبع أرضين وعدد ما في الرّمل من الحصى والثّرى (٢) وقال : احملوا عرشي ، فلم يطيقوا! فقال : قولوا : لا حول ولا قوّة إلّا بالله ، فلمّا قالوها حملوا العرش) ، وقال ﷺ : [أذن لي أن أتحدّث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمتي أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام](٣).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٠) ؛ وذلك أن الكفار لما دخلوا النار مقتوا أنفسهم ، ومقت بعضهم بعضا لاشتغالهم في الدّنيا بما قادهم إلى النار ، فيناديهم مناد : ﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ أي مقت الله إيّاكم في الدّنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٣٥.

(٢) الثّرى : التّراب النّدي.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن : كتاب السنة : باب في الجهمية : الحديث (٤٧٢٧) عن جابر بن عبد الله. والطبراني في الأوسط : ج ٢ ص ٤٢٥ : الحديث (١٧٣٠) بلفظ : [مسيرة سبعين عاما]. وفي مجمع الزوائد : ج ١ ص ٨٠ ؛ قال الهيثمي : (رواه أبو داود ، ورواه الطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح).

قوله تعالى : ﴿قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ؛﴾ قال بعضهم : معناه : كنّا نطفا في أصلاب آبائنا أمواتا فخلقت فينا الحياة ، ثم أمتّنا بعد ذلك عند انتهاء آجالنا ثم أحييتنا للبعث ، وهذا كقوله تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1]. قالوا هكذا لأنّهم كانوا في الدّنيا فكذبوا في البعث ، فاعترفوا في النار بما كذبوا به ، وهو قوله تعالى : ﴿فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا ؛﴾ أي بالتّكذيب.

وقال بعضهم : أراد بالموت الأولى التي تكون عند قبض الأرواح ، وبالموت الثانية التي تكون بعد الإحياء في القبر للسّؤال ؛ لأنّهم أميتوا في الدّنيا ثم أحيوا في قبورهم فسئلوا ، ثم أميتوا في قبورهم ، ثم أحيوا في الآخرة للبعث ، فيكون المراد بالإحياء الأول الإحياء في القبر ، وبالإحياء الثاني الإحياء للبعث. قوله تعالى : ﴿فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا﴾ أي بإنعامك علينا ونفوذ قضائك فينا وتكذيبنا في الدّنيا ، ﴿فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ ؛﴾ النار ، من ، ﴿سَبِيلٍ﴾ (١١) ، طريق فنؤمن بك ونرجع إلى طاعتك؟

فيجابون : ليس إلى خروج من سبيل ، يقال لهم : ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ؛﴾ أي ذلك العذاب في النار والمقت بأنّكم إذا قيل لكم في الدّنيا : لا إله إلّا الله ، أنكرتم وكفرتم وقلتم أجعل الآلهة إلها واحدا ، ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ ؛﴾ بالله ، ﴿تُؤْمِنُوا﴾ ، صدّقتم ، ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ؛﴾ في سلطانه ، ﴿الْكَبِيرِ﴾ (١٢) ؛ في عظمته لا يردّ حكمه.

وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ ؛﴾ أي دلائل توحيده ومصنوعاته التي تدلّ على قدرته من السّماء والأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والسّحاب وغير ذلك ، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً ؛﴾ يعني المطر الذي يسبب الأرزاق ، ﴿وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) ؛ أي ما يتّعظ بهذه المصنوعات. وقيل : معناه : وما يتّعظ بالقرآن إلّا من يرجع إلى دلائل الله فيتدبّرها.

---

(١) البقرة / ٢٨.

ثم أمر المؤمنين بتوحيده فقال : ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ؛﴾ أي مخلصين له الطاعة موحّدين ، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾ (١٤) ؛ منكم ذلك.

ثم عظّم تعالى نفسه فقال : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ ؛﴾ أي رافع درجاتكم ، والرفيع بمعنى الرافع ، والمعنى : أنه يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنّة. قوله تعالى : ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي خالقه ومالكه ، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ ، أي ينزل الوحي ، ﴿عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ؛﴾ أي على من يختصّ بالنبوّة والرسالة ، ﴿لِيُنْذِرَ ؛﴾ ذلك النبيّ الموحى إليه ، ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾ (١٥) ؛ أي يوم القيامة ، وسمي يوم التّلاق ؛ لأنه يلتقي فيه أهل السموات والأرض ، والمؤمنون والكافرون والظالمون والمظلومون ، ويلتقي المرء فيه بعمله ، وقرأ الحسن : (لتنذر بالتاء (يا محمد يوم التلاق) أي لتخوّف فيه) [1] ، وقرأ العامة بالياء ؛ أي لينذر الله.

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ ؛﴾ أي يوم هم خارجون من مواضعهم من الأرض والبحار وحواصل الطّير وبطون السّباع ، ﴿لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ ؛﴾ ولا من أعمالهم ، ﴿شَيْءٌ ؛﴾ ومحلّه رفع بالابتداء ، و ﴿بارِزُونَ﴾ خبره.

ويقول الله في ذلك اليوم : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؛﴾ فيقول الخلق كلّهم : ﴿لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) ؛ وقال الحسن : (هو السّائل والمجيب ؛ لأنّه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه) [2].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [الحمد لله الّذي تصرّف بالقدرة وقهر العباد بالموت ، نظر الله إليه ، ومن ينظر إليه لم يعذّبه ، واستغفر له كلّ ملك في السّماء ، وكلّ ملك في الأرض][3].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٠٠ ؛ قال القرطبي : (وقرأ ابن عباس والحسن وابن السميقع : (لتنذر) بالتاء خطابا للنبي ﷺ). وينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٤ ص ٢١.

(٢) ذكره أيضا القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٠٠.

(٣) هكذا ورد النص في المخطوط ، وفيه اضطراب من حيث بناء الجملة.

قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ؛﴾ أي تجزى كلّ نفس بعملها ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ؛﴾ من أحد إلى أحد ، ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ (١٧) ؛ يحاسبهم جميعا في ساعة واحدة ، يظنّ كلّ واحد أنه المجاب دون غيره.

قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ؛﴾ أي حذّرهم يوم القيامة ؛ والمعنى : يا محمّد أنذر أهل مكّة يوم الآزفة ، يعني القيامة ، سميت القيامة آزفة من الأزف : وهو الأمر إذا قرب ، والقيامة آزفة لسرعة مجيئها. قال الزجّاج : (قيل لها : آزفة لأنّها قريبة وإن استبعدها النّاس ، وكلّ آت فهو قريب) [١] ، ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ؛﴾ أي تزول القلوب من مواضعها من الخوف ، فتشخص صدورهم حتى يبلغ حاجزهم في الحلوق ، فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا فيستريحوا.

وذلك أنّ القلب بين فلقتي الرّئة ، فإذا انتفخت الرّئة عند الفزع رفعت القلب حتى يبلغ الحنجرة ، فيلصق بالحنجرة فلا يقدر صاحبه على أن يردّه إلى مكانه ، ولا على أن يلفظ به فيستريح. ونظيره قوله تعالى : ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾[٣] وقوله تعالى ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ﴾[٥].

وقوله تعالى : ﴿كاظِمِينَ﴾ أي مغمومين مكروبين ممتلئين غمّا وخوفا وحزنا ، يعني أصحاب القلوب يتردّد حزنهم وحسراتهم في أجوافهم ، والكاظم : هو الممتليء أسفا وغيظا ، والكظم تردّد الغيظ والحزن والخوف في القلب حتى يضيق به ، نصب ﴿كاظِمِينَ﴾ على الحال ، قوله تعالى : ﴿ما لِلظّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾ (١٨) ؛ أي ما لهم من قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع الشفيع فيهم فتقبل شفاعته.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٧٩.

(٢) الاحزاب / ١٠.

(٣) الواقعة / ٨٣.

(٤) ابراهيم / ٤٣.

(٥) القيامة / ٢٦.

وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ ؛﴾ أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحلّ ، قال ابن عبّاس : (﴿خائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ : هو الرّجل يكون جالسا مع القوم ، فتمرّ المرأة فيسارقهم النّظر إليها) [1]. وقال قتادة : (هي همزه بعينه وإغماضه فيما لا يحبّ الله) [2]. ويجوز أن يكون المراد به : يعلم العين الخائنة ؛ أي يجازي بخائنة الأعين ، فكيف بما فوقها ، كما قال في آية أخرى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾[3].

وفي الحديث : أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ رضي الله عنه : [لا تتبع النّظرة ، فإنّ لك الأولى وعليك الثّانية][4] ، يعني بأنّ الأولى إذا وقع نظر إلى موضع لا يجوز له النظر إليه لا عن تعمّد منه ، فإنه لا يكون إثما في ذلك ، وإنما يأثم إذا عاد بالنظر ثانية. وقوله تعالى : ﴿وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩) ؛ أي ويعلم ما تضمر الصدور عند خائنة الأعين ، ويعلم ما تسرّ القلوب من المعصية.

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ؛﴾ أي يحكم بالقسط والعدل ، لا يمنع أحدا من ثواب عمله ، ولا يعاقبه على ذنب لا يكتسبه ، بل يجزي بالحسنة والسيئة ، قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ؛﴾ معناه : والذين تدعون من دون الله من الأصنام لا ينفعون من أطاعهم ، ولا يضرّون من عصاهم ولا يجازون أحدا ؛ لأنّهم لا يعلمون ولا يقدرون.

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٨٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم). وذكره القرطبي بلفظه في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٠٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٣٧٧).

(٣) الاسراء / ٣٦.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : ج ١ ص ٣٨٨ : الحديث (٦٧٨) عن علي رضي الله عنه ، وأوله : [يا عليّ ، إنّ لك في الجنّة كنزا ... وليست لك الآخرة]. وقال الطبراني : (لا يروى هذا الحديث إلا بهذا الإسناد وتفرد به عن حماد). وأخرجه أبو داود في السنن : كتاب النكاح : باب ما يؤمر به من غض البصر : الحديث (٢١٤٩) من حديث ابن بريدة عن أبيه. والترمذي في الجامع : أبواب الأدب : باب ما جاء في نظر الفجاءة : الحديث (٢٧٧٧) ، وقال : هذا حديث حسن غريب. والحاكم في المستدرك : كتاب النكاح : باب إذا تزوج العبد : الحديث (٢٨٤٢) ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم.

قرأ نافع (والّذين تدعون) بالتاء ، وقرأ الباقون بالياء [1] ، ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ ؛﴾ لمقالتهم ، ﴿الْبَصِيرُ﴾ (٢٠) ؛ بهم وأعمالهم.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (٢٢) ؛ الآية ظاهرة المعنى. وقوله تعالى : ﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ أي ما كان لهم من عذاب الله من واق يقي العذاب عنهم.

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا ؛﴾ يعني الآيات التسع ، ﴿وَسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ (٢٣) ؛ أي حجّة ظاهرة ، ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٤) ؛ أي كثير الكذب ، وخصّ فرعون وهامان وقارون بالكذب ؛ لأنّهم كانوا هم المتبوعين ، وفي ذكر المتبوعين ذكر التابعين.

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ ؛﴾ أي استبقوا النساء للخدمة ، وذلك أنّ فرعون كان قد أخبر أنه يولد من بني إسرائيل مولود يذهب ملكه على يديه ، فأمر بقتل أبنائهم واستبقاء نسائهم ، فلمّا جاءهم موسى عليه‌السلام بالحقّ ، أمر بإعادة ذلك القتل عليهم كيلا يبلغ الأبناء فيعينوه عليهم. قوله تعالى : ﴿وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ (٢٥) ؛ أي يذهب كيدهم باطلا ، ويحيق بهم ما كانوا يكيدون.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ؛﴾ وذلك أنّ قوم فرعون قالوا له : أرجئه وأخاه ولا تقتلهما ، فإنّك إن قتلتهما قبل ظهور حجّتنا عليهما وقعت للناس الشّبهة في أنّهما كانا على الحقّ ، فقال فرعون : دعوني أقتل موسى ، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ؛﴾ حتى يدفع ذلك القتل عنه.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٤٦ ؛ قال أبو علي الفارسي : (اختلفوا في الياء والتاء من قوله عزوجل : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ فقرأ نافع وابن عامر : ﴿والذين تدعون﴾ بالتاء ، والقراء الباقون ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء ، وكلهم فتح الياء).

ثم بيّن لأيّ معنى يقتله فقال : ﴿إِنِّ أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ؛﴾ يعني يبدّل عبادتكم إيّاي ، ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ﴾ (٢٦) ؛ وأراد ظهور الهدى وتغيّر أحكام فرعون فجعل ذلك فسادا.

قرأ الكوفيّون ويعقوب : ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ﴾ بالألف ، وقرأ نافع وأبو عمرو : (ويظهر) بضمّ الياء وكسر الهاء ، ونصب ﴿الْفَسادَ﴾ ، وقرأ الباقون بفتح الياء والهاء ورفع (الفساد) ، واختار أبو عبيد قراءة نافع وأبو عمرو ، ولأنّها أشبه بما قبلها لإسناد الفعل إلى موسى وعطفه على بدله [1].

قوله تعالى : ﴿وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ؛﴾ أي لما توعّد موسى بالقتل ، قال موسى : إنّي عذت بربي وربكم ، ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ (٢٧) ، متعظّم عن الإيمان [2] وعن قبول الحقّ لا يصدّق بيوم القيامة ، استعاذ موسى بالله ممّن أراد به سوء.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؛﴾ اختلفوا في هذا المؤمن ، فقال بعضهم : كان قبطيّا من آل فرعون ، غير إنه كان آمن بموسى وكان يكتم إيمانه من فرعون وقومه خوفا على نفسه.

وقال مقاتل والسديّ : (كان ابن عمّ فرعون) [3] ، وهو الّذي حكى الله عنه ﴿وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى﴾[4] ، وهذا هو الأشير وكان اسمه حزقيل ، وقيل : حزبيل [5].

وقال بعضهم كان إسرائيليّا ، وتقدير الآية : وقال رجل مؤمن يكتم

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٣ ص ٧. وإعراب القرآن لابن النحاس : ج ٤ ص ٢٣. والحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٤٩. والجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٠٥.

(٢) في المخطوط : (من الايمان).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٣٨٣) ، وقاله مقاتل أيضا في التفسير : ج ٣ ص ١٤٧.

(٤) القصص / ٢٠.

(٥) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٨٤ ؛ قال السيوطي : (أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : (لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره ، وغير امرأة فرعون ، وغير المؤمن

إيمانه من آل فرعون.

وقوله تعالى : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ أي لأن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم بما يدلّ على صدقه من المعجزات ، ﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ؛﴾ لا يضرّكم ذلك ، ﴿وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ؛﴾ أي يصبكم كلّ الذي يعدكم من العذاب إن قتلتموه وهو صادق.

والمراد بالبعض الكلّ في هذه الآية ، وقال الليث : (بعض ههنا زائدة ؛ أي يصبكم الّذي يعدكم) ، وقال أهل المعاني : هذا على المظاهرة في الحجاج ، كأنه قال لهم : أقلّ ما يكون في صدقه أن يصبكم بعض الذي يعدكم وفي بعض ذلك هلاككم) [١] ، فذكر البعض ليوجب الكلّ ، ويدلّ على ذكر البعض بمعنى الكلّ ، قال لبيد :

تـــــرّاك أمكنـــــة إذا لم أرضــــــها أو يعتلـق [٢] **بعـض النّفـوس حمامهـا** [٣]

أراد كلّ النّفوس ، ومثل قول الآخر [٤] :

قـــد يـــدرك المتـــأنّي بعـــض حاجتـــه وقـــد يكـــون مـــع المســـتعجل الزّلـــل

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨) ؛ أي لا يهديه في الآخرة إلى جنّته وثوابه. والمسرف : هو المتجاوز عن الحدّ في المعصية.

قوله تعالى : ﴿يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي قال لهم الرجل المؤمن على وجه النّصيحة لهم : ﴿يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ﴾ أي غالبين مستعلين في أرض مصر ، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا ؛﴾ أي فمن يمنعنا من عذاب الله إن جاءنا ، ﴿قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى ؛﴾ أي ما

ـ الّذي أنذر موسى عليه‌السلام) ، وقال ابن المنذر : (أخبرت أنّ اسمه حزقيل).

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٨١.

(٢) يروى : (يرتبط) بدل (يعتلق) كما في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٠٧.

(٣) لبيد العامري (؟ ـ ٤١ ه‍) ، شاعر مخضرم ، أدرك النبي وأسلم.

(٤) هو عمرو بن شييم ، الشهير ب (القطامي) لقبا. ينظر : معاني القرآن للزجاج : ج ٤ ص ٢٨١.

أشير عليكم إلّا ما أراه حقّا من الصواب في أمر موسى ، ﴿وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ (٢٩) ؛ أي ما أعرّفكم إلّا طريق الهدى.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ﴾ (٣٠) ، معناه : وقال لهم الرجل المؤمن : إنّي أخاف عليكم في قتله وترك الإيمان به أن ينزل بكم من العذاب ، ﴿مِثْلَ دَأْبِ﴾ ، مثلما نزل بالأمم الماضية قبلكم حين كذبوا رسلهم ، ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾. وقوله تعالى : ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ﴾ (٣١) ؛ أي لا يعاقب أحدا بلا جرم.

قوله تعالى : ﴿وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ﴾ (٣٢) ؛ يعني يوم القيامة ينادى فيه كلّ أناس بإمامهم ، وينادي فيه أهل النار أهل الجنة ، وأهل الجنة أهل النار ، وينادى فيه بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء ، وأصله : يوم التّنادي بإثبات الياء كما في التّناجي والتّقاضي ، إلّا أنّ الياء حذفت منه كما حذف من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾[(١)] وشبه ذلك.

وقيل : سمّي يوم التّنادي ؛ لأنّ الكفّار ينادون فيه على أنفسهم بالويل والثّبور ، كما قال تعالى ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾[(٢)] ، وقيل في معنى ذلك : أنه ينادي المنادي ألا أنّ فلان بن فلان سعد سعادة لا شقاوة بعدها أبدا ، وينادي : ألا إنّ فلان بن فلان شقي شقاوة لا سعادة بعدها أبدا.

وقرأ الحسن : (يوم التّنادي) بإثبات الياء على الأصل [(٣)]. وقرأ ابن عبّاس : (يوم التّنادّي) بتشديد الدال على معنى يوم التنافر ، وذلك إذا هربوا فندّوا في الأرض كما يندّ الإبل إذا شردت على أصحابها.

قال الضحاك : (إذا سمعوا بزفير النّار نادوا هربا ، فلا يأتوه قطرا من الأقطار إلّا وجدوا ملائكة صفوفا ، فيرجعون إلى المكان الّذي كانوا فيه ، فذلك قوله تعالى

---

(١) القمر / ٦.

(٢) الفرقان / ١٤.

(٣) نقله الفراء في معاني القرآن : ج ٣ ص ٦. والزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٨٢.

(يوم التّناد) [1] ، وقوله تعالى : ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ؛﴾ أي منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ، ﴿ما لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ ؛﴾ أي مانع يمنعكم من عذابه ، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ (٣٣).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ ؛﴾ أي جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالدّلالات ظاهرة على وحدانيّة الله تعالى ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾[3]. وقيل : معنى قوله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل المؤمن.

وقوله تعالى : ﴿فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ ؛﴾ أي في شكّ من عبادة الله وحده ، ﴿حَتَّى إِذا هَلَكَ﴾ ، حتى إذا مات ، ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ؛﴾ يأمرنا وينهانا ، ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ؛﴾ هكذا يهلك الله من هو متجاوز عن الحدّ ، ﴿مُرْتابٌ﴾ (٣٤) ؛ أي شاكّ في توحيد الله وصدق أنبيائه.

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ؛﴾ قال الزجّاج : (هذا تفسير المسرف المرتاب) على معنى هم الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان بالإبطال والتكذيب والطّعن بغير حجّة أتتهم ، ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ؛﴾ أي عظم جدالهم بغضا وسخطا عند الله وعند الذين آمنوا ، ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ ؛﴾ أي هكذا يختم الله بالكفر ، ﴿عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ؛﴾ عن الإيمان ، ﴿جَبَّارٍ﴾ (٣٥) ؛ للناس على «ما» [4] يريد.

---

(١) نقله الفراء عن الضحاك في معاني القرآن : ج ٣ ص ٨. وأصله أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٣٩٣).

(٢) الرحمن / ٣٣.

(٣) يوسف / ٣٩.

(٤) (ما) سقطت من المخطوط.

قال ابن عبّاس : (يختم على قلوبهم فلا يسمعون الهدى ولا يعقلون الرّشاد) وقرئ (على كلّ قلب) بالتنوين ، وقال الزجاج : (الوجه الإضافة لأنّ المتكبر هو الإنسان) [1].

قوله تعالى : ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ؛﴾ أي قال لوزيره هامان : ابن لي قصرا منيفا مشيّدا بالآجرّ [2] ، قال في موضع آخر : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾[3] وكان هامان هو أوّل من استعمل الآجرّ لبناء الصّرح ، ولكن كره بناء القبور بالآجرّ.

قوله تعالى : ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣٦) أَسْبابَ السَّماواتِ﴾ ؛ الطريق للسّموات ، والسّبب في الحقيقة : كلّ ما يوصلك إلى الشيء ، ولذلك سمي الجبل سببا. وقال بعضهم : أسباب السّموات طبقاتها.

قوله تعالى : ﴿فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى ؛﴾ ظنّ فرعون بجهله أنّ إله موسى مما يرقى إليه ، قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾ ، أي إني لأظن موسى كاذبا فيما يقول إنّ له ربّا في السّماء ، ولما قال موسى : ربّ السّموات ، فظنّ فرعون بجهله واعتقاده الباطل أنه لما لم ير في الأرض أنه في السماء ، فرام الصعود إلى السّماء لرؤية إله موسى. وقيل : معناه : وإني لأظنّ موسى كاذبا فيما يقول أنّ له ربّا غيري أرسله إلينا.

وقرأ الأعرج [4]﴿فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى﴾ بنصب العين على جواب ﴿لَعَلِّي﴾ بالفاء على معنى إنّي إذا بلغت اطّلعت ، وقرأه العامة (فأطّلع) عطفا على قوله تعالى :

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٨٣.

(٢) الآجر : الذي يبنى به. وأصله فارسي معرّب. مختار الصحاح : ص ٧.

(٣) القصص / ٣٨.

(٤) هو حميد بن أبي حكيم المروزي الأعرج ، من أهل مرو ، روى عني يحيى بن يعمر. تابعي روى عن عثمان وعلي وغيرهما من الصحابة. وثقة ابن حبان في (الثقات) : ج ٣ ص ٢٨٥ : الرقم (٨٤٢). وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب : الرقم (١٦٠٠).

﴿وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ؛﴾ أي كذا حسّن له قبح عمله ، زيّن له الشيطان جهله ، ومن قرأ (زيّن) بفتح الزاي على أنّ المعاصي يدعو بعضها إلى بعض.

وقوله تعالى : ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ؛﴾ أي صدّ غيره عن الهدى ، ويحتمل أنه صدّ عن السبيل بنفسه ، و ﴿صُدَّ﴾ بضم الصاد أي منع عن سبيل الحقّ ، ﴿وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ﴾ (٣٧) ؛ أي في خسار وهلاك.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ (٣٨) ؛ أي قال الرجل المؤمن من آل فرعون : يا قوم اتّبعوني على ديني أحملكم على طريق السّداد والهدى ، ﴿يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ ؛﴾ أي مشقّة يسيرة تنقطع ، ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ﴾ (٣٩) ؛ فلا تزول ؛ أي هي المحلّ الذي يقع فيه الاستقرار.

قوله : ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ ، يعني الشّرك ، ﴿فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها ؛﴾ فلا يجزى إلّا مثلها في العظم ، معنى النار ، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً ؛﴾ أي طاعة ، ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ؛﴾ مخلص ، قال ابن عبّاس : (يعني قول لا إله إلّا الله) [(١)] ﴿فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ (٤٠) ؛ أي بما لا يعرف له مقدار.

قوله تعالى : ﴿وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١) ؛ أي قال لهم الرجل المؤمن : يا قوم ما لي أدعوكم إلى سبب النّجاة ، ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ﴾ ، وتدعونني إلى عمل أهل النّار وهو الشّرك. وقوله تعالى : ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ؛﴾ أي من لا أعرف له ربوبيّته ، ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ ؛﴾ أي الغالب المنتقم ممن عصاه ، ﴿الْغَفَّارِ﴾ (٤٢) ؛ لمن تاب وآمن.

قوله تعالى : ﴿لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ ؛﴾ يعني قوله ﴿لا جَرَمَ﴾ أي حقّا أنّ ما تدعونني إليه من المعبودين دون الله

---

(١) نقله القرطبي أيضا في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣١٧.

ليس له دعوة في الدّنيا ولا في الآخرة ، قال السديّ : (معناه : لا يستجيب لأحد في الدّنيا ولا في الآخرة) [١] ، والتقدير : ليس له استجابة دعوة. قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللهِ ؛﴾ أي وإنّ مرجعنا إليه في الآخرة ، يفصل بين المحقّ والمبطل ، ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ ؛﴾ أي وإنّ المتجاوزين عن الحدّ في الكفر وسفك الدماء بغير الحقّ ، ﴿هُمْ أَصْحابُ النَّارِ﴾ (٤٣).

قوله تعالى : ﴿فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ ؛﴾ أي فستذكرون هذا الذي أقول لكم في الدّنيا من النّصيحة إذا نزل بكم العذاب في الآخرة ، في حين لا ينفعكم الذّكر عليه ، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ ؛﴾ أي وأترك أمر نفسي إلى الله فأثق به ولا أشتغل بكم ، ﴿إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ﴾ (٤٤) ؛ أي بأوليائه وأعدائه.

قوله تعالى : ﴿فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا ؛﴾ وذلك أنّ فرعون أراد أن يقتله فهرب منهم ، فلم يقدروا عليه ، ودفع الله عنه غائلة مكرهم ، ﴿وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ﴾ (٤٥) ؛ أي نزل بفرعون وقومه أشدّ العذاب ، قال الكلبيّ : (غرقوا في البحر ودخلوا النّار) والمعنى : وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، في الدّنيا الغرق ، وفي الآخرة النار ، فذلك قوله تعالى : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا ؛﴾ ارتفاع ﴿النَّارُ﴾ على البدل من ﴿سُوءُ الْعَذابِ﴾.

قوله تعالى : ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي صباحا ومساء ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم ، توبيخا ونقمة ، قال ابن مسعود : (إنّ أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النّار كلّ يوم مرّتين) [٢] ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ ، إن كان من أهل الجنّة

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٤١٦) عن السدي ، وأسقطه الناسخ هناك ، وأثبته ابن كثير في التفسير : ج ٤ ص ٨٢ : (قال السدي : لا يجيب داعية لا في الدنيا ولا في الآخرة).

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٢٩١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه) وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٨٤٣٥).

فمن «أهل» الجنّة ، وإن كان من أهل النّار فمن «أهل» النّار ، يقال : هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة][1].

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ (٤٦) قرأ نافع والكوفيّون بقطع الألف وكسر الخاء ؛ أي يقال للملائكة : أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ، وهو الدّرك الأسفل من النار ، وقرأ الباقون بضمّ الخاء ووصل الألف على الأمر لهم بالدخول.

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ﴾ (٤٧) ؛ أي واذكر يا محمّد لقومك : إذ يختصم أهل النار في النار ، وباقي الآية مفسّر في سورة إبراهيم عليه السلام.

وقوله تعالى : ﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها ؛﴾ أي إنا نحن وأنتم قد استوينا في العذاب ، ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾ (٤٨) ؛ أي قضى بهذا علينا وعليكم وحكم أن لا يتحمل أحد عذاب أحد.

فلما رأوا شدّة العذاب ، ﴿وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ ، قالوا ، ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ﴾ (٤٩) ؛ أي يهوّن عنّا العذاب قدر يوم من أيّام الدّنيا ، ﴿قالُوا﴾ ، فيقول الزبانية : ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ ؛﴾ أي بالدّلالات الظاهرة على وحدانيّة الله ، ﴿قالُوا بَلى﴾ ، فيقولون : بلى قد أتتنا الرسل ، ﴿قالُوا﴾ ، فتقول لهم الزبانية : ﴿فَادْعُوا﴾ ، أنتم فإنّ الله تعالى لم يأذن لنا في الدّنيا ، ﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ (٥٠) ؛ أي في ضياع لا ينفعهم.

قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ ؛ أي إنا لنعين الرسل والمؤمنين على أعدائهم في الدّنيا بالاستعلاء عليهم بالحجّة

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب الجنائز : باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي : الحديث (١٣٧٩). ومسلم في الصحيح : كتاب الجنة وصفة نعيمها : الحديث (٦٥ / ٢٨٦٦).

وبالغلبة عليهم في المحاربة ، ونعينهم ، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ (٥١) ؛ بإعلاء كلمتهم وإظهار منزلتهم ، والمعنى : ويوم القيامة تقوم الحفظة من الملائكة يشهدون للرّسل بالتبليغ ، وعلى الكفّار بالتكذيب.

وواحد الأشهاد : شاهد ، مثل صاحب وأصحاب ، وطائر وأطيار ، والمراد من الأشهاد الأنبياء والملائكة والمؤمنون والجوارح والمكان والزمان ، يشهدون بالحقّ لأهله ، وعلى المبطل بفعله ، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ؛﴾ أي إن اعتذروا من كفرهم لم يقبل منهم ، وإن تابوا لم تنفعهم التوبة ، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ؛﴾ أي البعد من الرحمة ، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٥٢) ؛ يعني جهنّم سوء المنقلب.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى ؛﴾ من الضّلالة يعني التوبة ، وقيل : معناه : ولقد أعطينا موسى الدّين المستقيم ، ﴿وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ﴾ (٥٣) ، ونزّلنا على بني إسرائيل التوراة والإنجيل والزّبور ﴿هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (٥٤) ؛ هدى من الضّلالة وعظة لذوي العقول ، ﴿فَاصْبِرْ﴾ ، يا محمّد على أذى الكفّار كما صبر الرسل قبلك ، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ ، في نصرتك وإظهار دينك صدق كائن ، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ؛﴾ يعني الصغائر ؛ لأن أحدا من البشر لا يخلو من الصغائر وإن عصم من الكبائر.

وقيل : معناه : واستغفر لذنوب أمّتك ، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ؛﴾ أي نزّهه عن كلّ صفة لا تليق به ، واحمده على كلّ نعمة. ويجوز أن يكون المراد بالتسبيح في الآية من قوله : ﴿بِالْعَشِيِّ ؛﴾ الصّلوات الخمس وقت ما بعد الزّوال إلى وقت العشاء الآخرة ، ومن قوله : ﴿وَالْإِبْكارِ﴾ (٥٥) ؛ صلاة الفجر. والمعنى : صلّ لربك شاكرا لربك بالعشيّ والإبكار.

قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ؛﴾ وذلك أن اليهود كانوا يجادلون في النبيّ ﷺ في رفع القرآن ، وكانوا يقولون له : صاحبنا المسيح بن داود ، يعنون الدجّال يخرج في آخر الزمان فيبلغ سلطان البرّ والبحر ، ويردّ الملك إلينا وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله! ويعظّمون أمر الدجّال ، فأنزل الله هذه الآية.

ومعناه : إنّ الذين يخاصمون بغير حجّة أتتهم ، ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ؛﴾ أي ما في قلوبهم إلّا عظمة عن قبول الحقّ لحسدهم ، ما هم ببالغي تلك العظمة التي في قلوبهم لأنّ الله تعالى مذلّهم ، فلا يصلون إلى دفع من آيات الله.

قال ابن عبّاس : (والمعنى : ما يحملهم على تكذيبك إلّا ما في صدورهم من العظمة ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لأنّ الله مذلّهم) [1]. وقال ابن قتيبة : (إنّ في صدورهم إلّا تكبّر على محمّد ، وطمع أن يصلوه وما هم ببالغي ذلك ، فاستعذ بالله يا محمّد من الكبر ومن شرّ اليهود ومن شرّ الدّجّال ومن كلّ ما تجب الاستعاذة منه) [2] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥٦) ؛ بهم وبأعمالهم.

وقوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ؛﴾ أي هذا أكبر من خلق بغير عمد وجريان الأفلاك بالكواكب فيه أعظم في النفس وأهول في الصدر من خلق الناس ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ؛﴾ الكفار ، ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) ؛ حين لا يستدلّون بذلك على توحيد خالقهما وقدرته على ما هو أعظم من خلق الدجّال ، وعلى أن يمنع المسلمين من غلبته عليهم.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [إنّ قبل خروج الدّجّال ثلاث سنين ، أوّل سنة تمسك السّماء ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها ، والثّانية تمسك ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها ، وفي السّنة الثّالثة تمسك السّماء ما فيها والأرض وما فيها ، ويهلك كلّ ذات ظلف وضرس][3].

وعن أبي أمامة الباهليّ قال : (خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فكان أكثر خطبته أن يحدّثنا عن الدّجّال ويحذّرنا ، فكان من قوله : [أيّها النّاس ؛ إنّه لم تكن فتنة في الأرض أعظم من فتنة الدّجّال ، إنّ الله تعالى لم يبعث نبيّا إلّا حذر أمّته منه ، وأنا

---

(١) نقله البغوي أيضا في معالم التنزيل : ص ١١٤٢.

(٢) نقله عنه البغوي أيضا في معالم التنزيل : ص ١١٤٢.

(٣) أخرجه البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٤٢ بإسناده عن أسماء بنت يزيد الأنصارية.

آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة ، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيج كلّ مسلم ، وإن يخرج بعدي فكلّ امرئ حجيج نفسه ، والله تعالى خليفتي على كلّ مسلم.

أنّه يخرج بين جبلين بين العراق والشّام يعيث يمينا ويعيث شمالا ، فيا عباد الله اثبتوا ، فإنّه يبدأ فيقول : أنا نبيّ ولا نبيّ بعدي! ثمّ يثني ويقول : أنا ربّكم! ولن تروا ربّكم حتّى تموتوا ، وإنّه أعور وليس ربّكم بأعور ، وإنّه مكتوب بين عينيه : كافر ، يقرؤه كلّ مؤمن ، فمن لقيه منكم فليتفل في وجهه.

وإنّ من فتنته أنّ معه جنّة ونار ، فناره جنّة وجنّته نار ، فمن ابتلي بناره فليقرأ فواتح سورة الكهف ويستغيث بالله ، فتكون عليه بردا وسلاما ، وإنّ من فتنته أنّ معه شياطين يتمثّل كلّ واحد منهم على صورة إنسان ، فيأتي الأعرابيّ فيقول له : إذا بعثت أباك وأمّك وأهلك تشهد أنّي ربّك؟ فيقول : نعم ، فيتمثّل له شياطينه على صوت أبيه وأمّه ، فيقولان له : يا بنيّ اتّبعه فإنّه ربّك ، ومن فتنته أن يسلّط على نفس فيقتلها ، ثمّ يحييها الله بعد ذلك ، فيقول الدّجّال : انظروا إلى عبدي هذا ، فإنّي بعثته الآن ويزعم أنّ له ربّا غيري]) (1).

قال مقاتل : (إنّ الرّجل الّذي يسلّط عليه الدّجّال رجل من جشعم ، فيقتله ثمّ يبعثه الله تعالى ، فيقول له الدّجّال : من ربّك؟ فيقول : الله ربي وإنّك الدّجّال عدوّ الله).

[وإنّ من فتنته يقول للأعرابيّ : أرأيت إن بعثت لك أبيك وأمّك أتشهد أنّي ربّك؟ فيقول : نعم ، فيتمثّل له شياطينه على صورة أبيه وأمّه. وإنّ أيّامه أربعين يوما ،

---

(1) الحديث لم أقف عليه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، وهو حديث مشهور بألفاظ عديدة وأسانيد عديدة. وأصله عن أبي هريرة وجابر وأبي سعيد وغيرهم كثير رضي الله عنهم جميعا. ومن هذه الأسانيد ، أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب الجائز : الحديث (١٣٥٤ و١٣٥٥) ، وكتاب الأنبياء : الحديث (٣٣٣٧) ، وكتاب الجهاد : الحديث (٣٠٥٥). ومسلم في الصحيح : كتاب الفتن وأشراط الساعة : الحديث (١١٢ / ٢٩٣٨).

فيوم كالسّنة ، ويوم دون ذلك ، ويوم كالشّهر ، ويوم دون ذلك ، ويوم كالجمعة ، ويوم دون ذلك ، وآخر أيّامه كالشّرفة ، فيصبح الرّجل بباب المدينة فلا يبلغ بابها حتّى تغرب الشّمس].

قالوا : يا رسول الله ﷺ كيف نصلّي في تلك الأيّام القصار؟ قال : [تقدرون فيها كما تقدرون في هذه الأيّام الطّوال ، فلا يبقى شيء من الأرض إلّا وطئه الرّجل وغلب عليه ، إلّا مكّة والمدينة فإنّه لا يأتيهما ، ويكون إمام النّاس يومئذ بالمدينة رجلا صالحا ، فيقال له : صلّ الصّبح ، فإذا كبّر ودخل في الصّلاة ونزل عيسى عليه السلام ، فإذا رآه ذلك الرّجل عرفه فيتأخّر ليتقدّم عيسى ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ويقول له : صلّ قائما ، أقيمت لك الصّلاة.

فيصلّي عيسى وراءه ثمّ يقول : افتحوا الباب ، فيفتح باب المدينة ، ومع الدّجّال يومئذ سبعون ألف يهوديّ كلّهم ذوو سلاح وسيف محلا ، فإذا نظر الدّجّال إلى عيسى ذاب كما ذاب الرّصاص من النّار والملح في الماء ، فيقول له عيسى : إنّ لي فيك ضربة لن تفوتني بها ، فيدركه عند باب كذا الشّرقيّ وهو باب قتيلة ، فلا يبقى شيء ممّا خلق الله يتوارى به يهوديّ إلّا أنطق الله ذلك الشّيء ، فلا شجر ولا حجر ولا دابّة إلّا قالت : يا عبد الله المسلم هذا كافر فاقتله.

ويكون عيسى عليه السلام حكما عدلا وإماما مقسطا ، فيدقّ الصّليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، وترفع الشّحناء والتّباغض ، وترفع حمة (١) كلّ دابّة حتّى يدخل الصّبيّ يده فم الحنش (٢) فلا يضرّه ، ويلقى الإنسان الأسد فلا يضرّه ، ويكون الأسد في الإبل كأنّه كلبها ، ويكون الذّئب في الغنم كأنّه كلبها ، ويملأ الأرض إسلاما (٣) ، ويسلب الكفّار ملكهم ، ولا يكون الملك إلّا للمسلمين ، ويبارك في الأرزاق حتّى أنّ

---

(١) حمة العقرب : سمّها وضرّها.

(٢) الحنش : كلّ ما يصاد من الطّير والهوام ، والجمع (الأحناش). والحنش أيضا : الحيّة ، وقيل : الأفعى.

(٣) هكذا في المخطوط : (إسلاما).

النّفر يجتمعون على رمّانة واحدة ، ويكون الفرس بدرهمين][1] وبالله التّوفيق).

قوله تعالى : ﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ؛﴾ أي فكما لا يستويان فكذلك لا يستوي المؤمن والكافر في الآخرة في الجزاء بالعذاب والنّعيم ، وباقي الآيتين : ﴿قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٩) ظاهر المعنى.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ؛﴾ أدعوني ووحّدوني في الدّنيا أقبل منكم وأستمع دعاءكم ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي ؛﴾ إنّ الذين يتعظّمون عن طاعتي وعن المسألة مني ، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ (٦٠) ؛ أي صاغرون ذليلون ، والدّاخر : هو الذليل الصّاغر ، قال حسّان :

قتلنا من وجدنا يوم بدر ... وجئنا بالأسارى داخرا

قرأ ابن كثير (سيدخلون) بضمّ الياء وفتح الخاء [2].

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً ؛﴾ أي تبصرون فيه لطلب المعاش ، ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ (٦١) ؛ نعم الله ، ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ؛﴾ ومبتدعه ، لا معبود سواه ، فلا ينبغي لأحد أن يدعو مخلوقا مثله ، ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٦٢) ؛ وقد تقدّم تفسير ذلك ، ﴿كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٦٣) ؛ أي هكذا كان لمصرف القوم الذين كانوا بدلائل الله يجحدون.

---

(١) أخرجه أبو داود مختصرا في السنن : كتاب الملاحم : باب خروج الجدال : الحديث (٤٣٢٢). وابن ماجة في السنن : كتاب الفتن : باب فتنة الدجال : الحديث (٤٠٧٧). وفي الدر المنثور : ج ٢ ص ٧٣٩ - ٧٤٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه أبو داود وابن ماجة عن أبي أمامة الباهلي) وذكره.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٢٨ ؛ قال القرطبي : (وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورويس عن يعقوب وعياش عن أبي عمرو وأبو المفضل عن عاصم) وذكرها وقال : (على ما لم يسمّ فاعله).

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً ؛﴾ أي مستقرّا للأحياء والأموات ، كما قال ﴿فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ﴾[١]﴿وَالسَّماءَ بِناءً ؛﴾ أي وجعل السّماء سقفا مرفوعا فوق كلّ شيء ، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ؛﴾ أي خلقكم فأحسن خلقكم.

قال ابن عبّاس : (خلق الله ابن آدم قائما معتدلا يأكل بيده ويتناول بيده ، وكلّ ما خلق الله يتناول بفيه) [٢]. وقال الزجّاج : (خلقكم أحسن الحيوان كلّه) ، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ؛﴾ أي من لذيذ الأطعمة وكريم الأغذية.

وقوله تعالى : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ؛﴾ أي الذي فعل ذلك كلّه هو ربّكم فاشكروه ، ﴿فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ (٦٤) ؛ أي فتعالى الله دائم الوجود لم يزل ولا يزال ربّ كلّ ذي روح من الجنّ والإنس وغيرها ، ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ؛﴾ بلا أوّل ولا آخر ، لم يزل ، كان حيّا ولا يزال حيّا ، منزّه عن كلّ آفات ، وليس أحد غيره من الأحياء بهذه الصّفات ، لا مستحقّ للإلهيّة غيره ، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٦٥) ، فوحّدوه مخلصين له الدّين ؛ أي الطاعة ، واشكروه على معرفة التوحيد. قال ابن عبّاس رضي الله عنه : (إذا قال أحدكم : لا إله إلّا الله فيقل في إثرها : الحمد لله رب العالمين) [٣].

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٦٦) ؛ أي أمرت أن أستقيم على الإسلام.

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ؛﴾ أي خلق أصلكم من تراب ، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ؛﴾ لآبائكم ، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ ، ثم نقلكم إلى العلقة وهو الدم الغليظ ، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ؛﴾ من بطون أمّهاتكم أطفالا واحدا واحدا لذلك

---

(١) الأعراف / ٢٥.

(٢) نقله أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٤٤.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٤٤٢).

قوله : ﴿طِفْلاً ؛﴾ وقال ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً﴾[1] لأن الواحد يكون أعمال [2].

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ؛﴾ أي بنقلكم إلى حال اجتماع القوّة والكمال ، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ؛﴾ أي تصيروا شيوخا بعد الأشدّ ، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ؛﴾ من قبل البلوغ ومن قبل الشّيخوخة ، ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى ؛﴾ يريد أجل الحياة إلى الموت ، ولكلّ أجل لحياته ينتهي إليه ، ويقال : لتبلغوا أجلا مسمّى ؛ أي لتوافوا القيامة للجزاء والحساب ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) ، ولكي يعقلوا وحدانية الله تعالى وتمام قدرته ، وتصدقوا بالبعث بعد الموت.

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ؛﴾ أي يحيي الأموات ويميت الأحياء ، ﴿فَإِذا قَضى أَمْراً ؛﴾ من الإحياء والإماتة ، ﴿فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ﴾ ، يريده ، ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦٨) ، ويحدثه.

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ ؛﴾ أي يخاصمون في القرآن بالردّ والتكذيب ، وهم المشركون ، ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ (٦٩) ، كيف يصرفون إلى الكذب بعد وضوح الدلالة ، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ ؛﴾ الذين كذبوا بالقرآن ، ﴿وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا﴾ ، من الشّرائع والأحكام والتوحيد ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) ، عاقبة أمرهم ، ﴿إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) ، حين تجعل الأغلال الحديد مع السّلاسل في أعناقهم ، يسحبون في الحبال على وجوههم ، يلقون ، ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ ، في نار عظيمة ، ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٧٢) ؛ قال مجاهد : (توقد بهم النّار فصاروا وقودها).

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ ، ثم تقول لهم الزّبانية : ﴿أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) ، أين الآلهة التي كنتم تعبدونها ، وترجون منافعها ، وتدعونها ،

---

(١) الكهف / ١٠٣.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٢ ص ١١ ؛ قال القرطبي : (أي أطفالا ، فهو اسم جنس ، وأيضا فإن العرب قد تسمي الجمع باسم الواحد).

﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ، فيؤلمون قلوبهم بمثل هذا التوبيخ كما يؤلمون أبدانهم بالتعذيب ، ﴿قالُوا ؛﴾ فيقول الكفار : ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ ، أي ضلّت آلهتنا عنّا ؛ أي ضاعت فلا نراها ، ثم يجحدون عبادة الأصنام فيقولون : ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ ، إن لم نكن نعبد من قبل هذا شيئا ، ويجوز أن يكون هذا كالرّجل يعمل عملا لا ينتفع به ، فيقال له : إيش تعمل؟ فيقول : لا شيء.

وقوله تعالى : ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ﴾ (٧٤) ؛ أي هكذا يهلكهم ذلك العذاب الذي نزل بكم ، ﴿ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ؛﴾ بالباطل ، ﴿وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٦) ؛ قال مقاتل : (يعني البطر والخيلاء).

والغلّ : هو ما يجعل في العنق للإذلال والإهانة. والطّوق : هو ما يجعل للإجلال والكرامة. وقرأ ابن عبّاس : (والسّلاسل) بفتح اللام ، و (يسحبون) بفتح الياء ؛ معناه : ويسحبون السلاسل [1].

قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ؛﴾ بنصرك والانتقام منهم ، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾ (٧٧) ؛ معناه : فإن انتقمنا منهم وأنت حيّ فبشرى لك ، وإن نتوفّاك قبل «أن» نريك ذلك فإلينا مرجع الكلّ منهم للمجازاة ، وسيصل إليهم موعدهم.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ؛﴾ أي منهم من قصصنا عليك خبرهم في القرآن ، ومنهم من لم نقصص عليك خبرهم ، ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ؛﴾ في الآية إبلاغ عذر النّبيّ ﷺ فيما يأتيهم به من الآيات التي كانوا يقترحونها عليه ، وليس علينا حصر عدد الرّسل ، ولكنا نؤمن بجملتهم.

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس : ج ٤ ص ٣١ ؛ قال : (وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس أنه قرأ ﴿والسلاسل﴾ بالنصب ﴿يسحبون﴾ والتقدير في قراءته : ويسحبون السلاسل).

وقوله تعالى : ﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ ؛﴾ أي إذا جاء قضاؤه بين أنبيائه وأممهم ، ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ ، لم يظلموا إذا عذّبوا ﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ ؛﴾ عند ذلك ، ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨) ، المكذّبون.

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ (٧٩) ؛ الله الذي خلق لكم الإبل والبقر والغنم لتركبوا بعضها وتأكلوا لحم بعضها ، ﴿وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ ؛﴾ من ألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ؛﴾ أي لتبلغوا عليها في ركوبها حاجة في قلوبكم لا تبلغونها إلّا بها ، قال مجاهد : (تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ، وتبلغوا عليها حاجاتكم في البلاد ممّا كانت) ، ﴿وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٨٠) ؛ أي وعلى ظهورها في البرّ وعلى السّفن في البحر تحملون في كسبكم وحجّكم وتجاراتكم.

قوله تعالى : ﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ ؛﴾ أي يريكم الله دلائل قدرته من الشمس والقمر والنّجوم والليل والنهار والجبال والبحار ، وتسخّر الأنعام لمنافع العباد ، كلّها من آيات الله ، ﴿فَأَيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٨١) ، فأيّ آية من آيات الله تجهلون أنّها ليست من الله تعالى؟

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؛﴾ من الأمم كيف أهلكهم الله بتكذيبهم الرسل ، ﴿كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ؛﴾ من أهل مكّة بالعدد ، ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً ؛﴾ في البلدان ، وأظهر ؛ ﴿وَآثاراً فِي الْأَرْضِ ؛﴾ في الأبنية العظيمة ، والقصور المشيدة ، والعيون المستخرجة ، ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) ، فلم ينفعهم من عذاب الله كثرة عددهم وشدّة قوّتهم وجمعهم الأموال ، ﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ (٨٣) ؛ بالجهل الذي عندهم أنه علم ، وقالوا : نحن أعلم منهم ، لن نبعث ولن نعذب ، فمعنى قوله : ﴿فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي رضوا بما عندهم من العلم وهو في الحقيقة جهل وإن زعموه علما.

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا﴾ ، فلمّا رأوا عذابنا آمنوا ، ﴿بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا ؛﴾ ولا ينفع الإيمان عند ذلك.

وقوله تعالى : ﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ ؛﴾ أي هذا قضائي في خلقي أنّ من كذب أنبيائي وجحد ربوبيتي ؛ أي سنّ الله هذه السّنة في الأمم كلّها أن لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب ، وسنة الله هي حكم الله الذي مضى في عباده في بعث الرّسل إليهم ، ودعائهم إلى الحقّ وترك المعاجلة بالعقوبة ، وأنّ الإيمان وقت البأس لا ينفع.

ونصب قوله ﴿سُنَّتَ اللهِ﴾ على التحذير أو على المصدر ، وقوله تعالى : ﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ (٨٥) ؛ أي هلك عند ذلك المكذّبون.

**آخر تفسير سورة (غافر) والحمد لله رب العالمين.**

## سورة السّجدة (فصّلت)

سورة حم السّجدة مكّيّة ، وهي ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون حرفا ، وسبعمائة وستّ وتسعون كلمة [١] ، وأربع وخمسون آية.

قال ﷺ : [من قرأ حم السّجدة أعطي من الأجر بعدد كلّ حرف منها عشر حسنات][٢] والله أعلم.

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢) ؛ قال ﴿تَنْزِيلٌ﴾ مبتدأ ؛ وخبره [٣] : ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ ؛﴾ أي بيّن حلاله وحرامه ، ومعنى التّنزيل : المنزّل كما يذكر العلم بمعنى المعلوم ، والخلق بمعنى المخلوق ، قوله تعالى : ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا ؛﴾ منصوب على الحال ؛ أي بيّنت آياته في حال جمعه على مجرى لغة العرب ، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣) ؛ اللّسان العربيّ ، ﴿بَشِيراً ؛﴾ بالجنّة لمن أطاع ، ﴿وَنَذِيراً ؛﴾ بالنار لمن عصى الله ، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ؛﴾ أهل مكّة عن الإيمان ، ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (٤) ؛ سماعا ينتفعون به.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ ؛﴾ أي قال كفّار مكّة للنبيّ ﷺ : قلوبنا في أغطية مما تدعونا إليه من القرآن لا يصل إلى قلوبنا ، ﴿وَفِي آذانِنا وَقْرٌ ؛﴾ أي ثقل وصمم يمنع من استماع ما تقرؤه.

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب : ج ١٧ ص ٩٦ ؛ قال ابن عادل : (وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة).

(٢) ذكره أيضا الزمخشري في الكشاف : ج ٤ ص ٢٠١ ، وهو في تفسير الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي ، ولا يصح ، والله أعلم.

(٣) هذا مذهب البصريين ، نقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٨٧.

والأكنّة : جمع كنان ، مثل عنان وأعنّة. ﴿وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ ؛﴾ وبيننا وبينك حاجز وفرقة في الدّين فلا نوافقك على ما تقول ، ﴿فَاعْمَلْ ؛﴾ على أمرك ودينك ، ﴿إِنَّنا عامِلُونَ﴾ (٥) ؛ على أمرنا ومذهبنا.

قوله تعالى : ﴿قُلْ ؛﴾ يا محمّد : ﴿إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ؛﴾ أي كواحد منكم ولو لا الوحي ما دعوتكم. وقوله تعالى : ﴿يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ؛﴾ لا شريك له ، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ؛﴾ أي لا تميلوا عن سبيله وتوجّهوا إليه إلى طاعته ، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ ؛﴾ من الشّرك ووحّدوه.

قوله تعالى : ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٦) ؛ وويل لمن لا يقول لا إله إلّا الله ، ﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ ، ولا يطهّرون أنفسهم من الشّرك بالتوحيد ، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ (٧) ، وقال الحسن : (لا يقرّون بالزّكاة ، ولا يرون إيتاءها ولا يؤمنون بها) [(١)] ، قال الكلبيّ : (عابهم الله وقد كانوا يحجّون ويعتمرون) ، قال قتادة : (الزّكاة قنطرة الإسلام ، فمن قطعها نجا) [(٢)] أي فمن عبرها نجا ، ومن لم يعبرها هلك.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ الكفار يعاقبون في الآخرة على ترك الشّرائع كما يعاقبون على ترك الإيمان ؛ لأن الله وعدهم على ذلك ، وقال في جواب أهل النار حين يقال لهم ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ، قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[(٣)].

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨) ؛ أي غير مقطوع ، من قولهم : مننت الحبل إذا قطعته ، وثواب المؤمن لا ينقطع. وقيل : لا يمنّ عليهم بذلك ؛ لأن المنّة تكدّر الصنيعة.

---

(١) نقله أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٤٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٤٧٣).

(٣) المدثر / ٤٢ ـ ٤٤.

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ؛﴾ أي ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ في عظمها وقوّتها في يوم الأحد ويوم الاثنين ، ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ؛﴾ من الأصنام ؛ أي أضدادا [1] ، وقوله تعالى : ﴿ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ (٩) ؛ أي ذلك الذي هذه قدرته ربّ كلّ ذي روح وملكهم.

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها ؛﴾ أي وخلق فيها جبالا ثوابت أوتادا لها في يوم الثّلاثاء ، ﴿وَبارَكَ فِيها ؛﴾ أي بارك في الأرض بالسّماء والشجر والنبات والثمار ، ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ ؛﴾ أي معايشها ، قدّر الله لكلّ حيوان ما يكفيه بحسب الحاجة ، وجعل في كلّ أرض معيشة ليست في غيرها لتعايشوا وتتّجروا.

وكان تقدير الأقوات في يوم الأربعاء ، فتمّ خلق الأرض بما فيها في أربعة أيّام ، ولو أراد الله أن يخلقها في لحظة واحدة لفعل وقدر ، ولكنه خلقها في ستّة أيام لأنه تعالى حليم ذو أناة ، أحبّ أن يعلّم الخلق الأناة في الأمور.

وقال الحسن : (معنى قوله ﴿وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها﴾ أي قسّم الأرض أرزاق العباد والبهائم) [2] ، وقال الكلبيّ : (الخبز لأهل قطر ؛ والتّمر لأهل قطر ؛ والذرّة لأهل قطر ؛ والسّمك لأهل قطر ، جعل الله في كلّ بلدة ما لم يجعل في الأخرى ؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتّجارة من موضع إلى موضع) [3].

وقوله تعالى : ﴿سَواءً لِلسّائِلِينَ﴾ (١٠) ؛ رفعه أبو جعفر على الابتداء ؛ أي هنّ سواء ، وخفضه الحسن ويعقوب نعت أربعة أيّام ، ونصبه الباقون على معنى : استوت سواء للسّائلين ، واستواء يعني على المصدر كما يقال : في أربعة أيّام تماما. ومعناه : من سأل عنه فهكذا الأمر.

---

(١) في المخطوط : (أغلالا).

(٢) نقله أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٤٧ عن مقاتل والحسن.

(٣) نقله أيضا البغوي عن الكلبي في معالم التنزيل : ص ١١٤٧.

وقال السديّ : (سواء لا زيادة ولا نقصان جوابا لمن سأل في كم خلقت الأرض والأقوات ، فيقال : أربعة أيّام سواء) (١). و ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ ههنا هم اليهود ، سألوا النبيّ ﷺ عن مدّة خلق السّموات والأرض ، ويجوز قوله ﴿سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ عائدا على تقدير الأقوات ، كأنه قال : لكلّ محتاج إلى القوت (٢).

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ ؛﴾ قال السديّ : (كان ذلك الدّخان من نفس الماء حين تنفّس ، وكان بخاره يذهب في الهواء ، فخلقت السّماء منه وفتقت سبعا في يوم الخميس والجمعة) (٣).

وقوله تعالى : ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ؛﴾ أي ائتيا ما آمركما وافعلا ، كما يقال : ائت ما هو الأحسن ؛ أي افعله.

قال المفسّرون (٤) : إن الله تعالى قال : أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وأما أنت يا أرض فشقّقي أنهارك واخرجي ثمارك ونباتك ، وقال لهما : اعملا ما آمركما طوعا وإلّا ألجأتكما ذلك حتى تفعلاه كرها ، فأجابتا بالطّوع وهو قوله تعالى : ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ (١١) ؛ أي أتينا أمرك. ولما ركّب الله فيهنّ العقول ، وخطاب من يعقل جمعهن جمع من يعقل كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٥) ولو جمعهن جمع من لا يعقل لقيل : طائعات.

ويقال في معناه : أتينا نحن من فينا طائعين ، وإنّما ذكر تارة بلفظ التّثنية وتارة بلفظ الجمع ؛ لأن السّموات والأرض شيئان من حيث الجنس بمنزلة الفئتين

---

(١) نقله أيضا البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٤٧ عن قتادة والسدي.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٤٣ ؛ قال القرطبي : (أو على تقدير : هذه سواء للسائلين. وقال أهل المعاني : ﴿سَواءً لِلسَّائِلِينَ﴾ ولغير السائلين ، أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ، ويعطي من سأل ومن لا يسأل).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٤٩٩).

(٤) نقله الطبري عن ابن عباس في جامع البيان : الأثر (٢٣٤٩٧).

(٥) الأنبياء / ٣٣.

(والطائعين) ، فقيل لهما : ائتيا ، ثم السّموات بنفسها جماعة ، وكذلك الأرض ، فلذلك قالتا : ﴿أَتَيْنا طائِعِينَ﴾. وانتصب ﴿طَوْعاً﴾ و ﴿كَرْهاً﴾ على معنى أطيعا طاعة أو تكرهان كرها.

وبلغنا أن بعض الأنبياء قال : يا ربّ ؛ لو أنّ السّموات والأرض حين قلت لهما ﴿ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ عصياك ما كنت صانعا بهما؟ قال : كنت آمر دابّة من دوابي فتبتلعهما [1]. قال : فأين تلك الدابة؟ قال : في مرج من مروج ، قال : وأين ذلك المرج؟ قال : في علم من علومي [2].

قوله تعالى : ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ أي صنعهنّ وأحكمهن وأتمّ خلقهن سبع سموات بعضها فوق بعض بما فيهنّ من الشمس والقمر والنجوم ، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ ، في يوم الخميس والجمعة ، فتمّ خلق السموات [3] والأرض في ستّة أيام.

لفظ القضاء في اللغة بمعنى الإتمام ، ومن ذلك : انقضاء الشّيء إذا تمّ ، وقضى فلان إذا مات ؛ لأنه تمّ عمره ، وقال الشاعر [4] :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السّوابغ تبّع

عملهما وصنعهما.

قوله تعالى : ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ قال قتادة : (يعني خلق شمسها وقمرها ونجومها ، وخلق في كلّ سماء خلقها من الملائكة والخلق الّذي فيها من البحار وجبال البرّ وما لا يعلمه إلّا هو). وقيل : أمر في كلّ سماء بما أراد. وقيل : أوحى إلى أهل كلّ سماء ما يصلحها به من أمره.

---

(١) في المخطوط وضع الناسخ علامة تصحيح ، ولم يصحح ، وكتب برسم غير واضح (تبتلعهما). وتم ضبط النص من الجامع لأحكام القرآن.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٤٤ ، نقله القرطبي على أنه حديث ، وقال : (ذكره الثعلبي والمعروف أن الثعلبي ليس من أهل الحديث.

(٣) في المخطوط : (الشمس).

(٤) الشاعر هو : أبو ذؤيب الهذلي. والصّنع بفتحتين : الحاذق. ومسرودتان : صفة الموصوف محذوف ، أي درعان مسرودتان. والبيت من شواهد الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٢٨٩. وينظر : لسان العرب : ج ١ ص ١٦ : (تبع) وج ١١ ص ٢٠٩.

قوله تعالى : ﴿وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ ؛﴾ أي زيّنا السّماء القربى إلى الأرض بمصابيح وهي النجوم ، وقوله تعالى : ﴿وَحِفْظاً ؛﴾ أي وحفظناها بالنّجوم من استراق الشّياطين السمع حفظا.

وقيل : انتصب ﴿حِفْظاً﴾ على تقدير : وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح زينة وحفظا ، فبعض النّجوم زينة للسّماء لا يتحرّك ، وبعضها يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر ، وبعضها رجوم للشّياطين.

قوله تعالى : ﴿ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٢) ؛ أي ذلك الذي سبق ذكره ؛ تقديره : العزيز في ملكه القادر القاهر الذي لا يلحقه عجز ولا يعتريه [(١)] سهو ولا جهل ، أحكم ذلك كلّه وأتقنه حتى لا يدخله الخلل مدى الدّهور.

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ؛﴾ الآية ، وذلك أنّ الملأ من قريش قالوا : قد التبس علينا أمر محمّد ، فلو التمستم رجلا عالما بالشّعر والكهانة والسّحر فأتاه وكلّمناه ، وأتانا ببيان أمره. فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشّعر والكهانة والسّحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى عليّ إن كان كذلك.

فمضى عتبة إلى رسول الله ﷺ وهو في الحطيم ، فكلّمه ولم يترك شيئا إلّا قاله ، وكان عتبة من أحسن النّاس حديثا ، فقال : يا محمّد أنت خير أم هاشم [(٢)]؟ أنت خير أم عبد المطّلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتضلّل آباءنا؟ فإن كان ذلك طلبا للرّئاسة عقدنا لك ألويتنا وكنت رأسنا ما بقيت ، وإن كان لك الباءه زوّجناك عشر نسوة ممّن تختار من بنات قريش ، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك. ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلّم.

---

(١) في المخطوط : (يعتد به).

(٢) في المخطوط : (هشام).

فلمّا فرغ عتبة من كلامه قرأ عليه رسول الله ﷺ : بسم الله الرّحمن الرّحيم ﴿حم ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ...﴾ إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾. فوثب عتبة فزعا مخافة أن يصبّ عليه العذاب الّذي خوّفه به النّبيّ ﷺ ، فأتى قومه مذعورا وأقسم لا يكلّم محمّدا بعدها أبدا.

فقال له أبو جهل : لعلّك صبوت إلى محمّد ، وما ذاك إلّا من حاجة أصابتك ، وإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمّد! فغضب عتبة وقال : والله لقد كان أبي من أكثر قريش مالا ، ولكن أتيته وقصصت عليه القصّة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، والله ما اهتديت لجوابه. فقال حرث بن علقمة : والله لقد أفسد هذا الرّجل ديننا وفرّق بين كلمتنا ، وأيم الله لئن بقي هذا الرّجل ويقيم ليكوننّ بطن الأرض خير لكم من ظهرها ، وسيبين ذلك لكم إذا خرج منكم إلى غيركم ، فذروه ما تركتكم [1].

ومعنى الآية : فإن أعرضوا عن الإيمان بك ولم يقبلوا قولك بعد هذا البيان ، فقل : خوّفتكم عذابا مثل عذاب قوم هود وقوم صالح. والصّاعقة : هو الهلاك على حالة هائلة.

وقوله تعالى : ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي إذا جاءتهم الرسل إلى من كان قبلهم فعلموا بتواتر الأخبار ، ثم إنّهم الرسل أيضا من خلف من كان قبلهم بأن لا يعبدوا إلّا الله ، ﴿قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ؛﴾ أي لو شاء ربّنا أن ينزّل إلينا رسولا لأنزل ملائكة من جنده ، ﴿فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ (١٤) ؛ ما أنتم إلّا بشر مثلنا.

ويجوز أن يكون معنى ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بأن الرّسل أتتهم من جميع جهاتهم.

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٠٨ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل ، وابن عساكر عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما) وذكره. وأخرجه البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٤٨. والنحاس في إعراب القرآن : ج ٤ ص ٣٩.

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ؛﴾ أي تعظّموا عن الإيمان بنبيهم وأعجبتهم أجسامهم ، ﴿وَقالُوا ؛﴾ لنبيّهم : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؛﴾ بالبدن فيهلكنا ، وذلك أنّ هودا عليه‌السلام خوّفهم وهدّدهم بالعذاب ، فقالوا : نحن نقدر على دفعه بفضل قوّتنا ، وكانت لهم أجسام طويلة وخلق عظيم ، فلما أتتهم الريح قاموا ليصدّون عنهم فحملتهم إلى عنان السّماء ثم صرعتهم على وجوههم ثم ألقت عليهم الرّمل حتى غطّتهم ، وكان يسمع أنينهم تحت التّراب حتى أهلكهم الله.

فلمّا قالوا لنبيّهم : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله تعالى ردّا عليهم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؛﴾ لأن الخالق للشّيء لا بدّ أن تكون له مزية على خلقه ، ﴿وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ (١٥) ؛ أي يكفرون.

قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ؛﴾ أي عاصفا شديد الصّوت ، مأخوذ من الصّرّة وهي الصيحة ، وقال ابن عبّاس : (يعني الباردة ، مأخوذ من الصّرّ وهو البرد). قال الفرّاء : (هي الباردة تحرق كما تحرق النّار) [1] وهي ريح باردة شديدة الهبوب ، ذات صوت تحرق كالنّار.

وقوله تعالى : ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ ؛﴾ أي نكدات مشؤومات عليهم ، ذات نحوس ، قال ابن عبّاس : (كانوا يتشاءمون بتلك الأيّام). قرأ ابن عامر وأهل الكوفة ﴿نَحِساتٍ﴾ بكسر الحاء ، وقرأ الباقون بسكونها ، يقال : يوم نحس ونحس.

قوله تعالى : ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ؛﴾ أي عذاب الهون والذّلّ وهو العذاب الذي يخزون به ، والخزي والفضيحة والنّكال كلّه بمعنى واحد ، ﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ (١٦) ، وعذاب الآخرة أبلغ في المذلّة وأبقى وأشدّ ، لا يدفع عنهم ولا يخفّف عنهم.

قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى ؛﴾ أي وأمّا ثمود فبيّنّا لهم سبيل الهدى ودعوناهم ودللناهم على الخير بإرسال الرّسل ، فاختاروا

(١) قاله الفراء في معاني القرآن : ج ٣ ص ١٣.

الكفر على الإيمان بعد أن أريناهم الأدلّة وأخرجنا لهم ناقة عشراء من صخرة ملساء ، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ ؛﴾ أي ذي الهوان ، ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧) ، بكفرهم وعقرهم الناقة ، ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا ؛﴾ بصالح ، ﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٨) ؛ الشّرك والكبائر.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) ؛ قرأ نافع ويعقوب (نحشر) بنون مفتوحة وضمّ الشّين ، ونصب (أعداء) ، وقرأ الباقون ﴿يُحْشَرُ﴾ بالياء المضمومة ورفع ﴿أَعْداءُ﴾. ومعنى الآية : وأنذرهم يوم يجمع أعداء الله ويساقون إلى النار بالعنف ، وقوله تعالى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا ثم يقذفون في النار.

وقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذا ما جاؤُها ؛﴾ أي حتّى إذا جاءوا النار التي لم يقذفوا [١] ثم يقذفون في النار. قوله تعالى : حشر أعداء الله حبسوا عندها وهم يعاينونها ، ويقال لهم : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، فيجحدون ويقولون : والله ربنا ما كنا مشركين ، فعند ذلك يختم على أفواههم وتستنطق جوارحهم ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ ؛﴾ وكلّ عضو من أعضائهم بما ارتكبوا من الكفر والمعاصي.

قوله تعالى : ﴿وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٠) ؛ قال ابن عبّاس : (يريد فروجهم ، كنّى عنها بالجلود) [٢]. وقيل : الجلود الجوارح ، ﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ﴾ ، فيقول الكفّار لجلودهم بعد ما يردّ النطق إلى ألسنتهم : ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ؛﴾ وعملتم على هلاكنا ، ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ؛﴾ وتمّ الكلام.

ثم قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢١) ؛ أي ليس إنطاقه الجلود أبدع من خلقه إيّاكم ابتداء وإعادة بعد الموت ، وليس هذا من كلام الجلود.

---

(١) في المخطوط : (حتى إذا جاءوا النار التي ثم يقذفون في النار).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٥٢٧) عن الحكم الثقفي ، و (٢٣٥٢٨) عن عبيد الله ابن أبي جعفر.

قوله تعالى : ﴿وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ ؛ معناه : ما كنتم تستترون بالمعاصي عن الناس مخافة من أن تشهد عليكم هذه الجوارح في الآخرة ؛ لأنّكم ما كنتم تظنّون ذلك ، ﴿وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) ؛ ولكن عملتم بالمعاصي عمل من يظنّ أنّ الله لا يعلم بما يعمله في السرّ. قال ابن عبّاس : (كان الكفّار يقولون : إنّ الله لا يعلم ما في أنفسنا ولكنّه يعلم ما يظهر!).

قوله تعالى : ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ ؛ أي ظنكم أن الله لا يعلم ما تعملون ، ﴿أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ (٢٣) ؛ أي أهلككم فصرتم من المنبذين بالوزر والعقوبة. وقيل : معنى ﴿أَرْداكُمْ﴾ أي طرحكم في النار [1].

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ ؛ أي فإن يمسكوا عن الاستغاثة ولم ينطقوا بشكوى فالنار مسكن لهم منتقمة منهم ، ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٢٤) ؛ أي وإن يطلبوا العتبى وهي الرّضا فماهم عن «أن» يطلبوا رضاهم ويقبل عذرهم. يقال : أعتبني فلان ؛ أي أرضاني بعد استخاطه إيّاي ، واستعتبته طلبت منه أن يعتب أي يرضى.

قوله تعالى : ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ﴾ ؛ معناه : سبّبنا لهم أعوانا وقرناء من الشّياطين حتى أضلّوهم وهو قوله تعالى : ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ؛ من أمر الآخرة أن لا جنّة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، ﴿وَما خَلْفَهُمْ﴾ ؛ من أمر الدّنيا أن لا ينفقوا في وجوه البرّ ، وأن يتلذذوا في الدّنيا ويجمعوا الأموال ، ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ؛ أي وجب عليهم ، ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ (٢٥).

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٢٦) ؛ وذلك أنّ كفار قريش قالوا لأتباعهم : لا تسمعوا هذا القرآن

(١) نقله البغوي عن ابن عباس في معالم التنزيل : ص ١١٥٠.

الّذي يقرؤه عليكم محمّد ، فإذا سمعتموه يقرأ فارفعوا أصواتكم بالأشعار والأراجيز والغوا فيه بالمكاء والصّفير ، وقابلوه بكلام اللّغو حتى تغلبوه فيسكت.

يقول الله تعالى : ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً ؛﴾ أي في الدّنيا بالقتل والأسر ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) ، ولنعاقبنّهم في الآخرة بعذاب أشدّ من عذابهم في الدّنيا ، ﴿ذلِكَ ؛﴾ العذاب ، ﴿جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ﴾. وقوله تعالى : ﴿النَّارُ ؛﴾ بدل من العذاب ؛ أي بدل من قوله ﴿جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ﴾. وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ ؛﴾ أي لهم في النّار دار الإقامة ، ﴿جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ (٢٨) ؛ يعني القرآن جحدوا أنه من عند الله.

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ؛﴾ معناه : يقول الّذين كفروا في النار : يا ربّنا أرنا اللّذين أضلّانا عن الحقّ. قال بعضهم : يريد به إبليس وقابيل أوّل من أحدث المعصية في بني آدم ، ﴿نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا ؛﴾ أي أسفل منّا في النار ، ﴿لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩) ؛ في الدّرك الأسفل. وقيل : معناه : ليكونا أشدّ عذابا منّا.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ؛﴾ أي إنّ الذين وحّدوا الله ، ﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ ، على الإيمان ولم يشركوا. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : (اللهمّ أنت ربّنا فارزقنا الاستقامة) [(١)].

وقال أبو بكر رضي الله عنه : (يعني ثمّ استقاموا على أنّ الله رب لهم) [(٢)] ، وقال مجاهد : (هم الّذين لم يشركوا به شيئا حتّى يلقوه) [(٣)]. وقال بعضهم : يعني الاستقامة على أداء الفرائض ولزوم السّنة. وروي عن عمر رضي الله عنه : (استقاموا لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثّعالب) [(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٥٥٩).

(٢) بمعناه ؛ أخرجه الطبري في جامع البيان : الآثار (٢٣٥٥١ . ٢٣٥٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٥٥٤).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥١. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٢٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن المبارك وسعيد بن منصور وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن

وقوله : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ؛﴾ يعني قبض أرواحهم فتقول لهم : ﴿أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) ؛ أي لا تخافوا ما أنتم واقفون عليه ، ولا تحزنوا على الدّنيا وأهلها ، وتقول لهم عند خروجهم حين يرون أهوال القيامة : ﴿نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ؛﴾ تولّيناكم وحفظنا أعمالكم ، ونتولّاكم في الآخرة ونحفظكم.

وعن ثابت أنه قال : (بلغنا أنّ المؤمن إذا خرج من قبره يوم القيامة ، نظر إلى حافظين قائمين على رأسه يقولان له : لا تخف اليوم ولا تحزن وأبشر بالجنّة الّتي كنت توعد) [1].

وقال عثمان رضي الله عنه في معنى قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ : ثمّ أخلصوا العمل لله عزّ وجلّ ) [2]. وقال مجاهد وعكرمة : (معناه : ثمّ استقاموا على شهادة أن لا إله إلّا الله حتّى لحقوا بالله) [3].

وقال مقاتل : (استقاموا على المعرفة ، ولم يرتدّوا ، تتنزّل عليهم الملائكة) [4] في ثلاث مواطن : عند الموت ، وفي القبر ، وفي وقت البعث : أن لا تخافوا على صنيعكم ولا تحزنوا على مخلّفيكم [5].

وقال مجاهد : (أن لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة ، ولا تحزنوا على خلفتكم في الدّنيا من ولد وأهل ، فإنّه سيخلفكم في ذلك كلّه) [6]. وقال السديّ : (لا تخافوا من ذنوبكم فإنّي أغفرها لكم).

---

ـ المنذر) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٥٥٩).

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٢٣ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة) وذكره.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٥٥٧).

(٤) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٦٦.

(٥) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥١.

(٦) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥١.

وقال بعضهم : معنى هذه الآية : أنّ الّذين قالوا : ﴿رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ بالوفاء على ترك الخنى [1] تتنزّل عليهم الملائكة بالرّضى : أن لا تخافوا من الغنى ولا تحزنوا على الغنى وأبشروا بالبقاء مع الذي كنتم توعدون من اللقاء. وقيل : معناه : ألّا تخافوا فلا خوف على أهل الاستقامة ، ولا تحزنوا فإن لكم أنواع الكرامة وأبشروا بالجنة التي هي دار السّلامة ، لا تخافوا فعل دين الله إن استقمتم ، ولا تحزنوا ، فبحبل الله اعتصمتم ، وأبشروا بالجنة إن تبتم لا تخافوا ما دمتم ولا تحزنوا فقد نلتم ما طلبتم ، وأبشروا بالجنة التي فيها رغبتم ، ولا تحزنوا فأنتم أهل الإيمان ، ولا تحزنوا وأنتم أهل الغفران ، وأبشروا بالجنة التي هي دار الرّضوان ، لا تخافوا وأنتم أهل الشّهادة ، ولا تحزنوا فأنتم أهل السّعادة ، وأبشروا بالجنة التي هي دار الزّيادة ، لا تخافوا فأنتم أهل النّوال ، ولا تحزنوا فأنتم أهل الوصال ، وابشروا بالجنة التي هي دار الحلال ، لا تخافوا فقد أمنتم الثّبور ، ولا تحزنوا فإن لكم الحور ، وأبشروا بالجنة التي هي دار السرور ، ولا تخافوا فسعيكم مشكور ، ولا تحزنوا فذنبكم مغفور ، وابشروا بالجنة التي هي دار النور ، لا تخافوا فطالما كنتم خائفين ، ولا تحزنوا فقد كنتم عارفين ، وأبشروا بالجنة التي عجز عنها وصف الواصفين ، لا تخافوا فأنتم من أهل الإيمان ، ولا تحزنوا فأنتم من أهل الحرمان ، وأبشروا بالجنة التي هي دار الأمان. لا تخافوا فسلمتم من أهل الجحيم ، ولا تحزنوا فقد وصلتم إلى الرب الرحيم ، وأبشروا بالجنة التي هي دار النعيم ، لا تخافوا فقد زالت عنكم المخافة ، ولا تحزنوا فقد سلمتم من كلّ آفة ، وابشروا بالجنة التي هي دار الضيافة ، لا تخافوا العزل من الولاية ، ولا تحزنوا على ما قدّمتم من الجناية ، وأبشروا بالجنة التي هي دار الهداية ، لا تخافوا حلول العذاب ، ولا تحزنوا من هول الحساب ، وأبشروا بالجنة التي هي دار الثواب ، لا تخافوا فأنتم سالمون من العقاب ، ولا تحزنوا فأنتم واصلون إلى الثواب ، وأبشروا بالجنة فأنّها نعم المآب.

قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ؛﴾ أي تقول لهم الملائكة : نحن أولياؤكم ؛ أي نحن الحفظة الذي كنا معكم في الأولى ، ونحن أحبّاؤكم أولياؤكم

---

(١) الخنا : الفحش ، وقد (خنى) عليه من باب (صدى) و (أخنى) عليه في منطقه : أي أفحش. وأخنى عليه الدهر : أتى عليه وأهلكه. مختار الصحاح : ص ١٩٢.

في الآخرة ، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ، ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من الكرامات واللّذات ، يعني ولكم في الآخرة ما تشتهي أنفسكم ، ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (٣٢) ؛ أي أنزلهم الله نزلا ، ولا يجوز أن يكون قوله ﴿نُزُلاً﴾ جمع نازلة ، ويكون المعنى : ولكم ما تدّعون من غفور رحيم نازلين. ويجوز أن يراد به القوت الذي يقام للنازل والضّيف ، والمعنى : ثبت لهم ما يدّعون ﴿نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي كثير المغفرة ، رحيم بمن كان على الإيمان والتوبة.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ قال : [أمّتي ورب الكعبة][(١)] ، لأنّ اليهود قالوا ربّنا الله ثم لم يستقيموا إذ قالوا : عزير ابن الله! والنصارى قالوا : ربنا الله ، ثم لم يستقيموا إذ قالوا : المسيح ابن الله!

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً ؛﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (أنّ رسول الله ﷺ دعا إلى شهادة أن لا إله إلّا الله) ، وقال الحسن : (هو المؤمن أجاب الله دعوته ودعوة النّاس إلى ما أجاب الله فيه دعوته وعمل صالحا في إجابته) [(٢)]﴿وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) ؛ وقالت عائشة رضي الله عنها : (إنّ هذه الآية نزلت في المؤذّنين الّذين يدعون إلى الصّلاة ويصلّون بين الأذان والإقامة) [(٣)].

قوله تعالى : ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ؛﴾ ولا تستوي كلمة التّوحيد وكلمة الشّرك ، وقيل : هما الطاعة والمعصية ، ويقال : الخصلة الحميدة والخصلة السيّئة. وقيل : الحلم والجهل ، والعفو والإساءة.

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان : ج ٨ ص ٢٩٤ ؛ قال : (روى ثابت عن أنس) وذكره. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٥٨ ، ولم أقف عليه.

(٢) نقلهما البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥١. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٥٦٩).

(٣) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥١. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٢٥ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه).

ودخول ﴿لا﴾ في قوله : ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ زائدة للتأكيد وبعد المساواة [1] ؛ لأن المعنى : لا تستوي الحسنة والسيئة ، ومثله قول الشاعر :

ما كان يرضى رسول الله فعلهم والطّيّبان أبو بكر وعمر

وقوله تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ؛﴾ أي ادفع السّفاهة والعجلة بالأناة وبالرّفق ، وذلك أنه إن لقيت بعض من يضمر في نفسه عداوتك فتبدأه بالسّلام أو تبتسم في وجهه لأن ذلك يلين لك قلبه ، ويسلم لك صدره فذلك قوله تعالى : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) ؛ أي إذا فعلت ذلك صار الذي يعاديك صديقا قريبا لك. وتسمّي العرب القريب حميما ؛ لأنه يحمي لما يهم صاحبه.

قوله تعالى : ﴿وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ؛﴾ أي ما يلقى هذه الخصلة التي هي دفع السّيئة بالحسنة إلّا الذين صبروا على كظم الغيظ واحتمال المكروه وصبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ، ﴿وَما يُلَقَّاها﴾ ، أي وما يعطاها ، ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) ؛ من الخير. وقيل : من الصبر ، وقيل : الحظّ العظيم الجنّة ، أي ما يلقّاها إلّا من وجبت له الجنّة. وقيل : الحظّ العظيم القدر ، العظيم عند الله.

قوله تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ ؛﴾ أي وإمّا يلحقنّك من الشيطان وسوسة عند هفوة غيرك وعند ما يدعو بك إلى معصية الله فتصرفك الوسوسة عن الاحتمال ، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ؛﴾ أي اعتصم بالله من شرّ الشّيطان ، امض على حكمك ، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ؛﴾ لمقالة أعدائك ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ (٣٦) ؛ بهم وبمجاراتهم.

ثم ذكر الله علامات توحيده ودلائل قدرته ؛ فقال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ؛﴾ أي ومن آياته الدّالة على ربوبيّته ووحدانيّته الليل والنهار بما فيهما من المنافع والمقاصد ، والشمس والقمر بما فيهما من البدائع ، ﴿لا

---

(١) ينظر : معاني القرآن للأخفش : ج ٢ ص ٦٨٤.

﴿تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي لا تعبدوا الشمس والقمر ، واعبدوا الله الذي خلقهنّ ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧) ؛ أي إن كنتم تريدون بعبادة الشّمس والقمر عبادة الله.

وذلك أنّ قوما من الكفّار يسجدون لهما ويزعمون أنّهم يتقرّبون بذلك إلى الله تعالى ، فقيل لهم : إن كنتم تريدون بذلك عبادة الله تعالى ، فالسّجود لخالقهما أولى من السّجود لهما.

فإن قيل : ما معنى قوله ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ والقمر مذكّر والشمس مؤنّثة ، والمذكّر والمؤنث إذا اجتمعا غلب المذكّر؟ قلنا : إنّ قوله ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ راجع إلى الآيات التي سبق ذكرها في أوّل هذه الآية من الليل والنهار والشّمس والقمر ، ويكون ضمير ما لا يعقل على لفظ التأنيث كما يقال : هذه كباش ذبحن وذبحت.

قوله تعالى : ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي فإن تكبّروا عن عبادتي والسجود لي فالملائكة الذين عند ربك بقرب الكرامة والمنزلة يصلّون له بالليل والنهار ، وينزّهونه عن كلّ ما لا يليق به ، ﴿وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ (٣٨) ؛ أي لا يملون على عبادته ولا يفترون.

واختلفوا في موضع السّجود من هذه السّورة ؛ فقال الحسن : (عند قوله ﴿تَعْبُدُونَ﴾). وهو قول الشّافعي. وقال ابن عبّاس ومسروق : (هو عند قوله : ﴿لا يَسْأَمُونَ﴾ وهو قول علمائنا ، وهو الأصحّ لأنه موضع تمام الكلام [١].

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً﴾ من آياته الدّالة على وحدانيّته وقدرته أنّك ترى الأرض مغبرّة يابسة لا نبات فيها ، ﴿فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تحرّكت للنبات وانتفخت وارتفعت له حتى يكاد النبات يظهر ، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْياها﴾ بإنزال المطر ، ﴿لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ في الآخرة ، ﴿إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩) ؛ من الإحياء والإماتة.

---

(١) نقله القرطبي الخلاف بتفصيل أكثر في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٦٤.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي يميلون عن الحقّ في آياتنا إلى جانب الباطل ، قال مقاتل : (يميلون عن الإيمان بالقرآن [1]) [2] ، وقال مجاهد : (يلحدون بآياتنا بالمكاء واللّغط) [3] ، ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ، بأشخاصهم وأفعالهم وأقوالهم وعزائمهم. واللّحد واللّحاد بمعنى واحد وهو الميل ، ومنه الملحد لعدوله عن الحقّ ، ومنه اللّحد الذي في القبر لأنه في جانب منه.

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ هو تقدير نفي المساواة بين الفريقين. قيل : المراد قوله ﴿أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ﴾ أبو جهل وجدله ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ حمزة ، وقوله : ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠) ؛ لفظه لفظ الأمر ، ومعناه التهديد والوعيد.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي بالقرآن ، ﴿لَمَّا جاءَهُمْ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) ؛ محذوف الجواب ، تقديره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ سينزل بهم من العذاب ما هو مذكور في الكتاب العزيز. والعزيز : هو الكريم على الله. وقيل : هو الممتنع على من يريد معارضته وتغييره بزيادة ونقصان.

قوله تعالى : ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يجيء بعده كتاب فيبطله ، وقال الزجّاج : (معناه : أنّه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه) [4] ، فمعنى الباطل على هذا الزيادة والنقصان. وفي عين المعاني : (الباطل إبليس).

---

(١) في المخطوط : (بالكفران).

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٦٨.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٥٩١).

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ص ٢٩٤.

وقوله تعالى : ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) ؛ أي منزّل من عالم بوجوه الحكمة ، مستحقّ للحمد على خلقه بإنعامه عليهم.

قوله تعالى : ﴿ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ؛﴾ فيه تسلية للنبيّ ﷺ على ما كان يلحقه من أذيّة قومه ؛ أي قد قيل للأنبياء قبلك ساحر ، وكذّبوا كما كذّبت. ويجوز أن يكون معناه : ما أقول لك ولا آمرك بتبليغ الوحي والرسالة إلّا ما قد قيل للرّسل قبلك.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣) ؛ أي لذو مغفرة لمن تاب وآمن ، وذو عقاب أليم لمن ثاب [١] على الكفر.

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ؛﴾ أي لو جعلناه قرآنا بلغة غير لغة العرب لقال العرب : ولو بيّنت آياته بلغة العرب حتى نفهمها عندك بغير مترجم.

قوله تعالى : ﴿ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؛﴾ استفهام على وجه الاستبعاد ؛ كأنّهم قالوا : كتاب أعجميّ ورسول عربيّ ، كيف يكون هذا؟! فينكرونه أشدّ الإنكار. يقال : رجل أعجميّ إذا كان لا يفصح سواء كان من العرب أو العجم ، ورجل عجميّ إذا كان منسوبا إلى العجم وإن كان فصيحا ، ورجل أعرابيّ إذا كان من أهل البادية سواء كان من العرب أو لم يكن ، ورجل عربيّ إذا كان منسوبا إلى العرب وإن كان غير فصيح.

ومعنى الآية : أنّهم كانوا يقولون : إنّ المنزّل عليه عربيّ ، والمنزّل أعجميّ ، فكان ذلك أشدّ لتكذيبهم ، ﴿قُلْ ؛﴾ يا محمّد : ﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ؛﴾ يعني القرآن هدى للذين آمنوا من الضّلالة وشفاء من الأوجاع. وقال مقاتل : (شفاء لما في القلوب بالبيان الّذي فيه) [٢].

---

(١) ثاب : رجع ، وثاب الناس : اجتمعوا وجاءوا. والمثابة : الموضع الذي يثاب إليه مروى بعد أخرى ، ومنه سمي المنزل مثابة ، وأراد هنا الإصرار على الكفر.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٦٩.

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ؛﴾ أي إنّهم في ترك القبول بمنزلة الصّمّ العمي ، وسيؤدّيهم تكذيبهم إلى العمى ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ؛﴾ أي عموا عن القرآن وصمّوا عنه.

وقال السديّ : (عمت قلوبهم عنه) [1]. والمعنى : وهو عليهم ذو عمى. وانتصب قوله (عمى) على المصدر. وقوله تعالى : ﴿أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٤) ؛ أي إنّهم لا يسمعون ويفهمون كما أنّ من دعا من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم. والمعنى : أنّه بعيد عندهم من قلوبهم ما يتلى عليهم.

قوله تعالى : ﴿وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ ؛﴾ يعني التوراة ، ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ ؛﴾ قومه كما اختلف قومك في القرآن ، وهذا تسلية للنبيّ ﷺ [2] ؛ أي كما آتيناك الكتاب وكذب به قومك وصدّق به بعضهم كذلك آتينا موسى الكتاب فكذب به بعض قومه وصدّق به بعضهم.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ؛﴾ معناه : ولو لا كلمة سبقت من ربك في تأخير العذاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة كما قال تعالى ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[3] لعذبهم بعذاب الاستئصال. وقيل : أراد بسبق الكلمة : أن لا يعذّبهم وأنت فيهم.

والمعنى : ولو لا كلمة سبقت من ربك في تأخير العذاب عن مكذّبي القرآن إلى أجل مسمّى يعني القيامة ، لقضي بينهم بالعذاب الواقع بمن كذب ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ ، من صدقك وكتابك ، ﴿مُرِيبٍ﴾ (٤٥) ؛ أي موقع لهم الرّيبة ، وقيل : إنّهم لفي شكّ من القرآن ظاهر الشّكّ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٦١٣).

(٢) في المخطوط : (وهذا تعدية للنبي ﷺ) ، والمناسب ما أثبتناه ، والله أعلم.

(٣) القمر / ٤٦.

قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦) ؛ ظاهر المراد.

قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَةِ ؛﴾ أي لا يعلم متى وقت قيامها إلّا الله تعالى ، ولا يجاب فيها بشيء ، ويقال : الله أعلم.

قوله تعالى : ﴿وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها ؛﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿ثَمَراتٍ﴾ بالجمع ، وقرأ الباقون (ثمرة) على الوحدان. وقوله تعالى ﴿مِنْ أَكْمامِها﴾ الأكمام جمع الكمّة [(١)] ، وهي ليف النّخل ، وقال ابن عبّاس : (الأكمام الكفرّيّ قبل أن ينشقّ ، فإذا انشقّ فليس بأكمام) [(٢)] ﴿وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلّا بِعِلْمِهِ ؛﴾ بيّن الله أنّ الذي يعلم الثّمار في الأكمام ، والأولاد في الأرحام مع مشاهدة الأكمام ، والأمّهات هو الله تعالى لا يعلمه أحد غيره ، ومن لم يشاهد شيئا منها أولى.

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي ؛﴾ فيه وعيد للمشركين ؛ أي يقال للمشركين يوم القيامة : أين شركائي في ظنّكم وزعمكم؟! فيقولون : ﴿قالُوا آذَنّاكَ ما مِنّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧) ؛ أي أعلمناك وعرّفناك أنّا كنا في الدّنيا جهلاء غير عارفين ، ما منّا من شهيد أنّ لك شريكا ، يتبرّؤون يومئذ من أن يكون مع الله شريك. وقوله تعالى : ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ؛﴾ أي ضاع ، ﴿ما كانُوا يَدْعُونَ ؛﴾ يعبدون ، ﴿مِنْ قَبْلُ ؛﴾ في الدّنيا. قوله تعالى : ﴿وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٤٨) ؛ أي أيقنوا أنه لا خلاص لهم من النّار.

وقوله تعالى : ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ ؛﴾ أي لا يملّ الإنسان من الخير ، ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ؛﴾ والمكروه والأمراض والأسقام والشّدائد ،

---

(١) هو كلّ ظرف لماء أو لغيره ، والعرب تدعو القشرة الكفرّاة كمّا ، والكفرّاة والكفرّيّ : كافور الطّلع. والكافور : وعاء طلع النّخل ، أي قشره. أخرجه الطبري بإسناده عن السدي كما في جامع البيان : الأثر (٢٣٦٢١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٦٢١) عن السدي. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٥ ص ٣٧١ عن ابن عباس.

﴿فَيَـؤُسٌ قَنُـوطٌ﴾ (٤٩) ؛ أي يصير آيس شيء من عود النّعمة ، وزوال المكروه عنه ، فيضجر على ذلك غاية الضّجر.

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا ؛﴾ أي نعمة منّا ، ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ؛﴾ من بعد مكروه مسّه ، ﴿لَيَقُولَنَّ هـذا لِي ؛﴾ أي بفضلي وقوّتي وعمل استحققته ، وهذا من اختلاف الكفّار. قوله تعالى : ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً ؛﴾ هذا يدلّ على أنّ هذا الإنسان كافر.

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى ؛﴾ أي لست على يقين من البعث ، فإن كان الأمر على ذلك ورددت إلى ربي أنّ لي عنده الجنة ويعطيني في الآخرة أفضل ما أعطاني في الدّنيا. قال الله تعالى : ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٠) ؛ وعيد لهم.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ ؛﴾ أي اذا أنعمنا على الكافر أعرض عن الطاعة والشّكر وتباعد عن الواجب كبرا ، ﴿وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١) ، وإذا أصابه مكروه الدّهر فإذا هو يئس يدعو الله ليكشف ذلك عنه.

والمعنى بقوله تعالى ﴿دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير لا يملّ من الدّعاء. وإنّما لم يقل : طويل ؛ لأنّ ذكر العريض أبلغ في باب الامتداد والانبساط ، لأن العريض يدلّ على الطويل ، ولا يدلّ الطويل على العريض.

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؛﴾ أي قل يا محمّد لأهل مكّة : أرأيتم إن كان القرآن من عند الله ، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ؛﴾ عن الحقّ والهدى ، ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) ؛ خلاف للحقّ بعيد عنه ، وهو أنتم ، فلا أحد أضلّ منكم.

وقوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ؛﴾ أي سنريهم دلائل التوحيد من مسير النّجوم وجريان الشّمس والقمر طلوعا وغروبا على مرّ الدّهور ، وفي الأرض من الجبال والأودية والأشجار. قوله تعالى : ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من مخارج الأنفاس ومجاري الدّم وموضع العقل والفكر والفهم وآلات الكلام.

وقيل : معنى ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ﴾ أي سنريهم ما نفتح من القرى على محمّد ﷺ في النواحي والأطراف ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فتح مكّة [1]. قال الحسن : يعني (سنريهم ظهور محمّد على الآفاق وعلى مكّة حتّى يعرفوا أنّه مؤيّد من قبل الله تعالى بعد أن كان واحدا لا ناصر له) [2]. وذلك معنى قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ؛﴾ أي ما يقول لهم النبيّ ﷺ هو الحقّ.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٣) ؛ معناه : أو لم يكف بربك شاهدا أنّ القرآن من الله وأنّ النبيّ ﷺ صادق وشهيد هو العالم. قوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ ؛﴾ معناه : ألا إنّهم في شكّ من البعث والثواب والعقاب ، ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ (٥٤) ؛ أحاط بكلّ شيء علما ؛ إنّه يعلم الغيب والشّهادة.

**آخر تفسير سورة حم السجدة (فصلت) ، والحمد لله رب العالمين**

---

(١) قاله الطبري في جامع البيان : مج ١٣ ج ٢٥ ص ٧. ونقله عن السدي في الأثر (٢٣٦٣٢) ، عن المنهال في الأثر (٢٣٦٣١).

(٢) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٤ عن مجاهد والحسن والسدي والكلبي.

## سورة الشّورى

سورة الشّورى مكّيّة ، وهي ثلاثة آلاف وخمسمائة حرف وثمانون حرفا [١] ، وثمانمائة وستّ وستّون كلمة ، وثلاث وخمسون آية.

قال رسول الله ﷺ : [من قرأ سورة حم عسق كان ممّن تصلّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له][٢].

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) عسق﴾ (٢) ؛ (ح) حلمه و (م) مجده و (ع) علمه و (س) سناؤه و (ق) قدرته ، أقسم الله بها [٣] ، ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣) ؛ اخبارا بالغيب ويكون قبل أن يكون ، وقيل : الحاء من الرّحمن ، والميم من ملك ، والعين من عزيز والسين من قدّوس والقاف من قاهر ، ومعنى ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ مثل ما أوحينا إليك بهذه السّورة أوحينا إلى من قبلك من الرّسل. وعن ابن عبّاس رضي الله عنه أنه قال : (ليس من نبيّ إلّا وقد أوحي إليه ب حم عسق كما أوحي إلى نبيّنا محمّد ﷺ) [٤].

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب : ج ١٧ ص ١٦١ ؛ قال الحنبلي : (وثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفا.

(٢) أخرجه أهل التفسير ، وهو من مرويات الثعلبي وابن مردويه عن أبي في تفسيرهما. ينظر : الكشاف للزمخشري : ج ٤ ص ٢٢٨. واللباب لابن عادل الحنبلي : ج ١٧ ص ٢٢٥.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٩ ص ٢ ؛ قال القرطبي : (وروى نافع عن ابن عباس ...) وذكره. وفي معالم التنزيل : ص ١١٥٥ ذكره البغوي عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٥.

قوله تعالى : ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٤) ظاهر المعنى.

وقوله تعالى : ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ؛﴾ أي تكاد كلّ سماء تشقّق فوق التي تليها من قول المشركين : اتّخذ الله ولدا ، ومن استعظام كفر أهل الأرض مع عظم نعم الله تعالى عليهم.

قوله تعالى : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ؛﴾ أي ينزّهون الله عن القول الذي تكاد السّموات يتفطّرن منه ، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥) ؛ لأوليائه وأهل طاعته.

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ؛﴾ يعني كفار مكّة اتّخذوا آلهة فعبدوها من دون الله ، وقوله تعالى : ﴿اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ؛﴾ أي الله حفيظ على أعمالهم ليجازيهم بها ، ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦) ؛ أي لم يوكّلك حتى تؤخذ بهم وتعاقب بمخالفتهم.

قوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها ؛﴾ أي كما أنزلنا على من قبلك بلسان قومهم أنزلنا عليك قرآنا بلغة العرب لتخوّف به أمّ القرى وهي مكّة ، سمّيت أمّ القرى لأنّ الأرض دحيت من تحتها. وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ حَوْلَها﴾ أي لتنذر أهل أمّ القرى ومن حولها من البلدان ، وقيل : يعني قرى الأرض كلّها.

قوله تعالى : ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ؛﴾ وهو يوم القيامة ، يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين ، وأهل السموات وأهل الأرض ، ﴿لا رَيْبَ فِيهِ ؛﴾ أي لا شكّ في الجمع فيه أنه كائن ، ثم بعد الجمع يتفرّقون كما قال الله تعالى : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٧) ؛ أي طائفة من أهل الجمع وهم المؤمنون يساقون إلى الجنّة يتنعّمون ويتمتعون ، وطائفة يساقون إلى النار ذات الوقود وهم الكفّار فيها يعذبون.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً ؛﴾ أي لو شاء لجمعهم على دين الإسلام بأن يعرّفهم طريق الحقّ بالاضطرار ، ولكنّه لم يفعله ، أراد أن يعرضهم [1] للثواب والإلجاء يمنع من ذلك ، ومثل قوله تعالى ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ ؛﴾ أي في دين الإسلام ، ﴿وَالظّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٨) ، يمنعهم ؛ أي والكافرون ما لهم من وليّ يدفع عنهم العذاب ولا نصير يمنعهم من «النار» [3].

قوله تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ؛﴾ بل اتّخذ الكفار من دون الله أربابا ، ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ ؛﴾ قال ابن عبّاس : (وليّك يا محمّد ووليّ من اتّبعك) [4]﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى ؛﴾ يبعثهم للجزاء ، ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ ؛﴾ من الإحياء والإماتة ، ﴿قَدِيرٌ﴾ (٩).

قوله تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ؛﴾ معناه : وما اختلفتم فيه من شيء من الدّين فردّوا حكمه إلى كتاب الله ، واعتمدوا الأدلّة دون التقليد والشبه كما قال الله تعالى : ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[5].

وقوله تعالى : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي ؛﴾ الذي ادعوكم إلى عبادته وهو الله ربي ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ؛﴾ في كفاية مهمّاتي ، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠) ؛ أي أرجع في المعاد.

قوله تعالى : ﴿فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي هو مبتدعهما ومدبرهما ، ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً ؛﴾ أي خلق لكم من مثل خلقكم

---

(١) في المخطوط : لعله (يعوضهم).

(٢) الانعام / ٣٥.

(٣) (النار) سقطت من المخطوط.

(٤) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٦.

(٥) النساء / ٥٩.

نساء ، وخلق لكم ، ﴿وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً ؛﴾ ذكورا وإناثا لتكمل منافعكم بها ، يعني خلق الذكر والأنثى من الحيوان كلّه. قوله تعالى : ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ؛﴾ أي يخلقكم في الرّحم ويكثركم بالتزويج ، ولولاه لم يكن الناس.

وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ؛﴾ في العلم والقدرة والتدبير ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ ؛﴾ بمقالة العباد ، ﴿الْبَصِيرُ﴾ (١١) ؛ بأعمالهم ، والكاف في ﴿كَمِثْلِهِ﴾ زائدة مؤكّدة ، والمعنى : ليس مثله شيء ، إذ لا يجوز أن يقال : ليس مثل مثله شيء ؛ لأن من قال ذلك فقد أثبت المثل لله سبحانه وتعالى عن ذلك علوّا كبيرا.

قوله تعالى : ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي له مفاتيحها ، قال ابن عبّاس : (يريد مفاتيح الرّزق في السّموات والأرض) (١). وقال الكلبيّ : (مقاليد السّموات خزائن المطر ، وخزائن الأرض النّبات) (٢). والمعنى أنه يقدر على فتحها ، يملك فتح السّماء بالمطر ، وفتح الأرض بالنبات ، يدلّ على هذا قوله تعالى : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؛﴾ أي يوسّعه على من يشاء ، ويضيّقه على من يشاء ؛ لأن مفاتيح الرزق بيده ، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٢) ؛ من البسط والضّيق ما لا يفعل ذلك جزافا ، ولكن يرزق كلّ أحد على ما توجبه الحكمة.

قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ؛﴾ أي بيّن وأوضح من الدين ، ﴿ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ؛﴾ يعني التوحيد ، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ؛﴾ من القرآن وشرائع الإسلام ، ﴿وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى ؛﴾ وشرع لكم ما وصّى به إبراهيم وموسى وعيسى.

ثم بيّن ما وصّى به هؤلاء فقال : ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ؛﴾ يعني التوحيد ، ﴿وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ؛﴾ أي لا تختلفوا في التوحيد ، قال مجاهد : (يعني شرع لكم ولمن قبلكم من الأنبياء دينا واحدا (٣) ؛ لأنّ الله تعالى لم يبعث نبيّا إلّا وصّاه بإقامة الصّلاة

---

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٦.

(٢) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٦.

(٣) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٣٩ ؛ قال السيوطي : (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٦٥٧).

وإيتاء الزّكاة ، والإقرار بالله تعالى والطّاعة في كلّ شيء أمره الله به ، فذلك دينه الّذي شرعه لهم) [1].

قوله تعالى : ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ؛﴾ قال مقاتل : (معناه : عظم على مشركي مكّة ما دعاهم النّبيّ ﷺ من توحيد الله تعالى والإخلاص له وحده وخلع الأنداد) [2].

قوله تعالى : ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ ؛﴾ أي يصطفي من عباده لدينه من يشاء ، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ ؛﴾ إلى دينه ؛ ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) ؛ أي من يقبل إلى طاعته. وقيل : معناه : الله يختار لرسالته من يشاء ممّن تقتضي الحكمة اختياره ، ويهدي إلى جنّته وثوابه من يرجع إلى طاعته.

قوله تعالى : ﴿وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ؛﴾ أي ما اختلف اليهود والنّصارى إلّا من بعد ما وضح لهم أمر النبيّ ﷺ ، وذلك أنّهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأنكر من أنكر من علمائهم للبغي والعداوة على طلب الدّنيا ، خافوا أن تذهب عنهم رئاستهم ومكانتهم [3] ، وأن يصيروا تابعين بعد أن كانوا متبوعين ، فتركوا اسم الإسلام ، وقوله تعالى ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ أي بغيا منهم على محمّد ﷺ.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ؛﴾ أي لو لا حكم الله بإنظارهم وتأخير العذاب عن هذه الأمة ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين من آمن ومن كفر بنزول العذاب بالمكذّبين في الدّنيا. وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ؛﴾ يعني اليهود والنصارى أورثوا التوراة من بعد أنبيائهم وأسلاف أحبارهم [4] ، ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١٤) ؛ من دين الإسلام ظاهر الشكّ.

---

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٦.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٧٤.

(٣) في المخطوط : (دياستهم ومأكلتهم.

(٤) في المخطوط : (أخبارهم.

قوله تعالى : ﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ ؛﴾ أي فلذلك الذي سبق ذكره ، يعني الذي وصّى به الأنبياء من التوحيد فادع. وقيل : معناه : فلأجل ما وقع منهم من الشكّ فادع واستقم على دين الإسلام كما أمرت ، ولا تتّبع أهواء أهل الكتاب ، وذلك أنّهم دعوا إلى دينهم ، ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ ؛﴾ أي آمنت بكتب الله كلّها. وإنما قال ذلك لأنّ الذين تفرّقوا آمنوا ببعض الكتب دون بعض. وقوله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ؛﴾ أي أمرت أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم في الأحكام.

وقوله تعالى : ﴿اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ ؛﴾ أي إلهنا وإلهكم وإن اختلفت أعمالنا ، وكلّ يجازى بما عمل. قوله تعالى : ﴿لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ ؛﴾ لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم ، لا يؤاخذ أحد بعمل غيره ، قوله تعالى : ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ ؛﴾ أي قد ظهر الحقّ وسقط الباطل ، ومع ذلك الحجّة لنا عليكم لظهورها ، وقوله تعالى : ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا ؛﴾ وبينكم في الآخرة فيجازي كلّا بعمله ، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٥).

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ ؛﴾ أي والذين يخاصمون في دين الله من بعد ظهور دلائله ، وهم اليهود والنصارى قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبيّنا قبل نبيّكم ، فنحن خير منكم! فهذه خصومتهم وإنما قصدوا بما قالوا دفع ما أتى به محمّد ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي من بعد ما دخل الناس في الإسلام وأجابوا النبيّ ﷺ إلى ما دعاهم إليه ، ﴿حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؛﴾ أي خصومتهم باطلة حين زعموا أن دينهم أفضل من الإسلام ، وقوله ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في حكم ربهم ، وإنما قال ذلك لأنّها لم «تكن» [1] باطلة في زعمهم ، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ؛﴾ من الله ، ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦) في الآخرة.

---

(١) «تكن» ساقطة من المخطوط.

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ ؛﴾ معناه : الله الذي أنزل القرآن بالحقّ ؛ أي بما ضمّنه من الأمر والنهي والفرائض والأحكام ، وكلّه حقّ من الله تعالى.

وقوله تعالى ﴿وَالْمِيزانَ﴾ اختلفوا في إنزال الميزان ، قال الحسن ومجاهد والضحّاك : (أراد به العدل) [1] وإنما كنّى عن العدل بالميزان لأنّ الميزان طريق معه العدل والمساواة.

وقال بعضهم : أنزل الميزان الذي يوزن به في زمن نوح عليه السلام. وقال ابن عبّاس : (أمر الله بالوفاء ، ونهى عن البخس) [2].

قوله تعالى : ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) ؛ هذا تخويف للمشركين من قرب الساعة لينزجروا ، وقد كان قوم من المشركين سألوا النبيّ ﷺ عن الساعة تكذيبا بها ، فأنزل الله هذه الآية ، وإنّما قال ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل قريبة ؛ لأن تأنيث الساعة غير حقيقيّ كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[3] ولأن معنى الساعة البعث.

قوله تعالى : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها ؛﴾ والذين يستعجلون بها قصد الإتيان بها استبعادا لقيامها لأنّهم لا يؤمنون بها ، وهذه طريقة الجهلاء في كلّ شيء يجحدونه من حقائق الأمور.

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ؛﴾ أي خائفون منها لا يدرون على ما يقدمون عليه لأنّهم موقنون أنّهم مبعوثون محاسبون ، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ؛﴾ أي الساعة لا ريب فيها.

قوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ ؛﴾ تدخلهم المرية والشكّ في القيامة ، ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (١٨) ؛ حين لم يفكّروا فيعلموا أن الذي خلقهم أوّلا قادر على بعثهم.

---

(١) أخرجه الطبري عن مجاهد وقتادة في جامع البيان : الأثر (٢٣٦٧٧ و٢٣٦٧٨).

(٢) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٦.

(٣) الأعراف / ٥٦.

قوله تعالى : ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ﴾ أي بارّ رحيم بهم ، يعني أهل طاعة ، وقال مقاتل : (لطيف بالبرّ والفاجر ، لا يهلكهم جوعا) (١) ، يدلّ على هذا قوله تعالى : ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ﴾ وكلّ من رزقه الله من مؤمن وكافر ذي روح ممن يشاء أن يرزقه ، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ على ما أراد من رزق من يرزقه ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ (١٩) يعني الغالب الذي لا يلحقه عجز فيما أراد. واللطيف هو الموصل للنفع إلى غيره من جهة يدقّ استدراكها.

قوله تعالى : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي من كان يريد بعمله نفع الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي نعينه على العبادة ، ونسهّل له ، وقيل : نزد له في ثوابه الحسنة بعشر أمثالها. وقيل : نزد له في قوّته ونشاطه وخشيته في العمل ، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا﴾ أي ومن كان يريد بعمله نفع الدّنيا من رزق أو محمدة ، ﴿نُؤْتِهِ مِنْها﴾ ما نشاء على ما تقتضيه الحكمة ، ﴿وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠) ؛ من ثواب ؛ لأنه عمل لغير الله (٣) ، قال السديّ : (هذا المنافق ، وكان رسول الله ﷺ يعطيه سهمه من الغنيمة).

قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ يعني كفار مكّة ألهم آلهة سنّوا من الدين والشريعة ما لم يعلم الله به؟ قال ابن عبّاس : (شرعوا لهم دينا غير دين الإسلام) (٤)﴿وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لو لا حكم الله بأن يفصل بينهم يوم القيامة لعاجلهم بالعقوبة ، ﴿وَإِنَ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٧٦.

(٢) العنكبوت / ٦٩.

(٣) عن أبي العالية عن أبي بن كعب ، أن رسول الله ﷺ قال : [بشر هذه الأمة بالنصر والسناء والتمكين ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة نصيب]. أخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ٥ ص ١٣٤. وابن حبان في الإحسان : الحديث (٤٠٥) بإسناد حسن.

(٤) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٨.

الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١) ؛ أي وجيع في الآخرة ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ ، الذين يكذبونك خائفين يوم القيامة ، ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ؛﴾ من الكفر والتكذيب ، ﴿وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ ؛﴾ أي وجزاؤه واقع بهم.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ ؛﴾ الرّوضة : هي البستان الجامع لأنواع الرّياحين ، والجنّة هي البستان الجامع لأنواع الشّجر ، ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؛﴾ من النعيم في حكمة ربهم ، ﴿ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢) ؛ أي المنّ العظيم من الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ؛﴾ أي ذلك الذي سبق ذكره من النعيم يبشّر الله عباده المؤمنين المخلصين.

قوله تعالى : ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ؛﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة ؛ أي تعليم الشريعة أجرا ، وهذا دأب كلّ نبيّ مع قومه ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ؛﴾ أي لا أسألكم عليه أجرا إلّا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. قال ابن عبّاس : (لم يكن بطن من بطون قريش إلّا ولرسول الله ﷺ قرابة فيهم) [١].

والمعنى : قل لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من الحقّ إلّا أن تحفظوني في قرابتي بيني وبينكم. وقال مجاهد : (معناه : يا معشر قريش لا أسألكم على ما أقول أجرا ، أرقبوني في الدّعاء بيني وبينكم ، ولا تعجلوا إليّ ودعوني والنّاس). وقال الحسن : (معناه : إلّا أن تؤدّوا إلى الله فيما يقرّبكم إليه من العمل الصّالح) [٢].

وعن ابن عبّاس قال : (لما نزلت ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الّذين يأمرنا الله بمودّتهم؟ قال : [عليّ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٣٦٨٤ و٢٣٦٨٥). والطبراني في المعجم الأوسط : الحديث (٩٦٠٠) بمعناه ، و (٧٢٦٠).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٥٨.

وفاطمة وولدهما]) [1].

وعن عليّ رضي الله عنه قال : (قال فينا ، في آل محمّد ، في حم آية لا يحفظ مودّتنا إلّا كلّ مؤمن ، ثمّ قرأ : ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى)﴾ ، وقال الكلبيّ : (معناه : لا أسألكم على الإيمان جعلا إلّا أن توادّوا أقاربي ، حثّ الله النّاس على مودّة ذوي قرابته).

وعلى الأقوال كلّها قوله ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ استثناء ليس من الأوّل ، وليس المعنى : أسألكم المودّة في القربى ؛ لأن الأنبياء لا يسألون أجرا على تبليغ الرسالة ، والمعنى ولكنّي أذكّركم المودة في قرابتي.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً ؛﴾ أي ومن يكتسب حسنة نجازيه عليها أضعافا ، بالواحدة عشرا فصاعدا ، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ؛﴾ لذنوب الناس ، ﴿شَكُورٌ﴾ (٢٣) ؛ للقليل حتى يضاعفه.

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً ؛﴾ يعني كفّار مكّة قالوا : اختلق محمّد كذبا حين زعم أن القرآن من عند الله ، فاغتممت لذلك يا محمّد ، ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ ؛﴾ أي يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشقّ عليك قولهم ، ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ﴾ ، ويذهب الله ما يقولون من الباطل ، ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ ؛﴾ يعني الإسلام ، ﴿بِكَلِماتِهِ ؛﴾ أي بما أنزل من كتابه ، وقد فعل الله ذلك فأزهق باطلهم وأعلى كلمة الإسلام ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٤) ؛ أي بما «في» [2] قلوب خلقه.

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥) ؛ من خير وشرّ ، من قرأ بالتاء فهو خطاب للمشركين وتهديد

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٤٨ ؛ قال السيوطي : (وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ...) وذكره. وفي التفسير الكبير : ج ١٠ ص ٣٢٧٦ : النص (١٨٤٧٣) ؛ قال ابن أبي حاتم : (بسند ضعيف ...) وذكره. وفي مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١٦٨ ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني وفيه جماعة ضعفاء ، وقد وثقوا.

(٢) «في» سقطت من المخطوط.

لهم ، ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ؛﴾ أي يجيبهم ما سألوه. قال ابن عبّاس : (يثيبهم) ، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؛﴾ سوى ثواب أعمالهم تفضّلا عليهم ، وقال أبو صالح : (يشفّعهم في إخوانهم) [1] ، ﴿وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ (٢٦).

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ؛﴾ أي لو وسّع على عباده لطغوا وتطاولوا ، وقال مقاتل : (معناه : لو وسّع الله لعباده فرزقهم من غير كسب لعصوا وبطروا النّعمة وطلبوا ما ليس لهم أن يطلبوه) [2] ؛ لأنّ الّذي يوسّع عليه يرتفع من منزلة إلى منزلة ، ومن مركب إلى مركب ، ومن ملبس إلى ملبس ، ويستطيل بذلك على النّاس ، ويستعين برزق الله على المعصية.

وقوله تعالى : ﴿وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ؛﴾ معناه : ولكن يوسّع على قوم ، ويضيّق على آخرين على ما تقتضيه الحكمة ، ﴿إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧) أي أعلم بهم من أنفسهم ، منهم من يصلح له الفقر ولو أغناه لكان شرّا له ، ومنهم من يصلح له الغنى ، ولو أفقره لكان شرّا له.

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ؛﴾ أي ينزّل المطر من بعد ما يئسوا منه ، ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ؛﴾ بإخراج النبات والثّمار ، وقيل : معنى ﴿يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي يبسط مطره ، ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ ؛﴾ لمن أطاعه ، وقيل : وهو الوليّ بإنزال المطر عاما بعد عام ، ﴿الْحَمِيدُ﴾ (٢٨) ؛ المستحقّ للحمد على خلقه بإنعامه عليهم.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ ؛﴾ معناه : ومن دلائل توحيده خلق السّموات والأرض بما فيهما من الشّمس والقمر والنّجوم والجبال والبحار والأشجار ﴿وَما بَثَّ فِيهِما﴾ أي وما فرّق فيهما من الملائكة والناس وغيرهم ، وقيل : معناه : وما بثّ في الأرض من دابّة ، وهذا كقوله

---

(١) نقله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٦٠.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٧٨.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾[1] وإنما يخرج من أحدهما ، ﴿وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ ؛﴾ في الآخرة ، ﴿إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

قوله تعالى : ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ؛﴾ يعني وما أصابكم من المعاصي في النّفس والمال والولد أو نكبة حجر أو عثرة قدم ، ﴿فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، يعني المعاصي ، ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) ؛ فلا يعاقب بها لطفا بهم.

قال ﷺ : [ما من خدشة عود أو عثرة قدم أو اختلاج عرق إلّا بذنب ، وما يعفو الله تعالى أكثر][2]. وقال الحسن : (معنى الآية : وما أصابكم من حدّ في سرقة أو زنى فبما كسبت أيديكم) [3]. وقال الضّحّاك : (ما حفظ رجل القرآن ثمّ نسيه إلّا بذنب) وقرأ هذه الآية وقال : إنّ أعظم الذّنوب نسيان القرآن) [4].

وفي مصاحف المدينة والشّام (بما كسبت أيديكم). قال الزجّاج : (وإثبات الفاء أجود لأنّ الفاء جواب الشّرط) [5]. ومن حذفها فعلى أنّ (ما) بمعنى (الّذي) تقديره : والّذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم) ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ؛﴾ يا معشر المشركين لا تعجزوني في السّموات حيث كنتم ، ولا تسبقونني هربا في الأرض ولا في السّماء لو كنتم فيهما ، ﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٣١).

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾ (٣٢) ؛ أي ومن آياته الدّالة على توحيده وقدرته الجواري في البحر ، وهي السّفن جمع جارية تجري في

---

(١) الرحمن / ٢٢.

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٥٤ ؛ قال السيوطي : (أخرجه سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن البصري) وذكره. وبلفظ آخر قال : (أخرجه أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن علي بن أبي طالب).

(٣) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان : الأثر (٢٣٧٢٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير الكبير : الأثر (١٨٤٨٤).

(٥) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣٠٣.

البحر ، ﴿كَالْأَعْلامِ﴾ اي كالجبال الطّوال ، ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ؛﴾ معناه : إن شاء الله يسكن الرّيح التي تجري بها السّفن فيبقين واقفات على ظهر الماء ، ويبقى أهلها حيارى لا يجدون حيلة في الخلاص ؛ لأن ماء البحر راكد لا تجري السفينة فيه إلّا بريح تجريه ، فذلك معنى قوله تعالى : ﴿فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ ؛﴾ يعني السّفن رواكد ؛ أي ثوابت على ظهر البحر لا تجري ولا تبرح ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ ؛﴾ أي لدلالات على توحيد الله تعالى ، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ ؛﴾ على طاعته ، ﴿شَكُورٍ﴾ (٣٣) ؛ على نعمه. وقيل : لكلّ صبّار في الشدّة ، شكور في الرّخاء.

قوله تعالى : ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا ؛﴾ أي يهلكهنّ بالريح العاصف ، ويغرقهنّ ، يعني : أهلهنّ ﴿بِما كَسَبُوا﴾ أي بما أشركوا واقترفوا من الذنب ، ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤) ؛ من ذنوبهم فينجّيهم من الغرق والهلاك. والمعنى : ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ وإن يشأ يعف عن كثير فتجري السّفن على ما يشاؤون.

قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٣٥) ؛ يعني أن الكفار الذين يكذّبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله بعد البعث علموا أن لا مهرب لهم من عذاب الله تعالى.

فمن قرأ (ويعلم) بالرفع فعلى الابتداء من غير أن يكون معطوفا على ﴿وَيَعْفُ﴾ لأنّ علم الله تعالى مقطوع به لا يجوز تعليقه بمشيئة ، ومن قرأ بالنصب فهو نصب على إضمار (أن) معناه : ولئن يعلم الذين ينازعون في آياتنا بالتكذيب أنه لا مخلص لهم في الآخرة من عذابه ، كما لا مخلص لأهل السّفينة من البحر إلّا بالله.

قوله تعالى : ﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ؛﴾ أي ما أعطيتم من شيء مما في أيديكم فهو متاع يتمتّع به إلى حين ، ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى ؛﴾ من الثواب أفضل وأدوم مما في أيديكم ، ثم بيّن الله لمن الثواب فقال : ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦).

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) ؛ قد تقدّم الكلام في الكبائر والفواحش في سورة النّساء ، قال

مقاتل : (الفواحش ما يقام فيها الحدّ في الدّنيا) [1]. وقيل : الفواحش الزّنى وأنواعه ، وكبائر الإثم الشّرك ، كذا قال ابن عبّاس. وقرأ حمزة (كبير الإثم) على الوحدان وهو يريد الجمع [2].

وقوله تعالى ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يكظمون الغيظ ويعفون عمّن ظلمهم ، ويطلبون بذلك ثواب الله وعفوه. وهذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه حين أقبل رجل من المشركين يشتمه ويقع فيه ولم يردّ عليه أبو بكر رضي الله عنه.

قوله : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ ؛﴾ أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة ، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣٨) أي فعالا من المشورة ، وهي الأمر الذي يتشاور فيه ، يقال : صار هذا الأمر شورى بين القوم إذا تشاوروا فيه.

والمعنى أنّهم يتشاورون فيما يبدو لهم ، ولا يعجلون في الأمر. وقال الحسن : (والله ما تشاور قوم إلّا هداهم الله تعالى لأفضل ما بحضرتهم) [3]. والمعنى : أنّهم إذا حدث بهم أمر لا نصّ فيه من كتاب ولا سنة ولا إجماع ؛ شاور بعضهم بعضا لإظهار الحقّ.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩) ، معناه : الذين إذا أصابهم البغي والظّلم والعدوان هم ينتصرون ممّن ظلمهم ، قال عطاء : (يعني المؤمنين الّذين أخرجهم الكفّار من مكّة وبغوا عليهم ، ثمّ مكّنهم الله تعالى في الأرض حتّى انتصروا ممّن ظلمهم) [4].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٨٠.

(٢) ينظر : جامع البيان : مج ١٣ ج ٢٥ ص ٤٧ : النص (٢٣٧٣٧) عن السدي ، وتعليق الطبري ومتابعته عليه.

(٣) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٥٧ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد والبخاري في الأدب وابن المنذر عن الحسن).

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٦٢.

قال ابن زيد : (جعل الله المؤمنين صنفين : صنف يعفون عمّن ظلمهم ، فبدأ بذكرهم فقال : ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وصنف ينتصرون ممّن ظلمهم ، وهم الّذين ذكروا في هذه الآية ، ومن انتصر فأخذ حقّه ولم يجاوز في ذلك ما حدّ الله فهو مطيع لله ، ومن أطاع الله فهو محمود).

ثم اعلم : أن أوّل هذه الآية يقتضي أنّ الاقتصار بأخذ الواجب من القصاص أو نحوه أفضل ؛ لأن الله تعالى عطف هذه الآية على الآية التي ذكر فيها الاستجابة لله تعالى وإقام الصّلاة.

وتكلّموا في معنى ذلك ، قال بعضهم : أراد به الانتصار ممّن فارقهم في دينهم ، فأما من المسلمين فالانتصار مباح ، كما قال ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1] والعفو أفضل ، كما قال تعالى ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[3].

وقال بعضهم : إذا كان العفو يؤدّي إلى الإخلال بشيء من حقوق الله مثل العفو عن الفاسق الذي لا يرتدع ، والعفو عن الباغي الذي لا يكون مصرّا على قصده ، فالانتصار أولى من العفو ، وإذا كان العفو لا يؤدّي الى إسقاط شيء من حقوق الله تعالى فالعفو أفضل كما قال تعالى في آية القصاص ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾[4]. وفي بعض التّفاسير : إنما جعل الانتصار في أوّل هذه الآيات أفضل لأنّهم كانوا يكرهون أن يذلّلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفسّاق.

قوله تعالى : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ؛﴾ فيه بيان أنه لا تجوز الزيادة على السّيئة الأولى ، وإنما سميت الثانية سيئة لأنّها في مقابلة الأولى ، والأولى سيّئة لفظا ومعنى ، والثانية سيئة لفظا لا معنى ، وسميت بهذا الاسم لأن مجازاة السّوء لا تكون إلّا بمثله ، قال مقاتل : (معنى هذه الآية في القصاص في الجراحات والدّماء) [5].

---

(١) الشورى / ٤١.

(٢) البقرة / ٢٣٧.

(٣) الشورى / ٤٠.

(٤) المائدة / ٤٥.

(٥) بمعناه قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٨٠.

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ؛﴾ أي من عفى عمّن ظلمه وأصلح بالعفو بينه وبين ظالمه فأجره على الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) ؛ يعني من يبدأ بالظّلم. وفيه بيان أنّ الله تعالى إنما ندب المظلوم إلى العفو لا لميله إلى الظالم أو لحبه إياه ، ولكن ليعرّض المظلوم لجزيل الثّواب بالعفو.

قوله تعالى : ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ؛﴾ أي بعد ظلم الظالم إيّاه ، فالمصدر هاهنا مضاف إلى المفعول ، كقوله : ﴿مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ﴾[(١)] و ﴿بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ﴾[(٢)] ، ﴿فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ؛﴾ يعني الذين يبدأون بالظّلم ، ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ؛﴾ أي يعملون بالمعاصي ، ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢).

قوله تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ؛﴾ يعني من صبر ولم ينتصر وغفر ، ﴿إِنَّ ذلِكَ ؛﴾ الصبر والتّجاوز ، ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) ؛ قال مقاتل : (من الأمور الّتي أمر الله بها) [(٣)] ، والمراد بذلك إذا كان الجاني نادما مقلعا. والعزم على الشيء هو أن يعقد قلبه على أنّه سيفعله ، وكلّما كانت رغبة الصابر في الثواب أكثر كان عزمه على التجاوز أتمّ لتيقّنه بالخلف والثواب.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ ؛﴾ أي من يخذله الله بعناده وجحوده ، ويضلّه عن الهدى ، ﴿فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ؛﴾ أي ما له من أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إيّاه. وقيل : معناه : من يهلكه الله ويضيّعه فما له من وليّ يلي أمره ويدفع عنه العذاب.

قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ ؛﴾ أي ترى المشركين يا محمّد ، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ؛﴾ في الآخرة يسألون الرجعة إلى الدّنيا ، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٤).

---

(١) فصلت / ٤٩.

(٢) ص / ٢٥.

(٣) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٨١.

قوله تعالى : ﴿وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها ؛﴾ أي على النار قبل أن يدخلوها ، ﴿خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ؛﴾ أي أذلّاء من الهوان ، وقيل : ساكنين متواضعين ، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ؛﴾ أي ينظرون إلى النار سارقة [1] الأعين نظر الخائف ؛ أي من يخافه فزعا منه. وقيل : معنى ﴿خاشِعِينَ﴾ مطرقين من الخجل والوجل ، والطّرف هو العين.

وعن ابن عبّاس أنه قال : (ينظرون بقلوبهم نظر الأعمى ، إذا سمع حسّا وقف مستمعا خائفا منه لأنّ الله تعالى قال : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا﴾[2]).

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ؛﴾ أي عرف المؤمنون خسران الكفّار في ذلك اليوم فقالوا : ﴿إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن صاروا إلى النّار ، وأهليهم في الجنّة بأن صاروا لغيرهم. وقوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ﴾ (٤٥) ؛ أي دائم لا ينقطع ، ﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٦).

قوله : ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ ؛﴾ أي أجيبوا داعي ربكم ، يعني محمّدا ﷺ ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ؛﴾ لا يقدر أحد على دفعه وهو يوم القيامة ، ﴿ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ؛﴾ تلجأون إليه ، ﴿وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) ؛ ينكر العذاب ويدفعه عنكم ، وقيل : معناه : لا تقدرون أن تنكروا ما توقفون عليه من ذنوبكم وما ينزل بكم.

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ؛﴾ فإن أعرضوا عن إجابتك يا محمّد فما أرسلناك عليهم حفيظا تحفظ أعمالهم وأقوالهم ، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ؛﴾ عن الله.

---

(١) في المخطوط : (صادقة).

(٢) الاسراء / ٩٧.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ؛﴾ أي غنى وصحّة ، ﴿فَرِحَ بِها ؛﴾ يعني الكافر ، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ؛﴾ أي قحط ، ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ؛﴾ من الكفر ، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨) ؛ لما تقدّم من نعم الله عليه ويجحد.

قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ أي له التصرّف فيهما بما يريد [١] ، ﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً ؛﴾ مثل ما وهب للوط عليه‌السلام ، ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾ (٤٩) ؛ مثل ما وهب لإبراهيم عليه‌السلام لم يكن له ولد أنثى ، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً ؛﴾ أي يجمع لمن يشاء البنين والبنات ، كما وهب لنبيّنا محمّد صلى‌الله‌عليه‌وسلم فإنه كان له ثلاثة بنين وأربع بنات ، ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً ؛﴾ لا يولد له مثل يحيى وعيسى عليه‌السلام ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ ؛﴾ بعواقب الأمور وأواخرها وأوائلها ، وفواتحها وخواتمها ، وظواهرها وبواطنها ، ﴿قَدِيرٌ﴾ (٥٠) ؛ على كلّ شيء ، لا يلحقه عجز ولا يعتريه منع.

قوله تعالى : ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ ؛﴾ أي ما كان لآدميّ أن يكلّمه الله مواجهة بغير حجاب ، إلّا أن يوحي أن يقذف في قلبه ويلهم إما في المنام أو بالإلهام [٢] ، كما أخبر الله في قصّة إبراهيم عليه‌السلام في قوله ﴿إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[٣].

وقوله تعالى : ﴿أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ كما كلّم موسى عليه‌السلام ، كان يسمع كلامه من حيث لا يراه ، أو يرسل من الملائكة جبريل أو غيره فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء الله.

قال الزجّاج : (المعنى : أنّ كلام الله للبشر إمّا أن يكون بإلهام أو يكلّمهم من وراء حجاب كما كلّم موسى ، أو برسالة ملك إليهم) [٤]. فمن قرأ ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ بنصب

---

(١) قاله البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٦٣.

(٢) في المخطوط : (يقذف في قلبه ويلهم إما في المنام أو في الآخرة) والعبارة غير مستقيمة.

(٣) الصافات / ١٠٢.

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣٠٦.

اللام فمعناه: أو أن يرسل رسولا من الملائكة، كما أرسل جبريل عليه السلام، وتقديره: وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحيا أن يوحي إليه أو يكلّمه من وراء حجاب أو يرسل رسولا. ومن قرأ بالرفع أراد: وهو يرسل فهو ابتداء واستئناف، والوقف كاف على ما قبله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٥١)؛ أي هو أعلى من أن يدركه الخلق بالأبصار الفانية بلا حجاب، الحكيم فيما يأمر وينهى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾؛ أي كما أوحينا إلى الرّسل من قبلك أوحينا إليك جبريل بالقرآن الذي «فيه» [١] حياة القلوب من الجهل. ومن هذا سمّي القرآن روحا؛ لأنه سبب حياة الدّين، كما أنّ الروح سبب حياة الجسد. وقال مقاتل: (معنى قوله ﴿رُوحاً﴾ يعني الوحي) [٢] وهو القرآن؛ لأنّه يهتدى به، ففيه حياة من موت الكفر. وقوله ﴿مِنْ أَمْرِنا﴾، وقيل: إنّ الروح هاهنا جبريل.

وقوله: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾؛ أي ما كنت تدري قبل الوحي ما الكتاب ولا ما الإيمان؛ قيل: لأنه كان لا يعرف القرآن قبل الوحي، ولا كان يعرف بشرائع الإيمان ومعالمه، وهي كلّها إيمان، وهذا اختيار الإمام محمّد بن جرير، واحتجّ بقوله ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ﴾[٣] يعني الصّلاة سمّاها إيمانا. وقيل: معناه: ما كنت تدري ما الإيمان قبل البلوغ، يعني حين كان طفلا في المهد. وقال الحسين بن الفضل: (هذا من باب حذف المضاف؛ معناه: «أي ما كنت تدري ما الكتاب» [٤] ولا أهل الإيمان «أي» [٥] من الّذي يؤمن ومن الّذي لا يؤمن)، وفي الجملة لم يكن النّبيّ ﷺ على الكفر قطّ، وإنّه كان على فطرة الإسلام حين ولد،

---

(١) (فيه) سقطت من المخطوط.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٣ ص ١٨٣.

(٣) البقرة / ١٤٣.

(٤) (أي ما كنت تدري ما الكتاب) سقطت من المخطوط، وأجرينا ضبط العبارة من كلام الحسين ابن الفضل، كما نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٦ ص ٥٩.

(٥) (أي) سقطت من المخطوط.

وكذلك جميع أنبياء الله صلوات الله عليهم قبل الوحي كانوا مؤمنين ، وكان محمّد ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى : ﴿وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً ؛﴾ يعني الوحي ودليلا على الإيمان والتوحيد ، ﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا ؛﴾ إلى دين الحقّ ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) ؛ أي لتدعو الخلق كلّهم بوحينا إليك إلى طريق قائم يرضاه الله وهو الإسلام. وقوله تعالى : ﴿صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ؛﴾ خفض على البدل ، وقوله تعالى : ﴿أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (٥٣) ؛ أي إليه ترجع عواقب الأمور في الآخرة.

**آخر تفسير سورة (الشورى) والحمد لله رب العالمين**

# سورة الزّخرف

سورة الزّخرف كلّها مكّيّة [1] ، وهي ثلاثة آلاف وأربعمائة حرف ، وثمانمائة وثلاث وثلاثون كلمة ، وتسع وثمانون آية [2].

قال ﷺ : [من قرأ الزّخرف كان ممّن يقال له يوم القيامة : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، أدخلوا الجنّة بغير حساب][3].

## بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ (٢) ؛ أقسم الله بالقرآن ، المبين : الذي أبان طريق الهدى من طريق الضّلالة ، وأبان ما يحتاج إليه من الشّرائع ، وجواب : ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣) ؛ أي إنّا أنزلناه على لغة العرب ليكون أبلغ في الحجّة وأدعى إلى القبول ، كي يعقله العرب من غير مترجم.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٤) ؛ أي إنّه مذكور مثبت في اللّوح المحفوظ عندنا ، كما قال في آية أخرى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[4] ، وسمي اللوح أمّ الكتاب ؛ لأنه أصل كلّ كتاب ، وتسمّى الوالدة : أمّا ؛ لأنّها أصل الولد.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٦ ص ٦١ ؛ قال القرطبي : (مكيّة بالإجماع. وقال مقاتل : إلّا قوله ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا﴾.

(٢) في المخطوط : (وسبع وثمانون آية).

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ، وذكره الزمخشري أيضا في الكشاف : ج ٤ ص ٢٦١.

(٤) البروج / ٢١ ، ٢٢.

وقوله تعالى ﴿لَدَيْنا﴾ يريد الذي عندنا نخبر عن فضيلته ومنزلته وشرفه أن كذبتم به يا أهل مكّة ، فإنه عندنا شريف رفيع محكم من الباطل. ويقال : ذو حكمة لا يحتمل الزيادة والنّقصان ، والتبديل والتغيير.

قوله تعالى : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ (٥) ؛ قال الكلبيّ : (يقول الله لأهل مكّة : أفنترك عنكم الوحي صفحا فلا نأمركم ولا ننهاكم ولا نرسل إليكم رسولا؟ وهذا استفهام معناه الإنكار ؛ أي لا نفعل ذلك).

ومعنى الآية : أفنمسك عن إنزال القرآن ونهملكم فلا نعرّفكم ما يجب عليكم من أجل أنّكم أسرفتم في كفركم ، وهو قوله تعالى : ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ ، والمعنى لإن كنتم ، والكسر في ﴿أَنْ﴾ على أنه جزاء استغنى عن جوابه بما تقدّمه ، كما تقول : أنت ظالم إن فعلت كذا ، ومثله ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ بالفتح والكسر ، وقد تقدّم.

ومعنى الآية : أفنضرب عنكم تذكّرنا إيّاكم الواجب ونترككم بلا أمر ولا نهي معرضين عنكم لئن أسرفتم. والصّفح في اللغة : هو الإعراض ، يقال : صفح عن دينه أي أعرض عنه ، «صفح» [(١)] فلان عنّي بوجهه ؛ أي أعرض ، وهو في صفات الله بمعنى العفو ، يقال : أصفح عن دينه ؛ أي أعرض عنه. والإضراب والضّرب في الكلام كلاهما بمعنى الإعراض والعدول.

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ (٧) ؛ فيه تسلية للنّبيّ ﷺ ، وبيان أنّ دأب كلّ أمة مع رسولهم التكذيب والاستهزاء به ، وإنّ من سنة الله تعالى إهلاك المكذّبين ، فحدّث أيها الرسول قومك كي لا يسلكوا طريق من قبلهم فينزل بهم من العذاب ما نزل بمن قبلهم.

---

(١) (صفح) سقطت من المخطوط.

وقوله تعالى : ﴿فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً ؛﴾ أي أقوى من قومك ، يعني الأوّلين الذين هلكوا بتكذيبهم ، ﴿وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨) ؛ وسبق فيما أنزلنا إليك تشبيه بتكذيبهم ، فعاقبة هؤلاء أيضا الإهلاك.

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ؛﴾ معناه : ولئن سألت قومك من خلق السّموات والأرض ، ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٩) ، وهذا إخبار عن غاية جهلهم إذ أقرّوا بأنّ الله خلق السموات والأرض ، ثم عبدوا معه غيره وأنكروا قدرته على البعث ، فهم يقرّون بالله ويشركون به غيره ، كما قال تعالى في آية أخرى ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1] وتمّ الكلام والإخبار عنهم.

ثم ابتدأ قوله عزوجل فقال : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ؛﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى على معنى : نعم خلقهنّ العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهادا يمكنكم القرار عليها ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً ؛﴾ أي طرقا ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠) ؛ في الطريق من بلد إلى بلد ، وتهتدون بوحدانيّة الله.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ ؛﴾ يعني المطر بمقدار معلوم يعلمه خازن المطر ليس كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أهلكهم ، بل هو بقدر يكون معاشا لكم ولأنعامكم ، وقوله تعالى : ﴿فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ؛﴾ أي فأحيينا بذلك المطر بلدا ميتا بإخراج الأشجار والزرع ، ﴿كَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١١) ؛ من القبور يوم النشور للحساب والجزاء.

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) ؛ معناه والذي خلق الأصناف كلّها والألوان كلّها ، ويقال : الذكور والإناث كلّها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون عليها في البرّ.

قوله تعالى : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ﴾ ؛ الكناية تعود إلى لفظ ﴿ما﴾ أي لتستووا على ظهور ما تركبون ، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ؛

---

(١) يوسف / ١٠٦.

يعني النعمة بتسخير ذلك المركب في البرّ والبحر ، قال مقاتل والكلبي : (وهو أن تقول : الحمد لله الّذي رزقني هذا وحملني عليه) [١] ، ﴿وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا ؛﴾ المركب وذلّله لنا ، وسهّل ركوبه ، ولو لا تسخيره لنا ، ﴿وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) ؛ أي مطيقين ضابطين ، يريد : لا طاقة لنا بالإبل ولا بالفلك ولا بالبحر ، لو لا أنّ الله تعالى سخّر لنا ذلك.

قال قتادة : (قد علّمكم الله كيف تقولون إذا ركبتم) [٢]. وعن ابن مسعود أنّه قال : (إذا ركب الرّجل الدّابة فلم يذكر اسم الله ، ردفه الشّيطان ، فقال له : تغنّ ، فإنّ لم يحسن قاله له : تمنّ) [٣].

وعن رسول الله ﷺ : [أنّه كان إذا استوى على بعيره خارجا في سفر كبّر ثلاثا سبحان الّذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين ، وإنّا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهمّ إنّا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتّقوى ، والعمل بما ترضى ، اللهمّ هوّن علينا سفرنا وأطوعنا بعده ، اللهمّ أنت الصّاحب في السّفر ، والخليفة في الأهل ، اللهمّ إنّي إعوذ بك من وعثاء السّفر وكابة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال]. وإذا رجع قال : [آيبون تائبون لربنا حامدون][٤].

وقوله تعالى : ﴿وَإِنّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤) ؛ فيه بيان أنه كما يذكر نعمة الله عليه في الدّنيا ، فعليه أن يذكر مصيره إلى الآخرة. وينبغي للعاقل إذا ركب دابّة أو سفينة أن يتذكّر آخر مركبه وهي الجنازة ، وإذا لبس أن يتذكّر آخر ملبسه وهو الكفن ،

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٧٩١).

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال : الرقم (٢٤٩٩٥). وعزاه الديلمي عن ابن عباس. وفي مجمع الزوائد : ج ١٠ ص ١٣١ : كتاب الأذكار : باب ما يقول إذا ركب دابته ؛ قال الهيثمي : (رواه الطبراني ـ عن ابن مسعود ـ موقوفا ، ورجاله رجال الصحيح).

(٤) رواه مسلم في الصحيح : كتاب الحج : باب ما يقول إذا ركب إلى سفر حج وغيره : الحديث (٤٢٥ / ١٣٤٢).

وإذا اغتسل أن يتذكّر آخر عهده بالغسل ، وإذا نام أن يذكّر الحال التي يوضع فيها على جنبه في اللّحد.

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ؛﴾ أي جعل الكفار لله تعالى من عباده جزءا ؛ لأنّهم قالوا : الملائكة بنات الله ، فوصفوا عباد الله بأنّهم جزء من الله ، وقد تقدّم أن الذين قالوا هذا القول حيّ من خزاعة ، ومعنى الجعل ههنا الحكم بالشيء ، والوصف والتسمية كما جعل فلان زيدا من أعلم الناس ؛ أي وصفه بذلك ، ويقال : إن الجزء في كلام العرب عبارة عن الأنثى كما قال الشاعر [(١)] :

إن أجزأت حرّة يوما فلا عجب قد تجزئ الحرّة المذكار أحيانا

أراد بـ (أجزأت) : ولدت أنثى. قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) ؛ أراد بالإنسان الكافر ، وقوله تعالى ﴿لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أي لجحود لنعم الله ، ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر الكفران.

ثم أنكر عليهم هذا فقال تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦) ؛ هذا استفهام توبيخ وإنكار ، يقولوا : أتّخذ ربّكم لنفسه البنات وأصفاكم بالبنين وأخلصكم بهم. والمعنى : كيف اختار لنفسه أهون قسمي الولد ، واختار لكم أعلى القسمين ، والحكمة لا توجب أن يختار الحكيم الأدون لنفسه والأعلى لغيره.

ثم وصف كراهتهم بالبنات ، فقال قوله عزّ وجلّ : ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ؛﴾ أي وإذا أخبر أحدهم بما وصف للرحمن من إضافة البنت إليه صار وجهه مسودّا متغيّرا يعرف فيه الحزن. وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧) ؛ أي يتردّد حزنه في جوفه. وقد تقدم تفسيره في سورة النحل.

---

(١) نقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣٠٩ ؛ وقال : (لا أدري البيت قديم أو مصنوع). وفي الكشاف : ج ٤ ص ٢٣٤ ؛ قال الزمخشري : (ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث ، وادّعاء أن كلمة الجزء في لغة العرب هو اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ، ووضع مستحدث منحول).

قوله تعالى : ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ زيادة في الإنكار عليهم والمذمّة لهم ، كأنّه قال : أو يختار لنفسه مع استغنائه عن الخلق كلّهم (من ينشّأ في الحلية) أي من ربي في حلية الذهب والفضّة ، ﴿وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨) ، وهو في الكلام غير ثابت الحجّة.

قال المبرّد : (تقدير الآية : أو تجعلون له من ينشّأ في الحلية ، يعني البنت نبتت) [١].

﴿وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ؛ أي وهو عند المخاصمة غير مبين الحجّة. قال قتادة : (قلّ ما تكلّمت امرأة بحجّتها إلّا تكلّمت بحجّتها عليها) [٢] لضعف رأيها ونقصان عقلها [٣].

ويستدلّ من هذه الآية على ثبوت الترخّص للنساء في التزيّن بحلية الذهب والفضّة ، كما قال ﷺ وقد أخذ الذهب بإحدى يديه ، والحرير بالأخرى وقال : [هذان محرّمان على ذكور أمّتي ، حلّ لإناثهم][٤].

---

(١) في تفسير مقاتل بن سليمان : ج ٣ ص ١٨٧ ؛ قال : (يعني ينبت في الزينة ، يعني الحلي مع النساء ، يعني البنات).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٨٠٨). وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٧٠ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر) وذكره.

(٣) لا يبدو لي المعنى على هذا الإطلاق ، فإن حديث [ناقصات عقل ودين] مبيّن معناه كما في نصه ، وهو متعلق التوقيف في الطهارة للعبادة والشهادة في الحدود والجراحات ، وليس كما ذهب البعض من العلماء. ثم إن الأمر بالنسبة للمرأة هو كذلك بالنسبة للرجل بالوصف الإنساني ، ولو لا الخبرات المتأتية من ممارسة الحياة وأسباب القوة فيه للمرأة غير ما هي للرجل ، ثم ما عيّن الشرع لها وأناط بها وعرف بحقها. ويمكن أن يكون الأمر على أحوال معينة ، وهي أكثر عموما من تحديد النقص بالمرأة وحصرها بها فقط. مثال ذلك ما حكاه المبرّد قال : (يقال : لا ينبغي لعاقل أن يشاور واحدا من خمسة : القطّان ، والغزّال ، والمعلّم ، وراعي الضأن ، ولا الرجل الكثير المحادثة للنساء) فالقضية ليست على عمومها ، وهي مختلفة بحسب تنامي الرأي العام في المجتمع حسب الزمان والمكان. والله أعلم. ينظر : الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد : ج ٢ ص ١٥٥ ، دار الفكر العربي.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : الحديث (١٠٨٨٩) وإسناده ضعيف ، و (١١٣٣٣) كلاهما

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ؛﴾ معناه : ووصفوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أنّهم بنات الله ، وقرئ (عبد الرّحمن) وكلّ صواب ، وقد جاء القرآن بالأمرين معا ، وذلك قوله ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ﴾[١] وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾[٢] ، وفي قوله تعالى ﴿عِبادُ الرَّحْمنِ﴾ دلالة على رفع المنزلة والقربة من الكرامة [٣].

وقوله تعالى : ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؛﴾ معناه : أحضروا عند خلقهم فعلموا ذلك ، والشهادة هاهنا من الحضور ، ووبّخهم الله على ما قالوا ما لم يشاهدوه. وقرأ نافع : ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ بهمزة الاستفهام وتخفيف الهمزة الثانية على معنى أحضروا وعاينوا خلقهم حتى علموا أنّهم أناث ، وهكذا كقوله ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ﴾[٤].

قال ابن عبّاس : (يريد : أحضروا وعاينوا خلقهم؟) ، قال الكلبيّ : (لما قالوا هذه المقالة سألهم النّبيّ ﷺ فقال : [ما يدريكم أنّهم إناث؟] قالوا : سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنّهم لم يكذبوا أنّهم إناث) [٥] فقال الله : ﴿سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾ (١٩) ؛ عنها في الآخرة.

---

. عن ابن عباس إسناده ضعيف. وفي الأوسط : الحديث (٣٦٢٩) عن عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف. وأخرجه الإمام أحمد في المسند : ج ١ ص ٩٦ و١١٥. وابن ماجة في السنن : كتاب اللباس : باب لبس الحرير : الحديث (٣٥٩٥). وابن حبان في الإحسان : الحديث (٥٤٣٥) عن علي رضي الله عنه ، بإسناد حسن إن شاء الله.

(١) الأنبياء / ٢٦.

(٢) الأعراف / ٢٠٦.

(٣) تفصيل لهذه القراءات ، ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ج ٤ ص ٦٩. والحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٧٠ ، والخلاف الحاصل لما روي من حوار بين ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير ، كما في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٧١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه).

(٤) الصافات / ١٥٠.

(٥) ذكره مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٨٧. وفي معالم التنزيل : ص ١١٦١ ؛ قال البغوي : (قال الكلبي ومقاتل) وذكره.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ؛﴾ يعني بني مليح من خزاعة ، كانوا يعبدون الملائكة ، ﴿وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ أي ما عبدوا الملائكة ، وإنما عبدناهم بمشيئة الله تعالى. وإنما كانوا يقولون هذا القول إبلاغا لعذرهم عند سفلتهم ، يقول الله تعالى : ﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ؛﴾ بقولهم إنّ الملائكة بنات الله وإنّهم كذبوا في ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠) ؛ أي ما هم إلا يكذبون فيما قالوا ، ولم يتعرّض لقولهم ﴿لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ بشيء ؛ لأن هذا القول حقّ ، وإن كان من الكفار ، وهذا كقوله : ﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] أي ولو جعلت قوله ﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ردّا لقولهم ﴿لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ كان المعنى : أنّهم قالوا : إنّ الله قدّرنا على عبادتهم فلم يعاقبنا لأنه رضي ذلك ، وهذا كذب منهم ؛ لأنّ الله تعالى وإن قدّر كفر الكافر لا يرضاه ، وتقدير الكفر من الكافر لا يكون رضى من الله له.

قوله تعالى : ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ ؛﴾ أي هل أعطيناهم كتابا من قيل القرآن بأن يعبدوا غير الله ، ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢١) ؛ أي آخذون بما فيه. ثم أعلم الله أنّهم اتّبعوا آباءهم في الضّلالة فقال تعالى : ﴿بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ؛﴾ أي على سنّة وملّة ودين.

ومن قرأ (على إمّة) بكسر الهمزة فمعناه : على طريقة ؛ أي ليس لهم حجّة إلّا هذا القول ، ﴿وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٢٢) ؛ أي ليس لهم حجّة إلّا تقليد آبائهم.

قوله تعالى : ﴿وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها﴾ أي ملوكها وأغنياؤها ورؤساؤها : ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (٢٣) ؛ بهم.

فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ ؛﴾ معناه : أتتّبعون دين آبائكم وتكفرون مثلهم ، ولو جئتكم بأرشد

---

(١) النحل / ٣٥.

مما وجدتّم عليه آباءكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك ؛ و ﴿قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ (٢٤).

ثم ذكر ما فعل بالأمم المكذّبة تخويفا لهم فقال تعالى : ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٥) ؛ يعني ما صنع بقوم نوح وعاد وثمود.

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) معناه واذكر يا محمّد إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه حين خرج من السّرب وهو ابن سبع عشرة سنة ، رأى أباه وقومه يعبدون الأصنام ، فقال لهم : إنّي براء مما تعبدون من دون الله تعالى ، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (٢٧) ، إلّا من الذي خلقني فإنه سيحفظني ويرشدني لدينه وطاعته.

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ ؛﴾ أي وجعل براءته عن عبادة غير الله وهي كلمة التوحيد : لا إله إلّا الله ؛ باقية في عقبه لكي يرجعوا إلى التوحيد ، ويدعوا الخلق إليه ، فلا يزال في ولده من يوحّد الله تعالى. ومعنى الآية : وجعلها كلمة باقية في ذريّة إبراهيم ونسله ، فلا يزال في ذريّته من يعبد الله ويوحّده ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨) ؛ أي لعلّ أهل مكّة يتّبعون هذا الدّين ويرجعون إلى دينك دين إبراهيم ، إذ كانوا من ولده. وقال السديّ : (لعلّهم يتوبون ويرجعون عمّا هم عليه إلى عبادة الله تعالى) [1].

ثم ذكر نعمته على قريش فقال : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ ؛﴾ يعني المشركين متّعتهم بأموالهم وأنفسهم وأنواع النّعم ، ولم أعاجلهم بعقوبة كفرهم ، بل أمهلتهم زيادة في الحجّة وقطعا للمعذرة ، ﴿حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ ؛﴾ أي القرآن ، ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (٢٩) ؛ للحجج وهو النّبيّ ﷺ بيّن لهم الأحكام والدين.

وكان من حقّ الإنعام أن يطيعوا الرسول بإجابته ، فلم يجيبوه وعصوا ، وهو قوله : ﴿وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ﴾ (٣٠) ؛ أي لما جاء هم الرسول والقرآن ، نسبوا القرآن إلى السّحر وجحدوا به.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٦٧.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) ؛ أي قال كفّار مكّة : هلّا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين مكّة والطائف ، وعنوا بالرّجلين إما الوليد بن المغيرة من مكّة ، وإما أبا مسعود الثقفيّ من الطائف [(١)] ، ظنّوا بجهلهم أنّ استحقاق النبوّة إنما يكون بشرف الدّنيا مع اعترافهم بأنّ النبيّ ﷺ من أرفعهم نسبا.

فقال الله تعالى ردّا عليهم وإنكارا لما قالوا : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ؛﴾ يعني النبوّة التي هي من أعظم النّعم ، وذلك أنّهم اعترضوا على الله بقولهم : لم لم ينزل هذا القرآن على غير محمّد ، فبيّن الله تعالى أنه الذي يقسم النبوّة لا غيره.

قال مقاتل : (يقول الله تعالى : أبأيديهم مفاتيح الرّسالة فيضعونها حيث شاؤا). فبيّن الله تعالى أنه لم يجعل أمر معايشهم مع قلّة خطر ذلك إلى رأيهم ، بل رفع بعضهم فوق بعض في الرّزق ، وتلقاه شذ على ما توجبه الحكمة [(٢)] ، فقال تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ؛﴾ أي قسمنا الرزق في المعيشة ، وليس لأحد أن يتحكّم في شيء من ذلك ، فكيف نجعل أمر النبوّة مع عظم قدره ورفعة شأنه إلى رأيهم ، قال قتادة في معنى ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ : (تلقى الرّجل ضعيف الحيلة عيّ اللّسان وهو مبسوط في الرّزق ، وتلقاه شديد الحيلة بسط اللّسان وهو مقتّر عليه) [(٣)].

وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ ؛﴾ يعني الفضل في الغنى والمال ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا ؛﴾ أي ليستخدم بعضهم بعضا ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٨٣٧) عن ابن عباس ، قال : (يعني الوليد بن المغيرة القرشي ، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي).

(٢) المعنى كما جاء في حديث قتادة ، قال : (قال الله تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ فتلقاه ضعيف الحيلة ، عيّ اللسان ، وهو مبسوط له في الرزق ، وتلقاه شديد الحيلة ، سليط اللسان ، وهو مقتور عليه). أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٨٤٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٨٤٤).

فيسخّر الأغنياء بأموالهم الفقراء ليلتئم قوام أمر العالم ، وقال قتادة : (ليملك بعضهم بعضا فيتّخذوهم عبيدا ومماليك) [(١)]. والسّخريّ بالكسر من الاستهزاء ، وبالضمّ من التسخير.

وقوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢) ؛ أي وما خصّك الله به من النبوّة خير لك مما يجمعون من المال. وقيل : معناه : ورحمة ربك يعني الجنّة للمؤمنين خير مما يجمع الكفّار من الأموال.

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) ؛ معناه : ولو لا أن تميل بالناس الدّنيا فيصير الخلق كلّهم كفّارا لأعطى الله الكافر في الدّنيا غاية ما يتمنّى فيها لهوانها وقلّتها عند الله تعالى ، ولكنّه لم يفعل ذلك لعلمه بأن الغالب على الخلق حبّ العاجلة.

وقوله (سقفا) من قرأه بالوحدان فهو على معنى جعلنا لكلّ بيت سقفا من فضّة. ومن قرأ ﴿سُقُفاً﴾ بضمّتين فهو جمع سقف ، مثل رهن ورهن [(٢)]. ومن قرأه (سقفا) بضمّ السين وجزم القاف فعلى تخفيف سقف مثل رهن [(٣)]. قوله تعالى : ﴿وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ﴾ يعني الدّرج عليها يرتفعون ويعلون ، واحدها معرج ، ويقال معراج ومعاريج ومعارج ، مثل مفاتيح ومفاتح في جمع مفتاح ، والمعنى : وكذلك جعلنا لهم معارج من فضّة عليها يصعدون.

قوله تعالى : ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ﴾ (٣٤) ؛ أي ولبيوتهم أبوابا من فضّة وسررا من فضّة ، على سرر الفضّة يجلسون ويتّكئون ، وقوله تعالى : ﴿وَزُخْرُفاً ؛﴾ الزّخرف هو الذهب ، كأنّه قال : وجعلنا أمتعتهم من الذهب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٨٤٨).

(٢) في جامع البيان : مج ١٣ ج ٢٥ ص ٨٩ ؛ قال الطبري : (وعامة قراءة الكوفة (سُقُفاً) بضم السين والقاف ، ووجهوها إلى أنها جمع سقيفة أو سقوف. وإذا وجهت إلى أنها جمع سقوف كانت جمع الجمع ؛ لأن السقوف جمع سقف ، ثم تجمع السقوف سقفا). ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٣ ص ٣٢.

(٣) في المخطوط : (زهر). ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٧٥.

هكذا في التفاسير أنّ المراد بالزّخرف الذهب ، إلّا أنّه في اللغة الزّخرف : كمال الزّينة [١] ، كما قال تعالى ﴿حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها﴾[٢] ، ويجوز أن يكون قوله ﴿وَزُخْرُفاً﴾ عطفا على قوله ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾ كأنّه قال : من فضّة وزخرفا ، إلّا أنه لما قال حذف ﴿لِمَنْ﴾ جعل نصبا [٣] ، وهذا إنما يكون على قول الكوفيّين.

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ؛﴾ من قرأ ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد فالمعنى : ما كلّ ذلك إلّا متاع الحياة الدّنيا ، ومن قرأ بالتخفيف ف (ما) صلة زائدة ، والمعنى : وإن كلّ لما متاع الحياة الدنيا ، يتمتّع به إلى حين ثم يفنى ، وثواب ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥) ؛ الكفر والفواحش ، والذي قرأ ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد حمزة جعله في معنى إلّا ، وحكي عن سيبويه : نشدتك لما فعلت ، بمعنى إلّا فعلت.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : [لو لا أن يجزع عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد ، ولصبّيت الدّنيا عليه صبّا][٤]. قال [٥] : ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ﴾.

---

(١) نقله الزجاج عن زيد بن أسلم ، كما في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣١٣.

(٢) يونس / ٢٤.

(٣) العبارة هكذا رسمت في المخطوط ، وفي معاني القرآن : ج ٣ ص ٣٢ ؛ قال الفراء : (وجاء في التفسير : نجعلها لهم من فضة ومن زخرف ، فإذا ألقيت (لِمَنْ) الزخرف ، نصبته على الفعل توقعه عليه ، أي وزخرفا ، تجعل ذلك لهم منه).

(٤) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٧٦ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ قال : قال رسول الله ﷺ ...) وذكره. وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ٦ ص ٨٨ ؛ قال القرطبي : (وقال كعب : إني أجد في كتب الله المنزلة : (لو لا أن يحزن عبدي المؤمن لكلّلت رأس عبدي الكافر بالإكليل لا يتصدع منه عرق بوجع).

(٥) القائل ابن عباس رضي الله عنهما ؛ كما في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٧٦ ؛ قال : (قد أنزل الله شبه ذلك في كتابه).

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً ؛﴾ أي من يعرض عن ذكر الرّحمن نسبب له شيطانا يضلّه ، يجعل ذلك جزاؤه ، ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ؛ لا يفارقه في الدّنيا والآخرة ، يقال : عشي إلى النار باللّيل إذا تنوّرها فقصدها ، وعشي عنها إذا أعرض عنها قاصدا لغيرها ، ونظير هذا مال إليه ومال عنه ، قال الشاعر [(١)] :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

ومن قرأ (يعش) بفتح الشين وهو من عشى يعشى إذا لم يبصر بالليل ، والمعنى : ومن يعم عن ذكر الرّحمن.

قال الزجّاج : (معنى الآية : ومن يعرض عن القرآن وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلّين ، نعاقبه بشيطان نقيّضه له حتّى يضلّه ويلازمه قرينا له فلا يهتدي ، مجازاة له حين آثر الباطل على الحقّ المبين) [(٢)].

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي صاحب يزيّن له العمى ، ويخيّل إليه أنّه على الهدى وهو على الضّلالة ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ؛﴾ معناه : وإنّ الشياطين ليمنعونهم عن سبيل الهدى ، ﴿وَيَحْسَبُونَ ؛﴾ الكفار ، ﴿أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٧).

قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذا جاءَنا ؛﴾ يعني الكافر إذا جاء يوم القيامة ﴿قالَ﴾ ، لقرينه وهو الشيطان الذي يجعل معه في سلسلة واحدة : ﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ؛﴾ المشرق والمغرب إذ كنّا في الدّنيا فلم أرك ولم تربي ، ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (٣٨) ؛ كنت لي.

وإنما سمّي المشرق والمغرب باسم الواحد للازدواج ، كما يقال للشّمس والقمر : القمران ، وفي تثنية أبي بكر وعمر : العمرين ، قال الشاعر [(٣)] :

---

(١) الحطيئة يمدح بغيض بن عامر التميمي.

(٢) لم أجده في معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، ولعلّ المصنّف نقله سماعا.

(٣) الفرزدق من قصيدة له يفتخر بآبائه ويهجو جريرا. من شواهد الزجاج في معاني القرآن

أخـــذنا بآفـــاق السّـــماء علـــيكم لنـــا قمراهـــا والنّجـــوم الطّوالـــع

وقرئ : ﴿حَتَّى إِذا جاءَنا﴾ يعني الكافر وشيطانه يبعثان يوم القيامة في سلسلة واحدة ، كما روي أنّ الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ بيده شيطانه فلم يفارقه حتى يصيّرهما الله إلى النار ، فلذلك حيث يقول : ﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ ، ويقول الله في ذلك اليوم للكافرين «و» [1] أنت أيها الشيطان : ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ؛﴾ أي إذا أشركتم في الدّنيا ، ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩) ؛ قال المفسّرون : لا يخفّف عنهم الإشراك شيئا من العذاب ، لأنّ لكلّ واحد منهم الحظّ الأوفر من العذاب ، ولا يستأنس بعضهم ببعض.

قوله تعالى : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ؛﴾ أي أفأنت تسمع الكفار الذين يتصامون عن الحقّ ويتعامون عنه ، ﴿وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٠) ؛ أي بيّن قد ظهرت ضلالته.

وقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ؛﴾ أي نميتك قبل أن نريك النّقمة في كفار مكّة ، ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٤١) ؛ بالقتل بعدك ، ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ؛﴾ في حياتك ما ، ﴿الَّذِي وَعَدْناهُمْ ؛﴾ من الذّلّ ، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢). بيّن الله تعالى أنه قادر على عقوبتهم في حال حياة النّبيّ ﷺ وبعد وفاته.

والأصل في (إما) : (إن ما) فحذف الشرط (ان وما) صلة ومتى دخلت (ما) في الشرط للتوكيد دخلت النون الثّقيلة المؤكّدة في الفعل المذكور بعدها.

ومعنى الآية : أنّ الله تعالى «قال» [2] مطيّبا لقلب نبيّه ﷺ : إن ذهبنا بك انتقمنا لك ممّن كذبك بعدك أو نرينّك في حياتك ما وعدناهم من العذاب ، فإنّا قادرون عليهم متى شئنا عذبناهم ثم أري ذلك يوم بدر.

---

وإعرابه : ج ٤ ص ٣١٤. وقال : (يريد الشمس والقمر ، وكما قالوا : سنّة العمرين ، يراد سنة أبي بكر وعمر رحمة الله عليهما).

(١) (و) سقطت من المخطوط.

(٢) (قال) ليس في المخطوط ، وهو مقتضى السياق.

قوله تعالى : ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ؛﴾ أي استمسك بالقرآن ، ﴿إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ؛﴾ أي القرآن شرف لك ولهم ، ﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ (٤٤) ؛ عن شكر هذه النّعمة ، يعني ما أعطاه الله من الحكمة وقومه المؤمنين من الهدى بالقرآن إلى إدراك الحقّ ، وقال مجاهد : (القوم هاهنا العرب ، والقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم) [١].

قوله تعالى : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥) ؛ وذلك أنه لما أسري بالنبيّ ﷺ بعث الله آدم وجميع المرسلين وأذن جبريل ثم أقام ، وقال : يا محمّد تقدّم فصلّ بهم ، فلمّا فرغ من الصّلاة قال جبريل : سل يا محمّد من أرسلنا من قبلك ، هل أرسلنا عليهم جواز عبادة غير الله؟ فقال ﷺ : [لا أسأل قد اكتفيت][٢].

وقيل : معناه : اسأل أمم من أرسلنا قبلك ، يعني مؤمني أهل الكتاب سلهم هل جاءهم الرّسل إلّا بالتوحيد ، فلم يشكّ ولم يسأل ، (ومعنى الأمر بالسّؤال لتقرير مشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله تعالى) [٣].

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾ (٤٧) ؛ أي يهزأون ويضحكون منها جهلا وغفلة.

وقوله تعالى : ﴿وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها ؛﴾ يعني ما نرادف عليهم من الطّوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم والطّمس ، وكانت كلّ آية من هذه الآيات أكبر من التي قبلها ، وهي العذاب المذكور في قوله تعالى : ﴿وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤٨) ؛ لأنّهم عذّبوا بهذه الآيات.

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٦٩.

(٢) في معالم التنزيل : ص ١١٦٩ ؛ قال البغوي : (قال عطاء عن ابن عباس) وذكره ، ثم قال : (وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد). وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٨٨٨) عن ابن زيد. ونقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣١٥.

(٣) نقله البغوي العبارة ولم يعزها إلى الطبراني ، ينظر : معالم التنزيل : ص ١١٦٩.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ؛﴾ قال الكلبيّ : (يا أيّها العالم ، وكان السّاحر فيهم عظيما يعظّمونه ، ولم يكن «السّحر» صفة ذمّ ، وكان علماؤهم في ذلك الوقت السّحرة ، فكانوا يوقّرونه بهذا القول ، ولم يريدوا شتمه) [1].

وقوله تعالى : ﴿ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ ؛﴾ أي سل ربّك بما عهد عندك فيمن آمن بك ليكشف العذاب عنّا ، والمعنى : بما عهد فيمن آمن به من كشف العذاب عنه ، ﴿إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾ (٤٩) ؛ مؤمنون بك.

فدعا موسى ربّه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ، فذلك قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (٥٠) ؛ العهد الذي عاهدوا موسى ، معناه : إذا هم ينقضون عهودهم.

قوله تعالى : ﴿وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ؛﴾ إلى قوله : ﴿قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١) ؛ يعني أنهار النّيل تجري من تحتي ؛ أي من تحت قصوري وفي بساتيني ، وقال الحسن : (بأمري) [2] فعلى هذا معناه : من تحت أمري ، أفلا تبصرون عظمتي وشدّة ملكي وفضلي على موسى.

قوله تعالى : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ؛﴾ أي بل أنا خير من هذا الذي هو ضعيف حقير ، يعني موسى ؛ وإنما وصفه بهذا لأنه كان يقوم بأمر نفسه ، ولم يكن أحد يقوم بأمره ، ومن ذلك المهنة ، وقوله تعالى : ﴿وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ (٥٢) ؛ أي لا يكاد يبين الكلام ، يعني أنه كان بلسانه لثغة من أثر العقدة التي كانت ، وكان مع ذلك بليغا مبينا.

قوله تعالى : ﴿فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ؛﴾ معناه : قال فرعون : هلّا ألقي على موسى أسورة من ذهب إن كان رسولا كما يسوّر الملوك رسلهم تعظيما لهم ، وكان آل فرعون يلبسون الأساور ، والأسورة جمع السّوار ، والأساور جمع الأسورة.

---

(١) ينظر نقولات القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٦ ص ٩٧.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل : ص ١١٧٠.

وقوله تعالى : ﴿أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (٥٣) ؛ أي متتابعين يعينونه على أمره الذي بعث له ، ويشهدون له بصدقه. والمعنى : أنّ فرعون قال : هلّا جاء معه الملائكة متعاونين يمشون معه فيدلّون على صدقه بنبوّته.

قوله تعالى : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ ؛﴾ أي استخفّ فرعون عقول قومه القبط فوجدهم خفاف العقول فأطاعوه على تكذيب موسى ، ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ (٥٤) ؛ أي خارجين عن أمرنا.

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ ؛﴾ أي فلمّا أغضبونا انتقمنا منهم ، وجازيناهم على معاصيهم ، ﴿فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٥). والآسف : الغضب في هذه الآية ، وأصله في اللغة : الحزن ، إلّا أن الحزن لا يجوز في صفات الله.

وقوله تعالى : ﴿فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً ؛﴾ أي متقدّمين ، وقيل : سلفا إلى النار ، ﴿وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ (٥٦) ؛ يتمثّل بهم في الهلاك إلى آخر الدّهر.

وقرأ حمزة (سلفا) بالضمّ في السين واللام : جمع سليف وهو الماضي مأخوذ من سلف بضمّ اللام يسلف ؛ أي تقدّم فهو سليف. ومن قرأ (سلفا) بضمّ السين وفتح اللام فهو جمع سلفة وهي الفرقة التي قد مضت.

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) ؛ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : (لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ ...﴾ الآية ، قرأها النّبيّ ﷺ ، قال ابن الزّبعرى : أخاصّ هذا أم عامّ؟ فقال : [عامّ] فقال ابن الزّبعرى : فإنّ عيسى تعبده النّصارى ، فهو والنّصارى في النّار ، وعزير تعبده اليهود ، وخزاعة تعبد الملائكة ، فإن كان هؤلاء في النّار فآلهتنا خيرا منهم ، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾) [1].

---

(١) في معالم التنزيل : ص ١١٧٠ ؛ قال البغوي : (قال ابن عباس وأكثر المفسرين : إن الآية نزلت في مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبي ﷺ في شأن عيسى). وحكاه مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ١٩٣ ـ ١٩٤. والقصة أخرجها ابن هشام في السيرة النبوية : ج ١ ص ٣٨٥.

والمعنى : لما شبّهوه بآلهتهم ﴿إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يعني قومه الكفار كانوا يضجّون ضجيج المجادلة ، حيث خاصموه وقالوا : رضينا أن تكون آلهتنا ، وهو قولهم : ﴿وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؛﴾ أي ليست آلهتنا خيرا من عيسى ، فإن كان عيسى في النار بأنه يعبد من دون الله فآلهتنا في النار.

قرئ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد وضمّها ، قال الفرّاء والزجّاج والأخفش والكسائيّ : (هما لغتان ، معناهما : يضجّون) [1]. وقيل : يصدّون : يعرضون. ومن قرأ بكسر الصاد فمعناه : يضحكون.

قوله تعالى : ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ؛﴾ أي ما ذكروا لك وصف عيسى إلّا ليجادلوك به ؛ لأنّهم قد علموا أن المراد بحصب جهنّم ما اتخذوه من الموات.

ثم ذكر أنّهم أصحاب خصومات فقال : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٥٨) ؛ أي جدلون بالباطل ، وعن أبي أمامة الباهليّ أنه قال : (ما ضلّ قوم إلّا أوتوا الجدل. ثمّ قرأ هذه الآية) [2].

قوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ ؛﴾ فيه بيان أنّ عيسى عليه السلام عبد مثلهم فضّله بالنبوّة والرسالة ، والمعنى : أنعمنا عليه بالنبوّة ، ﴿وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ (٥٩) ؛ أي جعلنا خلقه بغير الأب آية تدلّهم على وحدانيّة الله تعالى وقدرته على ما يريد.

ثم خاطب كفار مكّة فقال تعالى : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً ؛﴾ أي لو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلا منكم ملائكة ، ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ (٦٠) ؛ كما يكون خلفا منكم.

---

(١) في معاني القرآن : ج ٣ ص ٣٦ ـ ٣٧ ذكرهما الفراء وقال : (العرب تقول يصدّ ويصدّ). وفي معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣١٧ ؛ قال الزجاج : (يقرأ يصدّون بضمّ الصاد والكسر أكثر). وقاله الأخفش في معاني القرآن : ج ٢ ص ٦٩٠.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٣٩٢٨). والطبراني في المعجم الكبير : ج ٨ ص ٢٧٧ : الحديث (٨٠٦٧). والترمذي في الجامع : أبواب التفسير : الحديث (٣٢٣٥) ، وقال : حسن صحيح. وابن ماجة في السنن : المقدمة : الحديث (٤٨). والحاكم في المستدرك : كتاب التفسير : الحديث (٣٧٢٦) ، وقال : صحيح الإسناد.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ؛﴾ يعني نزول عيسى من أشراط السّاعة نعلم به ، ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِها ؛﴾ أي لا تشكّنّ في القيامة إنّها كائنة ، ولا تكذّبوا ، و؛ قل لهم : ﴿وَاتَّبِعُونِ ؛﴾ على التوحيد ، و ﴿هذا ؛﴾ الذي أنا عليه ، ﴿صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ؛ أي دين قائم لا عوج فيه ، ﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ ؛﴾ أي لا يصرفنّكم عن هذا الدين ، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٢) ؛ أي ظاهر العداوة.

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ ؛﴾ أي بالمعجزات ، وقال قتادة : (يعني الإنجيل) [1] ، وقوله تعالى : ﴿قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ؛﴾ أي بالإنجيل ، وقيل : بالنبوّة ، و؛ جئتكم ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ؛﴾ فيما بينكم ، قال مجاهد : (من أحكام التّوراة) [2].

فإن قيل : فهلّا بيّن لهم جميع ما اختلفوا فيه وقد أرسل إليهم؟ قلنا : قد اختلفوا فيه ؛ قال بعضهم : إنّ الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه ، وقد بيّن لهم من غير الإنجيل ما احتاجوا إليه.

وقال بعضهم : معناه : لأبيّن لكم بعض الكتاب الذي تختلفون فيه ، إذ كانوا مختلفين في بعض التّوراة. وقال بعضهم معناه : لأبيّن لكم أمر دينكم لأنّهم كانوا مختلفين في أمر دينهم ودنياهم ، والمقصود من إرسال الرسل بيان الدين ، فكان ذلك بعض ما اختلفوا فيه ، وقد يذكر البعض أيضا بمعنى الكلّ ، كما قال الشاعر [3] :

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزّلل

وأراد بالبعض الكلّ ، لأن المستعجل أيضا قد يدرك البعض ، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦٤).

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٦ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ؛ قال القرطبي : (وقال قتادة : البينات هنا الانجيل). وقاله مقاتل أيضا في التفسير : ج ٣ ص ١٩٥. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٩٤٤) عن قتادة.

(٢) قاله الطبري في جامع البيان : وأورد قول مجاهد في الأثر (٢٣٩٤٦) وقال : (من تبديل التوراة).

(٣) في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣١٨ ؛ قال الزجاج : (واستشهدوا أيضا بقول القطامي) وذكره.

قوله تعالى : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ؛﴾ يعني اليهود والنصارى ، وقيل : المراد به فرق النصارى على ما تقدّم ذكره من الاختلاف فيما بينهم في عيسى عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ (٦٥) ؛ أي هل ينظرون إلّا القيامة أن تأتيهم فجأة على غرّة منهم ، «من» غير تأهّب ولا استعداد ، ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦) ؛ وقت مجيئها.

فإن قيل : كيف تسمّى القيامة الساعة وهي تشتمل على خمسين ألف سنة؟ قلنا : إنما سمّيت ساعة لسرعة مجيئها ، ولأنّها في جنب ما وراءها ساعة ، وهي سريعة الانقضاء على المؤمنين.

قوله تعالى : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) ؛ يعني الأخلّاء في يومئذ ؛ أي يوم تأتي الساعة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني إذا كانت الخلّة على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة ، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ يعني المؤمنين الذين يخالل بعضهم بعضا على الإيمان والتقوى ، فإنّ خلّتهم لا تصير عداوة.

وفي الحديث : [أنّ الأخلّاء أربعة : مؤمنان وكافران ، فإذا سئل المؤمن عن خليله ، قال : ما علمته إلّا أمّارا بالمعروف نهّاء عن المنكر ، ويسأل المؤمن الثّاني عن خليله ، فيقول مثل ذلك ، ويثني كلّ واحد منهما على صاحبه خيرا ، فتزداد مخاللتهما في الآخرة على الّتي كانت في الدّنيا. ثمّ يسأل أحد الكافرين عن خليله ، فيقول : بئس الأخ ؛ ما علمته إلّا أمّارا بالمنكر ، نهّاء عن المعروف ، اللهمّ أضلله كما أضلّني ، ويقول الآخر مثل ذلك ، ويثني كلّ واحد منهما على صاحبه شرّا وتنقلب مخاللتهما عداوة ، لأنّها لم تكن في ذات الله تعالى][1].

(١) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٦ ص ١٠٩ ؛ قال القرطبي : (ذكره الثعلبي رضي الله عنه في هذه الآية). وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٨٨ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد عن قتادة) وذكره بمعناه ولفظ قريب منه. وص ٣٨٩ قال : (أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه ، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه) وذكره في لفظ قريب منه. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٩٥٢).

قوله تعالى : ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩) ؛ أي يقال للمتّقين : يا عبادي لا خوف عليكم من أهوال القيامة وما بعدها ، ولا أنتم تحزنون إذا حزن الناس ، فقوله : ﴿الَّذِينَ﴾ موضع نصب على النعت لعبادي ، لأن عبادي منادى مضاف.

وقوله تعالى : ﴿وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي خاضعين منقادين ، يقال لهم : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠) ؛ أي لأنتم وحلائلكم المؤمنات تكرمون غاية الإكرام بالتّحف والهدايا. ويقال : معنى : تحبرون : تسرّون ، والحبور السّرور.

قوله تعالى : ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ ؛﴾ أي يطوف عليهم خدمهم بقصاع من ذهب فيها من أنواع الأطعمة اللّذيذة الشّهيّة ، وواحد الصّحاف : صحفة ؛ وهي القصعة الواسعة العريضة ، وقوله تعالى : ﴿وَأَكْوابٍ ؛﴾ أي وأكواب من ذهب ، والأكواب جمع الكوب ، وهو إناء مستدير مدوّر الرأس لا عروة له. وقيل : الأكواب هي الأباريق التي لا خراطيم لها ولا أذن.

قوله تعالى : ﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ؛﴾ أي في الجنّة ما تتمنّى الأنفس وتستحسنه الأعين ، ﴿وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٢) ؛ من الأعمال الصالحة ، ﴿لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ؛﴾ ألوان الفاكهة الكثيرة ، ﴿مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ﴾ (٧٤) ؛ أي إنّ المجرمين في عذاب جهنّم دائمون ، ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ؛﴾ أي يرفّه عنهم ولا يهوّن عليهم ، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٥) ؛ أي آيسون من الرّوح والرّاحة.

والإبلاس هو : اليأس من الخير ، والمبلس هو الساكت المنقطع ليأسه من الفرح ، ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ ؛﴾ بهذا العذاب ، ﴿وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٦) لأنفسهم بالكفر والمعاصي.

وفي قراءة ابن مسعود (الظّالمون) بالرفع على لغة تميم يعملون المضمر قبله ، وأما على القراءة التي ليست في المصحف (فهم) زيادة وفصل لا موضع لها من

الإعراب بمنزلة (ما) في قوله ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ؛﴾ وذلك أنّه إذا اشتدّ عليهم العذاب وقد صيّرهم ، تمنّوا الموت ، فنادوا مالكا خازن جهنّم : يا مالك ادع لنا ربّك يقضي علينا بالموت فنستريح من العذاب بعد أربعين سنة ، ﴿قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ (٧٧) ؛ مقيمون دائمون ، وعن ابن عبّاس : (أنّهم ينادون مالكا ألف سنة فيجيبهم : إنّكم ماكثون في العذاب)[2] ، وقرأ عليّ وابن مسعود[3] : (يا مال) بالترخيم[4].

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ ؛﴾ أي لقد أرسلنا إليكم يا معشر قريش محمّدا رسولنا بالحقّ ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ (٧٨).

---

(١) آل عمران / ١٥٩. في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣٢٠ ؛ قال الزجاج : (ويجوز : ولكن كانوا هم الظالمون ، في غير القرآن. أي فيما يتخاطب به الناس. ولكن لا نقرأ بها لأنها تخالف المصحف). والسبب في القراءة على ما نقله النحاس في إعراب القرآن : ج ٤ ص ٨٠ ؛ قال : (قال أبو جعفر : وعلى هذا يكون (ظَلَمْناهُمْ) في موضع رفع بالابتداء ، و (الظّالمون) خبر الابتداء ، وخبره خبر كان ، كما تقول : كان زيد أبوه خارج).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٩٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب بدء الخلق : باب إذا قال أحدكم (آمين) : الحديث (٣٢٣٠) عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال : [سمعت النبيّ ﷺ يقرأ على المنبر : (ونادوا يا مال)] قال سفيان : (من قراءة عبد الله : (ونادوا يا مال). وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري : ج ٨ ص ٧٣٠ ؛ قال ابن حجر : (يذكر عن بعض السلف أنه لما سمعها قال : (ما أشغل أهل النار عن اسم الترخيم؟) قال ابن حجر : (وأجيب باحتمال أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وشدة ما هم فيه). وفي الجامع لأحكام القرآن : ج ١٦ ص ١١٧ ؛ قال القرطبي : (قال أبو بكر : لا يعمل على هذا الحديث لأنه مقطوع لا يقبل مثله في الرواية عن رسول الله عليه السلام ، وكتاب الله أحق أن يحتاط له وينفى عنه الباطل).

(٤) في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣٢٠ ؛ قال الزجاج : (ورويت : يا مال. بغير الكاف ، وبكسر اللام. وهذا يسميه النحويون الترخيم ، وهو كثير في الشعر في مالك وعامر ، ولكني أكرههما لمخالفتهما المصحف).

وقوله تعالى : ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩) ؛ أي بل احكموا عند نفوسهم أمرا في كيد محمّد ﷺ والمكر به ، فإنّا محكمون أمرا في مجازاتهم شرّا بشرّ.

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠) ؛ السّرّ ما يعقده الإنسان في نفسه ويضمره بقلبه ، والنّجوى ما يحدّث به غيره في الخفية ، وقوله تعالى ﴿بَلى﴾ أي نسمع سرّهم ونجواهم ، ورسلنا هم الحفظة عندهم ، يكتبون عليهم ذلك.

ويقال : إنّ هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر من المشركين ، وهم صفوان بن أمية ، وربيعة بن عمرو وأخوه حبيب بن عمرو ، وكانوا يمكرون في قتل النبيّ ﷺ ، فقالوا : أخبرنا أنّ النبيّ ﷺ يقول لأصحابه : إنّ الله يعلم السرّ يكون بين الاثنين ، أفترونه يعلم ما نقول؟ قال ربيعة : أراه يعلم بعض ما نقول ولا يعلم بعضا ، فقال صفوان : ولا كلمة واحدة ، ولو علم بعضه لعلمه كلّه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (١).

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ (٨١) ؛ وذلك أنّ المشركين لما قالوا : لله ولد! ولم يرجعوا عن مقالتهم ، أنزل الله هذه الآية ، والمعنى : قل لهم يا محمّد : ﴿إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ من عبد الله وحده وكذبكم بما تقولون ، هكذا روي عن مجاهد (٢).

وقال قتادة والحسن : (معناه : ما كان للرّحمن ولد ، وأنا أوّل من عبد الله من أهل هذا الزّمان) (٣). وقيل : معناه : إن كان للرّحمن ولد كما تزعمون فأنا أوّل من غضب للرحمن ، فعلى هذا القول العابد من العبد بمعنى الغضب. وقال الفرّاء : (عبد

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الحديث (٢٣٩٧٧) من غير ذكر الأسماء. وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٩٤ ؛ عزاه السيوطي للطبري فقط.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٣٩٨١). وفي الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٩٥ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير).

(٣) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٩٥ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد عن الحسن والقتادة) بلفظ : (فأنا أول من عبد الله من هذه الأمة).

عليه أي غضب عليه). وقيل : معناه : فأنا أوّل الآنفين ، يقال : عبد يعبد ؛ إذا أنف وغضب.

قوله تعالى : ﴿سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ نزّه الله تعالى نفسه مما يقول المشركون ؛ أي تنزيها لخالق السّموات والأرض ، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) ؛ يضيفون إليه من الولد.

وقوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣) ؛ أمر بتركهم على وجه التوبيخ ؛ أي اترك يا محمّد كفار مكّة يخوضوا في أباطيلهم ، ويلعبوا في دنياهم بمقالتهم حتى يعاينوا يوم القيامة.

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ ؛﴾ أي هو معبود من في السّموات ومن في الأرض ، لا معبود غيره ولا إله إلّا هو ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ ؛﴾ في أمره وقضائه ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) ؛ بخلقه وتدبيرهم.

وقوله تعالى : ﴿وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ؛﴾ أي تعالى ودام الذي بيده خزائن السموات والأرض وما بينهما ، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ؛﴾ أي علم قيام الساعة ، لا يعلم وقتها أحد غيره ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) ؛ في الآخرة.

قوله تعالى : ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ ؛﴾ أي لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، ثم استثنى عيسى والعزير والملائكة فقال : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ؛﴾ أي من شهد أنّه لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ؛ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم. والمعنى : إلّا من شهد بكلمة التوحيد ، وعلم بقلبه أنّها حقّ.

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) ؛ أي ولئن سألت هؤلاء الذين عبدوا غير الله : من خلقهم وخلق معبودهم؟ ليقولنّ : الله خلقهم ، فمن أين يصرفون عن عبادة الله مع معرفتهم بأنه الخالق ، والخالق أولى بالعبادة من المخلوق؟

قوله تعالى : ﴿وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) ؛ من قرأ بنصب اللام ؛ فمعناه : يعلم قيام الساعة ، ويعلم (قيله) محمد يا ربّ ؛ لأن معنى ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ويعلم قيام الساعة. وقيل : انتصب عطفا على قوله ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾ كأنه قال : أم يحسبون أنا لا نسمع سرّهم ونجواهم ، ﴿وَقِيلِهِ﴾ يا ربّ في شكوى منهم إلى ربه. قال المبرّد : (العطف على المنصوب حسن وإن تباعد المعطوف على المعطوف عليه).

ومن قرأ ﴿وَقِيلِهِ﴾ بكسر اللام فهو على معنى : وعنده علم الساعة وعلم قيله. والقيل مصدر كالقول ، يقال : قلت قولا وقيلا وقالا. ولو قرئ (وقيله) بالرفع على معنى : وقيل محمّد ﷺ ، هذا كان جائزا في الكلام [١].

قوله تعالى : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ؛﴾ أي أعرض عنهم إلى أن تؤمر فيهم بشيء ، ﴿وَقُلْ سَلامٌ﴾ ، قال عطاء : (يريد مداراة حتّى ينزل حكمي) ، ومعناه : المتاركة ؛ أي سلام هجران وترك لا سلام تحيّة ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩) ؛ عاقبة كفرهم ، وماذا ينزل بهم فيندمون حين لا ينفعهم الندم.

ومن قرأ (تعلمون) فعلى الأمر للنبيّ ﷺ بأن يخاطبهم بهذا ، قال مقاتل : (نسخ السّيف الإعراض والسّلام) [٢].

**آخر تفسير سورة (الزخرف) والحمد لله رب العالمين.**

---

(١) ينظر : معاني القرآن للفراء : ج ٣ ص ٣٨. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج : ج ٤ ص ٣٢١. وإعراب القرآن للنحاس : ج ٤ ص ٨١ ـ ٨٢.

(٢) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٢٠٠ : (فنسخ السيف الإعراض والسّلام).

## سورة الدّخّان

سورة الدّخّان مكّيّة كلّها ، وهي ألف وأربعمائة وواحد وثلاثون حرفا ، وثلاثمائة وستّ وأربعون كلمة ، وتسع وخمسون آية. قال ﷺ : [من قرأها في ليلة الجمعة غفر له][1].

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ (٢) ؛ أوّل السورة قسم ، وجوابه : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ ؛﴾ وقيل : جوابه : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ لأنه ليس من عادة العرب أن يقسموا بنفس الشيء الذي يخبرون عنه ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ﴾ معترضا بين القسم والجواب ، ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (٣) ، والليلة المباركة : هي ليلة القدر ، ﴿فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٤) ، أنزل الله فيها القرآن إلى السّفرة في السّماء الدّنيا ، فوضعوه في بيت العزّة ، ثم كان جبريل ينزل به على النبيّ ﷺ شيئا بعد شيء على مقدار الحاجة ، هكذا روي عن ابن عبّاس ، وقد قدمنا ذلك في قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2].

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٩٨ ؛ قال السيوطي : (وأخرج الترمذي ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال ...) وذكره. وأخرجه الترمذي في الجامع : أبواب فضائل القرآن : الحديث (٢٨٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال : (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وهشام أبو المقدام يضعّف ، ولم يسمع من الحسن من أبي هريرة). فالحديث إسناده ضعيف. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان : الحديث (٢٤٧٦) وإسناده ضعيف لما تقدم.

(٢) البقرة / ١٨٥.

وسمّيت هذه الليلة مباركة لأنّ فيها الرحمة ومغفرة الذنوب ، وفيها يقدّر الله الأشياء من أرزاق العباد وآجالهم وغير ذلك من الأمور. ويقال : إنما سمّيت مباركة لأنه لا يقدّر فيها شيئا من المكاره ، كما قال تعالى : ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[1].

وعن عكرمة أنه كان يقول : (اللّيلة المباركة هي ليلة النّصف من شعبان ، فيها يقضى كلّ أمر فيه حكمة ، وفيها ينسخ لجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت جميع ما هم موكّلون به من سنة إلى سنة) [2]. وكان ابن عبّاس يقول : (إنّك لتلقى الرّجل في السّوق قد كتب اسمه في الموتى) [3]. والصحيح : أنّ الليلة المباركة هي ليلة القدر ، وعليه أكثر المفسّرين.

قوله تعالى : ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ؛﴾ انتصب ب ﴿يُفْرَقُ﴾ بمنزلة ﴿يُفْرَقُ﴾ لأن ﴿أَمْراً﴾ بمعنى فرقا ، وفيه بيان أنّ الذي يفرق في هذه الليلة لا يكون إلّا من عند الله تعالى وتدبيره ، كأنّه قال : بأمر من عندنا. قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٥) ؛ أي مرسلين محمّدا ﷺ ومن قبله من الأنبياء ، ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ؛﴾ أي رأفة منّي بخلقي ونعمة عليهم. وانتصب على أنه مفعول له على تقدير الرّحمة ، وقال الزجّاج : (تقديره : إنّا أنزلناه في ليلة مباركة للرّحمة) [4]. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ؛﴾ لما يقوله المحقّ والمبطل ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ (٦) ، بأفعال العباد.

قوله تعالى : ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ؛﴾ بالخفض على البدل من قوله ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾. وقوله تعالى ﴿وَما بَيْنَهُما﴾ يعني من الهواء والخلق. وقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُ

---

(١) القدر / ٥.

(٢) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٤٠١ ؛ قال السيوطي : (وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق محمد بن سوقة عن عكرمة) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٤٠٠٨) وذكره بمعناه.

(٣) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٤٠٠ ؛ قال السيوطي : (وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ...) وذكره.

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣٢٢.

﴿آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨) ؛ معناه : أنّ الذي دبّر السموات والأرض هو الذي دبّر بإرسال الرّسل رحمة منه ، فإن كنتم موقنين بتدبيره في السّموات والأرض ، فأيقنوا إنّما هو مثله. واليقين : ثلج الصّدر بالعلم ، ولذلك يقال : وجد برد اليقين ، ولا يجوز في صفات الله تعالى : موقن ، ويجوز : عليم وعالم.

وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ؛﴾ يعني الكفار من هذا القرآن ، ﴿يَلْعَبُونَ﴾ (٩) ؛ أي يهزأون به لاهين عنه.

وقوله تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾ (١٥) ؛ وذلك أنّ المشركين بالغوا في إيذاء النّبيّ ﷺ ويئس من إيمانهم به ودعا عليهم فقال : [اللهمّ اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف](١).

فأنزل الله تعالى هذه الآيات ، فأخذتهم السّنة حتّى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحرّقة من الجوع ، وارتفع القطر وأجدبت الأرض ، وكانوا إذا نظروا إلى السّماء رأوا دخّانا بين السّماء والأرض للظّلمة الّتي غشيت أعينهم وأبصارهم من شدّة الجوع. ويقال : يبست الأرض وانقطع الغيث.

والمعنى : فانتظر يا محمّد يوم تأتي السّماء بدخان مبين ، فجاء أبو سفيان فقال : يا محمّد جئت تأمرنا بصلة الرّحم وإنّ قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ، فقال ﷺ : [اللهمّ دعوتك فأجبتني ، وسألتك فأعطيتني ، اللهمّ اسقنا غيثا مغيثا مريّا مريعا طبقا عاجلا غير آجل نافعا غير ضارّ] ، فما برح النّبيّ ﷺ حتّى أنزل الله المطر.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح : كتاب الاستسقاء : باب دعاء النبيّ ﷺ : الحديث (١٠٠٦). ومسلم في الصحيح : كتاب المساجد ومواضع الصلاة : باب استحباب القنوت في جميع الصلوات : الحديث (٢٩٤ / ٦٧٥) وللفظ له.

وجاء النّاس يشتدّون وقالوا : الغرق الغرق ، فقرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾ فكشف الله عنهم الشّدّة ، ثمّ عادوا إلى الكفر [1]. فذلك قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى ؛﴾ وذلك يوم بدر ، ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (١٦).

وهذا التأويل إنما يستقيم على قول ابن مسعود فإنه كان يقول : (خمس قد مضين : الدّخان والرّوم والبطشة واللّزام وانشقاق القمر) [2] وكان يذهب إلى أنّ البطشة الكبرى هي التي أصابتهم يوم بدر ، وذلك أعظم من الجوع الذي أصابهم بمكّة.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد بالدّخان في هذه الآيات : الدخّان الذي ينزله الله تعالى عند قيام الساعة ، ثم يغشاهم عذاب أليم بعد ذلك ، كما روي عن مسروق أنه قال : (إذا كان يوم القيامة نزل دخّان من السّماء ، فأخذ بأسماع الكفّار والمنافقين وأبصارهم حتّى تصير رؤوسهم كالرّأس الحنيذ ، ويأخذ المؤمنين بمنزلة الزّكام) [3].

فعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى : ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى﴾ أي من أين لهم الذّكرى ، أي من أين ينفعهم إيمانهم ﴿وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ في الوقت الذي كانوا مكلّفين فيه ثمّ أعرضوا عن الإيمان به ﴿وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أي هو معلّم يعلّمه الجنّ ، ويعترضون له. وقيل : معناه : يعلّمه بشر مجنون بادّعائه النبوّة. ويكون معنى

---

(١) الحديث بألفاظ عديدة ، إلى سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن مسروق ، كما في الدار المنثور : ج ٧ ص ٤٠٦. وذكر مجيء أبي سفيان أخرجه مسلم في الصحيح : كتاب صفات المنافقين : باب الدخان : الحديث (٣٩ و ٤٠ / ٢٧٩٨).

(٢) في المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : ج ١٧ ـ ١٨ ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ؛ قال الإمام النووي : (وفسرها كلها في الكتاب إلا اللزام ، والمراد به قوله سبحانه وتعالى : ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً﴾ أي يكون عذابهم لزاما ، قالوا : وهو ما جرى عليهم يوم بدر من الأسر والقتل ، وهي البطشة الكبرى).

(٣) بهذا اللفظ لم أقف عليه ، ولعله أدرج أحاديث ابن عمر والحسن وحذيفة في حديث ابن مسعود.

قوله : ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ﴾ أي عذاب الدّنيا بعد مجيء الرسول إلى وقت الدّخان ، فمهّلهم لكي يتوبوا ، ولن يتوبوا.

والمراد بالبطشة الكبرى على هذا القول يوم القيامة ، وأما على القول الأوّل فقوله : ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى﴾ أي التذكّر والاتّعاظ ، يقول : كيف يتذكّرون ويتّعظون ، وحالهم أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر الصّدق والدلالة ، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي أعرضوا ولم يقبلوا قوله.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ﴾ يعني عذاب الجوع ﴿قَلِيلاً﴾ أي زمانا يسيرا ، قال مقاتل : (يعني يوم بدر إنّكم عائدون في كفركم وتكذيبكم) وفيه إعلام أنّهم لا يتّعظون ، وإنه إذا رفع عنهم العذاب عادوا إلى طغيانهم. قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى﴾ أي واذكر لهم ذلك اليوم ، يعني يوم بدر.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ؛﴾ أي كلّفنا قبل أهل مكّة قوم فرعون من الطاعة ما اشتدّ عليهم ، ﴿وَجاءَهُمْ ؛﴾ موسى ، ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (١٧) ، لا خلاف على الله تعالى.

وقوله تعالى : ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ ؛﴾ أي بأن أدّوا إليّ بني إسرائيل ، وهذا قول موسى ، يقول : أطلقوا بني إسرائيل من العذاب والتسخير ، فإنّهم أحرار ، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ؛﴾ من الله ، ﴿أَمِينٌ﴾ (١٨) ؛ على الرسالة ، لست بخائن ولا كذاب ولا كاتم مما أوحي إليّ ، ﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ ؛﴾ أي لا تتجبّروا عليه بترك طاعته ، ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ (١٩) ؛ بحجّة بيّنة ظاهرة تدلّ على صدقي.

فلمّا قال موسى هذه المقالة توعّدوه بالقتل بالحجارة ، فقال : ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ (٢٠) ، أي اعتصمت بخالقي وخالقكم من أن تقتلوني بالحجارة ، ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ (٢١) ؛ أي وإن لم تصدّقون فاتركوني لا معي ولا عليّ ، فلا أقلّ من أن تكفّوا شرّكم عنّي.

فأبوا أن يقبلوا منه ، ولم يؤمنوا به ، ﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ (٢٢) ؛ أي مشركون ، ولم يدع إلّا بعد أن أذن له في الدّعاء عليهم ، فدعا عليهم.

قال الله تعالى له : ﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً ؛﴾ حتى تقطع بهم البحر ، ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (٢٣) ؛ يتبعكم فرعون وقومه فيكون ذلك سببا لغرقهم ، فسار موسى بمن معه من بني إسرائيل حتى أتى بهم البحر ، فضربه بعصاه بأمر الله تعالى فانفلق ودخله أصحابه.

ثم عطف موسى ليضرب البحر بعصاه ليلتئم ويخلط الطريق التي جعلها الله لبني إسرائيل حتى لا يعبر فيها فرعون وقومه ، فقيل له : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ؛﴾ أي ساكنا منفتحا على ما هو عليه حتى يدخله فرعون وجنوده ، ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ (٢٤) ؛ في حكم الله تعالى.

قال ابن عبّاس : (معنى قوله اتركه رهوا ؛ أي اتركه طريقا) [1]. والرّهو : يكون بمعنى الفرجة بين الشّيئين ، ونظر أعرابيّ إلى فالج ؛ فقال : سبحان الله! رهو بين سنامين ، فيكون المعنى على هذا : واترك البحر ذا رهو ؛ أي ذا فرجة ، وهي الطريق التي أظهرها الله تعالى في الماء.

قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ﴾ (٢٦) أي كم ترك فرعون وقومه بعد الغرق من بساتين عامرة بليغة الأشجار ، وعيون ظاهرة عذبة فيها زرع ومساكن شريفة حسنة ، ﴿وَنَعْمَةٍ ؛﴾ أي وعيش ليّن ، ﴿كانُوا فِيها فاكِهِينَ﴾ (٢٧) ؛ أي ناعمين متعجّبين ، ﴿كَذلِكَ ؛﴾ كانت حالهم. وقيل : كذلك أفعل بمن عصاني ، ﴿وَأَوْرَثْناها ؛﴾ وأورثنا ما تركوه ، ﴿قَوْماً آخَرِينَ﴾ (٢٨) ؛ وهم بنو إسرائيل ، رجعوا بعد هلاك فرعون إلى مصر فصارت أموال قوم فرعون ونعيمهم لهم من غير كلفة ولا مشقّة ، كالميراث الذي ينقل من المورث إلى الوارث من غير مشقّة تلحق الوارث ، وهذا من غاية إنعام الله على بني إسرائيل.

قوله : ﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ؛﴾ أي ما بكت على فرعون وقومه ؛ أي كانوا أهون من أن يبكي عليهم أحد من أهل السّماء والأرض ، إنّهم كانوا في مقام الجدي.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٤٠٥٩).

قال ﷺ : [ما من مؤمن إلّا وله في السّماء بابان : باب يصعد فيه عمله ، وباب ينزل فيه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه ، وكذلك مصلّاه الّذي كان يصلّي فيه من الأرض] فذلك قوله تعالى : ﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ﴾(١). وعن مجاهد أنه قال : (إذا مات المؤمن بكت عليه الأرض أربعين يوما صباحا) (٢). وعن السديّ قال : (لما قتل الحسين رضي الله عنه بكت السّماء عليه ، وبكاؤها حمرة أطرافها) (٣).

والمعنى على هذا : لم يكن لفرعون وقومه موضع طاعة في الأرض ولا مصاعد طاعات في السّماء فتفقدهم وتبكي عليهم ، بخلاف المؤمنين. وقوله تعالى : ﴿وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (٢٩) ؛ أي لم ينظروا ولم يمهلوا حين أخذهم العذاب لتوبة ولا لغيرها.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ (٣٠) ؛ أي خلّصناهم مما كان فرعون يفعل بهم من ذبح الأبناء واستحياء النّساء واستعمالهم في الأمور الشاقّة. وقوله تعالى : ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً ؛﴾ أي متكبرا ؛ ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) ، من المتجاوزين عن الحدّ حتى ادّعى الإلهيّة.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (٣٢) ؛ أي اخترنا بني إسرائيل بكثرة الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم على عالمي زمانهم ، ﴿وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ؛﴾ من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسّلوى وغير ذلك ، ﴿ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ﴾ (٣٣) ؛ أي نعمة ظاهرة.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى ؛﴾ راجع إلى ذكر كفّار مكّة يقولون : ما الموتة نموتها في الأولى ثم لا نبعث بعدها ، ومعنى قوله : ﴿وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ (٣٥) ؛ أي بمبعوثين ، وهذا ذمّ لهم على الجهل.

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٤١١ ؛ قال السيوطي : (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٤٠٧٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٤٠٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٤٠٧٢).

وقوله تعالى : ﴿فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٣٦) ؛ أي قالوا فأحيي يا محمد آباءنا الذين ماتوا حتى نسألهم : أحقّ ما تقول أم باطل؟ وروي أنّهم كانوا يقولون : إن كان ما تقوله فأت بقصيّ بن كلاب ليخبرنا عنك ، فإنه كان صدوقا فيما بيننا.

قوله تعالى : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٣٧) ؛ خوّفهم الله تعالى مثل عذاب الأمم الخالية ، فقال : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ أي ليسوا خيرا منهم ، يعني أقوى وأشدّ وأكثر ، والمعنى أهم خير في القدرة والقوّة والمال ، أم قوم ملك اليمن ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

وخصّ ملك اليمن بالذّكر لأنه كان أقرب إلى زمانهم. وتبّع اسم لكلّ من كان من ملوك اليمن ، كما أنّ فرعون اسم ملك مصر ، وقيصر اسم ملك الروم ، وكسرى اسم ملك العجم. وإنما سمّي ملك اليمن بهذا الاسم لكثرة تبعه.

وجاء في التفسير : أنّ ملك اليمن الذي كان أقرب إلى زمانهم كان مؤمنا ، وكان اسمه أسعد بن ملكي كرب ، وكان قومه كفّارا. وروي عن عائشة أنّها قالت : (كان تبّع رجلا صالحا ، ألا ترى أنّ الله تعالى ذمّ قومه ولم يذمّه) [(١)]. وروي : (أنّه وجد مكتوبا على قبرين بناحية حمير : هذان قبرا رضوى وحصيا ابني تبّع ماتا لا يشركان بالله شيئا) [(٢)].

قوله تعالى : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ (٣٨) ؛ أي لم نخلقهما عابثين ، ﴿ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ ؛﴾ أي للحقّ ؛ أي للثواب على

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٤١٥ ؛ عزاه للحاكم وقال : وصححه. وأخرجه الحاكم في المستدرك : كتاب التفسير : الحديث (٣٧٣٣) ، وقال : (هذا حديث على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٦ ص ١٤٥ ؛ قال القرطبي : (وذكر الزجاج وابن أبي الدنيا والزمخشري وغيرهم : أنه حفر قبر له بصنعاء ـ ويقال : بناحية حمير ـ في الاسلام ، فوجد فيهما امرأتان صحيحتان ، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : (هذا قبر حبّى ولميس) ويروى أيضا : (حبّى وتماضر) ويروى أيضا : (هذا قبر رضوى وقبر حبّى ابنتا تبّع) ...). وذكره الزجاج في معاني القرآن : ج ٤ ص ٣٢٥. والزمخشري في الكشاف : ج ٤ ص ٢٧٢.

الطاعة والعقاب على المعصية ، ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ أكثر المشركين ، ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩).

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) ؛ معناه : إنّ يوم الفصل بين الخلائق ميعادهم أجمعين ، يوافي يوم القيامة الأوّلون والآخرون.

ثم نعت ذلك اليوم فقال تعالى : ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً ﴾ أي يوم لا ينفع فيه صديق صديقا ولا قريب قريبا ، ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٤١) ؛ أي ولا يمنعون من عذاب الله ، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ ﴾ وهم المؤمنون ، فإنه يشفع بعضهم لبعض ، قال رسول الله ﷺ : [وإنّ الرّجل من أمّتي ليشفع لأكثر من ربيعة ومضر][(١)]. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ في انتقامه من أعدائه ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ (٤٢) ؛ بالمؤمنين.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعامُ الْأَثِيمِ﴾ (٤٤) ؛ قد تقدّم تفسير شجرة الزقّوم ، والأثيم ذو الإثم وهو أبو جهل ، قال أهل اللغة : الأثيم كثير الإثم ، وعن ابن مسعود : (أنّه كان يلقّن رجلا : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ﴾ فكان الرّجل يقول : طعام اليتيم! فقال له : قل : طعام الفاجر) [(٢)]. ﴿كَالْمُهْلِ ﴾ درديّ الزيت [(٣)] وعكر القطران ، وهو أسود غليظ. وقيل : المهل كلّ ما يمهل في النار من نحاس أو فضّة أو غير ذلك حتى يذوب وينماع يشتدّ حرّه.

وقوله تعالى : ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (٤٥) ؛ أي في بطون الكفّار ، وقرئ ﴿يَغْلِي﴾ بالياء يعني الطعام ، واختاره أبو عبيد [(٤)] ؛ لأن المهل مذكّر ، وقرئ بالتاء يعني

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى : ج ٧ ص ٦٧ : ترجمة الحارث بن أقيش. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير : الحديث (٣٣٦١). والحاكم في المستدرك : كتاب الإيمان : الحديث (٢٤٧) ، وقال : (الحارث بن أقيش مخرج حديثه في مسانيد الأئمة).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٦ ص ١٤٩ ؛ قال القرطبي : (قال أبو بكر الأنباري : وذكر إسناده عن ابن مسعود).

(٣) ال (درديّ) الزيت وغيره : ما يبقى في أسفله. ينظر : مختار الصحاح : (درد) : ص ٢٠٢.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن : ج ٤ ص ٨٩.

الشّجرة ، قال أبو علي الفارسي : (لا يجوز أن يحمل الغلي على المهل ؛ لأنّ المهل إنّما ذكر للتّشبيه به في الذوب ، ألا ترى أنّ المهل لا يغلي في البطون إنّما يغلي ما شبه به) [١].

قوله تعالى : ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٦) ؛ يعني الماء الحارّ إذا اشتدّ غليانه. وقوله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ (٤٧) ؛ يقال للزّبانية : ﴿خُذُوهُ﴾ يعني الآثم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي قودوه بالعنق دفعا وسحبا إلى وسط الجحيم ، يقال : عتله يعتله ، ويعتله إذا جرّه وذهب به إلى مكروه ، وقال مجاهد : (فادفعوه على وجهه إلى وسط الجحيم) [٢]. وقيل للوسط : سواء لاستواء المسافة بينهما وبين أطرافه المحيطة به.

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٨) ؛ قال مقاتل [٣] : (إنّ خازن النّار يضربه على رأسه «بمقمعة من حديد» فينقب رأسه عن دماغه ، ثمّ يصبّ فيه ماء حميما قد انتهى حرّه ، ويقول له) : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩).

وذلك أنّ أبا جهل قال للنّبيّ ﷺ : بأيّ شيء تهدّدني! فو الله ما تستطيع أنت ولا ربّك «أن» تفعلا [٤] بي شيئا ، وإنّي لمن أعزّ أهل هذا الوادي وأكرمهم! فيقول له الملك : ذق العذاب أيّها المتعزّز المتكرّم في زعمك كما كنت تقوله [٥]. وقرأ الكسائيّ (أنّك) بالفتح على تقدير : ذق بأنّك أو لأنّك أنت العزيز الكريم ، أو بهذا القول الذي قلته في الدّنيا) [٦].

---

(١) ذكره بمعناه أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة : ج ٤ ص ٣٨٧.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٤١٠٤) عن مجاهد ، والأثر (٢٤١٠٥) عن قتادة ، وجمع بين اللفظين الإمام الطبراني في نص واحد.

(٣) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٢٠٨.

(٤) (أن) سقطت من المخطوط.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن : ج ٣ ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٦) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣٢٦ ؛ وقال : (الناس كلهم على كسر (إِنَّكَ) إلا الكسائي وحده ، فإنه قرأ : ذق أنك أنت)

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (٥٠) ؛ أي يقول لهم الخازن : إنّ هذا العذاب الذي كنتم به تشكّون في الدّنيا أو تكذبون به.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٢) الأمين هو المقام الذي أمنوا فيه الغير من الموت والحوادث ، والمقام هو المجلس ، وقرئ (مقام) بضمّ الميم ، يريد موضع الإقامة ، ومعنى القراءتين واحد.

وقوله : ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ؛﴾ السّندس ما لطف من الدّيباج ، والاستبرق ما غلظ منه مع دقّة السّلك ، وهما نوعان من الحرير. وقوله تعالى : ﴿مُتَقابِلِينَ﴾ (٥٣) ؛ أي يقابل بعضهم بعضا في المجالس بالتحيّة والمحبّة.

قوله تعالى : ﴿كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥٤) ؛ أي كذلك حالهم في الجنّة ، وقرنّاهم بحور عين ، والحور : الشّديدة بياض العين ، الشديدة سوادها ، البيضاء البشرة والعين ، جمع العيناء ، واسعة العين الحسنة ، قال مجاهد : (الحور : هنّ اللّواتي يحار الطّرف فيهنّ ، يرى مخّ سوقهنّ من وراء ثيابهنّ ، يرى النّاظر وجهه في صدر إحداهنّ كالمرآة من رقّة الجلد وصفاء اللّون) [(١)].

قوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (٥٥) ؛ فيه بيان أنّ بساتين الجنّة تشتمل على كلّ الفواكه في كلّ وقت من الأوقات بخلاف بساتين الدّنيا ، وقوله تعالى : ﴿آمِنِينَ﴾ من الانقطاع والنّقصان ، وآمنين مما يخاف من الفواكه من التّخم والأمراض والأسقام.

قوله تعالى : ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى ؛﴾ أي لا يموتون سوى الموتة التي ذاقوها في الدّنيا ، ﴿وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ (٥٦) ؛ أي ودفع عنهم ربّهم عذاب النار مع ما أعطاهم من النعيم المقيم. وقوله تعالى : ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٥٧) ؛ أي فعل الله ذلك بالمتّقين تفضّلا منه عليهم. وسمي الثواب ﴿فَضْلاً﴾ لأنّ الله تعالى لم يكلّفهم لحاجته ، ولكن ليصلوا إلى ذلك الثواب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٤١١١).

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ﴾ أي أنزلنا القرآن بلغتك ولغة قومك ليسهل عليهم ، و ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) ؛ يتّعظون فيؤمنوا به ، ولو لا تيسير الله حفظهما ما قدر أحد على حفظه لعظم أمره وجلال قدره.

قوله تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ (٥٩) ؛ أي انتظر بالكفّار ما وعدناهم من العذاب إنّهم منتظرون هلاكك.

قال رسول الله ﷺ : [من قرأ سورة الدّخان في ليلة الجمعة إيمانا واحتسابا وتصديقا بها ، أصبح مغفورا له ، وإن قرأها في سائر اللّيالي كانت له نورا يوم القيامة](١).

**آخر تفسير سورة (الدخان) والحمد لله رب العالمين.**

---

(١) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٣٩٨ ؛ قال السيوطي : (أخرجه الدارمي عن عبد الله بن عيسى : (أخبرت أنه من قرأ ...) وذكره.

## سورة الجاثية

سورة الجاثية مكّيّة ، وهي ألفان ومائة وواحد وسبعون حرفا ، وأربعمائة وثمان وثمانون كلمة ، وسبع وثلاثون آية [1]. قال ﷺ : [من قرأها ستر الله عورته ، وسكّن روعته عند الحساب][2].

### بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٢) ؛ ﴿حم﴾ مبتدأ وخبره ﴿تَنْزِيلُ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) أي لدلالات على الحقّ تدلّ بخلقها على أنّ لها خالقا قديما لا أوّل له ، ويدلّ تعظيمها وبقاؤها من غير علاقة فوقها ولا عماد تحتها على قادر لا يعجزه شيء. وقوله تعالى ﴿لَآياتٍ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه اسم ﴿إِنَّ﴾ ، كما يقال : إنّ في الدار لزيدا.

قوله تعالى : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ ؛﴾ أي وفي خلقكم حالا بعد حال من نطفة إلى أن يصير إنسانا ثم يصير فيه العقل ثم الحواسّ ، وما يبثّ من دابّة على وجه الأرض على اختلاف أجناس الدواب ومنافعها وصورها ، وما يقصر من منافعها في ذلك دلالات واضحة على وحدانيّة الله تعالى ، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٤) ؛ يطلبون علم اليقين ، ويوقنون أنّه لا إله غيره.

وقرأ حمزة (آيات) ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾ بالكسر على أنّهما منصوبان نسقا على قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ على معنى وإنّ في خلقكم آيات ، ومن رفع

---

(١) في المخطوط : (تسع وتسعون آية).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف : ج ٤ ص ٢٨٦. وأخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

فعلى الاستئناف بعد أن ، تقول العرب : إنّ لي عليكم مالا وعلى أخيك مال ، ينصبون الثاني ويرفعونه [١].

قوله تعالى : ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ؛﴾ أي وفي ذهابهما ومجيئهما ، وما يحدث في كلّ واحد منهما من الزيادة والنّقصان من غير أن يكونا جميعا أزيد من أربع وعشرين ساعة ، ﴿وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾ ، وفيما أنزل الله من السّماء من المطر فأحيا به الأرض بعد يبسها ، وفي تقلّب الرياح شمالا وجنوبا وقبولا ودبورا وعذابا ورحمة ، ﴿آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٥) ؛ الدلالة ويتدبّرونها.

قوله تعالى : ﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ؛﴾ أي تلك التي سبق ذكرها دلائل الله لعباده يتلوها عليك جبريل بأمرنا بقصصنا عليك بالحقّ ، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ﴾ ، كتاب ، ﴿اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) ؛ إن لم يؤمنوا بهذا القرآن. ومن قرأ بالتاء فعلى تأويل : قل لهم يا محمّد : فبأيّ حديث تؤمنون.

قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ (٨) ؛ يعني النضر بن الحارث ، كان يروي من أحاديث العجم للمشركين فيستملحون حديثه ، وكان إذا سمع آيات القرآن استهزأ بها ، فجعل الله له العذاب مرّتين ، مرّة أليما ومرّة مهينا ، وقد ذكرنا تفسير الآية في سورة لقمان.

ومعنى الآية : ويل لكلّ كذاب فاجر كثير الإثم ، يسمع القرآن يقرأ عليه ولا يتدبّره ، ولا يخشع لاستماعه ، بل يقيم على كفره متعظّما عن الإيمان بالله ، كأن لم يسمع آيات الله ، فخوّفه يا محمّد بعذاب وجيع يخلص وجعه إليه.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً ؛﴾ أي إذا سمع من آيات القرآن شيئا اتّخذها هزوا ، ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ (٩).

---

(١) ينظر : الحجة للقراء السبعة : ج ٣ ص ٣٩٠.

قوله تعالى : ﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ ؛﴾ أي لهم من بعد موتهم جهنّم ، ﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً ؛﴾ ولا ينفعهم ما كسبوا من الأموال والأولاد شيئا ، ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ ؛﴾ أربابا في دفع شيء من عذاب الله ، ﴿وَلَهُمْ ؛﴾ في الآخرة ؛ ﴿عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠) ؛ كلّ ذلك للنّضر بن الحارث وأمثاله.

وقوله : ﴿هذا هُدىً ؛﴾ أي هذا القرآن بيان للحقّ من الباطل في كلّ ما يحتاج إليه من أمر الدّين والدّنيا ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ ؛﴾ الله أي جحدوا دلائل الله ، ﴿لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (١١) ؛ أي عذاب من عذاب وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم ، وقرئ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع على نعت العذاب ، وبالكسر على نعت الرّجز.

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ؛﴾ أي هو الّذي ذلّل لكم البحر بتسهيل السبيل إلى سلوكها باتّخاذ السّفن وإصلاحها ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ، وباقي الآية قد تقدّم تفسيرها.

قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ﴾ ؛ من شمس وقمر ونجوم ومطر وثلج وبرد ، ﴿وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ من دابّة وشجر ونبات وثمار وأنهار ، ومعنى سخّره لنا : هو أنّه خلقها لانتفاعنا بها على الوجه الذي يريده. قوله تعالى : ﴿جَمِيعاً مِنْهُ﴾ ؛ أي الكلّ رحمة منه وبفضله ومنّه ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣) ؛ في صنع الله وإحسانه ، فيوحّدونه.

قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ؛﴾ نزلت في عمر رضي الله عنه : شتمه رجل من بني غفار بمكّة ، فهمّ أن يبطش به ، فأمره الله بالعفو والتّجاوز [١]. والمعنى : قل للّذين آمنوا اغفروا ، ولكنه شبّهه بالشرط والجزاء كقوله تعالى : ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[٢].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير : ج ٣ ص ٢١٢.

(٢) إبراهيم / ٣١.

وقوله : ﴿لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ أي لا يخافون عذاب الله من إيذائكم ، فتجاوزوا عنهم ليوفّيهم الله عقاب سيّئاتهم بما عملوا. ويجوز أن يكون المعنى : تجاوزوا عن الذين لا يرجون ثواب الله للمؤمنين ، ﴿لِيَجْزِيَ﴾ ؛ الله ، ﴿قَوْماً﴾ ، المؤمنين يوم الجزاء ، ﴿بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) ؛ بما كانوا يعملون من الخيرات.

وقيل : إن الآية نزلت في أصحاب النبيّ ﷺ ، كانوا في أذى شديد من أهل مكّة قبل أن يؤمروا بقتالهم ، فأمر الله المؤمنين بترك مكافأتهم ، ثم نسخت بقوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[١].

وقال الحسن : (لم تنسخ هذه الآية ، وهي على الاستحباب في العفو ما لم يؤدّوا إلى الإخلال بحقّ الله أو إلى إذلال الدّين). ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ ؛﴾ يعني التوراة والإنجيل ، ﴿وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ؛﴾ أي الفهم في الكتاب وفصل الأمر ، وجعلنا فيهم الأنبياء والرّسل ، ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ؛﴾ أي من الحلال ومن لذيذ الأطعمة كالمنّ والسّلوى وغيرهما ، ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (١٦) ؛ أي على عالمي زمانهم بكثرة النبيّين فيهم ، وفضّل الله أمّة نبيّنا محمد ﷺ بكثرة العلماء فيهم ، والقائمين بالحقّ منهم كما قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ ؛ يعني العلم بمبعث النّبيّ محمّد ﷺ ، وما بيّن لهم من الأمر ، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧) ؛ الآية قد تقدّم تفسيرها.

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها﴾ ؛ أي ثم أكرمناك يا محمّد بعد اختلافهم فجعلناك على طريقة مستقرّة من الدّين ، فاستقم

---

(١) الحج / ٣٩. أخرجه الطبري في جامع البيان : الأثر (٢٤١٢٠) عن مجاهد ، و (٢٤١٢١) عن قتادة.

(٢) آل عمران / ١١٠.

عليها وادع الخلق إليها ، ولا تعمل بأهواء الذين يخالفونك في أمر الدّين والقبلة ، وهو قوله تعالى : ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) ، توحيد الله ؛ قيل : يعني كفّار قريش.

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ ؛ أي لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئا إن اتّبعت أهواءهم ، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ ، يعني المشركين أنصار بعضهم بعضا ، ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩) ؛ أي ناصر المؤمنين المتّقين الشرك وهم أمة محمّد ﷺ.

قوله تعالى : ﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ﴾ ؛ أي هذا القرآن عظات للناس وعبرة وبيان لهم من الضّلالة ونجاة من العذاب ، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢٠) ؛ أنه من الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ؛﴾ قيل : إنّ هذه الآية نزلت في ثلاث نفر من المشركين ؛ وهم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، بارزوا عليّا وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم يوم بدر ، كانوا يقولون لهم : لئن كان محمّد حقّا في الآخرة لتفضّل عليكم في الآخرة كما فضّلنا عليكم في الدّنيا [1].

ومعنى الآية : أحسب الذين ﴿اجْتَرَحُوا﴾ اكتسبوا ﴿السَّيِّئاتِ﴾ المعاصي ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمّد ﷺ والقرآن ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ من الصّلاة والزكاة.

وتمّ الكلام ، ثم قال : ﴿سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ﴾ ، ارتفع (سواء) على أنه خبر مبتدأ مقدّم ، تقديره : محياهم ومماتهم سواء ، والضمير فيهما يعود إلى القبيلتين المؤمنين والكافرين ، يقول المؤمن مؤمن في محياه ومؤمن في مماته ، والكافر كافر في حياته ومماته. والمعنى : إنّ المؤمن يموت على إيمانه ويبعث عليه ، والكافر يموت على كفره ويبعث عليه ، يريد محيا القبيلتين ومماتهم سواء.

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ج ١٦ ص ١٦٥.

ومن قرأ ﴿سَواءً﴾ بالنصب جعله مفعولا ثانيا ، فجعله على تقدير : فجعل محياهم ومماتهم سواء ، يعني أحسبوا أنّ حياتهم وموتهم كحياة المؤمنين وموتهم ؛ كلّا ، وقوله تعالى : ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ (٢١) ؛ أي بئس ما يقضون حين يرون أنّ لهم في الآخرة ما للمؤمنين ، ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢).

قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ ؛﴾ وذلك أنّ أهل مكّة كانوا يعبدون الحجر والخشب ، فإذا رأوا ما هو أحسن منه ، رموا بالأوّل وعبدوا الثاني ، فهم يعبدون ما تهواه أنفسهم ، قال قتادة : (هو الكافر لا يهوى ما شاء إلّا ركبه ، يبنون العبادة على الهوى لا على الحجّة ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ)﴾. قال الحسن : (اتّخذ إلهه هواه لا يعرف إلهه بعقله وإنّما يعرفه بهواه).

وقوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ ؛﴾ أي خذله على ما سبق في عمله أنه ضالّ قبل أن يخلقه ، ﴿وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ ؛﴾ فلم يسمع الهدى ؛ وعلى ﴿وَقَلْبِهِ ؛﴾ فلم يعقل الهدى ، ﴿وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً ؛﴾ أي ظلمة فهو لا يبصر الهدى به. قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؛﴾ أي من يهديه من بعد إضلال الله له ، ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣) ؛ فتعرفوا قدرته على ما يشاء.

قوله تعالى : ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ؛﴾ أي نموت نحن ويحيي آخرون ممّن يأتون بعدنا ، وقال الزجّاج : (معناه نحيي ونميت ، والواو للاجتماع) [١] والقائلون بهذا زنادقة قريش.

قوله تعالى : ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ؛﴾ أي إلّا طول العمر واختلاف الليل والنهار ، ﴿وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ؛﴾ أي لم يقولوه على علم علموه ، بل قالوا ضلّالا شاكّين.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه : ج ٤ ص ٣٣٠.

قوله تعالى : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) ؛ وكان هذا القول من زنادقتهم الذين كانوا ينكرون الصانع الحكيم ، ويزعمون أنّ الزمان ومضيّ الأوقات هو الذي يحدث هذه الحوادث ، يموت قوم ويحيا قوم.

قوله تعالى : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧) ؛ فيه بيان أنّهم كانوا يتعلّقون بالحجج الباطلة ، ولو تأمّلوا لعلموا أنّ دلائل معجزات النبيّ ﷺ أوكد مما كانوا يطلبون.

قوله تعالى : ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ؛﴾ أي وترى أهل كلّ دين باركة على الرّكب متهيّئة للحساب والجزاء ، مترقبة لما يصنع بها ، كما ينحني بين يدي الحاكم ينتظر القضاء ، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا ؛﴾ أي إلى صحائف أعمالها ، يقال لهم : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) ؛ في دار الدّنيا من الخير والشرّ.

قوله تعالى : ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٩) ؛ يعني كتاب الحفظ يقرؤونه فيدلّهم على ما عملوا ، فكأنّه ينطق كما يقال : نطق الكتاب بتحريم الخمر ، وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل ، فيه حسناتهم وسيّئاتهم ، وقوله تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ أي نأمر الملائكة بنسخ ما عملتم وتبيينه بيانا شافيا وتثبيته عليكم.

وما بعدها هذا ظاهر المعنى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ (٣١).

قوله تعالى : ﴿وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ؛﴾ لبعث ، ﴿وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها ؛﴾ أي القيامة كائنة من غير شكّ ، ﴿قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ؛﴾ أنكرتموهم وأظهرتم الشكّ فقلتم : ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (٣٢) ؛ ومن قرأ (والسّاعة) بالنصب فهو عطف على ﴿وَعْدَ وَبَدا لَهُمْ ؛﴾ في الآخرة ، ﴿سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ (٣٣) ؛ في الدّنيا ؛ أي ظهر لهم قبائح أعمالهم حين عاينوا ذلك في كتابهم الذي أحصى عليهم كلّ قليل وكثير.

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ (٣٤) ؛ أي نتركم في النار ، ونترك مراعاتكم وحفظكم ، ولا نحفظكم من العذاب كما لم تحفظوا حقّ الله ، وتركتم الإيمان والعمل بلقاء هذا اليوم. والنسيان ضدّ الحفظ ، وقد يكون للتّرك.

قوله تعالى : ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً ؛﴾ أي ذلك العذاب عليكم بسبب أنّكم اتّخذتم كتاب الله ورسوله استهزاء ، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ ؛ حتى قلتم لا بعث ولا حساب ، ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٣٥) أي لا يطلب رضاهم ، ولا يقالون ؛ لأنه لا يقبل في ذلك اليوم استقالة [(١)] وقد انقطعت المعاينة فلا يجابون ، ولا يقبل لهم في «ذلك» اليوم عذر ولا توبة.

قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٣٦) ؛ أي لله الشّكر على عظيم نعمائه على الخلائق كلّهم ، ﴿وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؛﴾ وهو المختصّ بالكبرياء في السّموات والأرض ، وله العظمة والجبروت فيهما ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ ؛﴾ في ملكه وسلطانه ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ (٣٧) ؛ في قضائه وأمره [(٢)] له وحده في أعلى مراتب التّعظيم لأنه سبحانه لا يجوز عليه صفة النقص ، قال رسول الله ﷺ : [يقول الله : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، من نازعني واحدة منها ألقيته في جهنّم][(٣)].

**آخر تفسير سورة (الجاثية) والحمد لله رب العالمين.**

**آخر المجلد الخامس**

**من التفسير الكبير للإمام الطبراني**

---

(١) في المخطوط : (أن ذلك استقالوا).

(٢) أدرج الناسخ عبارة : «قاله رسول الله ﷺ» في المتن ، وهو غير مناسب.

(٣) في الدر المنثور : ج ٧ ص ٤٣٢ ؛ قال السيوطي : (أخرجه ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه) وذكره.

# فهرس المجلد الخامس


## سورة النمل

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٥٤ | ٥ |
| ٥٥ - ٩٣ | ٣٣ |

## سورة القصص

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٤٤ | ٤٩ |
| ٤٥ - ٨٨ | ٦٩ |

## سورة العنكبوت

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٦٩ | ٨٨ |

## سورة الروم

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٦٠ | ١١٣ |

## سورة لقمان

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٣٤ | ١٣١ |

## سورة الجرز

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٣٠ | ١٤٩ |

## سورة الأحزاب

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٣٠ | ١٦١ |
| ٣١ - ٧٣ | ١٩١ |

سورة سبأ

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٥٤ | ٢٢٤ |

سورة الملائكة

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٤٥ | ٢٥٢ |

سورة يس

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٨٣ | ٢٧١ |

سورة الصافات

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٩٠ | ٢٩٥ |
| ٩١ - ١٨٢ | ٣١١ |

سورة ص

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٨٨ | ٣٢٩ |

سورة الزمر

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٧٥ | ٣٦١ |

سورة المؤمن

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٨٥ | ٣٩٠ |

سورة السجدة

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٥٤ | ٤١٨ |

سورة الشورى

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٥٣ | ٤٤٠ |

سورة الزخرف

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٨٩ | ٤٦٠ |

سورة الدخان

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٥٩ | ٤٨٥ |

سورة الجاثية

| الآيات | الصفحة |
| --- | --- |
| ١ - ٣٧ | ٤٩٧ |